تاريخ نجد

ودعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب "السلفية"

تأليف

عبد الله فيلبي

تعريب

عمر الديراوي





تاريخ نجد

ودعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب

(السلفية)

تأليف
سنت جون فيلبي

تعريب
عمر الديراوي



منشورات المكتبة الأهلية - بيروت

الفصل الاول

امارة الدرعية



لم يكن قد مضى على وفاة تيمورلنك إلا اقل مـــن نصف قرن ، وكان لا يزال مقدّراً للعرب أن يبقوا في اسبانيا نصف قرن آخر ، وقبـــل ان يكتشف كولومبس اميركا بنصف قرن ايضاً ـ حين توجه سنة ١٤٤٦ مواطنٌ من عامة اهل القطيف، ومن ضاحية هناك تسمى الدرعية لبزور ابن عمه، ابن درع الذي كان قد استقر منذ زمن بعيد في منفوحة. وهي قرية بقرب الرياض في اواسط الجزيرة العربية. وكان ابن عمه هذا زعيم عشيرة الدروع الذين كانوا يقطنون في القرى المهجورة من جزْع و حجر اليامة في الوقت الحاضر. وكان رجلاً موسراً ذا ممتلكات واسعة تحتاج الى عنايه وتطوير. فأقطع ضيفه قطعتين من الارض تبعدان اثني عشر ميلاً في اعالي الوادي عن أراضيه ، احداهما تدعى الغَصيبة والثانية المُلَيْبِد. وعلى هذه الصورة البسيطة بدأت هجرة الدروع الى ذلك الوادي واستقرارهم فيــه. ثم تقادم العهد حتى صار يعرف باسم الدرعية تخليداً لذكرى القرية الأم التي نشأ فيها اجداد سكانه ، قرب الخليج الفارسي (العربي).

ولا يمكن الجزم ، بشخصية مَـــن أغدقت عليه هذه الاملاك ، أهو مانـــع

المريدي نفسُه ، وهو الذي ابتدر الاتصال مع ذلك الغريب على التحقيق ، ام انه أباه ربيعة . وعلى كل حال فقد كان ربيعة هو الذي وضع أساسات تنمية رقعة ذلك المهجر وتوسيعة العدواني على حساب جيرانه. الا ان الفضل يعود الى مانع وابنه ربيعة في كونهما أسبق الاسلاف المعروفين للبيت السعودي . وهــو البيت الذي سيطر على مسرح السياسة في الجزيرة العربيــة طوال المائتي سنة الاخيرة . وما سعود الذي منح اسمه للبيت السعودي بعــد ان أسّسه،الا الحفيد الخامس في سلسلة احفاده . اما ملك المملكة العربية السعودية الحالي فهو سليله مــن الصلب للجيل الخامس عشر . هذا في حين ان البيت الذي انشأه ذلك الرجل يبــدو مضمون البقاء الى الأبد ، فمجرد بلوغه الجيل السابع عشر ناسلاً مثل هذا العدد الكبير من الافراد يضمن له دوام الحياة الى عصور لا نحلم برؤيتها .

ولا يذكر تاريخ شبه جزيرة العرب سبباً معيناً جعل وادي حنيفة يجــذب اهتماماً عظيما من اكثر من ناحيــة في اواسط القرن الخامس عشر .

ففي اواسط ذلك القرن حظي وادي حنيفة بالاهتمام العظيم في تاريــخ الجزيرة . وكان سكان ذلك الوادي في تلك الاثناء ، يملكون واديهم كاملاً من مر الحيسيّه حتى الخرْج؛وهم فرع من قبائل آل يزيد الحنيفيين . ومن المفروض انهم تنازلوا عــن املاكهم الى ابن درع الآنف الذكر قبل زيارة مانع بمــدة قصيرة . كما انهم في عام١٤٤٦ ذاته باعوا اراضي العُيَيْنة الواسعة الى حَسن بن طوق من بني ملحم . وهو جدّ آل مُعمّر ، امراء تلك الناحية الذين ظل نجمهم في صعود في أواسط الجزيرة العربية حتى غاب عن العيون حين طلع بدر السعوديين فانتشر نوره .

كان كل ما تبقى الآن لآل يزيد من ممتلكاتهم في وادي حنيفة، عبارةً عن جزء من الوادي يمتدمن شمالي الغَصيبة حتى ارض «جبيلة» والقرية المعروفة بذلك الاسم فيشملها . وكانت مناطق سكناهم الرئيسية قريتي الوصيل ، والنعْميّة . الا انه لم يقدّر لهم ان يبقوا فيها طويلاً ، فقد طمع ربيعة بكرومهم فابتدأهم بالعدوان .

ثم جاء بعده ابنه موسى فاخضعهم . وكان هذا قد عزل والده واغتصب منه الزعامة ، ثم حاول قتله فلم ينجح في ذلك . وحينئذ فر الوالد المثخن بالجراح الى العُيينة ، حيث استقبله حمد بن حسن بن طوق استقبالا رائعاً واكرم وفادته . أما عشيرة آل يزيد فقد ولّت الادبار امام هجوم موسى، مخلفةً وراءها ثمانين قتيلاً . ومنذ ذلك الزمن لم يرد لهم ذكر في تاريخ وادي حنيفة . الا ان عائلة دغيثر التي تقطن الدرعية تدّعي انها تحدرت منهم .

وهكذا لم ينقضِ جيلان ، حتى غدا النازحون الذين جاءوا من القطيف سادة في هذه المنطقة التي آوتهم . وكانوا يمتازون بمواهب بناءة، اذا آثرنا ان لا نستعمل كلمة ميول عدوانية ، بالنظر الى ان الاساليب العنيفة الصارمة التي كانوا يستعملونها كانت شيئاً عادياً مألوفاً في الجزيرة آنذاك .

وفي بداية القرن السادس عشر،اي عندما خلف ابراهيم اباه موسى، كانت قد تمت سيادة هذه الاسرة على الوادي الى الجنوب من جبيلة . وكانت جبيلة وجميع الاراضي الواقعة شمالها بما في ذلك هضبة طُويق ، تدخل ضمن حدود امارة بني حسن بن طوق واميرهم في ذلك الوقت معمر بن حمَد مؤسس اسرة عُيينة. نقول هذا وان كان انمحاء الجزء المتعلق بهذه الناحية من مخطوط تاريخ ابن بشر المعروف، يجعلنا على غير يقين من ذلك. وكانت هذه «الدويلات» الاكبر قليلاً من الامارات المحلية ، تمتد موازية للامارة الخاضعة لأجود بن زامل الجبري ، على طول ساحل الخليج الفارسي في مقاطعة الاحساء.وفيما عدا الامارات السالفة يبدو انه لم يكن هنالك كيانات سياسية منظمة بالمعنى الصحيح في الصحراء العربية،بالرغم من وجود عدد من الممالك المدينية المستقلة استقلالا كاملا الى جانب هذه التجمعات الكبيرة الطُموح.ومن هذا القبيل كانت حرْمَة والمجمعة اللتان يرجع تاريخ انشائهما الى سنة ١٣٦٨ م و ١٤٢٦ م على التوالي . هذا بينما كانت الرياض ومنفوحة واليمامة تشكل عنصراً هاماً في كيان الجزيرة السياسي في تلك الحقبة من التاريخ . وكذلك كانت جاليات السُدير والقصيم وجبل شمر . ونحن وان كنا لا نعرف الكثير عن تاريخها في الفترة التي ندرسها الا انا نجد تاريخ ملحمة الدرعية يأتي على

ذكرها بشكل عابر على نحو ما جاء في ملحمة هوميروس .

واذا ماعدنا الى مايهمنا من مجرى التاريخ ، طالعنا ابراهيم بن موسى يوطد حكمه في امارته الصغيرة ثم يأخذ في التطلع الى التوسع فيما وراء حدودها العتيقة . لقد كان مطمئناً الى عدم وجود قوة خارجية تهدده ، وهكذارحل ابنه عبدالرحمن الى ضرمه، حيث اسس هناك بلداً قدّر لها ان تلعب دوراً هاماً في تاريخ البلاد فيما بعد . وذلك لما اشتهر به ابناؤها من شجاعة وحب شديد في الاستقلال . فقد كان هوجد عشيرة « آل ابو يحيى » التي استوطنت موقع « ابا الكباش » الى شمال الدرعية . وهي اليوم عبارة عن خرائب تتألف من جدران وابراج متداعية كانت لحصن قديم .

اما عبد الله ، الابن الثالث لابراهيم فقد كان جد « آل واطب» وحامولات اخرى ليست ذات شأن في هذه الايام . ويبقى مرخان الابن الرابع لابراهيم وهو يستحق الذكر والصدارة . ولم لا ،وهو مؤسس البيت السعودي المعاصر ، عن طريق حفيده محمد بن مقرن والد سعود الاول .

ويبدو ان هجرة عبد الرحمن ، اكبر ابناء ابراهيم الاربعة الى ضرمه كانت مشروطة بتنازله عن حقوقه في الدرعية . وكذلك كانت هجرة سيف الى ابي الكباش مع ان الاخيرة لاتبعد عن العاصمة كثيراً . وقد تولد من ذلك ثأر بين هذين الفرعين اللذين لم يعمّرا لاكثر من الجيل الثالث، بعد سيف وعبد الرحمن. فقد قتل احفادُ سيفٍ ابنَ عمومتهم ابراهيم حفيد عبد الرحمن، فاختاروا النزوح تفادياً للانتقام منهم . ونحن لانعرف عن عبد الله اكثر من ان سلالته لا زالت مغمورة حتى الآن . إذ تقلد مرخان مشيخة العائلة بعد وفاة والدهم . ثم خلفه بكره ربيعة الذي اشير اليه باسم امير الدرعية ، عندما ورد حجه مع اخيه « مقرن » الى مكة سنة ١٦٣٠م . وقد صدف انه حدث طوفان في مكة المكرمة في الثاني عشر من نيسان من ذلك العام فدمر الكعبة ، مما اضطر الناس الى هدم ما تبقى منها ثم اعادة بنائها. وقد استغرق العمل فيها زهاء السبع سنوات فتم الاحتفال بانجاز بنائها في ايار سنة ١٦٣٦ م . وكان ذلك الطوفان ايام ولاية الشريف سعود ابن ادريس بن حسين بن ابي نعمي .

وما دمنا سنتطرق الى بحث الترّخص الديني والارتداد الى ممارسة العادات الذميمة في الجاهلية اللذين كانا يسودان الجزيرة العربية ايام مطلع الوهابية في اواسط القرن القرن الثامن عشر ، فانه يجدر بنا ان نتذكر شدة تمسّك سكان الجزيرة العربية بالطقوس والمراسيم الدينية خلال القرون التي سبقت . ففي سنة ١٥٠٦ مثلا ، قامت قافلة يقدّر عددها بثلاثين الفاً من الحجاج من الاحساء الى مكة تحت إمرة اجود بن زامل امير الاحساء . وقبل ذلك بمائتي عام تقريباً ، أي في سنة ١٣٣٧ ، كان قد توفي « ابن تيمية » باعث الدعوة الاكبر الى التوحيد. لقد مات الرجل، الا ان تعاليمه ومبادئه ظلت حية في الجزيرة العربية .

ويورد ابن بشر في تاريخه قائمة باسماء كبار الائمة الذين عاصروا اجود بن زامل حين يتحدث عن وفاة الشيخ احمد بن يحيى بن عطوه بن زيد وتشييع جنازته في جُبيّلة سنة ١٥٤١. وكان هذا الشيخ قد تلقى علومه الفقهية في حلقات معظم اولئك الفقهاء في المساجد . ويضيف ابن بشر الى ذلك بشيء من الموافقة والتحبيذ ، تعيينَ السلطان سليم الاول لقاضٍ حنبلي كرئيس لقضاة مصر سنة ١٥١٧ . كما يذكر ان هذا القاضي ، واسمه الشيخ احمد ابن النجار ، كان آخر قاضي قضاة من اصل عربي . فقد كان انصارياً من بني النجار ، في المدينة المنورة . ومما يسترعي النظر في ذلك الحين ان العثمانيين ، وهم الذين احتلوا مصر واغتصبوا الخلافة الاسلامية لم يأبهوا للجزيرة العربية وان كانوا قريباً ما سيفعلون ذلك . ففي العقد الاخير من القرن السادس عشر غزوا مقاطعة الاحساء واحتلوها . وقد عينوا فاتح باشا اول والٍ عليها بعد اخضاع عائلة اجود بن زامل الجبري العقيلي القيسي . ويبدو انه لمّ يتوفر بين أيدينا تاريخ معروف لآخر امير من آل زامل ، او لاسلافه الذين سبقوا اجود : ولا مدة حكمهم في الاحساء . وكان ذلك سنة ١٥٩١م .اما قافلة الحج التالية التي خرجت من الاحساء فقد تم خروجها بعد ذلك باربعين عاماً . وكانت تحت امرة بكر بن علي باشا ، ابن الحاكم الذي خلف فاتح باشا مباشرة .

وعليّ باشاهذا هوالذياستقبل الشريف محسن بن حسين بن حسن شريف مكة ،

وابناء عمه ضاوي عبد المطلب استقبالاً منقطع النظير سنة ١٦٢٢ ، اثناء الزيارة التي قاموا بها للهفوف من جملة جولة واسعة لهم في الجزيرة . وفي هذه الايام كان الحجاز مستقلا تحت امرة الاشراف الذين كانوا يعتبرون أنفسهم سادة المناطق الداخلية من الجزيرة . وكانوا يقومون بالاغارة على تلك المناطق بغية تأديب اهلها حينا، وللملء خزائنهم بالمال احياناً . واولى هذه الغارات كما يذكر ابن بشر ، تلك التي وقعت سنة ١٥٧٨م عندما وصل الشريف حسن ابو نعمى الى الرياض بجيش عدّته خمسون الفاً من الجنود ، ورابط هناك طويلاً يقتل وينهب . وحين همّ الشريف بمغادرة البلاد ، عيّن من لدنه رجلاً اسمه محمد بن فضل اميراً عليها وارتهن عدداً من الزعماء سجنهم عاماً ، ولكنه عاد فاطلق سراحهم بعد ذلك شريطة ان يدفعوا له جزية سنوية معينة. وبعد انقضاء ثلاث سنوات عاد الشريف نفسه فغزا نجداً. وقد وجّه اهتمامه هذه المرة الى مقاطعة الخرج فاحتل مدنها الرئيسية والمواقع الاستراتيجية في المرتفعات المحيطة بها. ثم عاد الى بلاده تاركا من ينوبون عنه في ادارة شؤون المقاطعة . وما كاد يغادرها حتى جاءته اخبار غارة أعدها بنو خالد للوثوب عليه والاستيلاء على دوابّه وحوامله . وقد فعل البدو ذلك. غير ان الغزاة منهم وجدوا الشريف مستعداً لملاقاتهم، فهزمهم شر هزيمة وكبّدهم عدداً كبيراً من القتلى ، كما استولى على جميع رواحلهم . ولم يمض على تلك الواقعة الا فترة قصيرة حتى خضع بنو خالد للحكم التركي ، كما انتهى حكم الشريف حسن بن نعمى يوم وفاته في مكة .

وقد خلفه في إمارة مكة ابنه ادريس الذي غزا شقيقُه ابو طالب نجداً نيابة عنه سنة ١٦٠٢ . وكان ادريس هذا قد اشرك معه في الحكم حين توليه، اخاه فُهيداً وابن اخيه محسنَ بن حسين ، وجعلهما ندّين له. اما فهيد فاعفي فيما بعد. واما محسن فقد ظل مخلصاً لعمه وشريكاً له في الحكم حتى وافت المنية عمه في يَطتَب من قرى جبل شمر ، يوم انضم الى شقيقه ابي طالب في الحملة التي ذكرناها آنفا . وحينئذ قام محسن باغتصاب الامارة من ابناء عمه، اذ كان اقوى رجل في العائلة. وقد غزا نجداً بنفسه سنة ١٦٠٦ وكان هدفه قرية قصَب في شعيب العتْك . فاحتلها وأعمل

السيف في رقاب اهلها بوحشية. وفي ذلك الزمن كانت المناطق الواقعة في اواسط الجزيرة العربية تعاني القلقلة وعدم الاستقرار. فاخذت تكوّن لنفسها تجمعات متنقلة على الطراز الذي سنشهده سائداً في تلك المناطق ايام الوهابيين بعد ذلك بمدة طويلة . فقام محمد وعبد الله الحنيحن بالاستيلاء على اراضي عشيرة العُرينات في قرية البير بمنطقة السدير، وأخذوا يحسنون مزارعها حتى آلت اخيراً الى حوزة حمد ابن محمد الذي كان احِفاده لايزالون يستثمرونها في اواسط القرن التاسع عشر. وفي نفس سنة ١٦٠٦ انشأت عشيرة آل التُميم قرى الحُصُن قرب واحة «جنوبيّة» في السدير وفي جنوب الوادي عند حصن قارة . وفي سنة ١٦٣٠ احتل الحزازنة واحتي ْحارِق ونعَم َجنوبي مقاطعة الخرج. وهم لايزالون هناك حتى هذا اليوم . هذا في الحين الذي انتقل فيه ذلك الجزء من واحة الرياض المعروفة بالَمقْر َن ْ من يد الى اخرى منذ اغتيل ابناء مفرّج بن ناصر ، سادِته وشيوخ الاسرة المسيطرة فيه ، بمكيدة من ابناء عشيرة المديريس التي اغتصبت زعامة المنطقة بعد ذلك .

وفي غضون هذه المدة كان الشريف محسن قد توفي بعد زيارته للاحساء بفترة وجيزة، فخلفه في الامارة ابن عمه سعود بن ادريس سنة١٦٢٢. ولكن امر سعود هذا لم يدم طويــلاً. اذ سرعان ماخلفه زيدٌ ابن محسن ، الشريفِ المتوفى سابقاً، واستولى على الامارة منه . ولم يطل امر زيد ايضاً ، فقد طرده الشريف ابو نعمى من الامارة سنة ١٦٣١ . ولكن زيداً استعاد الامارة منه بعدمئة يوم فقط واحتفظ بها الى يوم وفاته سنة ١٦٦٥ .

كانت نجد الآن تتمتع نسبياً بفترة راحة، فلم يعد شرفاء مكة يتدخلون بشؤون أهلها . وتحول الاهتمام بامور نجد الى احمد بن عبد الله بن معمّر امير العُيينة الذي كان يطمح الى توسيع امارته ، فغزا مقاطعة السدير سنة ١٦٤٢ . ولكنه لم يصب نجاحاً كبيراً في الاستيلاء على قرية ام حِمار في الطرف الاقصى من واحة الحوْطة. وقد انتهت مطامعه سريعاً ، حيث توفي في موقع المغاسل ، محطة السيلِ الكبير اليوم ، وهو يقوم بفريضة الحج. وقد خلفه ابنه ناصر سنة ١٧٤٧ ، لكنه قتل على

يد ابن اخيه دواس بن محمد الذي اغتصب امارة العُيينَة حينذاك .

وكان في هذه الاثناء ، أن جـدّد الشريف زيد بن محسن نشاطه في داخـل الجزيرة ، حيث انطلق الشريف محمد الحُراث بعد ان جهزه زيدٌ سنة ١٦٤٦ في زيارة الى ثرمدة. وهناك قابله الفقيه المشهور الشيخ محمد بن اسماعيل فطرد من نفسه كل ما كان يضمره من نوايا شريرة للبلدة بعد ان رَقاه بتعويذه مباركـة . وفي السنة التالية قام الشريف زيد بنفسه بحملة واسعة على نجد وهاجم روضة السدير ، فقتل زعيمها محمـد بن ماضي بن محمد بن ثاري واقترف جنوده اعمالاً تقشعر لهـا الابدان . ثم تقدم زيد جنوباً الى بَنْبان مكتسحاً مشارف الرياض . وفي اثناء عودته الى بلاده مر بالعُيينة واستحوذ من اهلها على مبلغ كبير من المال وحمولة ثلاثمائة جمل من القمح .

وكان ذلك شؤماً على العيينة وعاراً لها . ففي السنة التالية قَتل محمد بن حمد بن عبد الله ابن عَمه دواس الذي كان قد اغتصب الامارة منذ اقل من تسعة أشهر ، كما طرد منها شقيق دواس ، وبقية افراد عائلته . ولم يدم حكم محمد طويـلاً ، اذ توفي سنة ١٦٦١ فخلفه ابن عمه ، عبدُ الله بن احمد . غير ان هذا سرعان ما اختلف مع سكان قرية البير في السدير بسبب سوْقه إبلهم في احدى غاراته العادية . ولذلك انتقموا منه بان نهبوا قافلة من قوافل العيينة وسلبوا البضائع التي كانت تحملها من الساحل . وحينئذ أعد عبد الله حملة تأديبية يهدف بها الى تلقين القرويين درساً لن ينسوه . وكان يرافقه قاضي العيينة. وكان من حسن حظ اهل البلدة ان انهار جدار من سور القرية حالمـا تجمع المهاجمون تحته استعداداً للهجوم . وكانت الاصابات الكبيرة التي لحقت بهم هي التي حولت الهجوم العدواني الى مفاوضات سلمية للصلح بـين الطرفـين . وقد لعب القاضي دوراً مهما في ايجاد تسوية سلمية بين الامـير والقرويين واشترط اعادة المنهوبات من الجانبين .

ليس لدينا شيء عن التطورات التي حدثت في الدرعية في الفترة التي تلت حج أميرها ربيعة سنة ١٦٣٠ . وكل ما يورده ابن بشر عن الوضع هناك انـه في

سنة ١٦٥٤ قام وطبان ابن ربيعـة ، وخليفتُه ، بقتل ابن عمه مرخان بن مقرن واغتصب امارة الغَصيبه . ووقائع هذه الفترة معقدة للغاية . ومـن الممكن ان نُصيب الحقيقة اذا رتبنا احداثها التاريخية على هذه الصورة : لقد خلف وطبانُ والده في زمن مابين سنتي ١٦٤٠ ، ١٦٥٤ ولكن ابن عمـه مَرخان ثار عليه وعزله،غير ان وطبان استطاع ان يقتله ويستعيد مركزه كأمير للدرعيةسنة١٦٥٤.

وهناك رواية اخرى مفادها انه هرب ليتجنب ما يترتب على فعلته من تراث ثم استقر في الزبير ، حيث اصبح حفيده ابراهيم بن ثاقب اميرها مع الزمن . اما اشهر ابنائه محمدُ الذي خلفه في الامارة فقد توصل الى مركز سياسي مرموق ، الامر الذي اثار حفيظة الحاكم التركي في زمنه . وفي سنة ١٨٣٦ استدرجه الحاكم الى سراي الحكومة في مدينة البصرة واغتاله مع جمع من اقاربه واتباعه . ومهما يكن من امر، فهناك من الادلة مَا يحملنا على الاعتقاد بان خلّف مَرخان بن مقرن في « امـارة الدرعيـة » لم يكن ابنه الذي بقي كمـا يبدو ، في العاصمـة ، بل شقيق مرخان محمد بن مقرن والدُ سعود . ومحمد هذا هو اول من تولى الملك من اسلاف الملك الحالي. وبعد ان آلت اليه الامارة سنة١٦٥٤اي منذ ثلاثة قرون قبل دفع هذا الكتاب الى المطبعة على التحقيق خلفه ابنه البكر ناصر، شقيق سعود والذي اشتهر بلقب امير الدرعية سنة ١٦٧٣ ، عندما ذبح هو وابن عُمه احمدَ بن وطبان اخذاً بالثأر من والد الاخير . وربما تم ذلك بمساعدة محمـد بن مقرن . وهناك ما يشير الى ان القاتل كان مرخان بن وطبان الذي اغتصب الامارة . الا انه قتل بدوره سنة ١٦٩٠ على يد اخيه ابراهيم. وقد ظل ابراهيم في الحكم حتى سنة١٦٩٤ حين اغتاله شخص يدعى يحيى بن سلامة. لا نعرف عنـه شيئاً ، الا اذا كان ابن سلامة بن سُويْط امير عشيرة الظافر .

وحتى هذه المرحلة نجد قصة امراء الدرعيّة المتشابكة تغدو اكثر تعقيـداً وغموضاً عن ذي قبل . وذلك لان محمد ابن مقرن الذي تولى الحكم سنة ١٦٥٤ لم يمت الا سنة ١٦٩٤ . ولربما انه تنازل عن حقوقه في الامارة او عُزل مـن

منصبه ليخلفه ابنه ناصر قبل سنة ١٦٧٣ ، وبعد ذلك ظل مواطناً عادياً خلال الخمسة والعشرين عاماً التي تلت . ويجوز أنه ظل هو الحاكم الاسمي خلال فترة الاربعين عاماً هذه بينما اخذ اعضاء العائلة الباقون يتنازعون الأمر بينهم في سبيل الحكم الفعلي . ومن الاهمية بمكان ان نلاحظ ان ابنه سعوداً كان يبلغ الثلاثين ربيعاً من العمر عند ظهوره لاول مرة على مسرح التاريخ العربي سنة ١٦٨٥م . وفي تلك السنة قاد حملة على مدينة حريملة يرافقه عبدالله بن معمّر اشهر امراء امراء العُيينة واشترك في القتال . وتُعرف هذه المعركة في تاريخ نجد «بيوم الكمين الاول» . وقد فقد المدافعون فيها ثلاثين قتيلا . ومن غير المعقول ان يكون عمره اقل من العشرين في ذلك الحين ، وهذا ما يرّجح لدينا ان سعودا قد ولد سنة ١٦٦٥ ، وكانت هذه السنة اول سني الجفاف والجوع في الجزيرة العربية .

واذا رجعنا القهقرى في تاريخ الجزيرة مئة عام من هذه النقطة التي وصلنا اليها، ابصرنا الاتراك قد احتاوا بغداد واستقروا فيها في اوائل القرن السابع عشر . ولكن شاه فارس، عباس الاول، هاجم بغداد بجيش لجب فاضطر الاتراك لمواجهة تحدّيه. وكان بكر باشا الوالي التركي في بغداد قد أسخط السلطان فامر بطرده من من منصبه ولكنه كان قوي الشكيمة ، فتحدى الباب العالي وظل يمارس سلطاته بحزم . وهذا ما جعل احمد باشا حافظ الذي عينه السلطان ليتسلّم ولاية بغداد يرى من الحكمة ان يقفل راجعاً من منتصف الطريق . وهنا سنحت الفرصة للشاه عباس ، فاغرى بكراً باشا على فتح ابواب المدينة امام جيشه واعداً بأن يثبته في منصبه عندما يحتل المدينة . وحين تم ذلك كان الوالي المتمرد اول ضحايا هجوم جيش الشاه ، الذين طفقوا ينهبون المدينة ويقتلون اهلها دون شفقة ولا رحمة . ولما كان الشاه اسماعيل الصفوي شيعياً فقد صبّ نقمته على اهل السنة من المسلمين، مختصاً العلماء منهم بالقسط الاوفى من التعذيب. ثم اخذ جنوده يدمرون الجوامع ويحرقون دور الكتب في المدينة . وقد طال البلاء ... واخيراً عين الشاه حاكماً فارسياً مكان بكر . ولقد باءت جميع جهود الاتراك لاسترجاع

المدينة بالفشل ، وظل الصفويون يحتلون بغـــداد حتى سنة ١٦٣٨ حينما هاجمت جيوش السلطان مراد ، ولاية بغداد واستعادت المدينة.

وكما اسلفنا سابقاً كان قد مضى نصف قرن على سيطرة الاتراك على مقاطعة الاحساء . وما كادت تنقضي عقود على ذلك ، اي حـــوالي سنة ١٦٦٧ ، حتى احكم العثمانيون الطوق على اطراف الجزيرة العربية ، يوم احتـــل مصطفى باشا مدينة البصرة نيابة عن السلطان محمد بن ابراهيم بن احمد . ومع هذا ظل الحجاز بمنأى عن تطلعُ الآستانة اليه ، بالرغم من الوصاية الاسمية للخليفة السلطان على الأماكن المقدسة .

وفي سنة ١٦٦٥ مات الشريف زيد بن محسن بعد حكم دام قرابة الاربعين سنة . فخلفه في الامارة ابنه سعد بعد صراع بينه وبين الشريف حمود بن عبدالله الذي كان زيـــدٌ قـد اختاره ليخلفه في الامارة ، وعلى هـــذا الاساس زوجه من ابنته ومنحه سلطات واسعة في ادارة الامـــارة ، حتى لم يبق شك في نفوس الناس بأنه اميرهم المرتقب بعد وفاة صهره زيد . ولكن يبدو ان حموداً هـــذا كان ضعيف الشخصية قليـــل الطموح ، اذ سرعان ما رضخ لمطالب سعد بعـــد نزاع قصير .

وفي سنة ١٦٦٩ عُهدت الى الشريف حَمود قيادة حملة عامة على نجد، فاخضع قبائل متعددة منها قبيلة عَنزَة ومُطير وبني حسين (حرب) ، وبني هُتَيْم موالي العوازم، آخر من بقي في الكويت . ولكن هدفه الرئيسي كان قبيلة الظافر النازلة في العراق ، إذ كانت هذه القبيلة قد نهبت عدداً كبيراً من ابل عشائر سمْـــدة احدى بطون قبيلة الظافر . وقد انضم هؤلاء الى جيش حمود وتبعهم سلامـــة ابن سُويط زعيمُ الظافر . ولما رفض المعتدون اعادة الاسلاب وفقاً لتقاليد البدو حث سلامة حموداً على ان يلقي القبض عليهم ويسجنهم. ولكن حموداً رفض الاخذ بنصيحته ، فعاد سلامة الى قبيلته واخذ يستعد للقتال . وكانت فعلة قبيلة

سمده هذه سبباً في نشوب المعركة . وفيها تعرض بنو عدوان وعناصر اخرى من جيش حمود لهجوم بني ظافر الشديد الذي اودى بحياة خلق كثير ، كان منهم شقيق حمود وابنا اخيه . . كانت المعركة في مصلحة رجال القبائل ولكن الشريف غالب بن زامل ألحق بهم خسائر فادحة في هجوم معاكس قام به بعد ذلك بفترة وجيزة . وقد طال العداء بينهم حتى جاء الشريف حمود بن زيد فعقد الصلح بين الفريقين .

وانقضى على ذلك بضعة اعوام . ثم قام الشريف بركات بهجوم عام على قبيلة حرب وشيخها احمد بن رحمة بن مضيان، الذي لاقى حتفه مع عدد من شيوخ قبيلته رغماً عن الخنادق التي حفروها ليعيقوا تقدم خيالة الشريف. ولكن الخنادق لم تجدهم نفعاً في القتال فاتخذوها مقابر لقتلاهم .وعلى اثر ذلك أمر حمود ببلادهم فنهبت . وتذكر الروايات ان شريفاً مشهوراً آخر يدعى عبد الرحمن ابن احمد بن محمود بن عبد الرحمن توفي في السنة التالية اي سنة ١٦٧٤ م . وهي نفس السنة التي شهدت وفاة الشريف حمود بطل معركة الظافر ، ووفاة الشريف احمد بن محمد بن الحارث الفيلسوف المشهور الذي كان يستشيره الشرفاء المعاصرون في كل الامور . فقد توفي لدى تعيينه اميراً على مكة من قبل وال تركي اسمه حسن باشا ، حينما اختلف سعد وحمود بعد وفاة زيد . وقد ادرك المتخاصمون ما يرمي اليه حسن باشا واسرعوا الى انهاء خلافاتهم واختاروا سعداً كيما يتخلصوا من مرشح الاتراك. وهذه اول مرة يشار فيها الى تدخل الاتراك في الحجاز .

كان حسن باشا والياً على المنطقة للسلطان ، غير انه في الواقع لم يكن اكثر من مجرد قائد للحملة العسكرية التركية . ومما زاد في اوضاع الشرفاء المعقدة في مكة ضغثاً على أبالة أن الولاية في مكة سنة ١٦٦٧ كانت في عائلة آل زيد ، التي كانت صنواً لعائلة «ابو نعمى» حيث كان سعد هو الشريف الحاكم في ذلك الزمن، وفي خدمته احمد آل حراث اميراً على نجد.

هذا اول ذكر لمطالب شرفاء مكة في السيادة على داخل الجزيرة . اما الغارات على نجد فهي شاهد لنا على رأيهم بهذا الصدد .

وفي سنة ١٦٧٦ غزا الشريف محمد آل حُراث نجداً ليهاجم قبيلة الفضول فقتل زعيمها . وفي نفس السنة شن شريف آخر اسمه حارث هجوماً على قبيلة الظافر في ضُلفَعة، في القصيم قرب البُكيرية، وهي المكان الذي وقعت فيه المعركة الشهيرة بين العرب والاتراك سنة ١٩٠٤ ، فانهزمت قبيلة الظافر وتعهدت بدفع الجزية السنوية الى مكة ثمناً للسلام . ومن المحتمل ان يكون الشخص الذي يشار اليه باسم احمد آل حُراث (و حراث جمع حارث) هو نفسه آل حُراث، احمدُ ابن محمد بن الحارث ، فيكون محمد آل حراث والده في تلك الحال. وقد ورد ذكر احمد الحارث هذا في تاريخ ١٦٨٠ كشريف لمكة ، وبمناسبة الحج الذي قام به في نهاية كانون الثاني من ذلك العام عدد من زعماء نجد ــ ومنهم محمد بن ربيعة بن وطبان من الدرعية ــ وزاروه في قصره اثناء ذلك الحج .

وحدث في نفس السنة طوفان في مكة ارتفعت فيه المياه حتى بلغت قُفل باب الكعبة على ارتفاع عشرة اقدام على الاقل، ودمرت عدداً من البيوت والممتلكات في المدينة بالاضافة الى اغراق مائة شخص . وقد شهد هذا الفيضان مؤرخ الحجاز عبد الملك بن حسين المكي الشافعي آل اسامة المتوفى في كانون الاول سنة ١٦٩٦ .

ولا بد لنا من القول بان سعداً بن زيد احتفظ بالامارة منــذ آلت اليـه سنة ١٦٦٥ حتى ماقبل ١٦٨٠، يوم تولى هذا المنصب احمدُ الحارث الذي المحنا اليه من قبل. اما في سنة ١٦٨٤ او بعدها بعام، فيبدو ان احمد بن زيد كان هو الامير على مكة. وفي هذا الوقت هاجم عَنَزَة في القصيم واشتهر باعماله الفظيعة التي ارتكبها ضد اهلها . غير انه لم يحتفظ بمنصبه طويلا. اذ عزل من منصبه ، فخلفه الشريف احمد بن غالب بن زامل ، وهو من عائــلة منافسة لعائلته . غير انه سرعان ما تمّ عزل الشريف احمد بن غالب فاختار النفي الى اليمن . وكان ذلك العزل على يدي الشريف محسن بن حسين بن زيد بن محسن من عائلة ابي نعمى . ولكن هذا توفي بعد توليه الحكم بوقت قصير حوالي سنة ١٦٨٨ .

ولا بد لنا من ان نذكر غموضا آخر في قضية توالي اشراف مكة على الحكم. ففي سنة ١٦٩١ يورد ابن بشر ذكر الامارة للمرة الثانية للشريف سعيد بن سعد بن زيد في حياة والده الذي عزل ابنه بعد ان تولى المنصب فترة لاتقل عن الستة اشهر . ثم استعاد الإمارة وظل فيها حتى عام ١٧٠٣ . وعندها تنازل برضاه واختياره .وقد أحدثت إمارة سعيد هذه توقفاً قصير الامد فيتولي الشريف محسن ابن حسين الحكم .

ويظهر ان مكة شهدت طوال ربع القرن الذي تلا موت الشريف زيد قلقاً سياسياً مزعجاً . غير ان ابنه سعداً خلفه طوال الاربعين سنة التالية فيا عدا فترة لاتتجاوز الاثنتي عشر سنة بين فترتي حكمه الاول والثاني . ولا بد ان سعداً كان مسناً يوم تولى الامارة للمرة الثانية . ولكنه ظل صحيح الجسم نشيطاً .وها هو يعد حملة على نجد في اوائل سنة١٦٩٤،ولكنه لم ينجح في اكثر من الوصول الى الى سهل حمادة في الطرف الغربي من هضبة الطويق. وها هو في اثناء الحج من هذا العام يسيء الى الحجاج فتنشب بينهم معارك شديدة تملأ شوارع مكة حتى الحرم. وقد كانت الاضطرابات خطيرة لدرجة إن الشريف عبد الله بن هاشم، وهو من فرع اخر من فروع العائلة، اضطر لأن يتخذ اجراء حاسما لتهدئة الحالة. فغزا سعداً وتولى حكم المدينة مؤقتا. وكان هذا بمساندة الشريف احمد بن غالب الذي سبق له ان عاد من منفاه في اليمن ليستقر في اراضيه في وادي فاطمة .

وفي نهاية السنة تمكن سعد من استعادة الحكم في مكة ونفى عبدالله بن هاشم واعوانه . وقد غزا نجداً في السنة التالية ، فأغارعلىقرية عشيقير ، وحاصرها حتى ضيق على اهلها الى درجة دفعت قاضيها الشيخ احمد بن محمد القصير لأن يصدر فتوى يجيز فيها أفطار رمضان من ذلك العام كي يتسنى للمزارعين حصاد مزروعاتهم وخزنها .

اما سعد فقد اخفق في ارهاب رجال الوشم الاقوياء واخضاعهم . فانتزع

عقد مفاوضات للصلح مشترطا ان يكون مفاوضو القريـة هما قاضيها وصاحبه الشيخ حسن بن عبد الله ابو حسين . وقد قبل القرويون ذلك. غير ان سعداً القى القبض على الشيخين لحظةَ دخولهما خيمته ، واودعهما السجن.

وفي نفس السنة تمكن ادريس بن وطبان ان يتسلم الامارة في الدرعية ، بعد انقتل اخاه ابراهيم سنة١٦٩٤. ولكنه بدوره قتل عـلى يد سلطان بن محمد القيسي المجهول النسب ، وان كان ُيعتقد بانـه من عائلة بني خالد في الاحساء . وقـد اغتصب سلطان حكم الامارة وتمتع به حتى سنة ١٧٠٨،حيث لم ينجُ هو الآخر من خنجر الاغتيال . وحينئذٍ خلفه أخوه عبدالله ، ولكن هذا أيضاً اغتيل في شهر آذار من سنة ١٧٠٩ . وبموته انتهت فترة الحكم الاجنبي الذي دام خمسة عشر عاماً في الدرعية وعادت الامارة الى موسى بن ربيعة بن وطبان،من اصحابها الشرعيين . وليس لدينا معلومات موثوقة عن أعمال هذه العائلة في العشر سنوات الأولى . وجلّ ما نعرفه هو ان الإمارة في الدرعية انتقلت سنة ١٧٢٠ من موسى الى سعود بن محمد بن مقرن ، بعد خلـع الاول ونفيه . وكان سعود هـذا هو مؤسس العائلة التي احتفظت بسيطرتها على الجزيرة العربية منذ ذلك الحين حتى حكم عبد العزيز بن سعود الاخير .

كان في سنة ١٧٢١ ايام امارة سعود هذا ، انُولد له في الدرعية حفيد أسماه عبد العزيز، هو سمي عبد العزيز والد الملك الحالي في الرياض . اما سعود نفسه فلم يقدّر له ان يشهد ازدهارحكم وريثه. ولم يعرف بوجود فقيه شاب في العشرين من عمره يقطن العُيينْة المجاورة. ذلك الفقيه الذي غدا المرشدّ والفيلسوف والصديق لابنه ولحفيده اللذين سترفعهما اكتافه الشديدة الى قمة المجد والشهرة فيا بعد . فقد ولد محمد بن عبد الوهاب في العُيينْة سنة ١٧٠٣ ليصدق عليه القول المأثور « لا كرامة لنبيّ في وطنه » .

التحق سعود بآبائه في جبانة الدرعية في الثاني عشر من حزيران سنة ١٧٢٥

ليلة عيد الفطر . فخلفه في الامارة ابن عمه ، زيدُ بن مرخان بن وطبان ، اكبر أعضاء العائلة،لا ولده محمد . وكان هذا هو التقليد المتبع في نظام وراثة الحكم في الجزيرة العربية . ويبدو ان الامير الجديد لم يلقَ مقاومة ولا كراهية بين عشيرته لتوليه الحكم.ومع ان مقرن(أخاسعود)هوالوارثالشرعي للامارة الا انه اعرب عن ولائه للامير الجديد بشكل رسمي ، وإن ظل في قرارة نفسه يطمح الى الحكم. وقد دعا زيداً لزيارته ليثبت له ولاءه بصورة قاطعة . ولكن زيداً ارتاب في نوايا مقرن فلم يلبِّ الدعوة ، ما لم يضمن محمد بن سعود ومقرن بن عبدالله بن مقرن سلامته . الامر الذي دل على ذكاء وحكمة . وفعلا تم الاجتماع بعد ان تعهدا له بما طلب . حتى اذا ما اوجس الكفيلان الغدر من مضيفهما هاجماه بغية قتله ، ولكنه نجا من ذلك بأن هرب من النافذة واختبأ في حجرة صغيرة ثم قتل فيها بعد ذلك .

وهكذا ظل زيد سيدّ الموقف خلال المآسي التي واجهت العائلة التي قدّر لها ان تصبح عظيمة . ولكن زيداً لم يعمر طويلاً بعد هذه الحادثة . وكان وباء الكوليرا قد انتشر في مدينةالعُيينة قبل ذلك بسنة فافنى اهلها . وكان اميرها محمد بن معمَّر اول ضحايا الوباء . فخلفه في الامارة حفيده محمد بن حمد الملقب بخرّفش التأثاء . فما كان من زيد الا ان هاجم العُيينة ، اكبر مدينة مزدهرة في داخل الجزيرة العربية آنذاك، بعدد كبير من قطاع الطرق واللصوص ، جمعهم من عشائر «كاثِر»و«سُبيَنْع» . غير ان خرفش ارسل له في عقربة رسالة لطيفة ، يعرض عليه بأن يقدم له كل ما يطلبه دون ان يكلف نفسه مشقة نهب بدو المنطقة وسكانها الفقراء ، ويقترح عقد اجتماع خاص بينهما لبحث هذا الموضوع.

حينئذ انطلق زيد في اربعين رجلا من اتباعه معهم محمد بن سعود الذي يثق فيه كثيراً. ولكن خدّم خرفش الذين كانوا مختبئين لغاية في نفس سيدهم اطلقوا على زيد النار وقتلوه حالما اتخذ مقعده في غرفة الاستقبال . اما محمد وبقية جماعته فلجأوا الى حجرة مجاورة جعلوا يقاومون منها . وقد رفضوا دعوة خرفش اليهم

بالخروج ما لم تضمن سلامتهم الست جوهرة ابنـة الامير عبدالله بن معمر المشهورة ، وخالة خرفش . ولما تم هذا عـاد محمد بن سعود الى الدرعية حيث تولى الامارة في نهاية عام ١٧٢٦ او بدايـة السنة التالية . وحكم هنـاك دون منازع حتى وافته المنية سنة ١٧٦٥ م .

وبعد بداية تميزت بالاضطراب وعدم الاستقرار توطد حكم آل سعود، فـلم تزعجه الترات التي كلفت البلاد غالياً في الاجيـال السابقة . لقـد ازيح آخر مطالب بالعرش نهائياً بعد واقعة العيينة، وفي اثنائها اصيب موسى بن ربيعـة بطلق ناري توفي من جراثه بعد ذلك . وكان موسى هذا منفياً في ديار ابن معمر قد نفاه سعود .

والآن بعد ان بلغنا النقطة التي تبدأ فيها قصة المملكة العربية السعوديـة نرى لزاماً علينا ان نعود القهقرى فنستقصي تاريخ الذين نافسوهم في الحكم. ومن المناسب ان نبدأ بالحجاز حيث تولى الشريف سعد بن زيد الامارة في مطلـع القرن الثـامن عشر ، فأعد ابن اخيـه ، الشريف سرور حملة شاملة على نجد سنة ١٦٩٧م ليؤدب مقاطعة السدير ، المعروفة باضطراباتها واستقلال اهلها وشدة بأسهم . وهناك اقترف المهاجمون كثيراً من الفظائع في قريـة الروضة وواحتها . ومن ثم انعطف سرور فهاجم جلاجل وتمكن من اسر امير الروضة اللاجيء فيها ماضي بن جاسر . ونفى ثلاث او اربع عائلات بارزة في الروضة الى عشيقير . ولكن عائلتين منها رجعتا بعـد سنتين واستعادتا قوتها . وكان ماضي بن جاسر يتزعم عائلة « ابو راجح » احدى هاتين العائلتين . فاستعادت هذه العائلة ما يخصها من الواحة وطردت العائلة الرابعة اي عائلة «ابوهلال» بعد قتال نشب في مدينة الدخيلة بين ممثليها وبين فوزان بن زامل زعيم آل تميم، الذي آزره ماضي . وفي نفس الزمن تقريباً قرر عدد من عائلات حوطة السدير ممن كانت منفية الى العيينة ان تعود الى الوطن . فقـد رأت ان الاحوال اصبحت

مواتية لذلك . فهاجمهم السكان لدى وصولهم وذبحوا عـــدداً كبيراً منهم . وتاريخ السدير مليء بمثل هذه الحادثة .

ومن الغريب ان لدينا عن السدير تفاصيل تاريخية واسعة : لأن معظم المؤرخين والفقهاء في تاريخ السعودية كانوا من السدير نفسها، او من البلاد المجاورة لها .

ونعود الآن الى الشريف سعد . لقد كان مهتما كل الاهتمام بتوطيد السيادة له عبر الصحراء . ففي سنة ١٦٩٩ فتح مكة والقى بمائة من زعمـــاء قبيلة عنزة في غياهب السجون . وفي العامين التاليين اعد حمــلات عدة لتأديب قبيلة الظافر وعناصر اخرى من بني حسين (حرب ؟) . اما في سنة ١٧٠١ فقد نزلت بالظافر خسارة فادحة بموت زعيمها سلامه بن مرشد بن سويط . وكان هـذا ابرز اعداء اشراف مكة . وتميزت السنة التالية بالقحط الذي أصاب الحجــاز . وفي نهايـة ١٧٠٣ تنازل الشريف سعد من تلقاء نفسه لابنه سعيد ، فواجه الشريف الجديـد كثيراً من القلاقل والاضطرابات التي كان مبعثها الجوع والاسعار المرتفعة . ولقد ساءت الاحوال في تلك الايام حتى ان سليمان باشا المعروف بباشا جدة ، والممثل الوحيد للباب العالي في رحاب الحرمين، بدأ يفكر في عزل سعيد لصالح الشريف عبد الكريم بن محمد بن يعلا ، احد أفراد العائلة من فرع آخر . وتنسم سعيد أخبار المؤامرة فنسب تولي ابن اخيه عبد المحسن بن احمد بن زيد الامارة مـــن بعده . وكان تنسيبه هذا عبارة عن تدبير لاحباط المؤمرات التي تحاك ضده . لكن سليمان باشا أصر على تنفيذ خطته فتنازل عبد المحسن عن الامارة بعد تسعة أيام من توليه ، لمصلحة عبد الكريم ، المرشح التركي . وكان ذلك في اواخر سنة ١٧٠٤ بعد أن تبدلت الاوضاع في السلطنة العثمانية نفسها بمـــدة قصيرة ، حيث خلـع السلطان مصطفى بن ابراهيم ليحل محله اخوه احمد . ولما تولى الشريف عبد الكريم الامارة طرد الشريف سعيداً واباه سعد بن زيد من مكة . وكانت مكة لا يزال يلفحهــا الجوع بسياطه، ولكن بصورة اخف وطأة من ذي قبل .

وهكذا ، واجهت عبد الكريم متاعب كثيرة صرفته عن الاهتمام بامور نجد وشؤونها . ولم يخفف من اعبائه هذه كونه مرشح الاتراك .

وقد عاد الشريف سعيد سنة ١٧١١ م من المنفى ولاقى دعماً شعبياً ساعده في عزل عبد الكريم ونفيه . ويبدو ان هذا كان بايعاز من الاتراك وموافقتهم ، اذ ان السلطان سارع فاصدر فرمانا يعين بموجبه الشريف سعيد في الامارة . وهكذا عاد الامير الى منصبه للمرة الرابعة وظل يحكم بسلام حتى وافاه أجله سنة ١٧١٧ . وعندئذ خلفه الشريف محسن بن عبد الله ، فغزا نجداً واغار على بني حسين في المجمعة في شتاء ١٧٢٦ ـ ١٧٢٧ م . الا ان الصحراء العربية الآن ظلت بعيدة عن اهتمام الشرفاء بها زهاء ربع قرن . ولربما كان ذلك مبعثه الضغط المتزايد الذي كان الحكام الاتراك يمارسونه في الحجاز ، إذ كانوا منهمكين في مهمة حفظ النظام وتأمين سلامة الحجاج وطرق الحج من غارات البدو .

هكذا كانت حال الحجاز في اوائل ظهور آل سعود . واذا كان الاتراك قد نجحوا في تثبيت أقدامهم في البلاد المقدسة وتحقيق الاعتراف بالسلطة الروحية للخليفة ، السلطان ، فان الامر كان يختلف في الطرف الاخر من شبه الجزيرة العربية ، حيث كان اهتمامهم هناك دنيوي واستعماري .

وعلينا الآن ان نعود القهقرى في معارج التاريخ لنصل الى النقطة التي تركنا فيها علي باشا يتولى السلطة في الأحساء . ومن ثم نتقصى الاحداث التي ادت الى انعدام اثر سلطان الاتراك في شرق الجزيرة العربية، وأدت بالتالي، الى نشوء امارة وطنية قوية تضاهي كلاً من العيينه والدرعية، وتطمح الى توحيد الجزيرة العربية بكاملها . وكانت الدرعية اقل المتنافسين شأناً واثراً يوم ولي سعود الامارة ليثبت ، فيما بعد انها الجواد المجلي في السباق الطويل المتعب.

لسنا نسمع كثيراً من الاحداث في الاحساء بعد سنة ١٦٣٤ حين قام بكر بن علي باشا بالحج، مما يحملنا على الاعتقاد بان الاتراك لم يهدفوا الى احتلالها احتلالاً

دائماً . صحيح ان مركز الاتراك قد قوي في الجزء الشرقي من الجزيرة عندما استعادوا بغداد من الاحتلال الفارسي سنة ١٦٣٨ في عهد السلطان مراد ، وصحيح ان الوضع تحسن كثيراً أيام حكم السلطان محمد بن ابراهيم بن احمد عندما احتل مصطفى باشا مدينة البصرة سنة ١٦٦٧ ، الا ان حكمهم في الاحساء قد انتهى بعد مرور عامين على ذلك التاريخ ، بفضل قبيلة محلية ظلت تناضلهم نضالاً مريراً طوال ثمانين عاماً تقريباً . ولم يتجدد ذلك النفوذ الا بعد مرور قرن ونصف . وفي هذه الاثناء خلف محمداً باشا وال تركي اسمه علي باشا ، وعقبه عمر باشا ، آخرُ الولاة الاربعة الذين دامت ولايتهم زهاء الثمانية والسبعين عاماً .

وفي ولاية عمر باشا ثار بَرّاك بن غُرَيْر زعيم قبيلة آل حُمَيْد ، من بني خالد ، على راشد بن مغامِس آل شبيب ، امير المُنْتَفِك الذي كان فيما يبدو لعبة في ايدي الاتراك وقتله . وكان ذلك بمساعدة مُهنا الجبري احد افراد عشيرة اجود بن زامل ، التي كان الاتراك قد اقصوها عن الحكم سنة ١٥٩١ . وبعد ان قتل براك عدداً كبيراً من البدو الذين كانوا في جيش راشد ونهب اموالهم اتجه نحو الحامية التركية في كوت الهفوف ، اي قلعتها ، فاحتلها واعمل السيف في حاميتها وطرد من ظلوا أحياء فيها من البلاد .

وهناك مسرحية شبيهة بهذه ، مشهدها المكان عينه بعد قرنين ونصف من الزمن ، وذلك عندما هب المرحوم الملك عبد العزيز آل سعود فانهى الاحتلال التركي في الاحساء بعد احتلال دام لاكثر من اربعين عاماً . وفي كلتا الحالتين كانت خطة الهجوم بسيطة وجريئة . وقد نفذها بكل دقة ، نفر من الشجعان الاشاوس يأتمرون بامر قيادة رشيدة حازمة ، وضد عدو ملّ طول النفي في الصحراء القاحلة ، وكان جنوده متعبين فلم يبدوا اية مقاومة تُذكر .

لم يكن براك بن غرير بن عثمان بن مسعود بن ربيعة من آل حُميد ، وهو زعيم بني خالد وامير الاحساء ، كما هي القابه جميعاً ، ليستكين بعد هذا النصر المؤزر ،

او يقتنع باكاليل غاره الجديدة . كلا ، ففي السنة التالية هاجم قبيلة الظافر في مكان ما، بين التلال الواقعة جنوب غربي القصيم يجوزأنها وهاد الكيشَل وكانت عشائر الظافر قد قاتلت بطون الفضول في ذلك الموقع قبل مدة قصيرة . وفي طريق عودته، مرّ براك بواحة سَدوس، فنهب قبائل كاثِرْ التي تسكن فيها. والجدير بالذكر ان ديار بني ظافر كانت تمتد الى ما وراء الحدود الحالية للصحراء المتاخمة للعراق . ولا بد من القول بان الفضول لم يعودوا عنصراً له وجود في الجزيرة العربية بشكل قبيلة منظمة . وربما بدأت هجرتهم من اواسط الجزيرة الى الشرق سنة ١٦٧٤ حين ضربت المجاعة نجداً فأذلت اهلها . تلك المجاعة التي عرفت بالاساطير البدوية باسم جَرْمان .

وقد شهد شتاء ١٦٧٥ ـ ١٦٧٦ امطاراً عوّضت على السكان ما فقدوه ، ولكن اسراباً عظيمة من الجراد اجتاحت المراعي في السنة التالية فضاعت آمالهم. واطلق البدو على غزوة الجراد هذه اسم جرادات لان الكثيرين من الناس اصيبوا بالتخمة من كثرة ما اكلوه من الجراد .

وفي هذا الوقت بالذات قام براك بالهجوم على بني ظافر ، واكتفى باسر زعيمهم الشيخ سلامه بن مرشد بن سويط . ثم قام في السنة التالية بالاغارة على بعض عشائر الدرعية . ويبدو ان هذه الغارة كانت آخر اعماله الباهرة ، اذ وافاه الاجل سنة ١٦٨٢ . وخلفه اخوه محمد الذي احتفل بهذه المناسبة بان غزا يمامة ، من منطقة الخرج .

وبعد اربعة اعوام عاد الى نفس المكان ليهاجم بعض عشائر سُبَيْع في خاير من وادي حنيفة . وكانت نفس هذه العناصر هدفه في غزوته الثانية في صيف سنة ١٦٨٧ في «حائر المَجْمعة» في السدير . وانهمك في السنة التالية في حرب مع زعماء مشايخ آل عثمان في الخرج، وان كنا لانعرف شيئا عن العمليات هذه المرة . الا ان السنة كانت سنة خصب فازدهرت المراعي وكثرت الكمأة .

ولكن الجراد داهم البلاد مرة اخرى . فكان البدو يقولون « ان الجراد يأكلنا ونحن نأكله » . وكان القمح يباع كل خمس صاعات بمحمدي واحد (والمحمدي يساوي مجيدياً تركياً) . والتمر للمحمدي عشرون وزنة . اما في الدرعية فقد بيعت الالف وزنة باحمر واحد (اي الليرة الذهبية التركية .)

وفي السنة التالية ضربت القوافل التقليدية الثلاث للحج خيامها في عنيزة اثناء طريقها الى مكة ، فارتفعت الاسعار كثيراً بنتيجة ذلك . وكانت هذه القوافل الثلاث قادمة من العراق ، وبلاد فارس ، والاحساء . وحين اغارت قبيلتا الفضول والظافر في « تنومة » على قافلة العراق في طريق عودتها من الحج منيتا بخسارة فادحة في الاموال والارواح .

وفي سنة ١٦٩٠ دهم الجزء الجنوبي من العراق وباء لم يسبق له مثيل . فاهلك سكان البصرة ودمر المدينة تدميراً تاما ، ظلت مهجورة على اثره عدة سنوات . ثم زحف الطاعون شمالا الى بغداد فأهلك قسماً كبيراً من سكانها .

وقد توفي محمد بن غرير سنة ١٦٩١ ، وقتل ابن اخيه ثنيان بن براك في السنة ذاتها ، اثناء غارة له . كما مات المرشحان المحتملان لتولي الإمارة ، فآلت هذه الى سعدون ابن محمد بن حسين بن عثمان . وكان قد تعاون مع براك في طرد الاتراك . وبدأت الادارة التركية الآن تواجه المتاعب على ايدي قبيلة المنتفك في العراق . وفي سنة ١٦٩٤ اعلن مانع بن شعيب الزعيم الاكبر لتلك القبائل نفسه خلفاً لراشد بن مغامس آل شبيب حاكم البصرة ومنطقتها . ولا شك ان الاتراك لم يكونوا قد شددوا قبضتهم عليها بسبب سوء الحالة الصحية فيها بعد الدمار الذي لحقها من جراء الطاعون . غير انهم لم يرتضوا فقدان هذا الحصن الشرقي المهم . اما زعيم المنتفك فلم يستطع الاحتفاظ بالبصرة طويلاً ، ففي سنة ١٧٩٦ هاجمها فرج الله ابن مطلب زعيم قبائل المستنقعات العربية بمساعدة الفرس ، واستولى عليها ، الى ان طرده الاتراك من المنطقة سنة ١٦٩٩ . فاستعادوا هذا المركز الحربي المهم .

وشهدت السنة الاولى من القرن الجديد نشاطاً قام به سعدون ضد قبيلة ظافر

وبمساعدة الفضول وبعض عشائر الحجاز، في معركة دارت رحاها في «بَتْرا» بين رمال نفود السرّ . كما غزا سلامةُ بن سويط ارض السدير بعد ان خرج من سجن شريف نجد الذي حبَسه لاعتدائه على الفضول. ولكن سعدون لم يتركه يستقر. بل اذاقه الأمرّين في معركتين خاض سلامة وقبيلته غمارهما ضد سعدون وحلفائه الشريفيّين في موقعي السلع والبترا ، ويقال انه جرح في القتـــال إذ توفي وهو في طريقه الى بلاده ودفن في جُبَيْلة .

اما السنتان او الثلاث التالية فقد كانت سنوات قحط وجوع ومتاعب بين العشائر البدوية في جميع انحاء البلاد . لذا لا نسمع الكثير عن اعمال بني خالد . ولكن في سنة ١٧٠٦ امضى نجم بن عبيدالله، حفيدُ غرير اشهرَ الصيف في ثادِق، وغزا دُجين بن سعدون عشائر آل زارع ونهب اموالهم . وفي نفس السنة ايضاً طرد بنو ظافر اهل عنزة مـــن منازلهم الصيفية في منطقة السدير ، وطاردوهم واشتبكوا معهم في خِضار، من صحراء الدهناء . فوقعت خيام الشريف عبـــد العزيز شريفِ نجد في أيدي الأعداء ، حيث كانت آنئذ مع قبيلة عنزة المهزومة.

وفي الأشهر الاولى من عام ١٧٠٨ رافق سعدون بنفسه حجاج الاحساء في منطقته، وخيّم معهم في ثادق وشعيب العتك اثناء مرورهم بسلسلة الطويق التي تفصل بين السدير والعارِض. اما عبد العزيز بن هزاع حفيدُ غرير ، فقد قام في هذا الوقت بقتل عبدالله بن عبد الرحمن بن اسماعيل بن عم الشيخ محمد بـــن عبدالله بن اسماعيل القاضي السابق في عشيقير ، الا اننا نجهل الدافع لهـــذه الجريمة ونتائجها .

وفي سنة ١٧٠٩ نشب قتال بين سعدون بن غرير وبني ظافر في اقليم هجَرة بصحراء العراق دون اية مكاسب لواحد من الطرفين . وتميزت السنوات القلائل التالية بامطارها الغزيرة وعواصفها الشديدة المدمرة التي اصابت مَلْحَم ورغابة. وكان من نتاج ذلك ان ازدهرت المراعي وازدادت المحصولات الزراعيـــة

فهبطت اسعار المواد الغذائيه بفضل جودة الموسم . وفي سنة ١٧١٤ قام سعدون بالاشتراك مع عبدالله بن معمّر وعناصر اخرى من عُييْنة والعارض بحملة واسعة على الخرج . فهاجموا يمامة ونهبوها . ولكن الغزاة انسحبوا عندما قام زعيم البِجادي مع اربعة من الفرسان بهجوم معاكس .

هكذا تقضّت الايام متتابعة دون وقوع احداث مهمة سوى ما كان يتعاقب على البلاد من جفاف وامراض . (بما في ذلك شتاء ١٧١٤ ـ ١٧١٥ ببرده الشديد المهلك) . واستمر هذا الحال حتى عام ١٧٢١ الذي تعرضت فيه نجد لغزوة عامة شاملة قام بها سعدون . فأمضى طوال الصيف يحاصر بدو كاثر ويحول دونهم ودون الوصول الى العارض . ثم جلب مدافعه ليحاصر عقربة والعَمّارية، فكان من ذلك ان تعرضتا لمجاعة شديدة، ونُهبت مزارع السكان ودمر نخيلهم . اما سعدون فتوجه الى الدرعية ونهب مزارعها الغنية بثمرها ودمر منازل عديدة في قرى الظهرة والسُريحة والملوي . ولكن جيشه مني باصابات فادحة كما روى المدافعون . والجدير بالذكر انه في وسط هذا الخضم المضطرب بالاحداث والمتاعب ابصر عبد العزيز النور لاول مرة في قلعة طُرَيف العظيمة .

كان سعدون في طريقه الى نجد في اوائل سنة ١٧٢٣ عندما توفي فجأة في معسكره في جَندلية ، من الدهناء والواقع ان سعدون قد ساس قبيلته وتولى الحكم فيهابصورة ممتازةلأكثر من ثلاثين عاماً. ومن سوء طالع ابناءوطنه انأفل نجمه وغابت يده الحازمة من على دفة الحكم في اللحظة التي بدأ فيها الصراع الحقيقي لقيادة العرب . وقد حدثت بعض الاضطرابات بعد وفاته . اذ انقسمت العشيرة الى طوائف واحزاب يؤيد كلٌ منها زعيما يطالب بالحكم . وكانت المعركة الحقيقية من أجل الزعامة تدور بين ولدي ملفه : محمد وسليمان ابني غرير . وكان هذان ولديْ عمة سعدون الأدنيين اللذين كان سعدون قد حدّد نشاطهما احتياطاً لامره . وبعد مشاجرات ومشاحنات غير منظمة ساد العقل والمنطق وحلّ السلام موضع الخصام فاختير علي بن محمد زعيما لقبائل بني خالد .

بينما ألقي القبض على ولدي سعدون رهائن لفترة من الوقت . غير ان هذا الحل لم يدم طويلا . فما كادت تنقضي السنة حتى حاول دُجين اغتيال سليمان ، ولكن محاولته باءت بالفشل . وقد حاول سليمان من ناحيته اغتيال أحد اتباع دُجين ففشلت المحاولة ايضاً .

استمر الجفاف الذي بدأ سنة ١٧٢٢ حتى شتاء ١٧٢٤ ــ ١٧٢٥ ، حين انفرجت الازمة وسقطت أمطار غزيرة . ففي منطقة الحجاز مثلا، ارتفعت اسعار المواد الغذائية ارتفاعاً مريعاً . ومع ذلك لم يكن هناك ما يمكن شراؤه . فأخذ السكان يأكلون جيف الحيوانات الميتة . أما الأمطار التي هطلت بعد ذلك الجفاف الطويل فقد رافقها لسوء الحظ ، مرض أصاب المزروعات واهلك المحاصيل . بالاضافة الى زحف اسراب الجراد الغارز التي زادت الطين بلّة . وانتشر مرض الكوليرا في عُيَيْنة وما جاورها من النواحي ففتك بالسكان فتكاً ذريعاً اضطر الناجين منهم الى النزوح عنها . وكان موت الامير العظيم عبد الله بن معمّر ضربةً قاصمة للامارة في ذلك الحين . فلم تفق من هول صدمتها حتى اكتسحتها الوهابية . ومن غريب الصدف ان عيينة والاحساء، وهما المنافستان العظيمتان للدرعية، فقدتا زعماءهما المخلصين في الوقت الذي كان يدور فيه الصراع الحاد للعثور على زعيم يسجل حكمه صفحةً مجيدة في تاريخ العرب والمسلمين، ويضع اساسات امبراطورية لم تشهد مثلها الجزيرة العربية منذ عهد ملوك سبأ في الجاهلية الاولى .

ويظهر ان « دُجين » غادر الاحساء فترة من الزمن بعد ان فشل في محاولته لقتل سليمان . ولكنه قبل ان تنقضي سنة ١٧٢٦ وُفق الى نيل تأييد بني ظافر وعشائر المنتفك في المطالبة بعرش والده . فحاصر الهفوف فترة من الزمن بينما أخذ حلفاؤه من البدو يذرعون البلاد ، فيقتلون وينهبون نخيل سكان القرى في الطريق . غير ان علياً ظفر في مختلف العمليات الحربية الفعلية وكان في مركز لايخشى فيه الاندحار . فانسحب الغزاة بعد الهدنة التي توصل اليها ابناء العم . اما علي، فظل

قاضياً في الاحساء عندما بدأ حكم محمد في الدرعية . وكما مر معنا، كان محمد بن حمد ابن عبد الله بن معمرّ الملقب بخرفش ، معـاصراً لهم في امارة عيينة .

وما علينا الآن الا ان نكمل هذه المقدمة التي سبقت عهد محمد بن سعود بسرد قصة العيينة،من النقطة التي وصلنا اليها،حين تولى احمد بن معمر الامارة سنة ١٦٦١ . لم يتميز حكمه الذي دام ثـلاثـة وعشرين سنة بحوادث ذات شأن سوى نشوب القتال بين عيينة وحُرَيملة سنة ١٦٨٤ . ذلك القتال الذي لم يشهد احمد الا مرحلته الاولى . . ونحن لانعرف الكثير عن موته ، ولا بد انـه حدث في سنة ١٦٨٥ . ومن ثم بدأ حكم ابن اخيه عبد الله بن محمد بن حمد بن عبد الله الاول . وقد تميز حكم هذا الامير بطوله ، اذ توفي من جراء وباء الكوليرا سنة ١٧٢٦ كما ذكرنا آنفاً .

وفي عهده اصبحت العيينة الكوكبَ الهادي للصحراء العربية ، بفضل الجهود الكبيرة التي بذلها لتطوير طاقاتها الزراعيـة وتوفير السكن للناس الذين كانوا يتزايدون فيها تبعاً لتحسين مرافق المدينة . ومن الغريب ان والده محمد ابن حمد كان لايزال حياً وقت حكمه . فقد ذُكر انه ادى فريضة الحج في العام الذي تولى فيه ابنه الامارة . وامثال هذه الحادثة ليست مألوفة في بلدان العالم،ولكنها ليست غريبة فعلاً في شبه جزيرة العرب . اذ ها نحن نرى الوالد يعيش قرابة ربع قرن في عهد ملكية ولده وأعني بذلك والد الملك عبد العزيز .

وربما كان توليه الحكم في وقت سابق لاوانه يعود الى استئنافه الحرب التي بدأها سلفه ضد حريملة . فبعد توليه الحكم بقليل خاض معركة المهيريس مـع سعود بن محمد الدريعي . وتعرف هذه المعركة باسم « الكمين الاول » . وقد مني فيها ابناء حريملة بخسائر فادحة . غير انه لم يحاول مهاجمة المدينة نفسها . وكان هذا خطأ وقع فيه ، اذ مالبثت ان خرجت من حريملة غارةٌ هاجمت قرينة، على بضعة اميال في اسفل الوادي واحتلتها . وكان على الحرَيمليين ان يواجهوا هجوماً شنّته عيينة

فاستدرج أميرهم المدافعين الى كمين ، واوقع بهم . وهذا ما يعرف « بالكمين الثاني » . ولكنه لم يفت بعضد سكان حُريملة ما اصيبوا به من خسائر فغزوا سدوس بالاشتراك مع محمد بن مقرن من الدرعية ، وزامل بن عثمان من الخرج ونهبوها ودمروا حِصنها .

وانتهت الحرب سنة ١٦٨٨ ـ ١٦٨٩ بين حريملة وعيينة بعقدالصلح . فتمتع عبد الله بن معمر بحكم سلمي دام خمسةعشر عاماً، كرّسها لتطوير بلاده وتحسينها . الا انه في عام ١٧٠٣ هاجم القرينة واحتلها . وفي السنة التالية وجه اهتمامه الى مركز ثادق الخطير ، غير انه حين بلغ قرية البير، في طريقه الى هناك ، حال بدو عنزة بينه وبين هدفه، واستولوا على كثير من رواحله .

اما عيينة نفسها فقد تعرضت لفيضانات شديدة في وادي حنيفة جرفت الكثير من البيوت ودمرتها .

وقد استرعت حريملة انتباه عبدالله مرةاخرى سنة١٧٠٩ . فهاجمها بعد عشرين عاماً من السلم، بقوة جمعها من قرى العارض وبدو السبيع . لكنه عاد فانسحب عنها بعد قتال غير منظم. حينئذ اشتد ساعد حريملة، فاغارت على مضارب بعض حلفائه واستولت على واحة ملحم كما ذكرنا آنفاً . وفي سنة ١٧١٦ عاد ابن معمر مرةاخرى فهاجم حريملة ونهب املاك عشيرة الزعاعيب. ثم تجدد القتال بعد ذلك بعامين ، فقتل عشرة رجال واستاق عدداً كبيراً من الاغنام من مراعيها .

وفي سنة ١٧٢٥ اعد ابنه ابراهيمُ حملة على واحة العمارية المجاورة ، وبقي هناك فترة بعد ان اجبر اهلها على الاستسلام . وبعد بضعة ايام قابل عبد الله نفسه جماعةغازيةً من بدو كاثر في العُزيقة فقُتل عشرون من رجاله في المعركة التي نشبت ، وانسحب عبد الله وهرب تاركا البدو يحاصرون ابراهيم في العمارية . وكانت هذه آخر حملة قام بها عبد الله بن معمر .

لم يكن عبد الله قائداً بارعاً من الناحية العسكرية ، وتعود الشهرة التي كان

يتمتع بها الى ما قام به من اعمال مدنية وادارية باهرة. وفي العيينة وما تركه فيها الدليل الكافي على هذا .

وقد اهلكته الكوليرا ، واهلكت ابنه ابراهيم ، فآلت الامارة الى حفيده الذي كان عليه ان يواجه قوة الدرعية النامية .

اما محمد خرفش فلم يكن الشخصية القوية التي يمكنها الاضطلاع بمثل هذه المهمة . وفيما عدا حادثة زيد بن مزخان التي كان زيد نفسه هو المسؤول عنها فان اول اعماله في تحمل مسؤوليات الحكم لم تكن مشجعة ابداً. اما طرده للشيخ عبد الوهاب بن سليمان ، القاضي ، صديق جده ومستشاره الامين ، فكان هفوة لم يتمكن ان يكفر عنها فيما بعد .



الفصل الثاني

محمد بن سعود



لا نعرف الا النزر اليسير عن التطورات السياسية والعسكرية التي حدثت في العشرين سنة الاولى من حكم محمد. ولكنها مع هذا كانت فترة ذات أهمية عظمى في تاريخ الجزيرة العربية. ولم يكن العامل البارز في هذه الفترة هو أسفار الملوك والقادة، وانما نشوء «الكلمة»، أي العقيدة التي كتب لها ان تكون الوحيَ وصيحةَ الحرب اللذَين ألهما الأجيال القادمة، ويُلهمان، زمننا الحاضر ونحن نرى بدءَ الجسد ينحلّ من جراء القلق الروحي الذي سبّبه «الصوت الصارخ في البرّية».

ولد محمد بن عبد الوهاب في العيينة سنة ١٧٠٣ : وهو ابن عبد الوهاب قاضي عبدالله بن معمر، القاضي الذي كان ابوه الشيخ سليمان بن علي بن محمد ابن أحمد بن رشيد بن بَريد بن مُشرِف بن عمر بن مظهر بن ادريس بن زاخر ابن علوي بن وُهيب، فقيهاً دينياً مشهوراً. وتعود شجرة النسب الثابت لمؤسس الوهابية إلى ستة عشر جيلاً خلَتْ أو قرابة الخمسة قرون. وربما شاهد أحدُ أسلافه، ابن تيمية الأشهر، وهو يَعظُ الناس. فقد كان ابن تيمية هذا هو المصدر الرئيسي في إلهام تلميذه الجديد.

وتوفي جد محمد سليمانُ ، وهو يعمل قاضياً في العيينة سنة ١٦٦٨ . وكان قد ورث ذوقه العلمي والتقاليدَ العائلية ، واكتسب الفقه ومبادىء العلوم الدينية عن جده محمد بن أحمد، وبدوره لقنها ولديه عبد الوهاب وابراهيم .وقد واكب عبدَالله الثاني ابن معمر في حملته على قرية البير سنة ١٦٦١ ، فلعب دوراً مهماً في إحلال السلام كما رأينا سالفاً .

ولا بد انه كان شخصية فذة اذا صح ماقيل من انه أعدّ رسالة في نقطة فقهية معينة هي (الاقناع) ، ولكنه عاد فزقها عندما علم بوجود رسالة اخرى في نفس الموضوع ، كتبها الشيـخ منصور البحوطي Al Bahuti الذي توفي سنة ١٦٤٢ . وكان يُعتبر مـع تلميذه الشيخ محمد الخالوطي Khaluti من أبرز فقهـاء المذهب الحنبلي .

وكان الشيخ احمد بن محمد بن حسن بن سلطان القُصيِّر الذي ورد ذكره في حصار سعدٍ للعشيقير ، حيث كان يعمل قاضياً آنذاك ، من أبرز تلاميذه . ولقد توفي الشيخ احمد هذا ، سنة ١٧٠٢ . كما توفي اخوه ، وابنه محمد اثر اصابتها بالطاعون سنة ١٧٢٦، حين انتشر هذا الوباء فيا وراء سلسلة الطويق حتى الوشم .

اما والد شيخنا محمد، واسمه عبد الوهاب، فلا نعرف عنه شيئاً اكثر من ورود اسمه بمناسبة مولد ابنه الذائع الصيت ، وكونه كان تلميذاً لوالده سليمان . ولا نسمع عنه شيئاً قبل يوم عزله من القضاء في العيينة في أيام محمد خرفش ، عند توليه الحكم سنة ١٧٢٦ . وربما لم يكن في مقدوره ان يخلُف والده في القضاء قبل ان بلـغ عمره ٥٨ عاماً . ولا بد انه كان في حدود الثمانين عندما عُزل من منصبه . وذلك كي يكون في سنٍ تمكّنه من دراسة العلوم الدينية في حياة والده . هذا مع العلم بان نبوغ الشباب كانَ شيئاً عادياً معروفاً في الأوساط الفقهية في الجزيرة العربيـة ، وفي لاسلام بشكل عام . وقد تمثل على صورة واضحة في ابن عبد الوهاب .

وعندما عزل من منصبه وعُين مكانه الشيخ، احمد بن عبد الله بن عبدالوهاب

ابن عبدالله بن عبد الوهاب ، الذي لا يمت اليه بصلة القربى ، هاجر الى حريملة واستقر فيها الى ان توفي سنة ١٧٤٠ م وهو طاعن في السن . وكان ذلك الشيخ راضياً كل الرضى عن تعليم ولده واكبابه على الدراسة لدى عودة الاب من سفرة طويلة . ولقد قيل ان الوالد عمّدَ في كثير من المرات الى حِدّ جماح طموح ذلك الشاب الذي كانت حماسته للعمل في سبيل الله ، قمينةً بأن تفوق مداركه الخاصة ، وفي مجتمع غير مستعد لقبول فكرة ترك الحياة السهلة في ذلك العصر .

كانت مراعاة اركان الاسلام صفةً لجميع اولئك الذين يحترمـون انفسهم في كافة مدن نجد وقراها . الا انهم كانـوا يشفقون على الجهلة ويعطفون عليهم بدلاً من تسفيههم . وكان علية القـوم يترّخصون في تطبيق الشعائر الاسلامية المفروضة بالنسبه للعلاقات الجنسية ويهملونهـا أو يتجاهلونهـا . اما معتقداتهم الخرافية في تأثير السحر والنذور والاضاحي وقوة الأشجار والصخور وشفاعة بعض القبور وأثرها في الرغبات البشرية ، فكانت تدليلاً كاذباً على مدى جهل « السامريين » مـن الناس . وكان في امكان « الفريسيين » ان يزدروهم ويتجاهلوهم ، بسبب ما كان هؤلاء يرتعون فيه من رفاهية في العيش ، وّفرها لهم مركزهم الاجتماعي الرفيع .

ولكن محمد بن عبد الوهاب ، لم يكن ليعتقد بهذا .. لقد أخجله ما عرفه في معاصريه من مخازي واستهتار احدثا في نفسه أعمق الجروح . ومتحليا بالشجاعة التي توارثها عن أسلافه كان على استعداد تام لأن يثور على عالمه في سبيل قضية عظمى في نظره ، متجاوزاً في سبيلها جميـع الاعتبارات الاخرى : كالسلام والرفاهية والشعبية ، وما أشبه ذلك .

ولمّا كان العمل في خدمة مثل هذه القضية يتطلب إعمالاً في الروية واتساعاً في الخبرة ، فقد قرر محمد السفر علّه يستطيع كسب هذه المزايا . ونحن لا ندري

(٣)

بالضبط كم كان عمره عندما باشر في رحلته التي بدت عسيرة للغاية، لولا ان الشيخ وضعها في رأسه، ثم رسم خطتها مدفوعاً بعوامل طموحه. ولا شك ان رحلته هذه كانت قبل عزل والده من منصبه القضائي. ولربما ان الشيخ وصل مكة، الهدفَ التقليدي الأول في مثل هذه الرحلات، ولمّا يبلغ العشرين من عمره بعد. أي قبل سنة ١٧٢٣.

وكان له من النضج العقلي آنئذٍ ما يؤهله لزيارة مراكز العلم الرئيسية الهامة. فقد درس الفقه على والده، وتعمق في دراسة التفسير والحديث. وبعد ان ادى شيخنا فريضة الحج قام بزيارة قبر الرسول في المدينة، حيث مكث طويلاً ليدرس على الشيخ عبدالله بن ابراهيم بن سيف، سليل احدى العائلات البارزة في المجمعة. وكان هذا الشيخ مجاوراً في المدينة، يعلّم فيها انذاك. فدعا الشيخُ تلميذه ليطلعه على الهدية التي أعدها تقدمةً لمدينته، وذهب به الى حجرة زاخرة بالكتب وقال له:

«هذه هي هديتي الى المجمعة».

وعرّفه كذلك على فقيه آخر مشهور اسمه الشيخ محمد حياة السِنْدي المدَني، فجعل الشاب يحضر دروسه في الحلقة.

عاد ابن عبد الوهاب من المدينة الى نجد ـ وربما قام بزيارة مسقط رأسه هناك وان كنا لا نعرف شيئاً عن هذه الزيارة ـ قبل ان يواصل سفره الى البصرة. ومن ثم عزم ان يزور دمشق. وكان محمد في هذا الوقت قد بدأ يسترعي انتباه أوساط اخرى غير حلقات الدرس، وخصوصاً بعد ان درس على يد الشيخ محمد المجمعي، فنال حظوةً في عينيه بما أظهره من غيرة على التحصيل وحماسة في سبيل العمل به.

وما كاد ينقضي بعض الوقت على وجوده في البصرة، حتى أخذ بعض

الاهلين يبدون استياءهم من آرائه المتطرفة . فجعلوا يضايقونه ، ثم طردوه فيما بعد ، من المدينة . وكاد يموت عطشاً وهو في طريقه الى الزبير ، لولا ان رجلا يدعى ابو حميدان انقذه من الهلاك المحتق ، وأركبه على حمارة له بقية الطريق .

حينئذ تخلى محمد عن فكرة زيارة سوريا ، خاصةً وانه كان قد فقد جميع كتبه وموارده المادية اثناء خروجه من البصرة ، ومن جراء ما لاقاه فيها من المتاعب . وهكذا يمم شطر الاحساء حيث استقبله الشيخ عبدالله بن محمد بن عبد اللطيف الشافعي الاحسائي ، بكل حفـاوة واكرام . ثم انطلق مـن هناك الى حريملة لينضم الى والده ، ويبقى معه حتى موت الاخير كما ذكرنا سابقاً .

وفي سنة ١٧٤٠ ترك شيخنا الشاب الحذر جانباً وخرج يبشر بالتجديـد الاخلاقي والروحي . فاعتنق الكثيرون من سكان حريملة المبادىء التي كان يدعو اليها الشيخ ، غير ان قلة منهم أبدوا عدم الارتياح لتطبيقها بحرفيتها على حياتهم الخاصة والعامة. وكان أهل حريملة المدينة وحريملة الواحة ، منقسمين الى شيعتين، كل منهما تخضع لزعيمها الخاص ، ولا تعترف بسلطة الاخرى . ومن شأن هذه الحالة ان تشجع على عدم مراعاة القانون او احترامه .

وكان مما زاد في سوء الوضع وتأزمه وجود جماعة من العبيد العتقاء ، يطلق عليها الحميّان (المحميّين)، ـ يعتقد انهم طبقة مـن المزارعين ـ يعملون في الزراعة والري في كثير من الواحات العربية . فأصرّ محمد على ان يطبق الشرع على هذه الفئة بشكل خاص . وكان هؤلاء كثيرين ، وعـلى غير صلة بالأخلاق الحميدة ، فاحاطوا ببيته يريدون به شراً ،غير ان الجيران تدخلوا وطردوهم .

ومن ثم ، عمل محمد بنصح أصدقائه وقرر مغادرة المكان المتنكر لرسالته الأولى ، والعودة الى مدينـة العيينة ، حيث كان عثمان بن حمد بن معمر يحكم آنذاك ، بدلاً من أخيه محمد خرفش . (الا اننا لا ندري كيف تم ذلك، ومتى

حدث هذا التغيير) . وقد وجد محمد في عثمان شخصاً يفضُل سلفه الفظ . فاستقبله الامير بالحفاوة والتكريم ووجد فيه الشيخ تلميذاً مستعداً لتلقي تعاليمه .

ولا شيء أدل على تقدير الأمير لمحمد من تزويجه اخته جوهرة التي سبق ذكرها في كفالة حسن نية ابن أخيه خرفش .

وفي هذه المرحلة بالذات بدأ محمد يحلم بالنصر الدنيوي والروحي في القضية التي نذر حياته لها . فقال محمد لعثمان ما معناه : « اني لآمل في ان يأخذ الله العلي القدير بيدك ، ويهبك نجداً وعربانها ، اذا وقفت الى جانب الله الواحد الأحد » .

وهكذا بدأ الاتفاق بين رجل الدين وصاحب الدنيا ، الشيخ والأمير . فأخذ الشيخ في السير قدماً في طريق تحقيق رسالته ، وجعل التمسك بالفضيلة ونبْذ الرذيلة جماع أوامره التي كان يصدرها في مدينة العيينة كل يوم في الصلاة . ومع مرور الايام وجدت الحركة الجديدة الكثير من الانصار المتحمسين .

اما اختبار قوة هذه الحركة الجديدة وثباتها في وجه افعال خصومها فلم يتغير . لقد استأجر انصار محمد خادماً ليقطع بعض الأشجار التي كانت مقدسة في عيون الجهلة . فتم العمل بحكمة ، ودون ان يثير الدهشة بين صفوف الشعب .

وبقيت هناك شجرة واحدة كانت تعتبر اقدس أخواتها جميعاً . فقرر محمد ان يقوم بقطعها بنفسه . ولما بلغ ذلك المكان ، وجد راعياً يجلس تحتها حاول منعه من الاقتراب منها . ولكن محمداً وهبه ثوباً من ثيابه ، فما كان من الراعي الا أن استجاب . وخفت صوت ضميره ، وسقطت الشجرة تحت ضربات فأس الامام .

وسرعان ما اشتهر محمد باخلاصه وشجاعته في طول البلاد وعرضها ، فتبعه سبعون رجلا من علية القوم في البلاد وأصبحوا تلاميذه .

ومع هذا النجاح الذي أصابه.. فقد كان عليه ان يواجـه متاعب المستقبل ويتغلب عليها . فأولى اهتمامه شأن قبر زيد بن خطاب، وكان ذلك الضريح مزاراً ذا قدر كبير من التبجيل والتقديس في جُبيلة . وسمح الأمير لحليفه بان يهدم ذلك القبر ، فألح محمد عليه ان يرافقه اليه.. وتم لمحمد ذلك بصحبة ستمائة رجـل . وقد تجمهر أهل جبيلة ليحولوا دون هدم الضريح،ولكن عثمان امر جيشه باستعمال القوة ، فانسحب سكان القرية . الا ان عثمان امتنع عن هدم الضريح لدى وصوله المكان فاخذ محمد معولاً.. فهدمه بنفسه.

وتوقع السذّج والبسطاء من الناس ان يصاب محمد بمصيبة اثناء الليل ، مجازاة له على عمله الفظيع . ولكن الشك بدأ يخامر قلوبهم عندما ابصروا محمداً حياً يرزق ويتمتع بصحة جيدة في اليوم التالي .

وجاءت بعد هذا حادثة المرأة الزانية واعترافها بفعلتها.وكان في هذه الحادثة اختبار عظيم لإخلاص الامام في نظر أعدائه . فقد كانت مسألة موت أو حياة ، وقضية تتعلق بمصير امرأة !

ولم يشأ محمد ان يصدر امره بقتل امرأة بدون ارادة الله . فحاول بكل وسيلة ممكنـة لديه ان يجد منفذاً في كتب الفقه ، لينقذ حياة المرأة الزانية مـن حكم الشرع . الا انها كررت اعترافها بالزنا ورفضت ان تسحب أية كلمة قالتها بهذا الصدد . ولم يتراجع محمد وهو يواجه المحنة. لقد أصدر حكمه بأن « تموت المرأة الزانية » . ونفذ فيها ذلك رمياً بالحجارة . فوصلت شهرة محمد الى عنان السماء .

انتشر خبر هذه الحادثة في كل مدينة وقرية في الصحراء فاحدث استياءً عند البعض،وأثار اعظم الاهتمام والتأمل في البعض الآخر.ولما رويت الاخبار في مجلس سليمان بن غرير الذي خلف اخاه علياً في زعامة بـني خالد وامارة الاحساء ذعر وغضب . فكتب الى عثمان يحتج على اعمال هذا الرجل الذي احتمى به ،ويطلب اليه ان يحكم عليه بالموت ، والا فانه سيمتنع عن تقديم المؤن والاموال التي اعتاد

تقديمها الى العيينة في كل سنة . وكانت هذه المنح بمثابة مبالغ تُدفع لتأمين حقوق تجار الساحل في المتاجرة مع المنطقة الداخلية وتأمين سلامتهم. فهي ليست جزية على الاطلاق . وكانت تبلغ الالف والمائتي قطعة ذهبية (احمر) مع كمية مساوية من الأطعمة والبضائع .

لم يكن بمقدور عثمان التضحيه بمثل هذا الكنز الارضي، فلم يكن في وضع يمكنه من مجابهة أي هجوم يقوم به بنو خالد مهما كان حماسه للحركة صادقاً ومهما كان اخلاصه لصاحبها عظيماً . اما جواب ضيفه فكان « لايخشى الامير اعداءه ما دام يثق بالله ويخافه . »

وبعد اخذ وردّ ، قرر عثمان إن يتخلص من ضيفه ، كي يحول دون أمير الاحساء وتنفيذ ما انذر به .

فطلب الى محمد أن يختار المكان الذي يريد الذهاب اليه فاختار الدرعية .
وحينئذٍ أرفقه الأمير عثمان بخفير من عنده اسمه فُريد. وكان قد كلّفه ان يقتل الشيخ في الطريق حين يصلان مغارة يعقوب . ويعقوب هذا درويش صالح قُتِل في ذلك الموقع ، فأقيمت عليه قبّة ومزار . غير ان فُريداً خذلته ارادته ، ولم تطاوعه نفسه ان يقترف تلك الجريمة . فما ان وصلا مزار الدرويش حتى قفل فُريد راجعاً دون ان يمس الشيخ بسوء . وهكذا كان الشيخ يُرى وهو يسير في الوادي ، لايحمل بيده الا مروحة من الخوص يلوّح بها على وجهه طرداً لحرارة الشمس .

ولدى وصول الشيخ البلدةَ عند الظهيرة، حلّ ضيفاً على رجل يدعى محمد بن سويلم العريني في المنطقة العليا من الواحة . ولقي عناءً عظيماً في تهدئة مخاوف مضيفه ، واكد له أن الله سيباركه ويحميه من غضب محمد بن سعود . وعرف بعض اصدقائه بمقدمه ، فزاروه في المدينة سراً وتلقنوا شيئاً من مذهبه .

وأخذوا شيئاً فشيئاً، يفكرون في الوسائل التي ستؤمن حماية الأمير لهذا الزائر

العظيم . فقرروا ان يستخدموا جاه موذي، زوجة محمد بن سعود. فهي التي اخبرت زوجها بالامر وطلبت اليهان يقدر هذاالكنز الذيساقته اليه العناية الالهية.

وهكذا تقرر أن يقوم الأمير بزيارة الشيخسيراً على الاقدام حتى يشهد الناسُ مبلغ التعظيم الذي حباه الأمير به ، فيقتدي السكان باميرهم ويشاركوه حماسته في الترحيب ، أحر الترحيب ، بالشخص الذي كان يعتبر صانع العجائب .

وقال الأمير « مرحباً بك في بلاد خير من بلادك : انك ستلقى منا كل تبجيل ومساعدة » . فرد عليه الشيخ قائلاً : « ثق ان الله يمنحك المجد والقوة ، لأن الذين يؤمنون بالله ويعملون في سبيله ، لهم البلادُ وما عليها ، فالله هو الرب الواحد الاحد الذي بعث جميع الانبياء من آدم الى محمد » ، أوشيئاًبهذا المعنى .

ويجدر بنا ان نذكر بان الانبياء الكبار كما ذكرهم ابن بشر في مقدمته وقال عنهم ، هم اولئك الذين قادوا الانسانيـة في اعلاء كلمة الله في جميع الاطوار وازدهار الاسلام نفسه من امثال آدم ونوح وابراهيم واسماعيل واسحق ويوسف وسليمان وعيسى ومحمد .

وهكذا توطد التحالف بين الامير والامام سنة ١٧٤٥. ولكن محمداً بن سعود طلب من الشيخ تأكيداً بالنسبة لنقطتين وقال :

« اخشى ان انا ساعدتك وكسبنا الدنيا إن تتخلى عني لتبحث عن حظك في مكان آخر . ثانيا : ان تترك لي بموجب قوانين البلاد حـق جباية الضرائب من رعاياي والفوائد الزراعية والتجارية وان لا تطلب الي التنازل عن هـذا الحق »
فاجابه الشيخ قائلاً : « اما من ناحية المسألة الاولى فهات يدك اعاهدك على ذلك، واما بالنسبة للمسألة الثانية فربما انالك الله فتوحات كثيرة تعوضك عنها بالكثير من الغنائم والاسلاب الحربية التي تفوق ما تتقاضاه من ضرائب »

فمد الأمير يده للشيخ وتعاهدا على الاخلاص لدين الله ونبيه والقتال في سبيله .

وانتقل الامام الآن من بيت محمد بن سُويلم الى المكان الذي اعدوه له في المدينة. فتقاطر الناس من كل حدب وصوب كي يسمعوا وعظه، وهجر الكثيرون من انصاره مدينة العيينة وساروا الى الدرعية ليعيشوا في ظلال الطهر والقداسة .

وقد طرق سمع عثمان نفسه ما جرى في العاصمة المنافسة لعاصمته ، فخشي على نفسه ، وندم على فعلته ، وسار في موكب رسمي من وجهاء العيينة ، ليزوروا الشيخ في مقامه الجديد .

وهناك طلب اليه العودة، واعداً اياه بالمعاملة الحسنة الشريفة والمساعدة المخلصة. ولكن الشيخ أجابه قائلاً : ليس هذا الامر من شأني بل من شؤون محمد بن سعود، فاذا رغب ذهبت معك ، وان ابى بقيت عنده ، فلن اتخلى عن صديق في سبيل صداقة آخر » . فعاد عثمان الى بلاده خائباً .

اما اللاجئون الذين وفدوا الى الدرعية فقد اصيبوا هم أيضاً بخيبة أمل اذ كانوا في قرارة انفسهم يتمنون الخلاص .فالدرعية لم تكن بالعاصمة الملكية انذاك مثلما كانت في ايام ابن بشر . كانت مواردها ضئيلة لدرجة ان اولئك الذين جاءوا لتلقّي العلم على يد الشيخ لم يجدوا بدآ من ان يعملوا ليلاً كي يؤمنوا معيشتهم .

وقد أقام الشيخ في وسط بساتين كثيرة للنخيل في ضاحية البجيري . اما امراء آل سعود وأتباعهم فكانوا في قلعة طريف. وامست البجيري هذه، المركزَ الثقافي للعاصمة. وكانت هناك اسواق تقع على اطراف المسيل منها ما كان مخصصاً للرجال واخرى للنساء .

على هذه الصورة كانت بداية انطلاق الحركة الإصلاحية التي وصلت موجتها الى أقصى البلاد العربية ثم تجاوزتها الى ما وراءها . . كانت دروس الشيخ علنيةً ، يحضرها الأمير والمزارع والفقير بدون تمييز . فقد كانوا جميعاً في مسيس الحاجة الى الاطمئنان الروحي ، وفي حمأة اليأس الذي غرق فيه العرب طوال سني الجهل

والاهمال . وكانت المعاصي، الصغرى منها والكبرى، شائعة في الاحياء الراقية والغير الراقية على السواء . لقد اهملوا الصلاة وتوقفوا عن تقديم الصدقات التي كانت فرضاً عليهم .

وبدأ الشيخ بنفسه اولاً ثم على نطاق محدود في العاصمة . ومن بعد ذلك على نطاق أوسع . وهذا صحيح . فبدون قوة حربية وموارد مالية كان لا يستطيع عمل شيء غير الاقناع . فأخذ يستدين المال ليقوم بأود طلابه . ويقال إن ديونه بلغت اربعين الف محمدي يوم فتح الرياض .

وكان هذا المبلغ كبيراً في تلك الايام . الا ان ديونه جميعها أوفت بها حصتُه في الغنائم الحربية من المدينة المنافسة ، ونصيبُه من الزكاة التي جمعتها الحكومة .

وقد ادخل الامام في عقول طلابه مبادىء فريضة الجهاد المقدس فوجد الكثيرون منهم في الجهاد اقدس تعاليمه ، اذ أنه يتفق مع ما اعتاد عليه العرب .

كما خصص خُمس الاسلاب للخزينة المركزية، التي كان الامير والامام يتقاضيان منها ما يقوم بأودهما ، وما يحتاجان اليه في سبيل القيام بمهمتهما .

ويبدو ان الأمير والشيخ كانا متفقين تماماً في كل تصرفاتهما كما لو كانا شخصية واحدة لها وظيفتان في الحياة . ويقال بان محمداً بن سعود وخليفته عبد العزيز، لم يقوما باي مشروع او يصدرا اي قرار ذي شأن الا بموافقة الشيخ وبركته . وقلما نجد لهذا التعاون المتسق الذي دام زهاء نصف قرن مثيلاً .

هكذا كان سلطان الشيخ في تصريف شؤون البلاد بعد مرور سنة اوسنتين . . لقد أصبح يعتبر شريكاً مؤسساً . وعندما بدأ الشيخ بنوء تحت وطأة اعباء حكم الدولة المزدهرة الآخذة في الاتساع تنازل لعبد العزيز عن حقه في المسؤوليات التنفيذية في شؤون السياسة والمالية، الا ان عبد العزيز ظل يستشيره في كافة الأمور .

ولنعد الآن الى نجد لنبحث اوضاعها يوم ظهر هذا النظام الجديد في الدرعية سنة ١٧٤٥ . .

كانت الاحساء والعيينة، وهما المنافستان الرئيسيتان للدولة الوهابية، تحت ادارة حكام تولوا الحكم من جديد خلال الثلاثين سنة الاولى من القرن الثامن عشر. ونعني بهما سليمان بن محمد بن غرير، وعثمان بن حمد بن معمر.

وفي التخوم الشرقية من الدرعية وفي نفس الزمن تقريباً، نشأت دولة كانت لسنوات خلت، اصلب واقوى خصم للدولة الوهابية. ولنعد قليلا الى الوراء لنقف على تاريخ نشوء امارة الرياض.

لقد بدأت القصة في منفوحة سنة ١٦٨٢م. وذلك عندما قام دوّاس بن عبد الله بن شعلان، زعيم المدينة، بذبح بعض الزوار الذين جاءوا الى المدينة من عائلة جلاجل في السدير. ومع اننا لانعرف التاريخ الموثوق فيما بعد ذلك؛ فان اتجاه الاحداث كان واضحاً. فعندما توفي دواس سنة ١٧٢٦، خلفه محمد، اكبر اولاده الستة. الا ان ابن عمه عبد الله بن فارس بارزه وقتله وطرد جميع اشقائه من منفوحة، واغتصب الزعامة فيها لنفسه.

اما الاخوة، ومن جملتهم دهام، فقد التجأوا الى الرياض. وكان يحكمها زيد ابن موسى. فحالفهم النجاح في منفاهم. واما زيد فقد قتله عبد يدعى خميس، اغتصب الحكم مدة ثلاث سنوات. ولكنه في نهايتها، هرب لدى سماعه باخبار مؤامرة يدبرها اهل البلدة لاقصائه عن الحكم، وذهب الى منفوحة حيث قتل. واصبحت الرياض الآن دون امير.. فتولى الحكم فيها دهام بن دواس باسم ابن اخته الناصر ابن زيد. وكانت اخته أرملة زيد بن موسى. وعندما استتب له الحكم، طرد ابن اخته من الرياض واغتصب إمارتها.

وبالنظر لطول حكم دواس في منفوحة، اذ انتهى سنة ١٧٢٦، وبما أننا نجهل بدايته، فليس لنا الا ان نفترض حدوث هذه الاحداث في زمن ما، يقع بين سنة ١٧٢٦ و ١٧٤٥. وربما كان ذلك سنة ١٧٤٠.

وليس لدينا سجل بالاعمال العدائية والمنازعات بين الرياض والدرعية خلال

المدة التي سبقت وصول الشيخ . الا انه في بدء سنة ١٧٤٦ قام دهام بمعاونة جماعة من بدو السمدة (ظافر) بهجوم على منفوحة . وتلا ذلك معارك قاسية كانت خسائر الطرفين فيها فادحة جداً . لكنها بدون فائدة تذكر . وظل الامر كذلك حتى وصلت نجدات قوية من الدرعية تحت إمرة ابن اميرها عبد الله وحنيئذ وقع المهاجمون بين القوة المحاّصرة والنجدة فحاولوا جاهدين ان يشقوا طريقهم وسط النجدة ، ولكن دهام نفسه ُجرح مرتين وُقتل جواده تحته .

ومن ذلك الحين أصبح علي بن مزروع الذي خلف عبد الله بن فارس في زعامة منفوحة ،حليفاً طبيعياً لابن سعود في كفاحه الطويل لاخضاع أمير الرياض. فاستؤنفت المعارك في الحال . وارسل ابن سعود قوة من الجند تحت جنح الظلام، بعد حادثة المنفوجة ،لتدخل المدينة . وكانت منفوحة في تلك الأيام على تلة وراء اشجار النخيل الى الغرب من موقعها الحاليّ . فنجح المهاجمون في اقتحام بيوت ناصر بن معمر ، وتركي شقيق دهام . ويبدو انهم لم يفعلوا اكثر من نهب عدد من الجمال .

ثم أخذ دهام زمام المبادرة وهاجم العمارّية فقتل زعيمها وعقر بعض جمالها. وما كاد يسمع محمد بما جرى حتى سارع يقطع الطريق على الغزاة ، ويوقعهم في كمين نصبه لهم في احد الأودية . لكن دهام علم بالمكيدة فقرر بدوره ان ينصب كميناً لمحمد في الوادي نفسه .

والتقى الفريقان .. كلّ قبالة كمين خصمه .. فسقط عدد من القتلى اثر معركة حامية الوطيس نشبت بينهما،وبعد ذلك بقليل نشبت معركة اخرى على مقربة من الرياض،اشترك فيها محمد بن سعود وعثمان بن معمر ، وكان عثمان قد تخلى عن الشيخ وحكومة الدرعية . وتعرف هذه المعركة بمعركه الشيوخ .

وعندما وصل المهاجمون الرياض انقسموا الى فريقين ؛ فريق هاجم ضواحي المدينة ،و فريق آخر كان عليه ان ينصب كميناً لمن يخرج من اهل الرياض للدفاع عن أملاكه .

وقد نشب القتال الرئيسي حول تلة « الوشام » قرب المدينة . وكان بفضل مفاجأة الكمين لدهام ان سارع هذا لحماية اسوار مدينته نفسها. وكان بين القتلى شيخان سميت المعركة باسمهما. ثم نشبت معركة اخرى عرفت باسم معركة العبيد ، لان معظم الذين قتلوا فيها من مدافعي الرياض كانوا من العبيد . جميع هذه الاشتباكات حدثت في نهاية سنة ١٧٤٦ م .

وفي اوائل السنة التالية ، نقل دهام القتال الى الاراضي الوهابية واتّبع نفس الخطة في نصب الكمين المعتاد . فخرج أهل الدرعية للقائهم، ولكن الغزاة هربوا بغير انتظام كي يستدرجوا الناس للكمين الذي نصبوه لهم . وهذا ما تم بالفعل فقتل في المعركة اللاحقة ولدا محمد بن سعود، فيصل وسعود. فجهز محمد حملة معاكسة على الرياض بجيش جمعه من منفوحة وحريملة بدون مساعدة العُيينة . وكانت هاتان المدينتان قد انضمّتا الى الحلف الوهابي . وكان لسوء حظ محمد ان وُجد في صفوف حريملة رجل خائن ، انسلّ فأنذر دهام بالهجوم المقرر عند الفجر . وعند هجوم محمد على المدينة وجد أهلها على أهبة الاستعداد لملاقاته . فنشبت معركة « دَلَقة » او « الشراك » ، ومني الطرفان باصابات كبيرة .

وتجدد القتال في سنة ١٧٤٨ . وكان عثمان بن معمّر قد حشد خليطاً من الرجال من الدرعية والعيينة ، كما اشترك في المعركه جند من حريملة وضُرْمه.

أما عبد العزيز بن محمد فكان قائد رهط الدرعية ، ولكنه كان تحت امرة عثمان الذى زوّجه من ابنته . فدار القتال الرئيسي في ضاحيتي المقْرَن وسيّاح . وكاد المهاجمون أن يستولوا على الموقعين، لولا ان قوة خرجت من المدينة فاحدثت توازناً معقولاً . وقد قاتل الطرفان قتالاً مريراً ، غير ان الوهابيين أكرهوا على الارتداد، مخلّفين وراءهم أربعين قتيلاً كان معظمهم من جند حريملة. وعرفت هذه الواقعة بمعركة « البنيّة » .

ثم جهز محمد حملة على ثرمدَة في اقليم الوشم . ونصبوا نفس الكمين

المعتاد، فانهزم سكان المدينة لدى خروجهم للقتال وفقدوا سبعين من رجالهم، بينا لجأ الباقون الى مزرعة خارج المدينة . فشدد عبد العزيز، وكان معه في هذه الحملة، هجمته على ثرمدة الخالية من السكان ، الا ان عثمان رفض ان يسمح له بذلك، الامر الذي دعاه الى ان يرتاب في اخلاص عثمان للقضية. وقد أخبر عبد العزيز محمداً بن سعود والشيخ بما حدث ، غير انهما لم يتخذا أي اجراء . وذلك لأن عثمان عاد فجهز حملة صغيرة على ثرمدة ، ومن هناك هاجم ثادق فقتل عدداً من الناس واستولى على بعض الاغنام .

وقاد محمد بنفسه حملة اخرى على الرياض سنة ١٧٤٩ ، فهاجم مقاطعة الحبُونيَّه عند الفجر ولكنه وجد السكان على أتم الاستعداد. فاقتصر القتال على اطلاق النار من بعيد وقليل من الاصابات . ومرت البلاد في اوائل السنة بموجة من الصقيع والبرد الشديد، الذي أتلف المحاصيل وأدى الى سنة عجفاء من تلك التي تميز بها تاريخ الجزيرة العربية . وفي نهاية هذه السنة بالذات ، منع الشريف سعود ابن سعد امير مكة ، حجاج نجد من الحج وأجبرهم على الإقامة في أحد المحاجر الصحية فمني الحجاج بخسائر فادحة في الارواح .

وفي سنة ١٧٥٠ ازداد الشك في نفس الحلف الوهابي في اخلاص عثمان بن معمر، فقُتل عند انتهاء صلاة الجمعة في جامع العيينة الكبير. وقد ذُكر انه اتصل سراً بمحمد بن عفالق في الاحساء واتفق معه على خيانة الدولة الوهابية وعدم الولاء لها . ولذلك قتله نفر من العيينة نفسها ، هذه المدينة التي كانت آسفة لفقدها محمد بن عبد الوهاب ، وكان عثمان هو وحده المسؤول عن ذلك بالرغم من توبته واعتناقه المذهب الجديد .

ويقول ابن بشر « ان الدين الحنيف لا يحابي الوجوه » . وقد لاقى قتل صهر وارث العرش استحساناً في الدرعية ، وكان ابنه يبلغ من العمر سنتين يوم ذاك .

وفي السنة التالية قاد محمد بنفسة حملة على الرياض تميزت بنفس الضرواة .

فنشبت المعركة بين رجاله وجماعة خرجت من المدينة ، حول بئر « مروى » في مسيل البُطيحة،فعرفت المعركة باسمها .

هذا،كما نشبت معركة اخرى حين خرجت جماعة من ثَرمدة تحت أُمرة زعيم العيينة الجديد،،مشاري بن ابراهيم بن معمر ابن عم عثمان الادنى . وكان يرافقه في هذه الحملة عبد العزيز على رأس جيش الدرعية . وكان أهل ثرمدة على علم بالحملة فحصلوا على نجدة من العُثَيْثية وَمرَّة ، جيرانهم . وخرج أهل ثرمدة للقاء العدو خارج المدينة ، فوقعوا بالشرك الذي نُصب لهم . وحينئذ اضطروا إلى التقهقر إلى قريتهم، فاكتفى الغزاة ببعض الاسلاب والغنائم ثم عادوا الى بلادهم وقتل في هذه المعركة، علي بن زامل زعيم العثيثية وعرفت المعركة باسم الْواطِيَة.

ثم غزا الوهابيون الرياض في نهايــة السنة أو بداية سنة ١٧٤١م . ولكنهم أصيبوا بنكسة ، فوصلوا منطقة عَــوْدةَ جنوب شرقي المدينة . ولكنهم طوردوا وتكبدوا بعض الخسائر . وكان من بين القتلى ، علي بن عيسى آل دروع وهو قريب بعيد للسعوديين .

وفي هذه الأثناء حدث أمر خطير للغاية مع جماعة من أقرباء البيت السعودي كانت قد ارتدت من الدرعية الى ضرمه مع عبد الرحمن بن ابراهيم الذي كان الجدّ الرابع لمحمد بن سعود . اما محمد بن عبد الرحمن فقتل أثناء اضطرابات عادية وقعت بين جماعته وبين جيرانهم سنة ١٦٨٤م. وربما كان حفيده ابراهيم هو الذي قاوم الحركة الوهابية ، فقتل عدداً كبيراً من انصارها البارزين فى مدينته ، وكان من جملتهم رشيد العزّازي . وبعد بضعة أشهر فاجأه الوهابيون مــن أقارب رشيد في الجامع فقتلوه مع ولديه هبدان وسلطان . وهكذا كانت نهاية هذا الفرع من العائلة . فأقام عبد العزيز رجلاً يدعى عبدالله بن عــبد الرحمن (المريدي) أميراً عليهم بينما كان في طريقه لغزو زلفي ، متظاهراً بزيارة ضرمه .

وقد شهدت سنة ١٧٥١ ـ ١٧٥٢ خصباً وخيراً كثيراً بعد الجفاف والهلاك

الذي أصاب المحاصيل . وقام في السنة التالية جيش مشترك مؤلف من أهل السدير والمُنَيْخ وزلفى والوشم وبني ظافر ، تحت امرة فيصل بن سويط ، فهاجم واحة الرغابة واعمل فيها السيف بلا رحمة . وتوفي في هذه السنة الشيخ محمد حياة السِندي معلم محمد بن عبد الوهاب أثناء طوافه بالمدينة . اما المناوشات العسكرية الوهابية في هذه السنة فكانت محدودة ، اذ اقتصرت على غزوة صغيرة على الدِّلَم ، عاصمة الخرج ، وانتهت بنشوب معركة في منطقة العفجة Afja في وادي حنيفة . وحاول أهل الدِّلم في هذه المعركة ، استرجاع ابلهم وأغنامهم ولكن جهودهم باءت بالفشل .

وفي السنة التالية كان لدى الوهابيين امور جد خطيرة تشغل أفكارهم . إذ يبدو ان أهل حريملة التي كان سليمان شقيق الشيخ نفسه يشغل منصب القاضي فيها، قد ملوا طقوس المذهب الجديد الصارمة ، فثاروا على أميرهم محمد بن عبدالله بن مبارك وعزلوه وطردوه واختاروا عمه عَدوان ، وابنه مبارك ، وأخاه عثمان ابن عبدالله ، وآخرين من أعيان المدينة ليرافقوه الى منفاه في الدرعية . وبعد ذلك بقليل اقترفوا خطأ .. اذ عادوا الى المدينة ملبين بذلك دعوة اقربائهم من عشيرة آل حمد .

ولكن أفراد عشيرة آل رشيد هاجموهم في الحال لغاية في نفوسهم، فقُتل الأمير المعزول وثمانية آخرون من أتباعه . اما مبارك ابن عدوان فقد نجا بنفسه والتجأ الى الدرعية .

وفي السنة التالية رافق مباركُ عبدَالعزيز بن محمد بن سعود في حملة تأديبية على حريملة ،فنجم عن ذلك قتال عنيف نهبت فيه المزروعات ومزارع النخيل،ولكن المهاجمين لم يتمكنوا من اخضاع المتمردين من رجال المدينة .

وفي هذه الفترة بالذات قررت منفوحة ايضاً ان تنسحب من حلف الوهابيين وتقاتلهم . وحاول عدد من الذين لجأوا الى ضرمه أن يعودوا الى بلادهم بعد

ان تغيرت الأحـــوال ولكنهم مُنعوا بالقوة، بالرغم من مساعدة أصدقائهم من السدير والوشم . ويبدو ان الأمير الجديد لم يتمكن من اقناع السكان بالعودة الى الأخذ بالمذهب الوهابي. وهكذا كانت السنة على العموم تتميز بتقهقر الوهابية.

ووقعت اضطرابات في اراضي بني خالد كان من جرائها ان ظهرت شخصية قدِّر لها ان تكون شوكة في صدر الوهابيين في السنوات التالية . فقد ثارت عشيرة المهاشر Mahashir على سليمان فهرب الى « الخرج » حيث توفي بعد وصوله اليها بقليل . وتولى الزعامة عريعر بن دُجَيْن الذي احتفـــل بتوليه المنصب بقتلة زعار بن عثمان حفيد غرير الأعلى . ثم ثار عليه رجـــل من بني خالد يدعى حمادة ونجح في اجباره على الفرار . فلجأ الى حريملة ولكنه عـــاد وأجبر حمادة بدوره على الفرار الى الشمال .

وحين وطد عريعر مركزه قام ابن عمـــه عبدُالله بن تركي بحملة على بني ظافر قرب زلفي فتغلب عليهم وغنم أموالهم.

وفي هذا الوقت بدأ دهام يتبرم بالقتال بالرغم مـــن فترة الهدوء الطويلة والمتاعب التي كانت تواجه الوهابيين . ففي نهايـــة سنة ١٧٥٣ أو أوائل السنة التالية قرر أن يبدأ بالمفاوضات ، فأرسل رسولا الى الدرعية مع هدية فاخرة من الخيول والأسلحة النارية ، ليقترح عقد الهدنة . وليؤكد دهام ولاءه لمحمـــد بن سعود ولمذهبه ، طلب ارسال معلم الى الرياض . فاختار الشيخ رجلاً يدعى عيسى ابن قاسم وأرسله الى هناك .

وهكذا ، دخلت الرياض حظيرة الوهابيين ، فساد السلام فترة من الزمن . وفي هذه الأثناء بدأ الاضطراب يسود ضرمه بسبب مقتل أربعة اخوة من عشيرة السَّايرة ، احفاد سيف بن ابراهيم . وكان مقتلهم على يد الأمير الجديد محمد بن عبدالله « المُرَيْدي؟ » . وكان هذا وهابياً مخلصاً ينحدر من سلالة عبد الرحمن التي اندثرت يوم ثارت عشيرة سيف وقتلت آخر أمرائها الأمير ابراهيم وولديه قبل بضع سنين .

ويبدو ان عشيرة سبف هذه تمردت بعد عزل الأمير الحاكم وبدأت تقاوم الوهابيين جهاراً ، وأخذوا يظلمون السكان ويبدون احتقارهم للسلطة. فنُقل الأمر الى الدرعية . وبعد ان تداول الشيخ مع محمد بن سعود في ذلك،خوّلا الأمير المحليّ السلطةَ المطلقة، كي يعمل حسبما يراه مناسباً في تلافي أية ثورة واضطراب . وأخذ هو بدوره يستشير بعضاً من زعماء المدينة.. فأشاروا عليه بأن يعمل على اخضاع المتمردين نهائياً . ولكن في شهر تشرين الثاني من نفس السنة قام رجل يدعى الغفيلي بالاشتراك مع أهل «مرّةَ» وتعهد بأن يساعد أمير ثرمدة ابراهيم بن سليمان في محاولته تحطيم نير الوهابيين في ضرمة . أما أمير ضرمة فقد توجس شراً وطلب النجدة من الدرعية . فأسرع محمد بن سعود نفسه لانقاذه ووصل اليها في نفس الوقت الذي وصل فيه الغفيلي وأتباعه من الوشم . فدحر الغفيلي وأفقده ستين قتيلاً .

ووجه محمد انتباهه الآن الى حريملة ، فأرسل اليها عبد العزيز في غارة من ثمانمائة رجل في أوائل سنة ١٧٥٥ . فوصلها في الليل ، ووزع رجاله ونصب كمينين ، وكان هو نفسه على رأس احدهما في شعيب العويجة ، ومبارك بن عدوان مع مائتين من رجاله في الجُزَيْعْ .

وتقدمت القوة الرئيسية نحو المدينة فخرج أهلها الى لقائهم ولكن اشتراك الكمين الأول في المعركة لم يكن كافياً لقلب ميزان القوى . غير ان الكمين الثاني الذي شق طريقه لقطع الاتصال بالمدينة قلب الميزان . ولم يستطع المدافعون الصمود فتقهقروا وتفرقوا بين أشجار النخيل وعلى الطرقات ليحتموا بها بعد أن فقدوا مائة قتيل .

وعاد عبد العزيز ، لغايه في نفسه الى الدرعية، تاركاً لمساعديه الاستمرار في العمليات الحربية . وما كاد يفعل ذلك حتى قام أحد هؤلاء القادة ، محمد بن عبد الرحمن امير ضرمة مع ثلاثة عشر من رجاله فدخل المدينة واحتلها بدون أي مقاومة . فعاد عبد العزيز في الحال ليعالج الوضع واعلن العفو عن كل أصحاب

النوايا الحسنة . فيما عدا بعض أفراد من آل رشيد الذين اقترفوا الجرائم ضد القانون المدني. وسمح للوهابيين المنتصرين آن ينهبوا المدينة ومزارع النخيل. وعيّن مبارك بن عدوان اميراً بدلاً من ابن عمه الذي قتل .

وهكذا عادت حريملة الى حظيرة الوهابيين في الرابع عشر من آذار سنة ١٧٥٥ .اما القاضي سليمان بن عبد الوهاب فهرب من المدينة ماشياً اثناء اشتداد الثورة ووصل السدير بأمان .

وفي الرياض . ملّ دهام السلمَ كما سئم الحرب من قبل . وفي هذه السنة أخذ زمام المبادرة فإبتدأ المرحلة الثانية من صراعه مع الدرعية . وقد هب لمساعدته أمير منفوحة محمد بن فارس ، وابرهيم بن سليمان زعيم ثرمدة الذي جمع حوله جميع المتبرمين من الوضع، في الوشم والسدير وثادق وحريملة .

وكان هدفهم الاول انقاذ حريملة من يد الحكم الوهابي . فتجمعت القوات التي كانت تحت أمرتهم في الحسِّيان ، وهو مكان للسقاية في أعالي الوادي . وهناك هاجمهم مبارك بما لديه من القوات ، وبدأ يناوشهم حتى وصلته النجدة من الدرعية . ولدى رؤيتهم ذلك ، تراجعوا مذعورين ، فلجأت بعض قواتهم الى المزارع ومكثوا فيها خمسة أيام . فهرب في أثنائها من تمكن من الهرب اما الباقون فأبيدوا . وكان ساري بن يحيى زعيم الثادق احد الذين فروا ، بينما فقد الحلفاء في معركة « الدار » هذه ، ستين قتيلاً .

وكان ذلك في شهر آب او أيلول من سنة ١٧٥٥ .

أما السنة التالية فقد تميزت بالهدوء فيما عدا هجوم صغير شنه عبد العزيز على منفوحة ، ووصول وفد من قرية القُوَيعية Quai'ya لزيارة امير الدرعية والشيخ ، لتأدية الولاء لهما . وكان العام كثير الامطار جيد المحاصيل والمراعي ، الامر الذي ادى الى الحد من النشاط الحربي . ولكن شتاء سنة ١٧٥٦ ــ ١٧٥٧ شهد استئناف الاشتباكات . وكان اولها معركة سدّ الرِشاء Risha التي حولت رحى المعارك من وادي حنيفة الى مزارع النخيل في منفوحة.وكان هذا هوهدف

عبد العزيز الرئيسي . فاحتل بعض المزارع وبدأ في هدم السد الذي كان مبنياً من الصخور الضخمة المدعومة بابراج مستديرة . وفي أثناء الاشتباك خرج دهام من الرياض،فنشبت معركة حامية الوطيس، قُتل فيها عشرة من الوهابيين وثلاثة من اعدائهم .

اما زمام المبادرة فكانت الآن لسكان الوشم حيث كانت الشقرا عاصمتهم ، المركز الوحيد للوهابيين . وقيل ان سكانها كانو اول طائفة إعتنقت مذهب الوهابية الجديد في نجد (باستثناء الدرعية والعيينة) . ولكن قرى الاقليم الصغيرة ، كانت منذ البداية تقاوم الحركة بضراوة . فطلبوا النجدة من السدير والمنيخ لمهاجمة الشقرا . فخرج بعض الاهالي للقائها ونشبت معركة انتصر فيها المدافعون عن المدينة، وغنموا بعض الخيول والجمال من الاعداء .

وعندها جاء عبد العزيز من الدرعية ليشترك في المعركة . فاستؤنف القتال وانتصر أهل الدرعية انتصاراً ساحقاً . اما المتحالفون فانسحبوا الى القراين Qarain التي كانت تبعد بضعة أميال عن العاصمة . وخسروا فيها سبعة عشر رجلاً ، منهم بعض أعيان السدير . وعاد عبد العزيز الى بلاده بعد ان انقذ الشقرا ؛ فهاجمته في طريقه جماعة من بدو السُبيع عند آبار الحاسي المؤدية الى هضبة الطويق. فاندحر البدو وأسر زعيمهم فيصل المليْحي. الا انه افتدى نفسه بمبلغ خمسمائة قطعة ذهبية .

اما عبد العزيز فقام الآن بالهجوم على الرياض من الغرب، ونصب كميناً تحت ستار الليل، فدعيت المعركة التي نشبت باسم معركة ، الباب القبلي . وقد خسر سكان الرياض بعض القتلى في هذا الكمين . وفي هذه الاثناء قام محمد بن عبد الله امير ضرمه بالهجوم على الوشم، الا انه فوجىء بغزو من عشائر السمدة (ظافر) ففر . ثم قام عبد العزيز بهجوم آخر على الوشم فهاجم قرية عشيقير ، ومن هناك تقدم نحو ثادق، فحاصرها بضعة أيام وقطع عدداً كبيراً من نخيلها وسلب أموالها .

وبعد ان تكبد الطرفان بعض الخسائر، وكان من بين القتلى محمد بن ذعيثر الوهابي، طلب السكان عقد الصلح، معلنين استعدادهم لاعتناق المذهب الجديد والخضوع لسلطان ابن سعود . وحنيئذٍ عيّن دُخيّل بن عبد الله بن سويلم اول أمير على ثادق بينما عُين شخص آخر من نفس العائلة اسمه حمد بن سويلم ، قاضياً فيها .

واتجه عبد العزيز الآن ناحية السدير ليهاجم مدينة جلاجل المهمة . فتمركزت المعركة حول اراضي « العميري » شمال المدينة. ثم تقدم صوب «الروضة» فجمع قضاة المدينة وقضاة الحوطة والدخيلة ودعاهم لمرافقته الى الدرعية ليبسط الى الشيخ شكاواهم الروحية والزمنية . وفي طريقه مر بِـ « العودة » فأخذ معه أثنين من زعمائها وهما : عثمان بن سعدون، ومنصور بن حماد، رهائن لضمان سلامة أميرها عبد الله بن سلطان . وبعد ان اقاما في الدرعية بضعة أيام، سمح لهما بالعودة الى وطنهما بعد ان قطعا العهد بألا يحركا ساكناً . ولكنهما ما كادا يصلان الى بلدهما حتى قتلا الأمير وزعيمين آخرين . فاغتصب عثمان الإمارة واعلن رفضه للمذهب الوهابي . ويبدو ان عثمان هذا تمكن من بسط سلطانه في المدينة طوال عشر سنوات الا أنه قتل في نهايتها. أما في الروضة التي كانت (مع جلاجل) تعتبر المدينة الرئيسية في السدير، فقد عزل عمير بن جاسر اخاه الامير فوزان بن ماضي الذي خلف عمه محمداً عند اغتياله سنة ١٧٤٥، وطرده من المدينة .

وفي سنة ١٧٥٧ ـ ١٧٥٨ قام عبد العزيز بالهجوم على ثرمدة، هدفه الاول . فنصب الكمين المعتاد في وادي جمال تحت ستار الليل ، ودخل الى مزارع النخيل القريبة، عن طريق ثغرة أحدثها في السور ، وبقي هناك مع قواته ينتظرون اطلالة الفجر . الا ان عسس الليل سمعوا حركة غير عادية فأخبروا الأمير ابراهيم بن سليمان بذلك، فأعد العدة للقاء العدو عند الصباح . وقسم قواته الى فريقين، فريق أرسله لمراقبة كل من يخرج من بين النخيل، والآخر ليهاجم العدو فيها . ولكنه قُتل وابنه في المعركة التي نشبت . وكانت خسائر الوهابيين فيها اعظم، اذ بلغت

ثلاثين قتيلاً مقابل ثمانية قتلى خسرها المدافعون. وتقدم عبد العزيز بعدها نحو أقليم السدير ، فاستولى على الحوطة والجنوبيّة بلا مقاومة .

وكانت الرياض هدفه التالي، فهاجمها في شهر رمضان ، فسقطت في يده سنة ١٧٥٨ . وقد نشبت المعركة في مكان ما من واحة « ام العصافير » وكان بين القتلى تركي بن دواس، شقيق دهام، وزعماء اخرون من الرياض .

وجاءت بعدها معركة « البُنية ... وفي اثناء عودته منها الى بلاده ، أصدر أوامره لبناء حصن الغزوانة Ghazwana في وادي حنيفة ، غربي الرياض لتكون نقطة انطلاق الى المدينة وضواحيها . فتم بناؤها في سبعة أيام ، غير انه لم يقدر لمحمّد بن سعود أن يحاصر المدينة ويشهد سقوط دهام خلال السبع سنوات التي عاشها .

وبدأ الاضطراب يظهر في حريملة من جديد ، حيث أخذ اميرها الجديد ، مبارك بن عدوان يستعلي ويبدى ازدراءه لعناصر الوهابية بين السكان . ولما وصلت هذه الاخبار الى الدرعية ظن القوم ان الاقليم ربما تخلى عن المذهب الجديد . فاصطحب عبد العزيز معه مبارك في حملة على الرياض . وعند الرجوع الى الدرعية اقترح الشيخ ومحمد أن يبقى مبارك في ضيافتهما هناك لفترة من الزمن دون المساس بحقوقه في جريملة . وعيّنا ابن عمه حمد بن ناصر بن عدوان أميراً مكانه . فتظاهر مبارك بالموافقة على هذا الاقتراح،اذ وجد ان لا مندوحة له من اطاعة الامر . وطلب بعد ذلك ان يسمح له بزيارة اخته في العيينة ، وكانت اخته هذه زوجة حمد الطويل . ولكن مبارك نكث عهده وعاد الى حريملة واعلن توليه الامارة بقرع الطبول في سوق المدينة . وسرعان ما انضم اليه انصاره السابقون . وكان الامر في تلك الحال يتأثر بموقف آمر الحامية الى درجه كبيرة.غير ان حسن بن عبدان آمرَ الحامية ، قام فاغلق باب الحصن الرئيسي في المدينة باسم الامير الجديد . ثم هرب مع بعض من ابرز انصاره الى رغابة خوفاً من ان يعود عبد العزيز فيعيد النظام الى المدينة . ولكن أمير رغابة علي الجريسي القى القبض على احد انصاره واعدمه .

أما مبارك نفسه فسار الى المجمعة عن طريق قرية « الصفرا » ، فتعهد حاكمها حمد بن عثمان وزعماء مدلج في حرمة بان يناصروه. وانظم الى الثوار، ابراهيم بن سليمان الثرمدي وجميع قرى الوشم فيما عدا الشقرا . وربما وقعت حادثة الرغابة هذه قبل الهجوم على ثرمدة في حزيران سنة ١٧٥٨ .

واما القوات المتحالفة فتوجهت الى موارد المياه قرب الفقير Fugair لمراقبة التطورات وإعداد خطط الهجوم . ولكن اخبار وصول عبد العزيز بجيش قوي الى حريملة اطفأ حماسهم فهاجموا ذلك القسم من رغابة المعروف بالجو Eljau . وحاصروا علي الجريسي في الحصن الكبيروقتلوا أحد زعماء العرنيات المدعو راخي ابن لهثه بن عبيقة وقطعوا بعض النخيل . وكان معظم السكان في القسم الآخر من المدينة المسمى بالحزْم فظلوا في اماكنهم ولم يحاولوا نجدة اميرهم المحصور. ولكن المحاصرين انسحبوا عندما جاءتهم اخبار حملة عبد العزيز وتفرقوا ذاهبين الى منازلهم وتركوا ورائهم اصدقاءهم في الحزْم يتعرضون لوطأة هجوم القائدالوهابي الذي عمَدَ الى تدمير منازلهم، واعطاء نخيلهم الى الجريسي مكافأة له على ولائه .

وشهدت سنة ١٧٥٨ تحدياً خطيراً للدولة الوهابية على أيدي زعيم الاحساء عريعر بن دُجَيْن وعشائره من بني خالد ، وأنصاره في عدد من مناطق نجد ، وعلى الأخص في الوشم والرياض والسدير والخرج . فاتخذ عريعر وجيشه القوي مراكزهم في جبيلة من وادي حنيفة . ولكن المتقاتلين لم يكسبوا شيئاً فانسحب الغزاة. أما سكان ثادق والمحمل الذين انضموا إلى الأعداء، فسارعوا لعقد الصلح مع الدرعية ، وتعهدوا بدفع غرامة كبيرة لعدم ولائهم ، وجددوا ولاءهم للدولة الوهابية . فأرسلت الدرعية ساري بن يحيى بن عبدالله بن سويلم الى المنطقة ليؤكد الطاعة والاخلاص للحكومة المركزية . وعندها هاجم عبد العزيز قرية قصَب Qasab القريبة فأخضعها.وفرض عليها غرامة مقدارها ثلاثمائة قطعة ذهبية .

وفي خريف سنة ١٧٥٩ توجه نحو الخرج ليعاقبها على اشتراكها في الحركة

وهاجم الدِّلَمْ وَنعجانْ Na'jan ، فتكبــد السكان بعض الاصابات ونُهبت ممتلكاتهم .

وأثناء عودته إلى بلاده ، وجد عبد العزيز نفسه مرة اخرى في طريقه للحرب باتجاه ثرمدة وعشيقير ، حيث كرر خططه المعهــودة في نصب الكمائن ، فكان النجاح حليفه دائماً . ومرة اخرى مرّ بالخرج وهاجم الدِّلم ونعجان فاستولى على عدد كبير من الابل وأوقع فيهم خسائر فادحة . وبذلك انتهت غاراته الموّفقة في تلك السنة .

وجاء دور العيينة كيما تشعر بقبضة الوهابيين الشديدة . وكان الشيخ ومحمد قد قررا أن يخلعا مشاري بن معمّر مــن الامارة ويعينا مكانــه سلطان بن محسن المعمّري . ولهذا توجه الشيخ الى العيينة ليشرف بنفسه على تدمير قلعة العشيرة . وكان بالطبع يقصد من وراء ذلك أن يرمز الى ضم امارة العيينــة الى الدولة الوهابية . واسم الأمير الجديد لا يدل على انه من عائلة معمّر فربما كان عبداً أو تابعاً بارزاً .

وكان عبد العزيز آنذاك مشغولاً بحملاته العسكرية المعتادة. فهاجم منفوحة وأحرق مزروعاتها، وغزا آل عسكر في الثرمانيّة قرب رغابة ونهب مواشيهم. ثم غزا الوشم فالتقى بجماعة من محاربي ثرمدة ، لكنهم هربوا أمــام جيش يفوقهم عدداً وعدة ، ولجأوا الى مزرعة الحريق قرب قصب . الا ان عبد العزيز ، تتبع أثرهم وطلب اليهم أن يستسلموا . امــا المزارعون الأباة فرفضوا ان يسلّموا ضيوفهم ، واتفقوا أن يفتدوهم بمبلغ الف وخمسمائة قطعة ذهبية .

وفي سنة ١٧٦٠ ــ ١٧٦١ تابع عبد العزيز غزواته لمناطق عدة . فغزا أولاً السدير واشتبك مع جماعة من الروضة اشتباكاً قصيراً حــامي الوطيس ، ولكن بدون نتائج تذكر . وبعدها هاجم الرياض ،فجُرح فهد بن دواس جرحاً بليغاً. وتلا ذلك غزوة قام بها ضد منفوحة ، واخرى ضد بــدو السُّبيع قرب آبار

العتك، فاستولى على ثمانية آلاف جمل من جمالهم وأسلاب اخرى . وقام بغزوة ثانية على الرياض ، حيث تكبد الطرفان خسائر فادحة ولكن بدون نتائج تذكر . وبهذا انتهت غزواته لذاك الموسم .

وفي سنة ١٧٦١ اصيب مبارك بن عدوان ، الحاكم السابق لحريملة ، بالفالج . وفي الخريف استأنف عبد العزيز نشاطه العسكري فقاد هجوماً على منفوحة . ومن ثم هاجم نعجان في الخرج ، فقطع بعض أشجار النخيل وانزل بالمدافعين بعض الخسائر . وبعدها مباشرة هاجم الوشم ومرّة ، والفارعة ، حيث قررت هذه ان تنضم إلى مذهب الوهابية . فأرسلوا وفداً الى الشيخ وإلى محمد يرأسه الأمير منصور بن حمد بن ابراهيم بن حسين ليقدموا خضوعهم وولاءهم . واثباتاً لاخلاصهم ، قاموا بالهجوم على العشيقير . وقد استمر هذا طوال سبع سنوات تمكن منصور في نهايتها من الاستيلاء على ابراج الدفاع في الطرف الأقصى من الواحة المتاخمة للفارعة . فخضعت العشيقير للدولة الوهابية بعد قتال ضارٍ استمر في فترات متقطعة ، طوال عشرين عاماً .

وعاود عبد العزيز هجومه على الرياض فقُتل في المعركة تسعون رجلاً من حراس ضاحية المقرّن، كما جُرح شعلان بن دواس ، وهو حفيدٌ آخر لدواس . ثم اتجه عبد العزيز إلى الوشم وهاجم عشيقير ليساعد سكان الفارعة الذين بنوا حصناً عظياً يسمى الحُليْلة (بالاتفاق مع سكان الشقرا المخلصين) ليحموا أنفسهم ويهددوا الأعداء المهاجمين .

وكانت الأمطار في موسم سنة ١٧٦١ ـ ١٧٦٢ غزيرة جداً والبلاد على العموم في حالة ممتازة . غير ان مرضاً يعرف بالدمغة (ربما كان هذا نوعاً من الأمراض المعروفة بحمّى الواحة وهو مرض يؤثر في الدماغ) انتشر في البلاد ، واهلك عدداً كبيراً من الناس ، من ضمنهم شخصيات بارزة من العلماء . وزاد الطين بلّة أن رافقت الوباء غزوة للجراد ، فأهلكت جزءاً كبيراً من المحصولات الزراعية .

وعاد عبد العزيز فافتتح موسم الفتوحات في سنة ١٧٦٢ ـ ١٧٦٣ بالهجوم على الرياض ، ولكن دون طائل . ثم توجه إلى الاحساء ونصب خيامه بجوار المطيْرِفَة فاستولى على غنائم كثيرة وكبد العدو سبعين اصابة . وبعد هجوم فاشل على مدينة المبرّز Mubarraz عاد الى بلاده. وفي طريقه التقى قافلةً كبيرة في منطقة العرمة ، تحمل ذخائر جاءت بها من الساحل الى سكان الرياض وحَرمة ، فاستولى على بضائع الرياض ، أما بضائع أهل حرمة فلم يستولِ عليها . وكانت هناك هدنة بين حرمة والدرعية .

وفي هذا العام ارتدّ سكان العُثيْثيَّة في الوشم ، عن المذهب الوهابي وهاجموا أتباعه في الاقليم . وكان عبد العزيز آنذاك مشغولاً بغزو السُّبيع قرب سَيْح الدُبُل Saih al Dubul فلم يتخذ أي اجراء مباشر لاخضاع المرتدين . اذ كان أهل الدرعية مهتمين بما هو أهم وأعظم من ذلك قرب ديارهم . وهو خضوع أمير الرياض القوي دهام بن دواس نتيجة لكلاله من الحرب الطويلة . وكان هذا هو الخضوع الثاني الذي يقوم به ، فأرسل وفداً إلى الشيخ وإلى محمد ابن سعود مع ألفي قطعة من الذهب ، يطلب الدخول في المذهب الوهابي، واعداً بأن يحترم قادته ويقدم لهم الطاعة والولاء .

غير ان المؤرخ النجدي (ابن بشر) لا يكاد يأتي على ذكر هذا الحدث الهام أو يعلق عليه . ولربما كان مهتماً بنتائج إحدى حروب الوهابيين العظيمة الأثر ، ألا وهي حملة عبد العزيز على جلاجل ، إحدى مدن السدير الرئيسية . فبعد المناوشات المعتادة والاصابات البسيطة وقطع بعض أشجار النخيل، قرر سُويّد زعيم جلاجل أن يدخل حظيرة الوهابيين . وقد حذت حذو جلاجل مدن اقليم السدير وقراه .

وبعد ان مر عبد العزيز برغابة ، في طريقه إلى بلاده ، جاءته أخبار غزوة قام بها جماعة من العجمان على بدو السُّبيع في الصحراء ، الى الغرب من سلسلة

الطويق ، وتغلبت عليها . فما كان منه الا أن تتبع أثر العجمان وهاجمهم في سهل هدبا قذلة، بين العارض ونفود السرّ . فقتل منهم زهاء السبعين رجلاً، بالاضافة الى مائة اسير واربعين فرساً .

وفي شتاء ١٧٦٤ ـ ١٧٦٥ استأنف عبد العزيز غزواته مبتدئاً بغزوة عشيرة السُعيِّد Su'aiyid (من بني ظافر) التي يتزعمها حَمَد المُدَيْهم . وكان يرافقه في هذه الغزوة جندٌ من الرياض تحت امرة دواس بن دهام . فهاجم البدو عند جَرَبْ Jarab فهزمهم وقتل منهم ثلاثين رجلاً ، واستولى على كل ما كانوا يملكون .

وفي تشرين من سنة ١٧٦٤ اخذ يفكر جدياً بتطور خطير نتج عن تغلّبه على العجمان ، إذ لجأ الذين نجوا من المعركة الى نجران واقنعوا عشائرها الشرسة الشديدة المراس ، بان تنضم اليهم في هجومهم المعاكس على الوهابيين لانقاذ الأسرى من اقربائهم .

وكان امير نجران انذاك زعيم آل مكرمي، حسن بن هبة الله، الذي يمتد نفوذه الى عشائر وائلة ، و يام . فجمع عدداً منهم لمهاجمة الدرعية . ولدى وصولهم الى قرية حاير السّبيع وواحتها في وادي حنيفة ومباشرتهم في حصار القرويين هناك، وصلتهم الاخبار بان عبد العزيز في طريقه اليهم ومعه جيش كبير من الوهابيين . فتأهب النجرانيون للقاء العدو ، ونشبت بينهم معركة ضارية ، انهزم فيها عبد العزيز هزيمة ساحقة . وفرّ الوهابيون تاركين وراءهم خمسمائة قتيل وعدداً كبيراً من الأسرى . وقيل ان الدرعية وحدها فقدت سبعاً وسبعين قتيلاً بينما فقدت منفوحة سبعين قتيلاً والرياض خمسين . وخسرت عرقه ثلاثة وعشرين قتيلاً والعيينة ٢٨ ، وحريملة ١٦ ، وضرمه اربعة ، وثادق قتيلاً واحداً . وكان باقي الإصابات موزعاً بين المجنّدين من البدو . اما مجموع الاسرى فقد بلغ مائتين وعشرين أسيراً . .

وعندما مثُل عبد العزيز مــع من نجا من الدرعية امام الشيخ محمــد بن عبد الوهاب ، ونقل اليه اخبار الكارثة ، ما كان منه الا ان ردّد الآية الكريمة التي معناها : « ولا تفرحوا ولا تحزنوا فسينصركم الله ان كنتم متقين » .

وكان النصر الساحق الذي حققه الخوارج المحتقرون من أهل نجران والاحساء على الوهابية ــ ضربــة شديدة سُددت لمؤسسها . وكان له أعمق الاثر في نفس الشيخ ، فقد بقي شبح هذه الكارثة يلازمه حتى آخر أيام حياته .

وكان رد الفعل لمواجهة هذا الوضع الخطير مثيراً وغريباً للغاية . فبدلاً من ان يعدّ الوهابيون العدة للثأر قرروا ان يفاوضوا المنتصرين الذين وصلوا الى مشارف الرياض في تقدّمهم نحو الدرعية . واستدعى الشيخ زعيم بني ظافر ، فيصل بــن سهيل، ليكون وسيطاً. وجرت المفاوضات في بستان المحطّة المشهور بنخيله، حيث كان حسن بن هبة الله قد نصب خيامه هنـاك . فاتفقوا على تبادل الاسرى ودفع التعويضات . ثم عاد زعيم نجران مباشرة الى بلاده.ويظهر انه تجاهل عريعر أمير بني خالد الذي قد اتفق معه على أن يشترك الجيشان في مهاجمة عاصمة الوهابيين.

وقد مرت فترة طويلة منذ انتهـــاء الحرب ، واستعداد عريعر للاشتراك في مهاجمة عاصمة الوهابيين . فرأى ان لا جدوى مـــن تنفيذ الاتفاق وحده بدون حليفه الجنوبي . الا انه وصل بجيشه الكبير الى مشارف الدرعية فقصفها بمدافعه في فترات المناوشات التي حدثت بين مزارع النخيل خلال عمليات فاشلة استمرت ثلاثة اسابيع . ثم رحل عن الدرعية وتوجه الى الاحساء مخلّفاً وراءه اربعين قتيلا مقابل الاثني عشر قتيلاً في جانب الدرعية .

وهكذا انتهت اخر معارك محمـــد بن سعود الذي لحق باجداده سنة ١٧٦٥ فدفن في مقبرة الدرعية بعد عمر مديد مليء بالامجاد . وكان شعبه يذكره دائماً بما كان يتحلى به من انسانية وتقوى اكثر من شجاعته واقدامـــه في الحروب. وفي الواقع كان الهجوم الوحيد الذي اشترك فيه هو غزوة الرياض سنة ١٧٥٠ . اما

بعد ذلك فقد ترك القيادة لامراء العيينة عثمان ومشاري، ومن بعدهم لابنه ووريثه عبد العزيز . وشهد مرتين في حياته استسلام الد أعدائه في الرياض، دهام . ومات قرير العين مطمئناً إلى أن أعظم مهمة في حياته قد سوّيت الى الابد. فقد ثار دهام هذا مرة اخرى ولاخر مرة على الدرعية بعد وفاته . وكانت هزيمة نجْران لجيشه اعظم ضربة تلقّاها في حياته الحافلة بجلائل الأعمال . وربما لقي وجه ربه وهو ما يزال قلقاً على مستقبل دولته ، وان كان الانتصار التالي على بني خالد قد شدد من إيمانه وثقته بقدرة دولته العسكرية . وقد كان له وحده الفضل كل الفضل في تثبيت اقدام نظامه الجديد وانتشار مذهبه الذي اسبغ عليه وعلى خلفائه من بعده الجاه العريض والشهرة الواسعة . فلولاه لما كان للوهابية كيانها . ذلك أنه هو الذي اعدّ العدة لمرحلة الاصلاح الاسلامي الجديد .



الفصل الثالث

عبد العزيز الاول بن سعود



لم يكن إمام الدرعية الجديد غريباً عن المسؤوليات الادارية والحربية التي انيطت به بعد موت والده . فقد اكتسب شهرته العسكرية الأولى في حملتين ضد دهام بن دواس في الرياض ، وتحت إمرة عمه (حميه) أمير العيينة ، عثمان بن حمد بن معمر ، سنة ١٧٤٨ . تلك السنة التي ولد فيها ابنه البكر وخليفته العتيد ، سعود .

أما شقيقه عبدالله بن محمد ، فقد قاد سنة ١٧٤٦ جيشاً لنجدة منفوحة ، التي هاجمها دهام هجوماً شديداً ثم انسحب ، بعد أن جُرح مرتين وقُتلت فرسه تحته . وكان هذا أول اشتباك بين الدرعية والرياض ، منذ ظهور المذهب الوهابي في السنة السابقة ، وبداية الصراع الطويل بين الدول المتنافسة . ولم يكن هذا الصراع قد انتهى يوم تولى عبدُ العزيز عرش الدرعية سنة ١٧٦٥ .

وصدف ان نشأ شيء من البرود ، بينه وبين حميه ، خلال الحملة التي قادها عثمان ضد ثرمدة سنة ١٧٤٨ ، هذه الحملة التي أوقفها عثمان بالرغم من احتجاج عبد العزيز ، وفي ظروف أدت الى الارتياب في قضية اعتناقه للمذهب الوهابي .

وقد وصلت هذه الشكوك إلى أوجها عندما قتل عثمان سنة ١٧٥٠ ، وهو يصلي في جامع العيينة الكبير يوم الجمعة على يد أحد ضباطه الذين كان يثق فيهم .

ومنذ ذلك الحين ظل عبد العزيز منهمكاً في نشاط عسكري هنا وهناك ، وبشكل خاص ضد أمير الرياض . وبعد هذا بقليل ، ترك محمد المتقدم في السن، قيادة الوهابيين إلى عبد العزيز . ولقد طلب دهام أكثر من مرة الصلح ، بعد هجمات الوهابيين الضارية . وأخل مراراً وتكراراً بشروط المدنة التي عُقدت بقبوله المؤقت للمذهب الوهابي .

وجدير بالذكر انه اختار العام الذي تولى فيه عبد العزيز العرش، ليحطم نير الدرعية مرة اخرى . فاستأنف القتال بهجومه على منفوحة ، بالاشتراك مع زيد ابن زامل حاكم الدلم والخرج . فهاجم عبدُ العزيز الرياض، وثبّت أقدامه في بعض حصونها . الا انه عاد فتراجع بعد هجوم معاكس ضارٍ . وغزا عبد الله بن محمد قبيلة السبيع حليفة دهام ، فأصاب بعض النجاح . اما عبد العزيز فأرسل حملة ليضغط بها على الرياض ، إلا انها رُدّتْ على أعقابها دون عناء كبير من جانب أهل المدينة.

وهكذا امتد النزاع ، مع ما رافقه من مناوشات استطلاعية لا أهمية لها ، جرت في فترات متقطعة ، من مثل هجمات الدرعية على حلفاء دهام من بدو صحراء العرمة ، وأحلافه في واحة حاير ـ السّبيع ، وعلى منفوحة في وادي حنيفة . وفي سنة ١٧٧١ شنّت الدرعية هجوماً شديداً على قرية حاير، وحاصرتها فاستسلمت ، وأَقسمت على الولاء لزعيم الدرعية . ولكن هذا لم يدم طويلاً ، مثله مثل باقي الاتفاقات السياسية في ذلك الزمن . فقد كان ما أسهل نقضها تبعاً للقوة .

ولكن الأمور ساءت كثيراً في خريف السنة ذاتها ، فبعد هجوم قصير على الرياض وصل عبد العزيز الى قرية عرقة في طريقه للقيام بهجوم آخر ، واذا

برجال كشّافته ينقلون اليه أن خصمه دهامَ يقترب مع خيّالته وهجّانته لمهاجمة القرية . ولكن دهام تقهقر لدى رؤيته جيش الدرعية . فطارد عبدُ العزيز قواته المتراجعة مطاردةً شديدة في الصحراء . وقد وقع اثنان من ابناء زعيم الرياض ، دواسُ وسعدونُ ، في الشرَك وقُتلا مع عددٍ من اتباعهما قرب بئر الفوّارة . وكان هذا الحادث ضربة سُدّدت لعزة دهامٍ وثقته بنفسه .

وحين استأنف عبد العزيز حملاته الاستطلاعية مرة آخرى سنة ١٧٧٣ ، وصل كرّة آخرى الى عَرْقة في محاولته الثانيــة ، إذ بلغ سمعه أخبارُ هرب العدو من الرياض . فزاد من سرعة سيره ، ووصل المدينة عند الظهيرة ، فوجدها خالية من سكانها .. لقد هرب دهام بن دواس مع النساء والاطفال والخدم ! وكان قــد وضع خطته هذه سراً وخاطب سكان الرياض بقوله :

« يا أبناء الرياض لقد حاربت ابن سعود طوال هذه السنين وقد أصبحت الآن منهوك القوى من الحرب. فليلحق بي من يريد، اما الذين لا يريدون فليبقوا في المدينة»
وقد هرب معظم السكان معه الى (الخرج) في منتصف فصل الصيف الشديد الحرارة ، وكــان ذلك في شهر حزيران ، فمات كثــيرون منهم مــن شــدة الجوع والعطش .

أما عبد العزيز فاحتل المدينة المهجورة وخَتم أبواب جميع البيوت لئلا تُسرق محتوياتها ، ثم أرسل جيشه في اثر الهاربين قاتلاً المبطئين منهم وناهباً اموالهم.
وهكذا انتهى القتال الذي استمر زهاء السبعة والعشرين عاماً . وتُقدّر خسائر الجانبين فيه باربعة آلاف قتيل من الطرفين، كانت خسائر دهام منها ٢٣٠٠ قتيل.
ولا يزال الناس في نجــد يذكرون هرب دهام بالسخرية كلمــا قام شخص عندهم بعمل يدل على الحمق .

ولكننا لا نملك الا القول بانه كان رجلاً بطلاً حارب بعزم في سبيل حريــة العرب يوم حاول خصومه في الدرعيّة ان يضعوا نير الرب في أعناق اولئك الوثنيين

اليابسة المتصلبة . لقد حارب في سبيل قضيـة خاسرة . وربما كان انهيار دفاعــه المفاجيء يعود لفقده ولديه اثناء هزيمته في السنة السابقة ؛ فقـد كان لهذا الحادث اعمق الاثر في نفس رجل أنهكته الحروب التي خاضها طوال حياته .

كان قـد مضى ثمـاني سنوات على ارتقاء عبد العزيز العرش في الدرعية التي كانت اولى قريناتها مـن المدن المستقلة في الجزيرة العربيـه ، ولم تحدث تطورات ذات بال خلال هذه السنوات فيا عدا حربــه ضد دهام . فهاجم الآن ثرمدة ، سنة ١٧٧٦ ، وانتصر في معركة الصَّحْن انتصاراً قليل الاهمية .

وفي السنة التالية قام بعدد من الغزوات ، أهمـها تلك التي وجّهها الى واحة العودا ، تحت إمرة ابن اخت الشيخ محمد واسمه هذلول بن فيصل .وكان والده قد قتل في المعارك التي نشبت ضددهام سنة ١٧٤٧ .ولقــد كان يصحبه فيهــذة الغزوة سعدون ، الابن الاكبر لعبد العزيز ، ويبلغ الثالثة عشر من عمره ، فكان هذا اول تجربة له بحياة المعسكرات . وصاحب هــذه الحملة طرد بعض العائلات التي كانت تحكم العودا في السابق ،لأنها طالبت بالزعامة لرئيسها منصور بن عبــد الله بن حمد ؛ وتغلبت على حاكم القرية فقتلته ونصّبت مكانه منصوراً .

وفي هذه السنة انضم اقليا السدير والوشم الى الدولة الوهابية ، وتعاهـدا على الاخلاص والولاء لعبد العزيز والشيخ محمد بن عبد الوهاب . وكان الاخير اعتباراً من بداية حركتـه يعرف بنائب الملك . وقيل بان عبد العزيز كأبيه ، لم يقم باي مشروع ، دون استشارة الشيخ .

وعلى كل حال فقد نجحت الدولة الوهابية كثيراً بانضمام هــذين الاقليمين وبتحالفها مع العُيَيْنة ومنفوحة ،في مشروعها التوسعي .فوصلت في خلال ثلاثين عاماً الى اكثر مما كان يحلم به الأمير والإمام اللذان اشتركا في خلقها . وكان جل اهتمام الدولة الوهابية في هذا الوقت ينحصر في محاربة نتائج المجاعــة التي عرفت باسم « السوْقة » لدى مؤرخي تلك الأقاليم . لقد جفت الآبار ونضبت مياهها

فارتفعت تكاليف المعيشة ، بينما مـــات الكثيرون من الجوع والمرض . فهـاجر الناس من نجد الى البصرة والزبير والكويت خـــلال ذلك العام والاعوام التي تليه وبعدها نزلت الأمطار الغزيرة : الا أن ظهور اسراب الجراد حـــال دون حصاد الدخن ومحاصيل العلف .

وفي سنة ١٧٦٨ عرف سعود لأول مرة في حياته القيادة المستقلة في حملتين . فسارت الأولى منها سيراً حسناً ضد زلفى المتاخمة لاقليم القصيم المهم ، وسارت الثانية ضد آل مُرة. وقد كانت في البداية حسنة ولكنها انتهت بتقهقر جيش سعود عندما تقاطرت النجدات لمساعدة خصومه. ومني جيش سعود ببعض الاصابات، منها موت ناصر بن عثمان بن معمّر الذي كان سيصبح زعياً للعيينة ، خلفـاً لسُلطان بن معمر ، قبل بضعة سنوات. ولكنا لا نعرف شيئاً عن أسباب التغيير.

بعد هذه النكسة دعا حمود الدريبي حاكم بريدة سعوداً ليتدخل فيحل الخلافات في القصيم . وكان بين حمود هذا وبين قبائل عنزة ثأر . فنشبت المعركــة التالية خارج أبواب الأخيرة، بخسائر طفيفة في الجانبين،وكان بين قتلى عنيزة عبدالله بن حمد بن زامل ، الذي كان فيا يبدو حاكم المدينة في تلك الآونة .

وفي السنة التالية قاد عبد العزيز بنفسه حملات ضد المجمعة والهلالية الواقعة الى الغرب من عنيزة فخضع أهل القصيم للدولة الوهابية . ولكن هذا لم يحل دون المؤامرات والمكائد في الاقليم . فقد طُرد رشيد الدريبي أمير بريدة الجديد مـــن المدينة على يد عائلة عليّان أثناء ما كان عبد العزيز منهمكاً في غزوته الأولى ضمن حدود الجزيرة ، وهدفه بنو ظافر وبدو المحمّرة النازلون على الحدود العراقية .

اما في الجانب الآخر من الجزيرة العربية فقد كان على اتصال بشريف مكة احمد بن سعيد . وتلبية لطلبه أرسل سعود فقيهاً من عنده اسمه عبـــد العزيز بن عبدالله بن حسين ليوضح له ولعلماء المدينة المقدسة مبادىء العقيدة الوهابيـــة ، ولدى وصول الفقيه الى مكة تبدل حاكم مكة اذ عُزل أحمد على أيدي أفراد

عائلته ، ونُصّب عوضاً عنه ابن أخيه سرور بن مساعد . ولا ضرورة للبحث في تفاصيل المجلس الذي أعلن فيه شيوخ مكة رضاهم التام عن زيارة الفقيه وتوضيحه الفذ للقضية الوهابية .

وما كان عبد العزيز يفرغ من الكفاح الطويل ضد دهام حتى واجهه خطر أعظم وأخطر من جهة الشرق. وربما كان هذا ناتجاً عن تغلغله في المناطق المتاخمة للعراق . ففي خلال ربيع سنة ١٧٧٤ تقدم عريعر بن دُجين ، أمير الاحساء وزعيم قبائل بني خالد ، نحو القصيم ليهاجم بريدة . فاحتلها بعد هجوم صاعق وحصار قصير ، ودمرها قبل ان يسحب جيشه الى وادي ريمة قرب الخابية والنبعيّة . وهنا وصلته رسائل عديدة مشجعة من مناطق مختلفة في نجد ، أبدى فيها مرسلوها تأثرهم البالغ لاحتلال بريدة . وكان يعد حملة على الدرعية نفسها والمناطق المجاورة عندما مرض فجأة وتوفي في أيار بعد شهر من انسحابه من بُريدة .

وقد خلفه ابنه الأكبر بُطيّن . فوزع الأسلاب على الجيش ، الا انه لم يتمكن من السيطرة على الجند لتحقيق أهداف والده . ونتيجة لذلك ، عاد الى الاحساء . وهناك ثار عليه أخواه دُجينُ وسعدون ، وخنقاه في بيته . فخلفه دُجين ، ولكنه توفي بعد ذلك بفترة وجيزة . ويعتقد أن أخاه سعدون سمّمه ليخلفه في إمارة الاحساء وزعامة العشيرة .

وفي هذه الاثناء كان سعدون بن عبد العزيز يقوم بغاراته أولاً على الخرج ، ثم على زلفي . غير أنه لم يلقَ نجاحاً كبيراً . وإن كان هناك دليلٌ على انتشار التعاليم الوهابية بين كلا الجانبين . فها هم سكان مناطق حارق النعام ، والمجمعة يرسلون وفوداً ليعلنوا ولاءهم للنظام الجديد . ولكن سكان الخرج لم يُبدوا ميلا للانضمام اليه .

وبعد زيارة ثانية قام بها عبد العزيز نفسه ، في أوائل سنة ١٧٧٥ ، تآمر زيد

بن زامل الدّلمي بالاشتراك مع زعيم وادي الدواسر ُحوَيْل الودّاعين وزعماء المنطقة الآخرين ، ليطلبوا مساعدة نجران في رفع اعتداء الدرعية . وقد جمعوا من أجل هذه الغاية مبالغ طائلة من المال ليوزعوها على الزعمـاء المقصودين . وفي الوقت الملائم تجمع جيشٌ كبير قوي يشتمل على عناصر من الواحـة الكبيرة وقبائل يّام ، وتوجه نحو العارض .

ووصل الحلفاء الى حاير السّبيع بعد ان انضم اليهم في الطريق سكان الدواسر والخرج ، فأحدثوا تلفاً كبيراً في مزارع النخيل وقتلوا قرابة الاربعين رجلاً من المدافعين ، في معارك عدة قبل ان يواصلوا السير الى ضرمـة . ولكنهم واجهوا هناك مقاومة ضارية، ومنوا بخسائر فادحة في القتال الذي دارت رحاه بين أشجار النخيل حتى أخرجوا منها في الحال .

ومن ثم قرر الحلفاء أن يوقفوا الحملة ، ويعودوا الى بلادهم بينما ظل زيـد بن مشاري عرضة للهجوم ، فعقد الصلح مع الدرعية ودخل الحظيرة الوهابية . وكان سعود في هذا الوقت يقوم بتجهيز حملة ضد بريدة فأكرهها على الاستسلام وقبول عبد الله بن حسن العليّان أميراً جديداً عليها بدلاً مـن رشيد الدُرَيْبي الذي ُطرد من قبل من المدينة ولكنه عاد واستولى على الحكم فيما بعد .

وفي سنة ١٧٧٦ حاول سكان الاحساء ، بقيادة أهل الهفوف ، أن يحطموا نير بني خالد وزعيمهم سعدون ، ولكنهم فشلوا . وكان مذهب الوهابية قـد قوي واشتد بانضمام سكان زلفى وُمنيخ (المجمعة) ، وان كان زعيم الدّلم ارتد وندم على عمله السابق وقتل اشد دعاة المذهب الجديد حماساً . فقام عبد العزيز في الحال ليعالج الوضع فهرب زيد ، ولكنه عفا عنه فيما بعد عندمـا أعلن زيـد خضوعه الا انه لم يتولّ الامارة، التي آلت الى سليمان بن ُعفَيْصَان . أما مدينة اليمامة المجاورة فقد أعلنت هي أيضاً اعتناقها المذهب الوهابي وإن كان زعماؤها قد اتصلوا سراً بعناصر ساخطة من الدّلم لمقاومة النظام الجديد . وكان زيد بن

زامل هو قائد هذه الحلقة المتآمرة التي أجبرت ابن عفيصان على الانسحاب من الدلم مع حاميتها الموالية له .

وعاد زيد فتولى الامارة ، ووضع بالاشتراك مع حسين البجادي – زعيم اليامة ، الخطط للثورة العامة في الاقليم اثناء غياب عبد العزيز لانشغاله بغزو آل مرة ثانية. وهناك استولى عبد العزيز على عدد كبير من الجمال في مراعيها، غير ان البدو الذين تجمعوا ليطردوا الغزاة أجبروه على التراجع الى بوغاز العقبة الضيق في هضاب مُحَيْرِق الصفّا ، حيث تكبد الوهابيون خسائر فادحة في الرجال والجمال . وكان من جملة القتلى أمير بريدة عبدالله بن حسن العليّان .

وأصبح من الواجب على عبد العزيز الآن ان يعالج اضطرابات الخرج ، فأرسل سعوداً الى الاقليم كي يقوم باستقصاء أخبار الوضع في منطقة اليامة . حيث واجه الجيوش المحلية العائدة من غزوة (أو من رحلة استطلاعية) ، فنشبت معركة حامية في قناة الصهباء انسحب على أثرها كلا الطرفين عائداً الى بلاده .

وعندئذ اضطر عبد العزيز لأن يدعو إلى تعبئة جيشه ، محاولة منه للقضاء على مشكلة الخرج نهائياً . وما كادت الحملة ان تبدأ حتى احتج أمير حَرْما عثمان المدلجي وقال بأن مقاطعته أحوج من منطقة الخرج الى درس مفيد . لأن شعبها قد خرج عن طاعته وأخذ يعلن استهزاءه بمبادىء الدين الجديد ، حتى لم يعد في مركز يمكنه من ممارسة مسؤولياته كحاكم . وتوسل إلى الإمام أن يزوده بفرقة قوية كافية لمعالجة الوضع في حرما ، وأن يأتي الى الدرعية برهائن تضمن حسن سلوك السكان . فقبل عبد العزيز طلبه وأرسل أخاه عبدالله بن محمد ليحسم الوضع المضطرب . وقد سلك عبدالله بجيشه طريقاً عبر ممرّ الحيسيّة وسهل حمادة ليحمل الناس على الاعتقاد بأنه ذاهب الى القصيم . ثم عاد وانحرف راجعاً عبر جُرف الغَات الى الهضبة . وبلغ هدفه تحت ستار الليل ، ليقوم بالاستعدادات الضرورية ، في داخل المدينة وخارجها، للهجوم عند حلول الفجر .

كان السكان في هذه الأثناء يرقدون ملء أعينهم عندما أيقظتهم نار كثيفة أطلقها كل من كان يحمل السلاح من المهاجمين ، ولم يكن هناك مجال للمقاومة ولا للنجاة . فأحاط السكان بعبدالله مستوضحين منه الدافع لعمله هذا ، فأكد ألاّ خوف عليهم ، وأعلمهم أن أميرهم قد شكا الى الإمام ثورتهم على الدين الحنيف .ولذا فإنه رأى من المناسب ان يقوم بزيارتهم،ويطلب أربعة من زعمائهم التوّجه معه الى الدرعية ليبقوا هناك، كضمان لمسلك السكان،وأكد انه إذا انطلق الأربعة ، ومن ضمنهم شقيق عثمان ، فسينتهي كل شيء بسلام،ومن ثم ترجع الحلة.

وهكذا تم كل شيء دون اية إصابة ، وبايع السكان على الولاء مرة أخرى للدولة الوهابية ، كما رافق الزعماء الأربعة عبدالله الى الدرعية ، ليحلوا ضيوفاً على الإمام ، بينما كان الأخير يستعد لاستئناف عملياته الحربية ضد أهل الخرج .

ومرة أخرى وكل الى عبدالله أمر هؤلاء . ولكنه يظهر انه لم يقم بأكثر من مناوشات بسيطة .

ولم يمض وقت طويل على ذلك حتى بدأ التمرد يظهر في حرمة ، فقد تآمر زعماؤها مع حمد بن عثمان التويجري على اغتيال أميرهم عثمان بن عبدالله ، ثم يلقون القبض على أصدقائه علماء المجمعة ، الذين كانوا ضيوفاً عليه ، فيبقونهم رهائن مقابل رهائنهم في الدرعية . أما القسم الأول من الخطة فقد سار سيراً حسناً : حضر الضيوف ودخلوا الى قاعة الضيوف بينما طلبوا حضور عثمان ، الذي كان غائباً في مزارع نخيله . وفي طريقه الى المنزل غدر به أخوه خضير وقتله . ثم أسرع ابن عمه عثمان ابن ابراهيم في إلقاء القبض على الضيوف، وربط أرجلهم بالمقطرة (حبل الدواب) وأغلق باب غرفة الضيوف عليهم .

ولكن القسم الثاني من الخطة المتضمن احتلال المجمعة باتفاق سري مع أميرها فشل لحادثة غريبة . فعندما وصلت القوة المرسلة من حرمة الى المجمعة كان الأمير المجرم واقفاً آنذاك خارج بوابة قلعته مع عدد من وجهاء السكان الوهابيين . فما

كان منهم الا ان اندفعوا داخل الحصن مع الأمير لدى رؤيتهم القـوة المسلحة وأغلقوا الباب. وفي هذه الظروف لم يستطع الأمير أن يستجيب الى نداء أصدقائه من الخارج . فاستعد السكان للقتال . أما الغزاة فعـادوا الى بلادهم يجرون أذيال الفشل .

وحمل ابن الأمير الأخبار الى الدرعية ، فقدم سعود ليعالج الوضـع . واستسلمت حرمة بعد حصار دام بضعة ايام وتعهدت ، بعد قتال غير منظم ، ان تسلم اسرى المجمعة . بينما وعد سعود بأن يطلق سراح الرهائن الموجودين لديـه في الدرعية .

ثم استدعى أميري المجمعة وجلاجل اللذين كانا موضع ريبـة باشتراكهم في المؤامرة ، وطردهم من منازلهم في الاقليم مع عائلاتهم ومتاعهـم الى قصَب والشقرا على التوالي . الا انه رأى من المناسب نقل سوَيد أمير جلاجل المعزول الى الدرعية . وعيَّن ناصر بن ابراهيم شقيق أحد قتلة عثمان أميراً على حرمة بينما وضع الاقليم كله (مع المجمعة وحرمة) تحت امرة عبدالله بن جلاجل . وهو فيما يبدو احد أثرياء سوَيد ، وكان مركزه في جلاجل نفسها .

وبعد كل ذلك عاد سعود الى بلاده . ومرة اخرى تفرغ عبد العزيز لمعالجـة الوضع في الخرج . فتقدم بنفسه الى الدِّلم ، وزيدُ بن زامل غائبٌ في الـيمامة . وكان الهجوم شديداً في ضواحي المدينة نفسها . وقد جمع زيد جيشاً لنجـدة مواطنيه ، ولكنه تعذر عليه الوصول الى المدينة بسبب المعركة ، فقام بمهاجمـة معسكر الوهابيين . وكان فيه عبد العزيز مع المتاع والجمال .

والواقع ان الوهابيين قاوموا بشدة وعنف . غير انهم خسروا ما يقرب مـن العشرين قتيلاً قبل ان يعلم الجيش الرئيسي الذي كان يهاجم المدينة بما حدث في مؤخرته . وحين بلغ الخبر قادته توقفوا عـن الهجوم وتوجهوا بعـد ان اخلوا المدينة الى إنقاذ المعسكر . فانتهز زيد فترة الهدوء هذه ودخل المدينة ، وعنـد

ذلك سحب عبد العزيز قواته الى واحة نعجان المجاورة ، قاطعاً اشجار النخيل ومدمراً المزروعات في طريقه قبل ان يعود فاشلاً الى الدرعية .

وفي ربيع السنة التالية (١٧٧٨) جاء سعدون بن عريعر ، اميرُ الاحساء، الى الخرج ، للمفاوضة حول عقد تحالف مع زيد بن زامل وحلفائه ضد الدولة الوهابية . ولسبب غريب مجهول ، قرر الرجل ان يتفاهم مع عبد العزيز ، فقبل بان تعقد بينهما معاهدة للصلح . غير انه لم يتم الاجتماعُ بين الزعيمين المتنافسين، وان كان سعدون مر بـ « بنبان » في طريقه الى بئر المبيّض ، قرب سلسلة جبال المجزّل .

وسواء كان عمله هذا خرقاً للسلام أم لا، فانه يدل على ان سعدون كان ثائراً يتوقع هجوماً من الدرعية . ولذا قرر العودة الى الأحساء بسرعة في وقدة حزيران وتموز ، فخسر الكثير من غنمه وجماله . وفي اوائل السنة التالية (١٧٧٩) أخذ سعدون يتآمر مع سكان حرْمة وزلفي للهجوم على المجمعة ، مركزاً الحماس الوهابي . وكانت حاميتها من الجيش الوهابي .وأخذ سكان حرْمة زمام المبادرة فاحتلوا الحصون المحيطة بمزارع النخيل الواسعة . ثم جاءت قوة زلفي الرئيسية لنجدتهم ، وبعدها بقليل ، وصل سعدون على رأس جيش قوي .

أما سكان المجمعة ، فقد أغلقوا عليهم أبواب المدينة ، وأخذوا يستعدون للحصار . بينما كان العدو طليقاً في المزارع ، يقطعون الأشجار ويرّعون ابلهم وأغنامهم في الزرع . كان أمل المدينة الوحيد ان تأتيها نجدة من الدرعية . الا انها أرسلت رسالة الى سعدون تقترح فيها عقد هدنة حتى تتم المفاوضات لعقد الصلح والاستسلام . وانتشر خبر وصول حسن بن مشاري بن سعود على رأس جيش وهابي الى جلاجل عاصمة الاقليم لانقاذ المجمعة . وبعث حسن قوة صغيرة لتحاول الدخول الى المدينة من خلال خطوط العدو وتحت ستار الظلام . ويبدو ان هذه القوة دخلت دون ان يلحظها احد ، اذ القى السكان الى افرادها بالحبال من على اسوار المدينة ليمكنوهم من الدخول . فتسرّب اليأس الى قلوب

المحاصرين . وكان بدو بني خالد اول الذين تخلوا عن الخطة ، فقد كانوا متعبين من توقف الاعمال الحربية وعدم وجود مراعٍ لجمالهم . ثم تبعتهم فرقة زلفي وعادت الى بلادها تاركة حرمة وحدها تقوم بمحاربة جارتها .

وكان عبد العزيز ، سابقاً ، قد ارسل اخاه عبدَ الله لانقاذ المجمعة . فانضم اليه سعود مع قوة كبيرة من الجيش لحصار حرمة . ودارت الدئرة الآن على المعتدين ، فهوجموا هجوماً شديداً اياماً متتالية حتى اضطروا لأن يتراجعوا الى حصنهم يائسين . وعندما طلبوا الصلح اصرّ سعود على طرد كل الذين اشتركوا في الاخلال بالسلام ،وان تكون جميع مزارع النخيل ملكاً للخزينة . وبعد ان عقد الصلح على هذه الشروط كتب سعود الى والده يعلمه بالنجاح،فكتب اليه أبوه أن يدمر المدينة لأن سكانها ظلوا على الدوام يعكرون السلام . فهدم سعود سور المدينة ودمر كثيراً من بيوتها ، ونفى أهلها . وقد ذهب معظمهم الى الزبير بينما استقر آخرون في المجمعة .

وبعد هذه الاحداث مباشرة جهز الوهابيون حملتين ضد زلفي تحت امرة سعود بن عبد الله ، وعبد الله بن محمد ، بغية الاقتصاص منها لمساهمتها في الاضطرابات.ولدى وصول عبد الله الى الرغابة(في طريقه الى بلاده)سمح لقوات الوشم والسدير بالسفر الى بلادهما.حتى اذا ما وصلت بقية الجيش الى حفارالعتك هاجمها سعدون ابن عريعر على رأس جيش كبير من بني خالد . فغُلب الجيش الوهابي المنهوك القوى على امره ، ومني بإصابات فادحة . وكان من جملتها موت قواد قوات الوشم والسدير الذين بقوا مع عبد الله لزيارة الامام . أما عبد الله ، فكان بين القلائل الذين تمكنوا من الفرار . بينما تقدم سعدون لغزو فصيلة من من السّبيع ، فوجد ان فرقة من قوات ضرمى تخيم على نفس البئر . فدحرت فرسانه وفرقتهم ، ووقع سعدون بن خالد في أيدي العدو فافتداه اصحابه بثلاثة الآف قطعة ذهبية .

ثم توجه أهل السُبيع لغزو بني ظافر ، وعسكرت قواتهم عند صفوان على

الحدود العراقية واستاقوا أربعة آلاف من جمالهم . وفي هذه الاثناء كانت الفرقة الوهابيـة قد عادت لنهاجم الخرج ، فتوغلت حتى وصلت الحوطة . ومن ثم هاجمت زلفي ايضاً ، فأبدت خضوعها للحكم الوهابي الذي اصبح متمركزاً من القصيم شمالاً الى الخرج جنوباً ، ومن الدهناء في الشرق الى بلاد عتيبة وحرب في الغرب . وكانت حربُ هذه شكلياً تحت حكم شرفاء مكة وان ظلت القبائل نفسها مستقلة .

ان استمرار اعتناق المذهب الوهابي والارتداد عنه خلال هذه السنوات ليعكس روح العصر بين الحضر والبدو على السواء .. لقد كان نفور العرب من أي شكل من أشكال النظام أو الخضوع في صراع متزايد مع الحركة الروحيـة المؤسسة على مبادىء السلطة . تلك المبادىء التي كانت تعتبر مشروعة وان كانت الغالبية تخلّ بها بدلاً من ان تحترمها . وقد أدرك محمد بن عبد الوهاب منذ البداية بان الحاجـة ماسّة الى قوة ساحقة لنشر كلمة الله والتغلب على عادات عرب الصحراء النصف الوثنية .

وكانت نقطة الضعف الرئيسية في المعركة هي ان البدو كانوا يدركون معاني هذه الرسالة الروحية ، ولكنهم على أستعداد تام لأن يسهموا في مشروع يدر عليهم الغنائم . هذا في البادية . أما في الحضر ، بين أهل المدن والقرى فكانت المنازعات المحلية هي العامل المؤثر في اعتناق المذهب الوهابي أو رفضه . وفي تلك العهود وما رافقها من تطورات سياسية ، لايمكن للمرء أن يلمس أي معنى من معاني الاخوة الانسانية التي كانت ستصبح حجر الزاويـة في حركة الاخوان في القرن العشرين .

وكانت سنة ١٧٨١ سنة اضطراب وعدم استقرار في مناطق واسعة ، تمتد من فاره Fara الى العشائر المتاخمة للعراق . وكان اهتمام الأمير الوهابي موجهاً الى الخرج ، والى توسيع نطاق غزواتـه حتى تصل الى مناطق الحوطة والحارق .

وبعـد أن هاجم سعود الدلم توجـه الي الشرق حيث بنى حصن البِدْع قرب السليميّة ، ووضع فيه حامية بقيادة محمد بن غُشَيّان ليراقب حركات زعيم اليمامة حسن بن رشيد البِجادي الذي توفي في تلك السنة بينما قتل اخوه في المناوشات الـتي جرت حول المدينة . ولجـأ سكان الدّلم الى سعدون بن عريعر يطلبون المساعدة لإخضاع هذا الحصن الوهابي . فصد الحصن هجمتين قاموا بهما عليه . أما سعدون فقد انطلق بحثاً عن المراعي في الشمال . وأما عبد العزيز ، الذي كان يقود غزوة عـلى الحوطة ـ حيث نجـح بعض النجاح ودمر مزارع النخيل ـ فهاجم الدِلم ليفعل بها ما فعله في الحوطة . وانتقل ثقل المعركة الى الشمال حيث اغار سعدون وحلفاؤه من قبائل عنزة (عشيرة حيلان) على الدهامشة تحت امرة مجلاد بن فواز ، بينما تقدم بنو ظافر بجيش قوي وهاجموا عـدداً من الجماعات القبلية قرب المبْيض . فأسرع سعود لمقابلتهم . ولدى رؤية عددهم امتنع عـن مهاجمتهم وعاد الى طُمَيْر في انتظار النجدة التي طلبها . وعند وصولها هاجم الظافر وانتصر عليهم ، فاستولى على كل ما في المخيم من متاع ، وعلى عدد كبير من الماشية ، بلغ سبعة عشر الفاً من الأغنام وخمسة آلاف مـن الجمال ، مع خمسة عشر فرساً .

وفي هذه الاثناء كان مرجل الثورة يغلي في القصيم . فقـد حلت سنة ١٧٨٢ وكل شيء جاهز للثورة العامة على دعاة الوهابية المحليين . وقد قتل بعض البارزين منهم ، مثل منصور وثنيّان اللذين ينتميان الى عائلة ابي خليل . ولجأ الثوار الى سعدون بن عريعر فظهر امام بُريدة بجيش لجب مـن قبيلته عشيرة بني خالد وعناصر كثيرة من بني ظافر وشمّر . ويبدو أن جميع أهل القصيم كانوا يؤازرون الثورة فيما عدا مدن بُريدة ورسّ وتنومة .

وبالطبع كانت بريدة وأميرها حجيلان بن حمد العليّان، مركز الولاء للمذهب الوهابي . ويبدو ان حجيلان هذا خلف عبد الله بن حسن في الهجوم على الخرج عند موت عبد الله . وفي اثناء الحصار الذي دام زهاء الاربعـة أشهر ، ارتاب

حجيلان في مسلك رجل من عشيرة عليّان يدعى سليمان الحجلاني واتهمه بالاتصال بالعدو والتآمر فقتله .

وصادف هذا العمل قبولاً لدى عامة الناس ، ففك سعدون الحصار ، لاعتقاده بانه سيطول ، وسار عن طريق زلفي الى المبْيض ونصب خيامه هناك ليعيد تنظيم جيشه . وانضمت اليه قوات عديدة من جهات متعددة ، كان من جملتها زعماء السدير المنفيون من الزبير . وكان زيد بن زامل يقود جند أهل الخرج . فما أن حلّ منتصف تشرين الثاني حتى كان الجيش باكمله على أهبة الاستعداد للهجوم ، وتقرر ان يكون اولاً على الروضة التي انضم زعماؤها المنفيون الى سعدون. فسار هؤلاء على رأس قوة كبيرة من الجيش واحتلوا المدينة بكل سهولة تحت جنح الظلام .

وقد وافقت الحامية الوهابيّة في الحصن الكبير على الاستسلام والرحيل بعد ان يتعهد المهاجمون بالمحافظة على حياة أفرادها . فاقام سعدون قيادته العامة في الروضة كي يتفرغ لتركيز الوضع واعادة الأمير ماضي الى الحكم .

وكان سعود بن عبد العزيز في هذا الوقت مخيماً في الثادق يرقب الوضع والتطورات . وما كاد جيش سعدون ينسحب من الروضة ويتفرق ،حتى أرسل سعود جيشاً قوياً لمهاجمتها ،موكلاً أمر العمليات الرئيسية الى الفرق القروية من السدير نفسها ، يدعمها رجال العارض والوشم . وقُتل الأمير عون بن مانع في المعركة،فخلفه اخوه عقيل واستمرت المعركة تدور بالشكل المعتاد من المناوشات الغير المنظمة ، الى ان وصل سعود نفسه بالجيش الرئيسي فاشتد الضغط على المدافعين . وقد احتل المهاجمون مزارع النخيل وقطعوا كثيراً من الاشجار ، فلم يبق في يد عقيل غير الحصن. فاضطر في هذه الحالة الى ان يطلب الصلح،وبالفعل تم ذلك ولكن بشروط جدّ قاسية : لقد تعهدوا بان يدفعوا مبالغ كثيرة كتعويض ، وطُرد آل ماضي مرة اخرى مع جميع انصارهم .

وبعد أن احتل سعود الروضة ، بدأ يبحث في امور المدن المجـاورة المتهمة بمناصرة الثوار مثل الدخيلة والفارعة . وبعد ذلك عاد الى بلده ليعد العدة لنشاطه في مرحلة ثانية اوصلته حتى المستجدّة حيث قام بغزو عشيرة مُطير .

وحوالي نفس الوقت تقريباً اي في ربيع سنة ١٧٨٣ خرج زيد بن زامـل ليغزو السّبيع في مكان ما من الصحراء . وفي اثناء عودته الى بلاده، قابل دورية تحت إمرة سليمان بن عفيصان كان قد ارسلها عبد العزيز من الدرعية لابقاء طرق القوافل الرئيسية مفتوحة . فبدأت المناوشات بين الفريقين وقتل زيد برصاصة طائشة .. فادخلت هذه الفاجعة اليأس والخوف في نفوس اتباعه فهربوا مخلّفين وراءهم عشرة قتلى .

وقد خلفه ابنه براك في الامارة . وسرعان ما اشترك مع اهل اليمامة في الهجوم على منفوحة . فوقعت المناوشات المعتادة ، وأصيب الطرفان باصابات طفيفة . وكان سعود في هذا الوقت ، يقوم بغزوة في جهـات الاحساء ، الا انه قرر ان يزور اليمامة زيارة مفاجئة ، اثناء عودته من هجوم ناجح شنّه على قرية العيون . وكان من حسن حظه ان وجد السكان في مضاربهم الصحراويـة فهاجمهم في الحال. وقد هرب اهل اليمامة واختل نظامهم وخسروا ثمانين قتيلاً على اقل تقدير .

ثم سار سعود الى القصيم بغية مهاجمة عنزة ، ولكنه عاد الى بلاده . وربما فعل ذلك لعدم تمكنه مـن إعالة جيش كبير في الميدان نتيجـةً للاحوال السيئة السائدة في المنطقة انذاك . فبسبب انحباس الامطار كانت نجد كلها على ابواب جفاف شديد ، وقد استمر هـذا الجفاف حتى سنة ١٧٨٦ ، فارتفعت الاسعار واختفت المؤن والمواد الغذائية وانتشرت الامراض .

وفي نهاية سنه ١٧٨٤ او بداية السنة التالية ،قاد سعود حملة على الخرج، ولكنه حين سمع بوجود قافلة محملة بالمؤن متجهة الى الحوطة ، قرر ان يكمن لها على آبار ثُلَيْمَة الواقعة في الصحراء على بعد اثني عشر ميلاً عن اليمامة. اما القافلة وحرسها

المؤلف من ثلاثمائة محارب فقد نفذ منهم الماء،ولذا بادرت طليعة القافلة الى الابار حالما راوأ اشجار نخيل الواحة.فلم يجد جيش سعود عناءً كبيراً في التخلص منهم. ولكن القافلة توقفت لدى سماعها طلقات الرصاص ، واخذ حراسها مواقعهم استعداداً للدفاع عنها ضد أي هجوم غادر . ومع هذا فقد وقعت القافلة فريسة سهلة بالرغم من دفاع حرسها المستميت الذين فقدوا نصف قوتهم.وكان من ضمن القتلى فارسهم زامل وهو الابن الثاني لزيد الجبار . أما الناجون فتفرقوا وفروا تاركين وراءهم القافلة وما تحمله من كنوزٍ ثمينة .

ولم تكف أهل الخرج هذه الكارثة ومآسي الجوع والجفاف والاحوال السيئة التي كانوا يعانونها ، بل خرقوا معاهدة الصلح ، فقتلوا «براك» أميرهم الجديد ، وكان القتلة أولاد عمه الذين التجأوا الى الدرعيّة . فخلفه تركي في الامارة ، وكان هذا ولداً آخر من أولاد زيد . الا ان تركي لم يبق طويلاً في الحكم . ففي شهر تشرين الاول من سنة ١٧٨٥ سار سعود نحو الدلم حيث اكره المدافعين عن المدينة على التراجع الى داخل أسوارها ثم استولى عليها بعد هجوم صاعق .

وهكذا انتهت مقاومة أحد الحصون المناوئة للوهابية ، فأسرع أهل الاقليم جميعاً الى إعلان ولائهم للمذهب الجديد .

وفي هذة الاثناء جاء سكان وادي الدواسر الى الدرعية ليعترفوا هم أيضاً بالمذهب الجديد .

وهكذا شهدت نهاية العام امتداد الدولة الوهابية وتوسعها نحو الجنوب .

ولكن يا للأسف ، لقد تسبب انحباس الامطار الطويل في اصابة جمال نجد بالجرب فكانت الخسائر فادحة في المناطق البدوية ــ القري والمدن على السواء . لقد كانت جمال القافلة تسير باحمالها وتهوي صريعة في الطريق . .. غير ان الجفاف

انتهى بنزول أمطار غزيرة سنة ١٧٨٥ ـ ١٧٨٦ فاكتست الصحراء واخضرت الأرض وهبطت الأسعار. إلاان هذا لم يكن ذا أثر في الحد من بؤس القبائل.

وتآمرت عشيرتان من قبائل بني خالد مع أميرين من امرائها، هما عبد المحسن ابن سرداح العبيد الله، ودويحس بن عريعر على الثورة على حكم سعدون. وتجاوب معهما في هذا الأمر ثويني بن عبدالله، زعيم المنتفك، وتعهد بمناصرتهم. فقابل المخالفون سعدون بجيش هائل. وبعد قتال مرير استمر بضعة أيـام، أدرك سعدون انه لا مفر من الهزيمة، فأركن الى الفرار مع اتباعه، واتجه نحو الدرعية حيث استقبله عبد العزيز بحفاوة بالغة جديرة بعـدو شجاع. فاغتصب دويحس مكانه في زعامة بني خالد، وكان عبد المحسن ساعده الأيمن يمـارس بعض مسؤوليات الحكم.

كان سعود في هذا الوقت متغيباً، ينظم حملة ضد عشائر قحطان في الجنوب، بينما كان حجيلان بن حمد، أمير القصيم ينظم حملة على جبل شمر بموافقة عبد العزيز الذي لم يكن قـد زحف على تلك الجهة بعد. فأوقف جند حجيلان قافلة موسوقة، قادمة من العراق الى حايل وسلبوا كل مـا تحمله. وأسرع حجيلان الى بلاده يحمل الغنيمة قبل ان يكر عليه الأعداء ويطـاردوه. ولكن هؤلاء سرعان ما انتقموا منه.

ففي تشرين الثاني التالي سار ثُويني زعيم المنتفك بجيش كبير الى القصيم ومعه سبعمائة من الجمال المحملة بالذخائر الحربية فقط. ولدى وصوله الى تنومـة، حاصرها بضعة أيام، مضعفاً تحصيناتها بقنابل مدافعه لكي يفتحها بنجـاح. وقد دخل المدينة عنوة واعمل في أهلها السيف ثم نهبها بعد ان قتل ما ينوف عن المائة والسبعين رجلاً.

ثم سار ثويني الى بُريدة نفسها. وما كاد يشرع بالهجوم عليها، حتى سمع بوقوع قلاقل في بلاده فعاد بسرعة. وكان عبد المحسن، نائبُـه في الاحساء في

طريقه اليه مع جيش كبير لمساعدته في عملياته ضد القصيم . ولكنه هو ايضاً تخلى عن المهمة لدى سماعه بانسحاب ثويـــني .

وحين دخل عبد المحسن الزبير وافاه حاكم البصرة ليزوره ،الا انه ما كاد يصل حتى ألقي عليه القبض ، واستولى عبد المحسن على جميع ما معه من حيوانات . ثم أسرع الى البصرة واحتل دور الحكومة واغتصب الحكم . ثم دعا اعيان المدينــة ليتداول واياهم بشأن المستقبل. واتفقوا على إرسال رسالة الى السلطان في استنبول طالبين إليه الموافقة على تعيين ثويني حاكماً للاقليم . ولكن ذلك الرسول لم يفلح، فلدى رؤيته الوزراء بمظهرهم الصارم ، ارتعب وخاف فهرب تحت جنح الليل .
وقد صدرت الاوامر الى والي بغداد، سليمان باشا ، ليتخذ الاجراءات اللازمة لأعادة الامور الى نصابها في البصرة . فقام الوالي بنفسه على رأس حملة تأديبية ، اتجه بها الى مكان الاضطرابات في خريف سنة ١٧٨٧ . فجمع ثويني قواته ليقاوم الغزاة . وسار الى قناة الفاضلية ، قرب سوق الشيوخ للقاء الاتراك ، تاركاً وراءه اخاه حبيباً ليتولى زمام الامور في البصرة .

واندحر جيش ثويـــني شر اندحار ، وفر الى الجهرة قرب الكويت، حيث انضم الى بني خالد في الصمّان فاصبح حمود بن تامرزعيم المنتفك بينما عيّن سليمان باشا ، الأغا مصطفى حاكماً على البصرة .

وفي هذه الاثناء جدد حجيلان هجومــه على جبل شمر ، حتى خضع سكان حايل رسمياً للحكم الوهابي ، وهكذا اتسعت حدود الدولة الوهابية وامتد سلطانها.

سار سعود الى القصيم ليعاقب عنيزة على القلاقل التي حدثت هناك ايام كان الحاكم من قبيلة رشيد . وكان يحيى بن علي قد خلف عمه عبدالله بن حمــد في الامارة سنة ١٧٨٨ ، السنة التي قاد فيها سعود حملته على الخرج ، وكان عبدالله من عائلة زامل. فطرد المغتصب وعائلته من المدينة وأعاد الامارة الى عائلة زامل التي زكّت لذلك المنصب شيخها عبدالله بن يحيى . وكان يحيى بن علي قد حكم

المدينة بالاشتراك مع مغتصب من من عائلة الرشيـــد فحكم في تلك الفترة حتى سنة ١٧٨٨ ، ويبدو ان هذا التبديل قد تم دون اية معارضة لمرسوم سعود .

وفي نفس الوقت كان سليمان بن عُفيْصان يغزو المناطق الشرقية ، فكبد أهل قطّر خسائر فادحة ثم اتجه نحو الاحساء ، حيث عامل أهل قرية « جيشة » معاملة قاسية ، وقتل الكثيرين من أهلها . ثم سار الى ميناء العُقَيْر وأحرقــه واستولى على كافة البضائع الموجودة في المستودعات .

ومع هذا فقد كانت ابرز الأحداث في هذه السنة ، تصميم عبد العزيز الذي بلغ الخامسة والستين بان يضع الترتيبات بشأن خلفه على العرش . وكان سعود هو الشخصية التي وقع الاختيار عليها ، لكبر سنه ، وللأعمال الباهرة التي انجزها في المجالات الادارية والعسكرية ، ليخلفه على عرش الدولة التي نشأت وترعرعت حول الدرعية .

ومن الجدير بالذكر ، ان الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، الممثل الاعلى للسلطة الروحية في الدرعية هو الذي أَصدر الأوامر الى جميع الأقــاليم والمقاطعات للاعتراف بسعود ، وقبوله حاكماً في المستقبل . ولم تجرِ في العاصمة مراسم خاصة من أجل هذه الغاية . ولكن مجرد مبايعة الامراء لسعود على الولاء والاخلاص ، كان يعتبر في حد ذاتــه قبولاً منهم ، بتقديم الخضوع والولاء لسعود مـــن تلك اللحظه ، ليس فقط بصفته إمام المستقبل بل لكونه ملكهم الفعلي الذي من حقــه ان يطيعوه ويحترموه كما كانوا يفعلون مع ابيه، وان كان هو نفسه يدين بالطاعة لأبيه. ويظهر ان هذا التقليد قديم جداً، فـإن ملوك سبأ كانوا يشركون واحداً أو أثنين من أخوتهم ، او ابنائهم ، او ابناء اخوتهم ، معهم في العرش ، لا كأوليـاء للعهد ، ولكن بصفتهم ملوكاً .

اما في البلاد العربية فبالاضافة الى كون الحاكم هو الامــام لشعبه ، فهو يشار اليه بكلمة «الشيوخ» بالجمع، وهو الشخص الوحيد في الدولة الذي يستحق هذا اللقب

هو الأمير نائب الملك او الوارث للعرش . ومن فوائد هذا التقليد ، ان لا يكون هناك ضرورة لتنازل الملك عن العرش ، فيما اذا اصيب الملك بعاهـة تقعده عن ممارسة مهام الملك او في حالة الوفاة .

وبعد ان عين سعود ولياً للعهد، قضى شتاء سنة ١٧٨٨ ـ ١٧٨٩ في غزوات شاملة وقعت جميعها في المناطق الشرقية والجنوبيـة الشرقية . فوضع خطة عامة للضغط على امراء بني خالد في الاحساء . وفي الصمّان واجه حشداً كبيراً لقوات بني خالد ، فانسحب دون ان يقوم باية محاولة للاشتباك معهم،بعد يومين قضاهما في المناوشات الخفيفة والمناورات . ثم قابل ثويني في نفس هذه المنطقة واشتبك مع لاجئي المنتفك الذين كانوا قد هربوا مع ثويني من العراق،بعد كارثة « سوق الشيوخ » .

وفي هذهالمرة هاجمهم هجوماً صادقاً فهزم اهل المنتفك واستولى علىمعسكرهم. ثم هبط على مجموعة من القرى الصغيرة والمزارع في صحراء الطف ،واستولى على كل مخزونهم من الحنطة .

اما حركته التالية فكانت أبعد كثيراً .. لقد هاجم جماعة اخرى من المنتفك في الروضتين ، قرب صفوان ، عند الحدود العراقية ، فاستولى على جميع متاعهم وخيامهم وممتلكاتهم الاخرى . ثم عاد الى آبار الوفرة ، فهاجم في طريقه جماعة من بني خالد وهزمهم، قاتلاً منهم سبعين رجلاً . ثم سار الى واحة الحسا حيث ناوش سكان مدينه المبرّز دون نتائج حاسمة . غير انـه ضرب قرية الفضول التي لا تبعد عنها كثيراً ضربة قاصمة وقتل ما يقرب من الثلاثمائة من رجالها .

وفي خريف السنة التالية وجـد نفسه في الميدان ثانيـة ليستأنف ضغطه على الاحساء . وكان جيشه يتألف من فرقة من بني ظافر وبعض العناصر من قبيلة بني خالد تحت امرة زيد بن عريعر . وكان هذا قـد طرد من القبيلة مع أنصاره بعد ثورته على سعدون . هذا بالاضافة الى جند سعود النظامي المؤلف مـن رجال

العارض وما جاورها من المناطق . وقد سار سعود بهذا الجيش لمقابلة الحشود الرئيسية لبني خالد، التي كانت معسكرة قرب تلة "غريميل" وآبارها القريبة من واحة الاحسا ، تحت قيادة دويحس بن عريعر ، وعمه عبد المحسن .

واشتبك سعود مع اعدائه في الحال. وكان القتال شديداً ويائساً بين الطرفين. غير ان بني خالد انكسروا فانهزموا واصيبوا بخسائر فادحة على ايدي فرسان سعود ، وتركوا وراءهم مواشيهم وممتلكاتهم الاخرى . ويبدو ان عبد المحسن ودويحس هربا الى المنتفك ، فعين سعود زيداً بن عريعر زعيماً على القبيلة .

وفي خريف سنة ١٧٩٠ ظهر في الغرب تهديد خطير لاستقرار الدولة الوهابية. فقد كان الشريف غالب بن مساعد الذي خلف اخاه لدى موته سنة ١٧٨٨ ، يعد العدة لغزو نجد ، معلناً عزمه على مهاجمة الدرعية نفسها، ووضع حد للهرطقة الوهابية ، فارسل اخاه عبد العزيز بجيش يتألف من عشرة الاف رجل وعشرين مدفعاً . وانضم اليه في الطريق بدو الحجاز ، وعناصر من شمر ومطير ، وقبائل اخرى من نجد . ولدى وصولهم اقليم السرّ ، احدقوا بقرية « قصر بسّام » المحصنة وسحقوها بالمدافع التركية . ولكن حاميتها الصغيرة ، التي قيل انها كانت تتألف من ثلاثين رجلاً ، صدّت بشجاعة كلّ هجوم كانوا يشنونه عليها.

وبعد بضعة ايام من القصف الشديد ، قرر الشريف غالب الذي كان يدير العمليات بنفسه ان ينضم الى الجيش الرئيسي المعقود لاخيه ، عند الشقرا في مرتفعات نجد . فتعرضت الشقرا الى قصف شديد من المدفعية، وحاول المهاجمون اقتحامها مراراً كثيرة ، ولكن محاولاتهم هذه جميعها باءت بالفشل .

وبعد شهر من المحاولات الفاشلة، فك غالب الحصار الذي فقد فيه خمسين من رجاله ، وتخلى عن فكرة احتلال نجد نهائياً . اما البدو الذين انضموا اليه حباً في الغنائم والأسلاب ، فقد تركوه حالما تحقق لهم فشل محاولته . وسار غالب بجيشه الرئيسي دون ان يحقق شيئاً من احلامه .

اماسعود الذي كان يحتفظ بقواته الرئيسية لمواجهة اي تهديد محتمل للدرعية، فسار بجيش كبير ليعاقب البدو الذين انضموا الى قوات الشريف غالب ، حالما وصلته اخبار انسحابه من نجد .

وفي صيف سنة ١٧٩١ وصلت قبائل شمر ومطير الى آبار (عَدْوَه) جنوب حايل. فنشبت معركة (عدوه) في الثلاثين من آب. وقد حارب البدو بكل شجاعة وضراوة الا انهم هزموا تاركين لسعود غنائم كبيرة ، وجثث عدد من زعمائهم . ولكنهم عادوا فهاجموه عندما وصلتهم النجدات التي لم تشترك في المعركة . وكان سعود لا يزال في عدوه، يوزع الاسلاب كما هي العادة . فصمد الوهابيون لهجوم البدو . وقُتل مسلّط بن مطلق ، احد زعماء شمر ، عندما حاول اقتحام خيمة سعود نفسه، فانهزم المهاجمون وتشتتوا. فتبعهم فرسان الوهابيين وطاردوهم مدة يومين كاملين يقتلون منهم من يقتلون ، وينهبون ما ينهبون .

وقد بلغ ما غنموه منهم مائة الف رأس من الغنم ، واحد عشر الف جمل .

وفي كانون الثاني من سنة ١٧٩٢ ، كان سعود في طريقه الى الحسا ، فاستولى على سيهات وَعَنْكْ وقتل اربعمائة من سكانها ، وغنم غنائم هائلة وعقد مع اهلها الصلح على شرط ان يدفعوا له خمسمائة جمل ، كفدية لأرواحهم .

وفي هذا الوقت كان زيد بن عريعر ، الذي عينه سعود زعيماً لبني خالد بعد معركة الغريمل ، قد اغرى عبد المحسن لأن يعود ، وضمن له سلامته ، وتعهد له بان يعامله معاملة كريمة ؛ ولكنه قتله في اجتماع عام. فتجمعت قبائل مطير في (جنايح) في نجد العليا ، ولكن هادي بن قرملة زعيم قبائل قحطان ، هاجمها بامر من الامام بينما قام سليمان بن عفيصان يغزو قَطَر، وهاجم جماعة مسلحة من سكانها وهزمهم. وعاد سعود نفسه بعد العمليات في منطقة القطيف ، وسار الى جبل شمر ليغزو حشداً كبيراً من قبائل حرب ومطير عند آبار شقرا، فغنم منهم ثمانية آلاف جمل وعشرين من الأفراس العتاق .

وكان ابرز احداث هذه السنة ما وقع في الصيف .. ففي العشرين من تموز ، توفي محمد بن عبد الوهاب العظيم ، بعد ان قضى سنوات طوالاً معززاً ومكرماً ، وامضى حوالي نصف قرن في جهاد مستمر لتوطيد اقدام الحركة التي بدأها، وفي سبيل تاكيد الاخلاص والولاء للامراء الذين تعاونوا معه ، فجعلوا هذه الحركة تزدهر وتتسع وتنجح . ولقد مات قرير العين هانيء البال ، في شيخوخته . غير انـــه لم يعش طويـــلاً كي يرى الارض الموعودة تزدهر وتتسع حتى تصل الى اقاصي حدود الجزيرة .

اما ابن بشر الذي جاء في تاريخه على ذكر موته فيقول إنـــه كان في الثانية والتسعين من العمر عند وفاته . غير انه يعود فيذكر في مكان آخر هو سنة ١١١٥ الهجرية تاريخ مولده ، الموافق سنة ١٧٠٣ ـ ١٧٠٤ .وفي هـــذا الحال يكون الشيخ قد بلغ التاسعة والثمانين حين وفاته . وفي اواخر سنيّ حياته اصبح ضخم الجثة ثقيل الحركة حتى كان كلما ذهب الى الجامع يساعده رجلان .

ويذكر ابن بشر في تاريخه ، رثاءً كتبه الشيخ حسين بن غنام ، يؤبّـــن فيه الراحل العظيم.ولكن اعظم النصب التذكارية لاحياء ذكرى هذا الراحل الكريم هو دولته التي انشأها واقامها وسار بهـــا في خضم مـــن القلاقل والاضطراب والفوضى التي عمّت الجزيرة العربية انذاك . دولته التي صمدت الى يومنا هذا في وجه تقلبات الزمن والاحداث الجسام خلال اكثر من قرنين من التاريخ .

ويجدر بنا ان نذكر ، بانه لم يتولّ ادارة الشئون الدينية والروحية فحسب ، بل ساهم مساهمة فعالة في ادارة دفة النشاط السياسي والعسكري ايضاً ، في سبيل اعلاء كلمة الله . والتوافقُ التام بينه وبين اول رئيسين مؤقتـــين للدولة الوهابية والانسجام الذي واكب علاقاتهم التي استمرت زهاء خمسين عاماً لهما أنصع دليل على عبقريته الفذة واخلاصه وتفانيه في سبيل القضية المشتركـة ، التي تغلبت على الضعف البشري واطماع العالم الاقطاعي الذي كان اهل زمانه يعشون فيه .

وفي خريف السنة التي تلت موت الشيخ، شهد اقليم الاحساء تطورات مهمة. فقد ثار بنو خالد، يدفعهم براك بن عبد المحسن، على زيد بن عريعر الذي اختاره سعود زعيماً للقبيلة، وعزلوه. وما كاد يتولى براك زعامة القبيلة حتى قاد عشيرته ليغزو ابار لصافة (صفا ؟) وهاجم في طريقه فريقاً من السبيع، ونهب كثيراً من متاعهم. ووصل سعود في هذه الاثناء بجيشه المؤلف من مجندي الوهابيين الى الصحراء الشرقية، بحثاً عن بني خالد، الذين كانوا على الأغلب في الجهرة قرب الكويت. وتتبع اثر جماعتهم الغازية حتى ابار لصافه ثم ضرب خيامه هناك وارسل قوة من جيشه لاحتلال آبار لهبة وقرعة Qara'a. وكان الغزاة قد عادوا فعلاً الى لهبة، فوجدوا جيش سعود يحتلها. فقام فرسانه وهجانته بالهجوم عليهم. وبعد قتال ضار استمر زهاء الساعة تفرق بنو خالد وانهزموا في فوضى واضطراب. وتبعهم فرسان الوهابيين فلم يرحموهم وعادوا بغنائم هائلة.

ويقدر عدد قتلى قبيلة بني خالد في تلك المعركة وفي اثناء هزيمتهم، بألف الى الفي قتيل. كما استولى سعود على ما لايقل عن مائتي فرس.

اما براك نفسه ففر مع نفر من اتباعه الى المنتفك عند الحدود العراقية. فاستولى الذعر على الهفوف حين طرق سمعهم خبر اندحار بني خالد وهزيمتهم المنكرة.

اما سعود الذي كان متجهاً الى تلك الجهة فتوقف عند آبار الردينية، في اقليم الطف، بضعة ايام. وفي هذه الاثناء وصلته من سكان الحسا دعوة لزيارة بلادهم كي يقدموا له ولاءهم. فتمت المراسم المعتادة لدى وصوله مياه عين نجم الحارة، ثم ارسل جماعات من جنده ليدمروا قبور الشيعة واضرحة الكفر التي يزورها السكان، والمقامات الدينية التي كانوا يتبركون بها. وامضى سعود شهراً هناك فأعد خلال هذا الشهر كل شيء ضروري لهداية السكان الجهلة، وإحياء إيمانهم وتنوير اذهانهم بتزويدهم بالجوامع والمدارس وتعيين الشيوخ الاكفاء ليشرحوا لهم اصول الاسلام وعقيدة التوحيد. وعين محمداً الحملي اميراً على الاقليم على ان

يكون مركزه قلعة الكُوت . كما عيّن الموظفين اللازمين في الوظائف الأخرى وارسل الحاميات الى الحصون المختلفة ومراكز الحراسة المتعددة .

ثم رحل سعود وسار الى ابار "نطَع" في اقليم الطف"،حيث أمضى هناك شهراً لترعى جماله وخيوله في مراعيها . ثم جاءته اخبار اضطراب وقع في الهفوف ، اذ ثار السكان على الحكم الجديد وقتلوا الحاكم ، وثلاثين رجلاً ، وموظفين اخرين بينهم الشيوخ الذين عينهم حديثاً لتفقيههم .

وقد جُرّت جثث الضحايا وشوّهت على مشهد من الجميع . ولم يبق احد من الجهاز الاداري الذي اقامه سعود — فيما عدا حامية حصن حصار — تحت امرة محمد بن غُشيّان . وقاومت الحامية فترة من الزمن غير انها فرت تحت جنح الظلام وانضمت الى معسكر سعود . فعاد سعود الى الدرعية ، بينما استأنف زيد ابن عريعر حكمه لاقليم الاحساء فترة مؤقتة . وكانت الدولة الوهابية قد خسرت في هذا الوقت خسارة فادحة،بموت سليمان بن عفيصان امير الخرج خلال السنوات الست عشرة الماضية ، هذا الرجل الذي اختاره عبد العزيز وسعود مراراً كثيرة لحملات عسكرية تتطلب شجاعة وجرأة ومقدرة في القيادة .

وفي خريف سنة ١٧٩٣ كان سعود على اهبة الاستعداد لقمع الثورة في الحسا ومعاقبة مثيريها . فسار اليها بكامل جيشه وهدفه الاول قرية "شُقَيْق" ، فاحتلها عنوة بعد حصار استمر يومين وقتل بعض السكان . غير ان الباقين فروا . وتجمع سكان القرى الشمالية من الواحة للدفاع عن انفسهم في الُقر"ين ، فطوقها سعود مع قرية المطيرفة ، حتى افتدى السكان انفسهم بنصف ممتلكاتهم .

ثم سار سعود الى المبرّز ، المدينة الثانية بعد الهفوف في الاهمية ، وهناك هاجمه زيد بن عريعر على رأس جماعة من السكان المحاصرين الا انهم هزموا وتراجعوا الى العاصمة . وهاجم سعود حصن المُهَيْرِس" المنعزل وحاميته التي يقودها بعض اهل المبرّز ، فخسرت قرابة المائة من القتلى .

وكانت البتّاليّة هي القرية التالية التي هاجمها سعود . ومن ثم سار الى الشرق ليهاجم قرية ُجبَيْل . وكان سعود يهدف من وراء هجماته هذه ان يُعملَ السيف والنار في الاقليم بأمله ، ليعاقب اهله على الثورة التي قامت بها الهفوف ، والفظائع التي ارتكبت هناك . وفي هذه الاثناء ارسل فِرَقه البدوية الى كل ناحيــة لينهبوا اموال السكان ويدمروا قراهم بلا رحمة .

وبعد هذه الحملة الارهابية التي استمرت فترةً مــن الزمن ، اختار سكان لاحساء براك بن عبد المحسن ، ليتوجه الى عبد العزيز ويطلب منه الرحمة ، واعداً اياه بالخضوع والولاء . فوافق الامام السكان على طلبهم هذا ، وطلب من سعود ان يعود الى الدرعية ، تاركاً لبراك بن محسن امر وضع الترتيبات لتنفيذ العهدالذي قطعه على نفسه نيابة عن اهل الاقليم .

غير ان الهفوف لم تُظهر ندما على ما فعلت، إذ منعت براك من دخول المدينة فسار الى المبرز فدخلها، بينما كان زيد وابناء عمومته عريعر في قرية جيشّه وَجفَار من اطراف الواحة .

وبعد قتال مرير بين الاطراف المتنازعة ، كان النصر حليف براك ، ففر زيد الى المنتفك شمالاً ، وتولى براك الحكم نيابة عن الدولة الوهابية واعترف بـه اهل الاقليم جميعاً .

وهكذا انتهى استقلال الاحساء تحت حكم امراء بيت عريعر وسلالة ُحمَيْد الذين حكموها ١٢٤ سنة ، اي منذ سنة ١٦٦٩ عندما احتلها من الاتراك براك ابن غرير، الجد الأعلى لسعدون وزيد. وكان الاتراك، قد احتلوها بدورهم عندما قهروا امراء عائلة اجود بن زامل الجبري القيسي سنة ١٥٩٢ على يد فاتــح باشا الذي كان اول والٍ لها .

ويعطينا ابن بشر اسماء خلفاء فاتح باشا الثلاثة ، ومنهم عمر باشا الذي فقــد الاقليم يوم احتله آل ُحمَيْد، فيقول ،(ابن بشر) بان الاحتلال التركي استمر ثلاثين

عاماً تقريباً . واذا اعتبرنا التواريخ التي ذكرها صحيحة ، فلا بد ان حكم الاتراك استمر اكثر من ثمانية وسبعين عاماً . غير ان هـذه المدة طويلة لايمكن ان يتولى الحكم فيها اربعة ولاة فقط ، وان كان ذلك ممكناً احياناً . ولربما انـه كتب رقم ٣٠ خطأً بدلاً من رقم ثمانين . فالتشابه بين كتابة الرقمين في اللغة العربية كبير .

وعلى كل ، فقد اصبح اقليم الاحساء الآن اقليماً وهابياً مدّة تقرب من الثمانين عاماً . وبعدها جاء الاتراك مرة اخرى سنة ١٨٧١ فاحتلوه فترة استمرت زهاء الاثنين والاربعين عاماً،وحتى سنة ١٩١٣ .وعندها عاد نهائياً الى الدولة الوهابية. ويعتبر اقليم الاحساء في الوقت الحاضر اغنى اقاليمها على الاطلاق .

وصحيح ان الحملة على الاحساء وقعت في فصل الشتاء الشديـد البرودة سنة ١٧٩٣ ـ ١٧٩٤ الا ان نتائجها فاقت الغزوات الصحراوية الاخرى. ولقد تلاها مباشرة نشاط وهابي عظيم في المجالات العسكرية ، وفي نواحٍ اخرى ، من ضمنه حملة كانت عدتها ستمائة جمل والف رجل تحت امرة عبد الله بن محمد بن معيقل من الشرما وصلت الى سهل رُقبة عند الحدود الحجازية ، واشتبكت مع فريق من قبيلة عتيبه قرب تل البغث. (بَرْثْ)ولكنها ردّت على اعقابها متكبدة بعض الخسائر.

وقد سارت حملة اخرى تحت قيادة محمد بن معيقل نفسه ، فهـاجم بني حجر Hajir في سهل حزم الراقي Hazm Raqi بـين تـلال ضَنيْب وآبار ثَعْلْ واستولت على كثير من الاسلاب بالاضافه الى مقتل زعيم القبيلة ناصر بن شاري.

وسارت حملة اخرى بقيادة ابراهيم بن عفيصـان ، أمير الخرج ، وابن سليمان الذي توفي حديثاً ، أو أخيه ، فهاجمت باديء ذي بدء قطر حيث دمرت قرية الحوَيلة المشهوورة بمصائد الأسماك . ثم هاجمت ، فيما بعـد ، الكويت نفسها ، حيث تمكنت من ابادة جماعة خرجت مـن القرية المحصورة بواسطة كمين نصبته لها ، غير ان أفراد الحملة لم يدخلوا المدينة نفسها .

وكان أهم هذه الغزوات الصغيرة التي جرت في تلك السنة تلك التي تجمعت

فيها فرق من الوشم وجبل شمر ، كل منها تحت امرة قائدهـا المحلي ، وجميعها تحت امرة محمد بن معيقل ، وتوغلت في اقصى الشمال مسافةً ابعد مما فعلت الجيوش الوهابية حتى الآن .

وكان هدفهم الاول الجوف الشمالي الذي لا يزال يعرف باسم دومة الجندل ، على جناح الصحراء السورية . فاحتلوا ثلاثاً من قرى الواحة ، أما البقية ومنها قصر المارد ، الحصنُ الرئيسي في الجوف ، فحاصروها حتى استسلمت ، وخضعت للدولة الوهابية وقطعت على نفسها عهداً بالطاعة والولاء .

وربما يعود تاريخ هذه الاحداث لشتاء وربيع سنة ١٧٩٤ التي توفي فيها شيخ الدرعية ، سليمان بن عبد الوهاب ، بعد سنوات عدة من وفاة أخيه الأشهر . أما الشهور الاخيرة من هذه السنة فشهدت سعوداً يغزو بني ظافر على الحدود العراقية في مقاطعة الحَجَرة ؟ ثم يعود الى العاصمة بأسلاب وافرة في شباط من سنة١٧٩٥ ليعد العدة لغزوة الحجاز . وفي‌شهر ايار ظهر سعود امام ترابة متبعاً التكتيك المعتاد في قطع اشجار النخيل والقيام بمناوشات متفرقة . فقُتل في اثنائها احد قادته البارزين ، محمد بن عيسى بن غشيّان .

ويبدو ان سعوداً لم يواصل هجومه بشكل جدي ، اذ ارتحل بعد ان أغراه عرض التعويضات الكبير .

وربما كان الدافع على رحيله شدّة الحراره في شهر حزيران ، فلم يواصل تقدمه باتجاه سورية والعراق ، الأمر الذي لو تم لدل على ان لأسياد الدرعية مطامع توسعية يهدفون من ورائها الى توسيع عملياتهم الحربية ويجربون كافة الوسائل لتحقيقها .

واعتبر غالب بن مساعد ، شريف مكة ، الحملة على ترابة بمثابة جس النبض ، فنظم حملة على نجد بالرغم من شدة الحرارة الضارية . وكان هدف الشريف فهيد ، قائد الحملة ، قبيلة قحطان النازلة على آبار المسيل على بعد خمسين ميلاً من

الدوادمي . وبعد قتـــال عنيف ، انهزمت قبيلة قحطان وتكبدت خسائر كبيرة جداً ، منها عشرة آلاف جمل . ولولا هطول الامطـــار آنذاك لهلكت النساء والأطفال من العطش .

وعند انسحاب قوات الشريف واستيلائها على الغنائم ، قام محمـــد بن معيقل بغزوة ناجحة على قبائل عتيبة في مَرّان في المنطقة البركانية من حرّة الكِشْب .

وبعد ذلك بقليل جاء سعود بنفسه الى تلك المنطقة ، يقود حملة على مضارب مطير وعتيبة . ولكن غالباً كان يعد العـــدة لغزوة ثانية شاملة على نجـــد . وقد انطلقت هـــذه الحملة من مكة في شهر كانون الاول سنة ١٧٩٦ تحت قيادة الشريف ناصر بن يحيى،واتجهت الى المرتفعات الواقعة في اواسط الجزيرةالعربية . ولدى سماع عبد العزيز بخبر هذه الحملة ، أصدر أوامره الى كل من محمد بن ربيعان العتيبي وفيصل الدّوَيْش من قبيلة مطير ، وقبائل السُّهول والسّبيع وقبائـــل الدواسر والعجمان ليحشدوا قواتهم تحت قيادة هادي بن قَرملة القائد الأعلى للقوات المدافعة ، المعسكرة حول آبار الجمانية على طـــول تلة النير ، وطرق القوافل بين نجد والحجاز .

ولدى وصول جيش الشريف ناصر المزود ببعض المدافع بدأت المعركة فمني الجانبان بإصابات فادحة ، الى ان قام فرسان هادي بهجـــوم ضارٍ قرر مصير المعركة . فتفرق جيش الشريف وانهزم ، ولكن فرسان نجد طاردوهم وقتلوا منهم ثلاثمائـــة قتيل ، وغنموا غنائم هائلة ، من بينها مدافع ناصر وخيامـــه . وكان عبد العزيز قد أرسل محمداً بن معيقل بنجدات اذا اقتضى الأمر ، ولكنهـــا وصلت متأخرة عن المعركة ، فاشتركت في مطاردة الهاربين والضغط عليهم حتى القُنْصُليّة،قرب خُرْمَة،فقتلوا اربعين من الهاربين وغنموا منهم غنائم كبيرة .

وكان مبارك بن هادي ، في هذه الاثناء ، يقوم بغزو الحدود اليمنية ، فهاجم قبائل نجران واستولى على اموالهم . وبدا كأن الصحراء العربية تتقد حمـــاساً

وتتوثب نشاطاً عسكرياً أرّثه الوهابيون . غير أن اضطرابات نشبت في الاحساء حيث قام براك بن عبد المحسن بإغراء فئة كبيرة مـــن السكان بأن يطّرحوا نير الوهابيين عنهم . اما قبيلة السياسب° ، في المنطقة الساحلية حول القطيف ، فقد رفضت الانضمام لهذه الحركة وطلبت المساعدة من الدرعية . فتوجّه ابراهيم ابن عفيصان في الحال لقمع الفتنة التي ابقاها أهل السياسب ضمن حـــدود ضيقة بالتعاون مع أهل المبرز الذين رفضوا الانضمام للمتحالفين . وكان بعض الثوار قد استسلموا قبل وصول ابن عفيصان، مثل صالح بن نجار ، أحد قادة الحركة ، ولكن الباقين صمموا على المضي في الحرب ، فحاصرهم الجند الوهابي في مختلف مواقع الهفوف الى ان طلبوا عقد الصلح . وقـــد تم ذلك على شرط ان يذهب زعماء المتمردين ويعلنوا ولاءهم امام عبد العزيز نفسه في الدرعية .

وفي أيار من ذلك العام ذهب سعود الى اقليم الوشم ليشرف على تعبئة الجيش استعداداً لحملة على الاحساء . ولدى وصوله الى الرقيقـــة Ruqaiyiqa قضى شهراً هناك لا يفعل شيئاً غير عملية حشد قواته واعادة تنظيم الترتيبات الادارية. وقد حدث بعض القتال هنا وهناك ، لكنه يبـــدو ان الثورة لم تكن ذات تأثير كبير. واستسلم السكان عن حكمة فيهم بعد ان تحققوا بأن لا جدوى من العناد ، فقُتل بعض الأفراد وسجن آخرون ونفي غيرهم مـــن البلاد ، وهدمت البيوت وانشئت مراكز الحراسة ، ونهبت الممتلكات وفرضت التعويضات والغرامات ودفعت . وهذه نتيجة طبيعية لتمرد لا ينجح .

وقد طلب سعود الى شخص يدعى نجم بن دُدَهيْنم من سكان الهفوف بان يدل على كل من يعتقد بانه اشترك في اقتراف الفظائع اثناء الفتنة . ثم عيّن هـــذا الرجل حاكماً على الاحساء. وعاد سعود الى بلاده ، آخذاً معه عدداً من الرهائن . ويظهر ان براك هرب من الاقليم ، إما قبل هذه العمليات او بعدها . وربما فر الى المنتفك ، حيث عادت الاضطرابات فتجددت خلال الجزء الاخير مـــن نفس السنة .

أما ثويني ، بعد هزيمته على يد سعود في ديار بني خالد قبل بضع سنوات ، فقد فر الى صفوان حيث انضمت اليه عشائر كثيرة من قبيلته. ولكن الامير الجديد ، حمود بن ثامر ، هاجمه حالاً وهزمه وأتباعه . فهرب ثويني الى ديار كعب Ka,b على شط العرب . وقد حاول سنة ١٧٨٩ ان يحصل على مساعدة من زيد بن عريعر ليستأنف الكفاح . ولكنه لم يلق تشجيعاً منه ، فالتجأ الى عبد العزيز في الدرعية ، ومكث هناك مدة من الزمن ضيفاً عليه معززاً مكرماً .

وشق ثويني فيا بعد ، طريقه الى الكويت ، ومن هناك سار الى بغداد يطلب عفو سليان باشا ، الذي كان قد ازعجه كثيراً في سوق الشيوخ . فعفا عنه وسمح له بالبقاء في بغداد ، حيث بدأ ثويني يستعطف الوالي ويتودد اليه ، لعله يعيده الى زعامة المنتفك . ومن أجل هذه الغاية ، اقنع الوالي بأنه ، اذا ما عاد أصبح في وضع يحقق له مطمعه في اخضاع نجد للباب العالي. فاهتم سليان باشا بهذا الأمر ، وزوده بالسلاح والرجال وأرسله في تلك السنة ليتولى الزعامة في المنتفك بعد عزل حمود .

وما كاد ثويني يستقر في منصبه الجديد حتى بدأ بحشد الجيوش للمغامرة التي تعهد أن يقوم بها . فأخضع بني ظافر بجيش من قبيلته وبمدد من الزبير والبصرة. ووجد أن بني خالد على استعداد لينضموا اليه تحت امرة براك الهارب ، فحشد كل جيشه في الجهرة وبقي هناك ثلاثة أشهر ، يعد العدة ويضع خطط الحملة العتيدة .

وانضمت عساكر الاتراك في البصرة عن طريق البحر ، بينا نقل آخرون في اسطول من السفن على موازاة طريق زحفه الى القطيف التي ستكون القاعدة الرئيسية لعملياته لفتح الاحساء .

حينئذ ، أمر سعود بتعبئة جميع جيوش الأقاليم تعبئة عامة ، ليواجه التهديد الجديد . وعين محمداً بن معيقل قائداً عاماً لهذا الجيش الكبير الذي غادر الدرعية

في الوقت المعين ، قاصداً آبار القَرّ ية في اقليم الطفّ . وأمر في نفس الوقت ، جميع العشائر البدوية ، بأن تنتقل بمؤنها وعائلاتها وقطعان أغنامها ، الى أراضي بني خالد . ليحتلوا الآبار ، وليدافعوا عن أنفسهم ضد الغزاة . ثم سار سعود بقوة كبيرة من جيش اهل العارض ومناطق اخرى في وسط البلاد ، ليعسكر في روضة الطنْحَة في الطرف الغربي من الدهناء ، ومن هناك انتقل الى حفار العَتْك ليقيم فيها مدة شهرين .

اما ثويني فتقدم نحو اقليم الطفّ ، فتراجع الوهابيون الى آبار جودة وأم الرباعية في الجنوب . وارسل سعود قوة من الفرسان المتطوعين تحت امرة حسن ابن مشاري لنجدة محمد بن معيقل ومساندة القبائل البدوية .

ويبدو ان انتقال ثويني الى آبار الشّباك قد افزع البدو . غير أن العناية الربانية تدخلت في اللحظة الاخيرة عندما قتل ثويني على يد عبد له اثناء ما كان يرقب تنظيم الجيوش والرواحل حول الآبار . ولكن القاتل قتل في الحال واخفي الخبر عن الجيش لئلا يصاب بالذعر . فخلفه ناصر شقيقه . ولكن براك الذى كان على اتصال سري بحسن بن مشاري ، والذي كان ساخطاً على انضمامه الى زعيم المنتفك قرّر بانه قد آن الاوان كي يحدث تبديلاً فانسحب .

وقد أدى انسحاب بني خالد الى الفزع بين صفوف الجيش الغازي ، فاخذ يتقهقر ، يطارده الوهابيون الى حدود الكويت . وقد وقعت معسكراته ومدافعه في ايدي الوهابيين المنتصرين كما غنموا غنائم كبيرة لدى مطاردتهم عشائر المنتفك المنهزمة .

جرت هذه الاحداث في نهاية حزيران من سنة ١٧٩٧ .

وبعد ان وزع سعود الغنائم في ميدان المعركة ، سار نحو الهفوف ليتأكد مرة اخرى من ولاء اهلها . وخلال اقامته هناك نزلت الامطار في نجد ، بشكل لم يعرف له مثيل من قبل. لقد دمرت الفيضانات مدينة الدّلَمْ في شعيب العجيْمي،

بينما تساقط في حريملة بَرَد شديد اتلف ثمار النخيل واهلك المحاصيل الزراعية ، وتسبب في انهيار كثير من البيوت والجدران .

وفي صيف هذه السنة او السنة التي بعدها، احدثت الفيضانات دماراً واسعاً في الحوطة ، ووادي حنيفة ، كما قاست منها مدينتا الدرعية والعيينة . الا ان موسم الغزوات لم يتأثر مطلقاً بهذه النوازل . فغزا زعيم « الدواسر » قبيلة شهران الحجازية قرب البيشة ، كما اغار محمد بن معيقل، على جزيرة العماير الواقعة في الخليج الفارسي . وكانت هذه الجزيرة اول ارض تحتلها الدولة الوهابية فيما وراء البحار ، على حساب البحرين .

ولدى وفاة ثويني ، عيَّن سليمان باشا حموداً بن ثامر زعيماً على المنتفك ، كخطوة اولى في خططه الرامية الى استئناف هجومه على الوهابيين. الا أن الشريف غالب سبقه الى ذلك فقام بحملة ضد قحطان التي كانت تنزل عند آبار عُقَيْلان شمال البيشة . ولكن الجند لم يتمكنوا من الوصول الى الماء، فوقعوا في ضيق شديد من شدة العطش واصبحوا فريسة سهلة للبدو الذين دحروهم وكبدوهم خسائر فادحة .

وتلا هذه المعركة هجوم آخر قام به رُبيع بن زيد، زعيم الدواسر ، على واحة البيشة . فاستسلم السكان . ولكنهم تعرضوا لهجوم معاكس قام به الشريف فُهيد ابن عبد الله الذي كان قد ارسله الشريف غالب بجيش قوي، فلم يجدوا بداً من الاستسلام لعدم حضور النجدة الوهابية . وفي اثناء عودة فهيد هاجم رَنْية، الا انه لم يصب كبير نجاح هناك .

هذا بينما بدأ هادي بن قرملة هجوماً ذا مرحلتين ضد قبيلة البُقُوم قرب ترابة . واستمرت هذه العمليات حتى بداية سنة ١٧٩٨ ثم ارسل عبد العزيز قوة من الاحساء لتهاجم الكويت، فاستولت على عدد كبير من جمال السكان في المرعى، ثم صدت قوة خرجت لمهاجمتها ، وكبدتها خسائر فادحة ، غير أن المهاجمين لم يتمكنوا من دخول المدينة .

اما في الجانب الاخر من الجزيرة ، فقد أرسل حمود بن ربيعان زعيم عتيبة ، والذي كان يُظن بانه يخضع لسلطان الحجاز ، وفداً الى عبد العزيز يعرض عليه خضوع عشيرته للحكم الوهابي ، واستعداده لدفع التعويضات عن جرائمه السابقة . فوضعت الترتيبات المناسبة لهذا الامر . غير ان نكوص عتيبة ، اغضب غالباً ودفعه للعمل ، فسار على رأس حملة كبيرة ليهاجم هادي بن قرملة القحطاني .

وبعد معركة جرت في الصحراء ، لقي فيها هادي شر المصير، تقهقر الى رنيه بينما استمر غالب في مهاجمة الواحة دون ان يصيب نجاحاً كبيراً . وفي هذه الاثناء كانت اسهم القضية الوهابية ترتفع في التخوم الغربية وكان ارتداد عشائر البقوم الى معسكر الوهابيين ضربة قاصمة اخرى تُسدّد الى غالب .

حينئذ غير عبد العزيز وجهة عملياته الحربية وانحرف نحو الشمال. وارسل حجيلان بن محمد امير بُريده لغزو الشرارات على الحدود السورية، فاصاب شيئاً من النجاح ، وقتل قرابة المائة والعشرين رجلاً منهم واستولى على غنائم كثيرة ، وزعها بين المشتركين في الغزوة وبين الدولة .

وفي آذار من هذه السنة ، قاد سعود بنفسه حملة على الحدود العراقية : فغزا سوق الشيوخ ، ثم استدار نحو سماوة، فالتقى هناك بقوة من بدو شمر وظافر تحت امرة مطلق بن محمد زعيم الجربا، على آبار الأبيض. وفي المعركة الضارية التي دارت رحاها عند تلك الآبار ، قُتل مطلق ، وغابت الشمس عن يوم مظفر للوهابيين الذين استولوا على معسكر الاعداء بما فيه. ولقد كانت خسائرهم هم ايضاً كبيرة جداً ، وكان من جملة قتلاهم براك بن عبد المحسن ، فانتهت بموته المهمة التي وُكلت اليه .

وفيما كان سعود منهمكاً في الشرق ، كان الشريف غالب يقود حملة واسعة مدعمة بالجنود المصريين والمراكشيين ، على الواحات الجنوبية الغربية . وبالرغم من تقطيع النخيل والمناوشات الدموية التي جرت خلال الثلاثة اسابيع التي اقامها

هناك ، فشل غالب في زعزعة مراكز المدافعين ، فانسحب الى بيشة ، حيث استطاع اخضاع الواحة كلها بمناصرة عناصر كانت موالية له فيها . بما في ذلك جنينة والروشان حماة الوهابية في تلك المنطقة .

ويقول ابن بشر بأن غالباً عاد من هذه الحملة راضياً عن نفسه كل الرضا . ومر بـ خرمة حيث ضرب خيامه هناك . فهاجمه انذاك ، هادي بن قرملة بجيش قوي من الوهابيين. وكان من نتائج هذا الهجوم الغير المنتظر ان تضعضع جيش غالب وانهزم ، تاركاً وراءه الخيام وما فيها للعدو الذي راح يطارده دون هوادة، فقتلوا من قتلوا من جيشه ، واستولوا على اموالهم . ويقدر ابن بشر عدد قتلى جيش غالب بالف ومائتين وعشرين قتيلاً ، وكان بينهم الشريف سعود بن يحيا بن بركات ، وابن اخيه هيازع وزعماء اخرون .

اما جيش الاتراك المؤلف من المصريين والمغارة فخسر ستمائة رجل . وقد استولى الوهابيون على رواتبهم الكبيرة التي كانت ستوزع عليهم صباح ذلك اليوم علاوة على الغنائم المعتادة في الحروب .

ويتوقف ابن بشر عند هذه النقطة، ويسرد لنا قصة مطولة شيقة عن العمليات الحربية الفرنسية في مصر وفلسطين سنة ١٧٩٨ والسنوات التي تلتها . والحق انه يصف معركة عكا وصفاً رائعاً . ويتحدث عن وصول الاسطول البريطاني . ويدعي انه نقل هذا الذي كتبه واختصره عن تقرير وجده في الطائف عندما احتلها عثمان المضايفي .

الا ان القصة لا تهمنا ، اذ لا علاقة لها بشؤون الجزيرة العربية البعيدة عن العالم الكبير في تلك الايام، والتي كانت تدور فيها المعارك الطاحنة دون اكتراث للصراع العالمي الذي كان يمكن ان يجرف الجزيرة العربية ومقدساتها لولا انتصارات البريطانيين ، عند حدودها البعيدة ، على جيوش نابليون المعدة لاحتلال الهند .

ويقول ابن بشر بان اخبار معركة عكا ، وصلت الى مكة ، فقد جاء بها

رجل من قبيلة حرب ، وكان هذا هو الشخص الوحيد الذي نجا من جماعة صغيرة مؤلفة من عشيرته كانت تقاتل مع الاتراك .

ومما هو جدير بالذكر بهذه المناسبة ان رجلاً آخر قص نفس القصة على الملك حسين يوم زار الاردن سنة ١٩٢٤ ، وادعى انه شاهد نابليون بأمّ عينه في عكا سنة ١٧٩٩ ، وكان فتىً عمره آنذاك خمسة عشر ربيعاً .

وبعد الهدوء الذي تلا اندحار غالب في صيف ١٧٩٨ ، ارسل عبد العزيز ربيع بن زيد زعيم الدواسر ليهاجم البيشة بجيش من عشيرة قحطان . فنهب القرى الصغيرة في الواحة ، واقتحم بعضها واستسلمت الاخرى . كذلك فعلت روشان نفسها ، وقدمت ولاءها الى سالم بن محمد بن شكبان الذي عينه عبد العزيز أميراً على المنطقة بكاملها .

وفي اوائل السنة التالية قام سليمان باشا والي العراق فاعد جيشاً لا يقل عدده عن ثمانية عشر ألفاً من الفرسان ، والجند النظامي والبدو مع مدافع كثيرة لغزو الاحساء . فاسرع اهل الهفوف والمبرّز وقرى الواحة الاخرى لاعلان خضوعهم للقائد علي كيخيا .

غير ان حاميات حصون الهفوف والمبرز ، (قصر سهود) تحدت الغزاة ، فوجه الاتراك جل اهتمامهم في البداية الى المبرز . وقد امضى علي كيخيا قرابة الشهرين وهو يحاول إحكام الحصار الحربي ضد حامية ماجد الصغيرة التي لم يتجاوز عددها المائة ، فاحدث بعض الصدوع في تحصيناتها ولكنه فشل في الاستيلاء عليها . ولدى سماعه بوصول جيش سعود لنجدة الحاميات المحاصرة ، فك الحصار وارتحل بعد ان احرق كل معدات الحصار ودفن الذخائر في الصحراء .

وما ان سمع سعود بأمر رحيله حتى سارع الى الثجّ ليسد طريق العدو المتقهقر

فتوقف عند آبار الشِباك ليعد العدة للمعركة المتوقعة . وبعد بضعة ايام مـن المناوشات بين الطرفين ، عرض علي كبخيا على سعود المدنـة فوافق سعود مشترطاً ان يعود الاتراك بأمان . ثم سار الى الاحساء ليشرف بنفسه على اعادة بناء الحصون ومراكز الدفاع الاخرى في الاقليم . وعين سليمان بن محمد بن ماجد والد بطل المبرز ، اميراً على الاقليم .

ومن هناك عاد سعود الى الدرعية في اواخر الصيف . فجاءته الاخبار بنجاح الحج الذي قام به جماعة من اهـل الوشم والقصيم ، تحت امرة امير الشقرا ، يرافقه علي وابراهيم ، ولدا المرحوم الشيخ محمد بن عبد الوهاب . وكان هـذا ممكناً،اذ ان الشريف غالب بعد اندحاره في خُرمة ، كتب الى عبد العزيز يقترح عليه عقد الصلح بين الطرفين . ويدعو الحاكم الوهابي لان يسمح لرعاياه باداء فريضة الحج كما تعودوا في السابق .

وقد شجع نجاح الحج في تلك السنة سعوداً لان يعيد الكرة على نطاق اوسع وبابهة اعظم سنة ١٨٠٠ ، فقام على رأس جموع غفيرة مـن نجد ، مع نسائهم واولادهم ، باداء الفريضة . ومر الحج بسلام ، واكرم غالب وفـادة سعود ودعاه الى ان يعود في السنة التالية مـع والده الشيخ المسن . ويظهر ان الطرفين دفنا احقادهما الى الابد وعاد الوئام بين زعيمين كان لهما العذر كل العذر ، دينياً ومدنياً ، في ان يكرها بعضهما بعضاً .

وبعد مرور اثني عشر شهراً سار عبد العزيز العظيم الذي كان في الثمانين من العمر ، وخرج من الدرعية مع سعود وحشد كبير من شعبه . وما كادت القافلة تصل مشارف الدوادمي على مسيرة سبع ليال ، حتى شكا عبد العزيز من انحراف في صحته ، وقرر العودة الى بلاده ، تاركاً سعوداً ينوب عنه في موسم الحج .

ومرة اخرى استقبل الشريف ضيفه بمظاهر الحفاوة والتعظيم . وقـد عاد سعود الى الدرعية بعد ان قدم هبة مالية كبيرة لتوزيعها عـلى فقراء الحرم

الشريف ، وكان مسروراً من توطيد العلاقات الودية بينه وبين جيرانـــه في الغرب .

وتوقفت الاعمال الحربية طيلة سنتين كاملتين ليس لدينا خلالها ذكر شيء من النشاط . ولعلّ الهدنة التي عقدها غالب طبقت على جميع الحـــدود الوهابية العربية . غير ان سعوداً عاد فعكّر الهدوء الذي كان سائداً حينما قـــاد حملة على الحدود العراقية سنة ١٨٠١ ـ ١٨٠٢ .

وبعد المناوشات المعتادة بينه وبين الظافر والمنتفك ، ظهر فجأة امام كربلاء، المدينه المقدسة ، في اذار مـــن سنة ١٨٠٢ ، فاقتحمها عنوة بعد حصار قصير ، واعمل السيف في رقاب اهلها ونهبهم . لقد قتل السكان بلا رحمـــة في الشوارع والبيوت ودمر ضريح الحسين ونهب المجوهرات التي كانت تغطي الضريح وجمع كل شيء ذا قيمة في المدينة ونقله الى ابار الأبيض قرب سماوه ،حيث استقر بامان وطمأنينة ليحصي غنائمه ويوزعها كالمعتاد . ثم عاد الى الدرعيـــة ليحظى بتهنئة والده وشعبه على الضربة الجريئة التي سددها في سبيل خدمة المذهب الحنيف ضد فرق دينية تعتبرها الوهابية إحياءً وتجسيداً للوثنية .

والحق يقال بأن عمله هذا ، هز العالم كله فضلاً عن الشيعة . فقد كان نقطة انطلاق ركينة لانقلابٍ على الوهابية . كما أدى فيما بعد الى عواقب وخيمة على هذه الدولة .

أما في الدرعية فلم يكن هنالك حد للفرح والابتهاج الذي عمها وغمر قلوب اهلها . كان ما جرى في كربلاء سيتم في مدن الحجاز المقدسة الاخرى . وعندها سيبدأ مدُّ الانتقام والعقاب الشديد .

وكان احد الضحايا المجهولين للفظائع التي ارتكبت في كربـــلاء هو الذي سيضرب ضربته الاولى ، كفارة عن انتهاك حرمة هذه المقدسات .

وفي اواسط شهر أيار من سنة ١٨٠١ اعد حاكم مسقط ، سلطان بن احمد ابن سعيد ، حملة بحرية قوية ضد جزر البحرين ؛ فلم يجد صعوبة في انتزاعها من زعماء آل خليفة (عتبان) الذين استولوا عليها من الفرس قبل ذلك بنصف قرن. فطلب زعيم آل خليفة مساعدة الدرعية لاستعادة ملكه . وبعد قتال ضار طرد الوهابيون الغزاة من الجزيرة بعد ان كبدوهم زهاء الفي قتيل .

ولنعد الآن الى مجرى الحوادث الرئيسي في دنيا الوهابية سنة ١٨٠٢ ، حيث توفي كل من زعيم عتيبة ، حمود بن ربيعان ، وسليمان باشا الذي خلفه الملازم علي كيخيا والياً علي بغداد، فنجد ان تراخياً طرأ على العلاقات بين الدرعية ومكة من حادثة لا يمكن ان يلام عليها اي من الطرفين ، وان كان من نتائجها تعريض كيان التفاهم السريع الانفصام الذي كان قائماً بينهما منذ هزيمة غالب في خُرمة ، الى الانهيار .

كان غالب قد طرد رئيس وزرائه عثمان بن عبد الرحمن المضايفي لسبب غير معروف ، فتوجه عثمان رأساً الى الدرعية ، ليعرض خدماته وولاءه على الحكومة الوهابية . وبعد ان رحب عبد العزيز وسعود بهذا الحليف القوي ، عاد عثمان الى بلاده في عُبيْلة عند تلال الطائف، واخذ يمنع العناصر البدوية الحجازية من خدمة غالب . ثم بدأ يجمع حوله نواة جيش حتى يكون على اهبة الاستعداد ليقوم بأية عمليات من شأنها مساعدة القضية الوهابية ضد سيده السابق . فاخذ غالب بزمام المبادرة وهاجم عبيلة بقوة كبيرة يدعمها الجيش النظامي ، ولكنه فشل في زعزعة الثوار . فتراجع الى الطائف ليعيد تنظيم جيشه .

اما عثمان فحصل على النجدات التي طلبها للهجوم على الشريف ، إذ جاءه سالم بن شكبان بجيش من بيشه ، ومسلط بن قطنان ومعه فريق من سكان رنيه ، وحمد بن يحيى بفريق البقوم من ترابه . واخيراً هادي بن قرملة مع جيش من قحطان وعناصر من عتيبة .

حينئذ تقدم غالب نحو الطائف ، وكان قد نظمها وحصنها للمقاومة . ولكنه تراجع لدى رؤيته الاعداد الهائلة التي كانت بانتظاره ، وانسحب بجيشه النظامي ليؤمن بذلك سلامة مكة، تاركاً الطائف تحت رحمة الاعداء . فاستولوا على المدينة ولم تبد منها أية مقاومة فعلية . وقد نهبوا كل شيء ذي قيمة في المدينة ، وقتلوا من سكانها ما يقرب من مائتي قتيل في الشوارع والبيوت .

وقد اعاد التاريخ نفسه بعد مئة وعشرين عاماً، حين هاجم عبد العزيز الاخير المدينة بقواته البدوية فاحتل الوهابيون الحجاز نهائياً .

ولدى سماع سعود باخبار هذا التطور المرضي،اصدر امره فدعا الى حشد عام للقوات الوهابية من القبائل والمناطق الاخرى وسار باتجاه سبيله Sibila قرب زلفي، حيث بقي هناك ليستعرض جيوشه فترة من الزمن.وفي نهاية اذار سنة ١٨٠٣ وصل الى الحدود الحجازية ونصب خيامه على آبار عشيرة في وادي العقيق ، حيث تمكن من السيطرة على الممرات المؤدية من الجبال الى بطحاء مكة .

وصدف ان كان ذلك في موسم الحج.وكان الحجاج السوريون والمصريون والمغاربة ، وجميع من رافق سلطان مسقط في حجه الاول موجودين هناك . وكانوا جميعهم مسلحين ، واقوياء بحيث يستطيعون صد الغزاة . وقد ابدوا فعلاً ميلهم للخروج الى الهجوم . ولكن آراءهم اختلفت. وقر قرارهم آخر الامر على وجوب مغادرة مكة الى بلادهم حيث كانت الطرق الشمالية بمحاذاة الساحل مفتوحة امامهم . اما غالب الذي كان خائفاً جداً فانسحب من مكة الى جدة مع جنده النظامي وكافة كنوزه وذخائره ومستودعاته .

واما سعود فارتحل الى حمامات سيل الكبير،حيث قام جيشه بالاغتسال والتطهر ولبسوا لباس الحج (الاحرام) استعداداً لدخول مكة. واعلن سعود العفو العام عن السكان ووزع عليهم الهبات السخية. وقامت القوة الغازية بشعيرة العُمرة او الحج الاصغر ، وانتشروا في المدينة يبحثون عن القباب التي بنيت على اضرحة

ابطال وبطلات فجر الاسلام، والاماكن الاخرى التي لها علاقة بالسير الاسلامية فهدموها. واستمرت هـــذه المهمة عدة اسابيع كما نُفذت بحماسة منقطعة النظير، فقُوّض كل بناء تعارض اقامته المبادىءُ الوهابية وتحوّل الى ركام وتراب.

وكان غالب في هذا الحين يحاول كسب الوقت في تحصين جدة، اذ ربما دعت الضرورة الى ذلك. هذا مع أنه ظل على اتصال بسعود، فاقترح عليه ايجاد تسوية سلمية لخلافاتهما. ولكن سعوداً عين عبد المعين بن مساعد، شقيق غالب اميراً على مكة، ومن ثم تقدم الى جدة آملاً في ان يحتلها بعد هجوم مباغت. الا انه وجد التحصينات قوية لدرجة لم يستطع مهاجمتها رأساً. فقد بنى غالب سوراً حول المدينة وحفر خندقاً واسعاً خارج السور. فعاد سعود ادراجه الى مكة، وهناك اقام حاميات قوية من الوهابيين في حصونها المختلفة، ثم سار الى نجد.

وكان هذا في اواسط صيف عام ١٨٠٣.

وبعد ذلك اقام سعود في الدرعية واوقف الاعمال الحربية. غير ان الاستيلاء على مكة واحتلال جنوب الحجاز باستثناء جدة، لم يعن نهاية مهمته. لقد بقي عليه الكثير ليقوم به، ويضيفه الى ما انجزه عبد العزيز في خلال حكمه الذي امتد ثلاثين عاماً. وكان سعود في السنوات الاولى منها اليد اليمنى لوالده، في الحملات التي وضعت الاسس التي أقام عليها امبراطوريته.

كان عمر عبد العزيز الآن اثنين وثمانين عاماً. فحالت شيخوخته دون قيامه بفريضة الحج قبل سنتين. وكان هذا يعود الى سوء حالته الصحية في اواخر حياته. ويبدو انه في مناسبة سابقة اصيب بنوبة جعلته يطلب الى رعاياه أن يصلوا من اجل شفائه، ووُزعت الصدقات السخية على الفقراء في جميع المدن الرئيسية والقرى في مملكته.

ولم يكن هنالك امل في حياة اطول له، بالرغم من كل ما فعل. الا ان الشكل الذي انتهت عليه حياته كان مفجعاً محزناً. فقد كان يصلي كالمعتاد في مكانه المعروف وسط الصف الاول من المصلين في جامع طريف، قلعة الدرعية، في

الثاني من تشرين الاول او بعد ذلك بيوم او بومين، عندما هاجمه رجل غريب، اثناء ركوعه للصلاة .

وكان هذا الرجل درويشاً قبله الامير في بلاطه وهيأ له الفرصة الكافية لتلقّي التعاليم الوهابية . كان يجلس في الصف الثالث من صفوف المصلّين وراء عبد العزيز مباشرة فالقى بنفسه عليه وطعنه بمدية اخترقت بطنه من الخلف. وكان عبد الله بن محمد ، شقيق الامام ، يقوم بأداء الركعة المطلوبة بجانب اخيه ، فهاجمه الدرويش ايضاً ولكن عبد الله كان اسرع منه مع انه اصيب بجرح بليغ ، فاهوى على المعتدي بسيفه بينما اسرع اخرون فذبحوه. وحدث اضطراب في الجامع، ولكن سرعان ما ساد الهدوء عندما علم الناس بالحقيقة . فاستدعي سعود من مزرعة نخيل في المشيرفة كان يقضي فيها يومه في الراحة والاستجمام ، وحُمل عبد العزيز الذي كان لا يزال حياً وان كان فاقد الوعي ، الى قلعته حيث فارق الحياة بعد ذلك بقليل .

وقضي الامر . وتوفي عبد العزيز ولم يتمكنوا من انقاذ حياته ، اما القاتل فتخلصوا منه . ولدى وصول سعود الى المكان ، سيطر على الوضع ، وعزى شعبه بفقد زعيمه العظيم وطلب الى السكان أن يركنوا الى الهدوء ويقدموا ما يتوجب عليهم نحو القضية . ثم بايعه رعاياه على الولاء والاخلاص بمناسبة تعيينه خلفاً لوالده على العرش .

ويُعتقد أن القاتل كان يقصد سعوداً بالذات ، انتقاماً منه لما فعله في كربلاء فقد كان القاتل من سكانها . وقد شهد بأم عينيه ذبح الابرياء (ومنهم زوجته واطفاله) فأقسم على الانتقام .

وهناك قول اخر : وهو ان القاتل كان كردياً من العمارية قرب الموصل، يدعى عثمان ، ولم يكن الباعث له على القتل معروفاً . وربما كان مدفوعاً استؤجر ليقوم بهذا العمل اذ كان سنّياً ليس له اي مأرب ديني من عمله .

ويرسم ابن بشر في عرضه لقرائه تاريخ عبد العزيز صورةً شعرية جميلة ، لأحول نجــد خلال حكمه . لكن العمليات الحربيــة المستمرة التي وقعت في الجزء الاخير من القرن الثامن عشر لا تكاد تثبت صحة ما ذكره عن الامن التام المطلق في جميع انحاء المملكة حتى اقاصي الصحراء . حيث كمـا يقول : كانت الخيول والجمال ترعى ولا رعــاة معها ، يحرسها راعٍ واحد كثيراً ما كان يتغيب عن مضرب خيمته فيجد لدى عودته زيادة غير متوقعة حققتها امــه العزيزة الجانب .

ولا شك في ان عبد العزيز وسعوداً كانا يرميان دائماً الى مثل هذا الحكم المثالي، ولكن ذلك الحلم كان من نصيب جيل متأخر من ابناء هذا البيت ، قام بتحقيقه فعلاً في الصحراء العربيــة . ولا شك في تقوى عبد العزيز وحبه للاحسان . غير انه عاش حياته في عالم كله شر ، وكان عزمه على التمسك باهداب الفضيلة ونبذ الرذيلة ، دائماً بحاجة الى ساعده الايمن لحماية الضعيف من القوي . وقد قام دائماً باداء هــذا الواجب دون تردد ، وابدى صبراً وطول اناة في معاملة المنحرفين الذين ثاروا على حكمه ، يستحقان منا كل تقدير واعجاب . وكذلك كان لجوءه الى السلاح واحتكامه الى الشدّة في اخضاع المتمردين من سكان بلاده لسلطانه. فكانت الضرائب تدفع بانتظام خشية الغرامات المادية التي كانت تعقبها اذا ما تأخر اداؤها . وكان طلبه (عبد العزيز) من المدن والقرى أن تقدم للدولة المجندين، يقابل بارتياح تام وينفذ في الحال وبصورة كاملة، خشية معاقبة كل مقصر في هذا السبيل .

ولا يورد ابن بشر اي شيء مفصل عن الموارد الاقتصادية للدولة في زمن عبد العزيز . الا انه يزودنا ببعض المعلومات الوافية عن الاساليب التي كانت تطبق في تمويل حاجات الحكومة . ففي سنة واحدة مثلاً كان مجموع ما دفعته عشيرة مطير من الضرائب يبلغ الثلاثين الف ريال (ربما ثلاثة الاف جنيه ذهب) . وفي نفس السنة بلغ ما دفعه بدو سورية للخزينة المركزية اربعين الف ريال، وما دفعته عشيرة هُتَيْم الوضيعة النسب سبعة الاف ريال .

وبالاضافة الى هذه الضرائب النظامية التي كانت تفرض على المواشي، ومزارع النخيل ، والمحاصيل الزراعية الاخرى ، والتي ليس لدينا معلومات عنها ، كانت هناك غنائم الحملات الحربية التي قامت بها الدولة . وكانت هذه بالطبع ، تشكل مورداً هاماً وهائلاً للخزينة. فقد كان للدولة الحق في خُمس الغنائم الحربية. ويبدو ان الدولة كانت تنمو بشكل معقول . وكانت النفقات على المؤسسات الدينية والتعليم ، دون ذكر الصدقات السخية ، تاتي على نسبة مئوية كبيرة من موارد الدولة ، بالاضافة الى الكرم ودور الضيافة التي كانت تشكل عبئاً ثقيلاً لابد منه.

اما شكل الادارة التي كانت تتمشى مع مقتضيات الاحوال في الصحراء قبل الحكم الوهابي بعدة اجيال ، فقد صمدت على حالها منذ أواسط القرن الثامن عشر . فاضطرت الدولة الى اجراء تعديل فيها في الفترة التي تميزت بالثراء بعد الحرب العالمية الثانية .

وكان شكل الحكم بسيطاً ومعروفاً لدى الشعب الذي قاسى الامرّين في الماضي من الكوارث الطبيعية : كالمجاعات والجراد والاوبئة ، فلم يكن لدى المواطنين عوامل اقتصادية تدفعهم لان يتذمروا من حكومتهم التي كانت تعلو وتسقط بعوامل شخصية محضة .

ولا تزال هنالك في الوقت الحاضر مظاهر من الاساليب القديمة بالرغم من تطبيق الاساليب المعيشية العصرية ، ومثال ذلك مسؤولية الحكومة في الحفاظ على الخدمات الدينية والصدقة والضيافة وتعهدها بتمويلها .

فالادارة المركزية لا تزال ـ كما كانت في السابق ـ منوطة بالحاكم الذي له ملء الحرية في اختيار المساعدين لادارة الدوائر الحكومية المختلفة والاشراف عليها . ولم يحدث اي تغيير في اسلوب حكم الاقاليم التي تشترك في ادارتها السلطة التنفيذية والقضائية (الحاكم والقاضي) كما كان الحال في زمن عبد العزيز الاول ،

بقطع النظر عن ادخال نظام الجمارك والمكوس والموظفين الماليين لجباية الضرائب وضبطها . وإن لمحة قصيرة على جهاز ادارة الاقاليم الذي وضعه عبد العزيز لسد حاجات الامبراطوريـــة الضرورية ، تلك الحاجات التي نشأت في حكمه ، لهي خير خاتمة رائعة لتاريخ أعماله ومنجزاته التي سردها هذا الفصل . اماالاقاليم والوظائف الرئيسية وكبار الموظفين في المملكة التي آلت الى خلفــه سعود فكانت كما يلي :

الاقليم	الحاكم	القاضي
عسير تهامة	عبد الوهاب ابو نقطة	
الحجاز	عثمان بن عبد الرحمن المضايفي	
ُعمان	صقربن(راشد)ـ من راس الخيمة	
الاحساء	سليمان بن محمد بن ماجد	
القطيف	احمد بن غانم	
زبارة والبحرين	سليمان بن خليفة	
وادي الدواسر	ُرَبيْع بن زيد الدوسري	سعيد بن حجّي (في الحوطة)
الخرج	ابراهيم بن سليمان بن عفيصان	محمد بن سويلم
محمل	ساري بن يحيى بن سويلم	
الوشم	عبدالله بن حمدبن غيهَب	عبد العزيز بن عبدالله الحسَيِّن
السدير	عبدالله بن جلاجل	حمد بن راشد العُريني
القصيم	حجيلان بن حمد(في بريدة)	عبد العزيز بن سويلم
جبل شمر	محمدبن عبدالمحسن بن فايزبن علي	
الدرعية		حسين بن محمد بن عبدالوهاب
خطيب الامام		عبد الرحمن بن خميس
المجمعه والمنَيْح	(يشملها السدير)	محمد بن عثمان بن شبانة

الاقليم	الحاكم	القاضي
البيشة	سالم بن شكبان	
رنية	مسلط بن قطنان	
ترابة	حمد بن يحيى	

ملحوظة : الفراغ يشيرالى انه لم يكن هنالك من يشغل هذا المركز بصورة دائمة و كان يشغل المركز مدة سنة او ما يقاربها ، قضاة يرسلهم الإمـــام من العاصمة .



الفصل الرابع

سعود الثاني ، ابن سعود



عندما ارتقى سعود عرش الدرعية ، كان عمر هذا العاهل الذي سميت العائلة باسمه قبل فجر الوهابية المعاصر ، خمساً وخمسين سنة . وكان قد اشترك اشتراكاً فعلياً في تصريف امور الدولة تحت امرة والده ، منذ خمسة عشر عاماً . اي منذ اعلانه وارثاً للعرش سنة ١٧٨٨ . وكانت اعماله العسكريـة قد امتدت ستة وثلاثين عاماً ، اي منذ حملته الضارية والناجحة على قرية العودة في السدير تحت امرة ابن عمـه الادنى ، هذلول بن فيصل بن محمد سنة ١٧٦٧ . كما عمل معظم الوقت كقائد اعلى للجيوش التي اعدها والده للحملات العسكرية العديدة طوال حكمه الطويل . كان خبيراً جداً في الامور الحربية ، وفي المسؤوليات الحكومية التي آلت اليه الآن ليكمل بهاما بدأه والده من قبل . فكُتب له في خلال حكمه ، ان يرى القضية الوهابية تصل الى اوج انجازاتها العظيمة .

وفي أوائل سنة ١٨٠٤، بل في الشهور الاولى منها، نجده مرة اخرى في ميدان القتال ، متجهاً شمالاً نحو مدينة تنومه في القصيم،حيث طلب الى الجند من عشيرته ومواطنيه ان يقابلوه هناك استعداداً لحملة الربيع . وفي نهـاية شهر آذار كان لا يزال هناك ، يحتفل بموسم الحج في مكة،لكنه عاد بعدها بصورة مفاجئة الى

الدرعية ، الامر الذي ادهش الجميع ، وطلب الى جميع الفرق الشمالية ومنها بنو ظافر ، ان تعود لبلادها . ثم سار مع بقية الجيش الى الجنوب .

وبعد ان منح مقاتلي بني ظافر الوقت الكافي للعودة الى الحدود العراقية ونشر الاخبار عن عودته الى الدرعية ، عاد فغيّر وجهته، وسار بكل ما لديه من سرعة الى البصرة . ولدى اقترابه منها اصطدم بجماعة من خيّالة المنتفك يقودهم منصور ابن ثامر ، فهاجمهم في الحال وهزم العدو واسر منصوراً نفسه ، ثم ارسله الى الدرعية حيث بقي طيلة اربع سنوات .

وبعد هذه المعركة عسكر سعود قرب الزبير من حيث ارسل جيوشه لتنهب وتدمر ضواحي البصرة ، فلجأ سكانها الى منازلهم واغلقوا ابوابهم عليهم . ولقد ركز سعود همه في حصار الزبير ، وفي اثناء ذلك أخذ في تدمير القباب المبنية على الاضرحة، ومزارات الحسن وطلحة التي ظلت خربة حتى اعيد بناؤها بعد سقوط الدرعية . ثم هاجم حصن الدُرَيْهِمية ودمره ، وقتل جميع افراد حاميته .

وعند غياب الشمس ارعب السكان المحاَصرين بان امر جميع افراد جيشه باطلاق النار في آن واحد . غير أن أهل الزبير لم يظهروا أي ضعف من جانبهم. وبعد حصار غير مجدٍ ، استمر اثني عشر يوماً ، سحب سعود قوانه وعاد إلى بلاده ، بعد ان جمع المحاصيل الزراعية التي كانت ناضجة آنذاك .

* * *

توفي سلطان سقط ، السلطان أحمد بن أحمد بن سعيد ، على اثر اشتباك بحري جرى بينه وبين قرصان القواسم في رأس الخيمة Khaima ، وخلفه اخوه بدر . وفي هذه الاثناء رأى سعود ضرورة احداث بعض التغيير في التنظيمات الإدارية الاقليمية التي كانت في زمن والده . فنقل ابراهيم بن عفيصان من الخرج الى الاحساء ، ليخلف سليمان بن محمد بن ماجد المعزول . وكان هذا اعظم حدث وقع

في هذه السنة ، إذ كان له اثره في مستقبل الجزيرة العربية بعد استلام محمد علي باشا زمام الحكم في مصر. وكان محمد علي في ذلك الوقت قائداً للقوات التركية في البلاد ، غير انه ثار على الحاكم المحلي محمد باشا وقتله ثم تولى الحكم . وكان ذلك بسبب حادثة تافهة ، مثل منع الطعام عن الجيش او تأخيره . اما الباب العالي فقد أيد ما فعله محمد علي باشا وثبته والياً على مصر .

وفي خريف عام ١٨٠٥، قرر سعود أن يقوم بحملة تأديبية ضد بني ظافر، اثر بلوغه اخبار تقاعسهم في الامور الدينية واشتراكهم في مهاجمة القبائل الوهابية النجدية . ولدى وصوله لينه Lina المتاخمة لصحراء الدهناء على الحدود العراقية، حيث كانت منازل بني ظافر ، طلب اليهم الانضمام الى قواته كما كانت العادة . فلبى الدعوة فريق صغير منهم تحت امرة احد زعماء القبيلة ، مسلط بن شيُّوش ابن عفْنان .

ولما اشار سعود الى مسألة قلة عدد الفرقة ووبخ زعيمها، اجابه هذا قائلاً بان بقية القبائل قد خرجت على سلطانه وقررت ان تهاجم قبائل مطير، مخلّين بعهدهم الذي قطعوه بعد ان اصلح بينهم سعود منذ عهد قريب . فاتجه سعود الان الى الحدود العراقية ولكنه دار ليلقي بجميع قواته في هجوم عام على المعسكر الرئيسي لعشيرة ظافر . فقتل عـــدداً كبيراً منهم وفر الباقون . ثم نهب كل ما يملكون . وكانت الغنائم تتألف من عدد كبير من الجمال والغنم والامتعة والمؤن. وكان بينها عدد كبير من الجمال والاغنام تخص قرى السدير المختلفة ، فاعيدت الى اصحابها لدى اثبات ملكيتهم لها .

ووجه سعود الان انظاره للحجاز، حيث اقيم حصن في وادي فاطمة ووضعت فيه حامية للضغط على غالب . وفي نفس الوقت أرسلت التعليمات الى عبدالوهاب ابي نقطة امير عسير تهامة ، بأن يهاجم جده بكل ما لديه من قوات . فضرب خيامه عند آبار السعدية قرب الساحل، على بعد يوم ونصف اليوم من مكة. وكان

عدد هذه القوات ستة الاف جندي . فوصل غالب في الحال من مكة مع جيش كبير يبلغ عدده العشرة آلاف مقاتل ليهاجم ابا نقطة قبل وصول النجدات اليه .

وفي الطريق التقى بدوريـــة من عسير ، تتكون من اربعين رجلاً ، وابادها . ولكن القتال مع القوات الرئيسية لابي نقطة كان شيئاً مختلفاً . فبعـــد قتال مرير فرت قوات غالب تاركة وراءها جميع اعتدتها واموالهـــا ، بما في ذلك المدافع والذخيرة والاسلحة والمؤن . وكان عدد الاسلحة الصغيرة كبيراً جـــداً حتى قيل انها بلغت ٢٥٠٠ قطعة . امـــا عدد القتلى من قوات الشريف فبلغ ٦٠٠ قتيل معظمهم مـــن الاتراك . وهرب غالب الى مكة .. اما أبو نقطة فعاد الى بلاده فرحاً مسروراً ، وان كان لم يرَ الشيء الكثير في جدة،التي كانت هدفه الاصلي .

ولا يتعرض ابن بشر لذكر غالب ووجوده في مكة ، فقد زعم ان آخر مرة شوهد فيها غالب في جدة كانت عندما عاد سعود الى نجد بعد ان وضع حاميات في حصون مكة . ويظهر ان غالباً عاد الى مكة فيما بعد ليتولى الحكم فيها ، غير أننا لا نعلم هل استمرت الحاميات الوهابية في احتلال الحصون ام لا .

كانت الجزيرة العربية آنذاك،تحت وطأة الجفاف وانحباس الامطار والمجاعة التي اجتاحت البلاد بسبب مقتل الامام عبد العزيز حسب اعتقادهم ، واستمر انحباس الامطار التام – الذي بدأ في شتـــاء سنة ١٨٠٤ ـــ ١٨٠٥ ـــ من ست الى تسع سنوات . فقاسى السكان خلالها الامرين . وكان اشدها وطأة في ذلك الجزء من الحجاز الذي كان يحكمه الشريف والاتراك، لانقطاع كافة المواصلات مع الداخل، وبسبب الحصار الذي ضربه الوهابيون .

وقد ارتفعت اسعار حاجيات الحياة الضرورية ارتفاعاً جنونياً لا يصدق ، وبيع لحم الحمير والحيوانات الميتة باسعار باهظة ، واكل الناس لحم الكلاب ، وكان سعر الرطل الانكليزي الواحد من الزبدة ٤ ريالات (ما يقارب الاثني

عشر شلنا) . ويقارن ابن بشر الاحوال الطيبة نسبياً التي كانت سائدة في الدرعية والبلاد المحيطة بها ، بتلك التي كانت تسود البصرة والاحساء ويفتخر . ويعني بالطبع انه كان بالامكان الحصول على المؤن عن طريق البحر .

وفي الخريف من ذلك العام قرر سعود ان يشدد حملته على غالب . فصدرت الاوامر الى عبد الوهاب ابي نقطة ، وسالم بن شكبان وعثمان المضيّفي بان يُعدّوا حملة هائلة جبارةً على مكة وضواحيها . وان يظلوا هناك حتى مجيء قافلة الحج من دمشق ، فيمنعوها من الدخول فيما اذا كانت مسلحة . ٠

ويظهر ان الشريف غالب وجد ان ليس في مقدوره مقاومة مثل هذا الجيش الكبير مقاومةً فعالة . فطلب عقد الصلح واعداً بان يتوجه الى الدرعية بعد الحج ليقدم خضوعه وولاءه الشخصي . ووافق قادة الوهابيين على طلبه هذا ، فدخلت قوافل الحج مكةَ دون ممانعة ، وادى عثمان وعبد الوهاب فريضة الحج ايضاً .

وبعد مقابلة عبد الوهاب لغالب انسحب عبد الوهاب بجيشه وعاد الى بلاده بعد ان حمّله غالب المذكور بهدايا سخية ثمينة . أما سالم بن شكبان فقد مرض أثناء اقامته في مكة وبدأ في سحب جيشه والعودةِ الى البلاد . ولكنه توفي بعد ذلك بقليل لدى وصوله بيشة ، وخلفه ابنه فهاد . وكان غالب في هذه الاثناء يراسل سعود . فعقد معه الصلح بشرط ان يخضع للحكم الوهابي ويعلن ولاءه للقضية الوهابية . فرفع الحصار . ومرة اخرى اصبحت مكة والحجاز على اتصال بمواردها الطبيعية من المؤن وهبطت الاسعار الى مستوى معقول وسار كل شيء سيراً حسناً .

ويبدو ان غالب، لم يكن جاداً فيما تعهد به فوصلت اخبار تطوراتٍ يُشتمُ منها الاخلال بشروط الصلح الذي عُقد . فقد اكره بعض الحجاج السوريين

والمراكشيين على البقاء في الحجاز للخدمة . وكان هذا في الظاهر من عبدالله باشا العظم ، أمير الحج ، تنفيذاً لاوامر صدرت اليه من الباب العالي . وقام غالب كذلك ببناء التحصينات في اسوار جدة، وشرع بحفر خندق حولها ، الامر الذي كان يدينه بخرق شروط الاتفاقية. هذا ، كما امر بعدم دخول الاجانب اليها ومن ضمنهم أهل نجد .

وكان غالب يشعر ويعلم علم اليقين بان سعوداً سيتقصى اموره : اما سعود فقد كان منهمكا في امور اخرى خاصة بالتخوم العراقية حيث كانت قبيلة ظافر تقوم هي وانصارها باعمال السلب والنهب والاعتـداء على العناصر الوهابية في تلك المنطقة باستمرار. واختير منصور بن تامر الذي كان كما عرفنا اسيراً في الدرعية، قائداً لهذه الحملة التأديبية العامة على هـذه العناصر المتمردة من عشيرة الظافر . فاشترك مع غصاب زعيم عتيبة، في قيادة الحملة المزدوجة وسار الاثنان الى ديار بني ظافر . فوجدا فرقة غازية قوية من القبيلة نازلة على مياه الفليّج Fulaiyij قرب حَفَار البطين . فأبيدت عن بكرة ابيها تقريباً ، ولم ينجُ منها غير عشرة رجال من مجموع مائة وعشرة .

وحين وقوع هذه الاحداث ، كانت تجري هنالك تطورات هامـة في منطقـة المدينة ، وكان من نتائجها ، ان أعلن المدنيون خضوعهم للدولة الوهابيـة ، ووافقوا على هدم جميع الاضرحة والمقامات التي انشئت في المدينة وضواحيها .

ويذكر ابن بشر ان هذا حدث سنة ١١٢٠ هجرية ، أي قبل عقد الصلح مع غالب في مكة ، أثناء الحج الذي حدث أيضاً في نفس السنة . وبمـا ان السنة المذكورة بدأت في الاول من نيسان سنة ١٨٠٥ وانتهت في العشرين من آذار سنة ١٨٠٦ (لان ايام الحج كانت من ٢٨ شباط ـ الثالث من آذار) فيُعتقد بان

استسلام المدينة جرى في أوائل صيف سنة ١٨٠٥ . أما الصلح مع غالب فحدث في شباط من تلك السنة .

ومهما يكن من امر ، فان خضوع المدينة المنورة يعود الى الزيارة التي قام بها الى سعود شابان من قبيلة حرب وهما بادي وبداي Badai ولدا بدوي بن مُضيّان. وكان هذان الشابان قد مالا الى المذهب الوهابي، فجاءا ليقدما خضوعهما ويطلبا ارسال فقيه لارشادهما. فارسل سعود معهما الشيخ عثمان بن عبد المحسن ابو حسين ليلقّنهما واصدقاءهما اصول الدين الاسلامي ومبادىء التوحيد . وخوله صلاحية تعليمهم الامور العملية الاخرى . وسرعان ما اضمرا العداء للمدينـــة فاستقرا في ضاحية العوالي ، وشرعا في بناء حصن فيها وفاقاً لأوامر سعود . وانضم اليهم سكان قُباء نكايةً باهل المدينة . ثم قطعوا اتصالها بالعالم الخارجي سنوات عدةً حسب رواية ابن بشر .

وأخذ سعود يساعد هذا المركز الثقافي الهام ، فارسل اليهم الشيخ قرناس بن عبد الرحمن ، قاضي الرسّ ليزورهم كل سنة . اما سكان المدينة فقـــد ملّوا الحصار فاتصلوا بسعود وكانت النتيجة كما ذُكر : دخولهم في الحظيرة الوهابية .

كان سعود في هذه الاثناء منهمكاً في حروبه على الحدود العراقية . فقد سار بنفسه على راس حملة متوسطة الحجم وهاجم مشهد (النجف). وكانت اسوارها محاطة بخندق ، جعل الهجوم عليها متعذراً ، فاكتفى الوهابيون بتبادل اطلاق النار مع المدافعين في حصونهم وقلاعهم . وقتل عدد من المهاجمين ، فانسحب سعود الى الهندية والحلّة ، حيث جرت هناك بعض المناوشات البسيطة .

وظهر ان اطالة العمليات الحربية في تلك المنطقة امر لا يجدي نفعاً فانتقل سعود الى سماوه فقطـــع اشجار النخيل واحدث شيئاً من الدمـــار . وفي طريقه الى بلاده ظهر في الزبير ولكنه لم يستطع ان يزعزع المدافعين ايضاً.

وجاءت من اقصى اطراف الجزيرة العربية اخبار حدوث تطورات مهمة في جهتين في نفس السنة (من أوائل سنة ١٨٠٦ أو أواخر ١٨٠٥) . وكانت هذه التطورات تهم الوهابيين ولو من بعيد . ففي مسقط ثار ابنا سلطان بن احمد ابن سعيد الذي قتله قرصان القواسم على عمهما بدر الذي خلف اخاه ، وقتلاه . واغتصب سعيد بن سلطان ــ احد هذين الولدين ــ العرش . أما في تهامة من اعمال اليمن ، فقد قرر صالح ، زعيم ميناء الحديدة ومدينة بيت الفقيه، انيدخل حظيرة الوهابية ، وهكذا وجدت الوهابية لها موطن قدم في اليمن دونما أي سعي منها .

ويمكننا القول بان الدعوة الوهابية فيهذا الزمن وما فيها من فوائد ومساوىء كانت عرضةً لاختبارات واسعة في كافة انحاء العالم العربي . ففي الجزء الشمالي من اليمن كانت واحة نجران دائما في متناول يد مطامع سعود ، فاصدر في هذه السنة أوامره الى عبد الوهاب ابي نقطة وامراء بيشه ووادي الدواسران ينضموا الى عبيدة وسنجان ، وهي من من عشائر قحطان الجنوبية ، وامر الودَعَه Wada'a في شمال اليمن أن يقوموا بهجوم واسع على نجران ومقاطعاتها .

واحتشدت قوة قوامها ثلاثون الف رجل من اجل هذه الغاية ، ولكن ما انجزته ليس شيئاً بالنسبة الى مثلهذا العدد وفيالواقع انها لم تصل قط الىضواحي نجران ، لانها منعت من التقدم عند بدر ، مركز قيادة اخوان المكرمة (المكرمي) (الاسماعيلية والشيعة) حيث مني الوهابيون بخسائر تفوق خسائر المدافعين . وهناك امر ابو نقطة رجاله ان يبنوا حصناً مقابل منازل المكرمي المحصّنة ، وان يضعوا فيه الحامية اللازمة ، ثم ارتحل مع جنده .

وكان من النتائج السريعة لانضمام الحديدة الى الدولة الوهابية ، ان ارسل أمامصنعاء حملة لاسترجاعها . وبعد حصار قصير استولى عليها . فعين ابن صالح المعارض ، اميراً عليها ، غير ان صالحاً نفسه (الذي كان في بيت الفقيه) اعد حملة

على زابد ، واستولى عليها عنوة ثم دمرها . وقد ارسل الى الدرعية حصتها من الغنائم ووزع الباقي بين قواته قبل عودته الى بلده .

لقد تركت عقيدة الوهابيين ، فيما يبدو ، اثرها في تهامة اليمنية لأن سكانها « الشوافع » كانوا يكرهون الزيديين سكان المرتفعات . ودليلنا على ذلك ان القوة التي اعدها صالح للهجوم على زابد كان قوامها ثلاثة الاف رجل ، بالرغم من وجود جيش الامام على شواطىء البحر الاحمر .

اما بطل قصة المدينة فلم يعش طويلاً بعد النصر الذي اصابه . لأن بداي بن بدوي اصيب بالجدري في نفس السنة ، فخلفه في زعامة « حرب » اخوه بادي . ولم يمضِ بعض الوقت حتى قام سعود نفسه بزيارة المقاطعة التي كان لبادي ولاخيه اليد الطولى في ضمها الى الدولة الوهابية .

وبعد ان قرر سعود القيام باداء فريضة الحج الى مكة للمرة الثالثة ، تحقق من امكانية قيام بعض الاضطرابات بسبب مسلك غالب المبهم ، فيما إذا قرر الباب العالي ارسال جيش من الاتراك والجنود النظاميين لحماية قافلة الحج السورية. ولذا قام باعلام ابي نقطة والقادة الآخرين الموثوق بهم عن موقفه ورأيه بهذا الشأنقبل ذلك بزمن ، أي في نهاية صوم رمضان أو في الاسبوع الاول من كانون الاول سنة ١٨٠٦ . ولكنه مع ذلك لم يغادر الدرعية الا في نهاية كانون الثاني ، حيث كان الحج سيقع في الثامن عشر من شباط سنة ١٨٠٧ .

وكانت خطة سعود التي وضعها ، تقضي بحشد جيش كبير في المدينة يتكون من فرق عسير وبيشة، ورنية تحت امرة امرائها ويقابلهم عثمان المضايفي معسكان الجبال من منطقة الطائف ، بالإضافة الى عناصر اخرى من الحجاز . يضاف الى هذه قوات القصيم النجدية ، تحت امرة حجيلان بن حمد ، وقوات جبل شمر ، بقيادة اميرها محمد بن عبد المحسن بن علي ، وجنود الوشم . وقد انضم اليها

في الطريق جيش كبير من قبيلة حرب ، بقيـــادة مسعود بن مضيّان وجابر ابن جبّارة .

وقد عين سعود المدينة المنورة مكانا للإجتماع الذي سيدخاون منه مكة لاداء فريضة الحج . ولكنــــه قبل ان يشرع في السفر ارسل رسولاً الى قادة قواته في المدينة ليطلب منهم منع قافلة الحج السورية من دخول مكة ، أو السفر اليها .

وعليه ، فعند وصول القافلة السورية الى مشارف المدينة المقدسة ، أُعلم اميرُ الحج عبدالله العظم ، بلطف ، بعدم السماح له بالتقدم ، وطلب اليه ان يعود مع القافلة الى بلاده . وقد فعل ذلك بالرغم من الاحتجاج الشديد على هذا الامر . أما الحجاج التعساء الذين انهكهم السفر طوال الخمسة الاسابيع الماضية، فاضطروا لأن يعودوا الى دمشق دون ان يروا المدينة ولا مكة. وقـــد اظهر سعود بعمله هذا بدون شك ، ان شؤون الديار المقدسة من اختصاصه هـــو وحده ، لا من اختصاص السلطان .

وبعد ان عاد الحجاج السوريون الى بلادهم، سار الجيش الكبير لينضم الى سعود الذي كان في طريقه الى مكة رأساً من الدرعية. فادوا فريضة الحج مظهرين الخضوع لله ، محتفظين مع ذلك بمظهر العزة والعظمة امام الناس. وهي المزايا التي كان يتحلى بها الوهابيون القدامى . فوُزعت الصدقات بسخاء من قصر البياضية الذي اتخذه سعود مركزاً في المشارف الشرقية من مكة . وهناك زاره غالب ، مجدداً له الولاء الذي كان على وشك ان يخل به بعد مرور سنتين من اعلانه . وأرسلت جميع الفرق التركية التي كانت في مكة وضواحيها الى جدة .

وكان آخر عمل قام به سعود قبل ان يغادر مدينة الله الى مدينة النبي ان كسا الكعبة الكسوة التقليدية الحريرية . وكان قد احضرها معه من أجل هذه الغاية . وهكذا انتهى حجه الرابع .

وفي نهاية آذار من السنة ١٨٠٧ ، غادر مكة الى المدينة حيث وجه جُلّ اهتمامه الى تحصينات المدينـــة والواحة في وجه أي اعتداء عليها من الاتراك . فرُمّمت الحصون الامامية ووضعت فيها الحاميات ، تحت قيادة حمد بن سالم من أهل عُيينة ، وطُرد القاضي التركي القيّم على الحرم . كما طرد اشخاص آخرون كان الوهابيون يشكون في اخلاصهم ، وعُين مكانهم موظفون وهابيون مـــن جملتهم رجل من الدرعية ، ليشرفوا على الدوائر المالية .

وبعد ان امضى سعود فترة من الزمن في منطقة المدينة المنورة ، صرف جنده وعاد الى عاصمة ملكه ليقضي فصل الصيف هنـــاك . وفي غضون ذلك قامت الثورة في قصر السلطان في اسطنبول وادت الى خلع السلطان سليم بن احمد وتعيين مصطفى بن عبد الحميد مكانه .

وفي السنة التالية قامت في اسطنبول ثورة معاكسة تهدف الى اعادة السلطان سليم ، الذي كان لا يزال في السجن ، فقُتل هذا بتحريض من مستشاري السلطان مصطفى . وقد أحدث هذا العمل ردّ فعل لدى يوسف باشا قائد الحركة فنجح في خلع مصطفى ونصب على العرش محمداً بن عبد الحميد ، أخـــاه القاصر ، الذي استمر في الحكم حتى سنة ١٨٣٥ ـ ١٨٣٦، حسب قول ابن بشر .

ويدل هذا على ان ابن بشر بدأ في كتابة تاريخـــه في بداية حكم فيصل أو قبل ذلك ، وترك هذه الملحوظة دون ان يصححها أو يغيرها عند موت السلطان محمود بعد ذلك ببضع سنين . وكان السلطان سليم قبل عزله قد طردَ عبدالله العظم من منصب الوالي في سورية ، بسبب تراجعه من مكة الذي يدل على الجبن ، وعين مكانه رجلاً آخر يدعى يوسف الغنج Ghanj .

وفي العراق أيضاً انتهى حكم عدو قديم لنجد ، بمقتل علي كيخيا الذي كان قد خلف سليمان باشا في ولاية بغداد . وقام رجل آخر يدعى سليمان فاعـــدم القتلة ، واستولى مؤقتاً على الحكم ريثما يصل فرمان السلطان بالموافقة .

واستمرت المجاعة تجلد بسياطها نجداً والجزيرة العربية طوال هذه السنة . أما في نهايتها فقد سقطت الامطار الغزيرة فمكنت الناس من زراعة أراضيهم في فصل الربيع، مما ساعد في رفع معنوياتهم بعد الكارثة التي المت بهم . ومع ذلك ، قام سعود باداء فريضة الحج للمرة الخامسة مع عدد غفير من الناس ووجد غالباً راضياً تماماً عن الوضع ومسالماً ووفياً . ومكث سعود في مكة زهاء ثلاثة اسابيع كان في خلالها مثلاً طيباً للناس في محافظته على الشعائر الدينية، كما قام بتوزيع الهبات السخية على المعوزين ، بالإضافة الى كسوة الكعبة بكسوة حريرية ثمينة . ثم سار لزيارة المدينة المنورة ، للمرة الثانية. وهنا أيضاً مكث بضعة أيام يبحث في امورها الإدارية مهتما بالحصون والحاميات ، فعين في قيادتها عبدالله بن مزروع وهو احد أبناء العائلات المشهورة في منفوحة .

ويذكر ابن بشر في كتابه بانه لم يؤدِ فريضة الحج أي حاج أجنبي ، لا من سوريا ولا من أي مكان آخر .

وفي تموز كان سعود مرةً اخرى على اهبة الاستعداد لعملياته الحربية ، فعبأ جيوشه لشن هجوم عام على الحدود العراقية . وكان هدفه الاول مدينة كربلاء غير انه لم يجدها سهلة المنال كما كانت في المرة الاولى. لقد كانت محميةً بسور حصين وعريض لدرجة مخيفة . فهاجمها في الحال ، وارسل فرقاً لتتسلق الاسوار . غير ان مهمة الاستيلاء على المدينة كانت مهمة صعبة التحقيق فسحب جيشه وسار الى عُثّاثة . فهرب سكانها الى المرتفعات القريبة تاركين قريتهم تحت رحمته . غير انه اغراهم بالعودة واعداً اياهم بالمحافظة على حياتهم ضد أي اعتداء يقع عليهم وعلى ممتلكاتهم ، ولم يطلب منهم غير مائة من خيولهم . ثم غزا المنتفك المجاورة لقناة المجرّه Majarra ،وسوقُ الشيوخ،قبلَ ان يعود الى البصرة والزبير فيهاجمها دون ان يصيب ما يرجوه من نجاح .

وبعد ان عاد سعود الى عاصمته من هذه الحملة الخائبة، بدأ يستعد لأداء فريضة

الحج للمرة السادسة . ولقد كانت هذه المرة شبيهةً بسابقاتها ، لو لا انه وجه انتباهه الآن الى الامور الدينية ذات الاهمية الخاصة . وكان بسطاء الناس في المدينة المقدسة يجدون صعوبةً في استيعابها وهضمها . فالآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر كانوا يتجولون يومياً ليراقبوا الناس فيمنعوهم من التدخين علناً ويجبروهم على الذهاب الى الجوامع لاداء فريضة الصلاة في مواعيدها.

وقد حضر غالب مرةً اخرى بين يدي سيده وتبادلا الهدايا ، ووطدا التفاهم والثقة المتبادلةِ بينهما . وزُينت الكعبة بافخم مما زينت به من قبل. وفي هذه السنة أيضاً لم يكن هنالك حجاج من سوريا ومصر والعراق أو مراكش ، وان أدى فريضة الحج عدد قليل من المراكشيين الذين سمح لهم سعود وضمن سلامتهم .

وبعد ان قضى الملك الوهابي ، ثلاثة اسابيع في المدينة ، عاد الى بلاده دون ان يزور قبر النبي في المدينة المنورة ، الا انه ارسل اليها حاميات جديدةً لتحل محل حامياتها التي امضت هناك قرابة السنة .

ولدى وصوله الدرعية ارسل حملة صغيرة الى منطقة عُمان ، ومعها مشايخ وفقهاء يلقنون أهلها مبادىء العقيدة الوهابية ، ولدراسة الوضع هناك . وكان هنالك حركة اثارها الحكام المحليون من مثل قيس بن احمد الامام من سهار Suhar وابن أخيه سعيد ، بن سلطان مسقط . وكانت هذه الحركة تهدد المناطق الخاضعة للوهابيين ، إذ ان قوة قوامها عشرة آلاف جندي كانت تتقدم نحو المنطقة عندما وصلت حملة سعود .

وكان سلطان بن صقر من رأس الخيمة ، اميرَ المنطقة ، فحشد على التوّ قوةً تتألف من ثلاثة آلاف مقاتل لمقابلة الغزو . وتقابل الجيشان في خور المكان ، بين عاصمة السلطان ومقاطعة البطينة في معركة حاسمة قتل فيها قيس نفسه مع عدد كثير من رجاله وغرق آخرون في البحر عند هروبهم . وكان مجموع القتلى

يقدر باربعة آلاف قتيل . فارسل ابن قيس رسائل الى سلطـــان بن صقر والى سعود نفسه ، طالباً الصلح معلناً عن استعداده للخضوع واستعداد شعبه للدخول الى حظيرة الوهابية. ووافق سعود على ذلك فخضع سعيد بن سلطان. واصبحت كل منطقة عمان تحت الحكم السعودي . ووزع سلطان بن صقر غنائم المعركة التي كسبوها في نفس المكان ، وتقاضى سعود خمسها ، كما كانت العادة ، ليرسلها الى الدرعية .

استمرت المجاعة ، واستمر الجفاف يلفح البلاد ويصيبها بالأوبئة، مع ارتفاع الاسعار ارتفاعاً فاحشاً ، وزاد الطين بلة انتشار الكوليرا التي زادت من رعب النـــاس واهلكت عدداً كبيراً منهم . وحدث في تشرين الثـــاني من سنة ١٨٠٨ كسوف في الشمس ، وتوفي كذلك قاضي الاحســـاء المشهور ، محمد بن سلطان العوسجي Ausaji في شهر كانون الثـــاني التالي ، واستمر وباء الكوليرا حتى اواسط صيف عام ١٨٩٩ ، وكان شديداً بشكل خاص في الدرعية وما جاورها من بلدان ، حيث كان الناس يموتون بمعدل ثلاثين أو أربعين شخصاً في اليوم الواحد . وكان من جملة الاشخاص البارزين الذين لاقوا حتفهم ، حسين بن محمد بن عبد الوهاب ، قاضي الدرعية الذي خلف ولداً واحداً ، اسمـــه علي ، ليحمل على عاتقه عبء وراثة العائلة في المدينة .

وابان حدة الوباء واشتداد اواره ، اصدر سعود منشوراً يدعو فيه السكان الى التوبة عن خطاياهم طالبين الرحمة والغفران من الله ، وذكر في المنشور عدة امور تدعو الى الاصلاح ، وتضرع الى الله العلي القدير ان يرفع غضبه عن شعبه الامين ويبعد عنه هذه المحنة ، فقد كان سعود دائماً يفكر في الناحية الدينية عند حدوث امثال هذه المصائب .

ويقال بانه حالما قُرىء هذا المنشور على الناس المجتمعين في جامع الدرعية، بدأ الوباء يتوقف . وكان الضحيـــة الثانية للكوليرا سعد بن عبد الله بن عبد العزيز بن

محمد بن سعود ، ابن اخي سعود . وتوفي كذلك اربعة من العائلة المالكة السابقة في العيينة .

وفي نهاية سنة ١٨٠٩ ، خرج سليمان باشا والي بغداد الجديد ، بقوة كبيرة ليؤدب قبائل ظافر وعنزة النازلة عند الحدود العراقية للصحراء . وكانت هذه القبائل تحت زعامة شيوش الذي ورد اسمه في هذه القصة ، ودُريْع بن شعلان فاستمروا في القتال عدة ايام بالرغم من تفوق العدو . وعندما واجهوا الاندحار الاكيد قرروا يائسين ان ينقذوا انفسهم فشنوا هجوماً قوياً على الاعداء حتى انهزمت القوات العراقية وتفرقت . ومني الطرفان باصابات فادحة،غير ان رجال القبائل ظلوا اسياد ميدان المعركة ثم جمعوا الاسلاب والغنائم وارتحلوا الى الاراضي النجدية .

نزلت امطار غزيرة غير معتادة في منطقة سلسلة جبال الطويق،واستمر هطول الامطار عدة ايام فحدثت فيضانات شديدة في معظم اودية المنطقة . وهبطت الاسعار مع نضج محصول التمر وبدأ الرخاء يعود شيئاً فشيئاً الى البلاد .

وكان سعود في هذا الوقت منهمكاً في القلاقل التي حدثت في عسير تهامة.فقد حدث خلاف بين شريف ابي عريش،حمود ابي مسمار نديد شريف مكة احمد ابو نعمي وبين عبد الوهاب ابي نقطة ، الامير الوهابي في تهامة باكملها .

كان حمود يجمع الرسوم الجمركية في موانىء منطقته ومن ضمنها جيزان ، طول المدة منذ اعلن انضمامه الى المذهب الوهابي، بينما ارسل ولده في زيارة طويلة لسعود في الدرعية . وحدث هنا مناوشات كلامية جعلت تسوية الخلاف متعذرة .

اما سعود فقد اراد اختبار مدى ولاء حمود واخلاصه فارسل اليه يأمره بمهاجمة صنعاء، غير انه تجاهل هذه الاوامر. فاتضح لسعود بان الشريف حمود في حالة ثورة. ولذا حشد جيشاً عدته خمسون الف رجل جمعهم من كل البلاد ليسحق

الثورة . وزود غصّاب، زعيم عتيبة ، بقوة كبيرة من الفرسان ومنحه السلطة على المنطقة المضطربة ، الا انه حذره التدخل في ادارة ابي نقطـــة الذي كان المسؤول الاول عن الاقليم وجيوش الحملة، التي كانت تتألف من عناصر جمعت مـــن كل مقاطعة في الحجاز ، مـــن الطائف حتى خميس مشيط ، ومن بدو قحطان وعبيدة وعشائر اخرى .

وبالمقابلة ، حشد ابو مسمار قوة كبيرة من هضبة اليمن ، ومن حاشد وباقل Baqil وعناصر حمدانيـــة اخرى ، ومن نجران ويام Yam . والدّهم Dahm . وبعد ان وزع الحاميات على جميع الحصون في المنطقة ، زحف بجماع جيشه على القوات الوهابية المتمركزة في بيش (يقول ابن بشر عنه وادي بيشه) وهاجمها قبل ان تستعد للمعركة . وهاجم فرقة عسير التي كان يقودها ابو نقطـــة ، بشكل خاص . فنشبت معركة ضارية قتل فيها ابو نقطة وعدد كبير من رجاله الا انهـــا كانت نهاية فوز حمود ، فقد هاجمته الفرق الوهابية الاخرى ، بعد ان استعدت لخوض المعركة بكل شدة وضراوة، فانكسرت قواته وهزمت شر هزيمة . فطاردها الوهابيون ونهبوها .

وظل حمود وفرسانه يجرون هاربين حتى وصلوا حصون ابي عريش. بينما احاط الوهابيون المنتصرون بحصن سبية Sabya يدمرون ويسلبون. وقد استسلم حصن سبيه العظيم بدون قتال ، فوضع غصاب فيه حامية قوية ، بينما ارسل رجاله الى جميع الجهات للقيام باعمال القتل والنهب والتدمير . وكان يرافق جيش الوهابيين بعض السفن في البحر ، فحمّلوها ممـــا حوته عنابر الجمارك في جيزان ، وبشكل رئيسي بالقهوة. وخلف عبد الوهاب ابو نقطة في امارة تهامة ابن عمه تامي Tami ابن شُعيب Shu'aib .

وفي هذه الاثناء كان سعود يقوم بالاستعدادات لحجـــة الموافق في منتصف شهر كانون الثـــاني سنة ١٨١٠ . وقرر ان يكون موكبه هـذه المرة فخماً

للغاية . فشجع العشائر ، الرحـــل منها والحضر ، أن يصحبوا معهم نساءهم في حجهم .

وقد رافقه في موكب حجه بناته وسيدات اخريات من عائلة مقرن المالكة . وادى الجميــع مراسيم الحج بدون اي حادث يذكر . ولم تؤد فريضة الحج اية عناصر اجنبية اخرى ، كالتي كان يزدحم بها موكب الحجاج في السابق .وظلت العلاقات مع غالب ودية لا تشوبها شائبة . وفي اوائل شباط عاد سعود الى بلاده في الوقت الملائم الى الدرعية بعد ان استبدل حاميات الحصون بغيرها .

في هذه الاثناء ساءت الامور في عُمان فقد ثار سعيد بن سلطان على حكومته وتخلى عن ولائه لها واستدعى البريطانيين لمهاجمة القلعة الوهابية في رأس الخيمة . فاشتعلت النيران في اكواخها المبنية من سعف النخيل حين سلطت البحرية الانجليزية عليها اشعة الشمس بواسطة العدسات الشمسية،وانسحب سلطان بن صقر واتباعه الى الصحراء . وبعدها نزلت القوات البحرية الانجليزية واتمت تدمير القرية. الا ان اهلها عادوا فبنوها بعد رحيل المغيرين .

وما كاد سعود يسمع هذه الاخبار،حتى ارسل عبد الله بن مزروع من منفوحة على رأس قوة من نجد واصدر اليه التعليمات بان يحتل واحـــة البريمي ويتخذها مركزاً. بينما ارسل مطلق المطيري على رأس قوة أخرى لجمع النجدات من اهل عمان انفسهم لمحاربه زعيم مسقط الثائر . فوجه مطلق عملياته الى مزارع البّطينة، الممتدة بين رأس الخيمة ومسقط على طول الساحل، وعلى مدينتها الرئيسية سحار Suhar، قلعة عزان بن قيس الذي خلف والده بعـــد موته في هجوم سابق قام بـــه الوهابيون . فاستولى على عدة قرى وغنم غنائم كبيرة وقتل خمسمائة من رجال عزان Azzan فى هذه العمليات التي استمرت ــ فيما يبدو ــ طوال اشهر الصيف والخريف من السنة التالية . اما مسقط نفسها فلم تُهاجم. وقد صمدت سحار لجميع محاولات الاستيلاء عليها عنوة ، ولكن بقية المنطقة ، استسلمت لمطلق ودخلت مرة اخرى الى الحظيرة الوهابية .

وفي الوقت الذي كانت تجري فيه هذه الأحداث ، اضطر سعود لأن يرسل حملة الى البحرين ، وزُبارة بسبب موقف حكامها الغامض . وذلك قبل ان يسير الى الحج . وكان محمد بن مُعيقل قائد هذه الحملة ، فأرسلت اليه النجدات فيما بعد تحت امرة عبدالله بن عفيصان بن ابراهيم امير الاحساء انذاك . وقد ظلت القوتان لا تقومان بأي عمل في زُبارة طيلة اربعة اشهر ، وحتى عودة سعود من الحج .

وحينئذٍ هدد القائدان بشن هجوم قوي ما لم يوافق زعماء آل خليفة أن يرافقوهم الى العاصمة الوهابية . وكان من جملة ضيوف سعود البارزين ، سليمان ابن احمد بن خليفة ، الزعيم الاسمي للبحرين وزبارة . وأمر فهد بن عفيصان بان يسافر الى الجزر ليستلم زمام الامور هناك وليعين موظفاً كفوءاً لجمع الضرائب. اما ابناء زعماء آل خليفة فلم يرضوا بأن يبقوا مجرد مواطنين عاديين في بلادهم ، فهرّبوا نساءهم وكنوزهم سراً على بعض السفن الصغيرة الى مسقط .

وصادف وجود بعض السفن البريطانية في مرفأ مسقط آنذاك . فجهزت عدداً من السفن في حملة على زبارة . وبعد ان هاجمت الحامية الوهابية وهزمتها واستولت على ممتلكاتها ، غادرت الحملة زبارة وتوجهت الى البحرين ، لتحاصر فهد بن عفيصان وقواته في حصن المنامة بضعة ايام . وقد استسلم الحصن بموجب شروط . اما فهد ومعه ستة عشر رجلاً فقد احتجزوا كرهائن حتى يطلق سراح شيوخ آل خليفة في الدرعية ، واما البقية فقد اطلق سراحهم .

وكان سعود آنذاك منهمكاً في حملة الشمال، تاركا هؤلاء الشيوخ في الحبس. ولدى عودته وصلته اخبار هذه التطورات الطارئة ، غير ان زعماء آل خليفة تقدموا من سعود وطلبوا اليه ان يطلق سراحهم ليعودوا الى البحرين ويباحثوا اولادهم وانصارهم في أمر الدخول في المذهب الوهابي . والا فانهم يتعهدون بالعودة الى الدرعية ليبقوا فيها كرهائن . فوافق سعود على اقتراحهم هذا

وارسل معهم المرافقين اللازمين . غير ان الشيوخ فشلوا في اقناع ابنائهم بحكمة هذا الاقتراح فعادوا الى الدرعية ليبقوا رهن الاعتقال . وفي هذه الاثناء اطلق سراح فهد بن عفيصان وبقية أتباعه المعتقلين .

اما الحملة المشار اليها أعلاه فقد دفعت بسعود ليس الى الحدود السورية فحسب ، بل الى مشارف دمشق فارعب بذلك سكانها . وقد رأى للمرة الاولى في حياته الثلوج على قمة جبل حرمون (الشيخ) .

ويلاحظ بان ابن بشر قد اخطأ جغرافياً في ذكر المسافة التي قطعها قادماً من بلاده ، فالتلال التي كانت تغطيها الثلوج قرب نابلس والتي قيل بان عشائر سعود ضربت وراءها خيامها لم تكن غير جبل الشيخ في شهر أيار . وكان هدف سعود مجموعة من القبائل السورية الضاربة في منخفض نقرة الشام . غير ان هذه القبائل اشتمت رائحة حملته هذه وخيمت في مواقع جديدة بعيدة عن متناول يده ، مع دوخي بن سمير Dukhi زعيم « ولد عنزة » في الغور . وقد يكون هذا إما البقاع الواقع بين جبال لبنان الشرقية والغربية او وادي الاردن .

وسار سعود في سهول حوران مدمراً المزروعات وممتلكات القرويين في المزيريب وبصرة اسكي شام ، فهرب سكانها من منازلهم لدى سماعهم باقتراب القوات السعودية من بلادهم . وقد حاول سعود الهجوم على حصن المزيريب ولكنه عاد وتخلى عن هذه المحاولة ، وانسحب بعد ذلك الى بصرة لقضاء بضعة أيام هناك ثم عاد الى بلاده بغنائم طائلة استولى عليها في هذه الحملة . وعزل الباب العالي يوسف ، والي الشام من منصبه بعد هذه الاحداث فخلفه في الولاية سليمان باشا ، والي عكا وصدرت اليه الاوامر بان يصادر جميع اموال سلفه .

اما الأحوال الاقتصادية في هذه الفترة ، فقد كانت في تحسن سريع عقب الامطار الموسمية والعاصفة الغير المعتادة التي هبت في شهر تموز سنة ١٨٠٩ . وكان سعر القمح بعد هذه العاصفة (٤ صاعات للريال الواحد) ، ثم عاد فنزل الى

٨ صاعات للريال . وفي شتاء سنة ١٨١٣ عاد فهبط الى ١٣ صاعاً للريال . وكان سعر التمر قد تدنى فاصبح من ١٠ وزنات للريال الى ٣٠ وزنة ثم ٣٧ وزنة للريال . غير انه لم تبدُ بشائر السلم في افق الأقاليم الوهابية .

وفي شهر آب عاد الاضطراب فذر قرنه في عسير تهامة ، حيث عاد حمود ابو مسمار بعد هزيمته في وادي بيش الى القتال من جديد. فأرسل عثمان بن مديّفع لاخضاعه ، فتقابلت القوتان المتنازعتان في مكان يدعى الوحلة Wahla ، فانهزم ابو مسمار مرة اخرى وخسر مائتين وخمسين من جنوده . وفي نفس الوقت كان امير عسير تهامة يجهز حملةً لاختراق تهامة اليمنية فاقتحم ابواب لُحيّة عنوة بعد حصار قصير ، وصادر جميع الامتعة الثمينة والبضائع الموجودة في مستودعات الجمارك والتجار .

وقيل ان ألف رجل قد قتلوا في هذه العمليات الحربية التي انتهت بأحداث فجوة في المدينة بواسطة النيران . وتقدم تامي الآن نحو الحديدة بجيش قوي عدته عشرون الفاً. ولدى سماع السكان ، خبر هجومه على المدينة نقلوا من متاعهم ما امكنهم نقله الى القوارب الراسية في الميناء ، ونجوا عبر طريق البحر . فاستولى تامي على المدينة بكل سهولة ، وهدمها ونهبها ، وقتل الكثيرين من سكانها . غير انه لم يحاول ان ينشيء (ادارة) حكومية وهابية دائمة ، لا هنا ولا في لُحَيّة فقد كان الهدف من هذه الحملة ـ فيما يبدو ـ الاستيلاء على اكبر كمية من الاسلاب والغنائم .

وكانت الاضطرابات التي حدثت في بغداد ، هذه الفترة ذات طابع محلي ، فلم تؤثر في مصالح الجزيرة العربية ، وان كان ابن بشر يعطي تفصيلات مطولة عنها ويكفي القول بان الوالي سليمان باشا ، الذي صدرت اليه الاوامر من السلطان بألا يجبي الضرائب التي لم تحصّل في السنوات السابقة قد هاجمه زعيم الاكراد عبد الرحمن باشا وقتله، ثم احتل المدينة وبدأ ينهب ثرواتها تحت حماية والٍ عميل، يدعى

يدعى عبدالله باشا، نصبه الزعيم الكردي والياً . فارسل السلطان اليه جيشاً ليعاقبه على اعماله ، فطلب العون من شاه الفرس للهجوم على كردستان ، فضمها الشاه الى ممتلكاته بعد هرب عبد الرحمن .

وفي نهاية كانون الاول من سنة ١٨٠١ سار سعود مرة اخرى الى مكة ليقوم باداء فريضة الحج للمرة السابعة ، وكان ابن بشر نفسه احد الذين شهدوها .وفي هذا الشهر بالذات توفي سلفه ، المؤرخ النجدي ، حسين بن غنام الاحسائي .

ومن الغريب انه في الثناء على حياته واعماله الباهرة كعالم ديني لم يذكر ابن بشر مؤلفه التاريخي ، هذا المؤلف الذى اقتبس منه ما شاء له ان يقتبس . ويرسم لنا ابن بشر صورةً مبهجة للعاهل الوهابي في لباس الحج ، وامتطاءَه ظهر جمل وسط الجموع الغفيرة في نميرة Namira ، والقاءه الخطبة التقليدية المعهودة في معاني الحج وفوائده ، مستعرضاً في نفس هذه الخطبة السلام والازدهار السائدين في الجزيرة العربية ، بفضل رحمة الله وبفضل دينه الذى تقبله كافــة سكان الجزيزة . ومنهياً خطبته باعلان منع حمل الاسلحة في المدينة المقدسة ، ومنع اية امرأة من اظهار زينتها ومجوهراتها ، كيلا يتعرض الناس لسخطه الشديد .

ثم تقدم منه غالب ممتطياً صهوة جواده فترجل الزعيم الوهابي ليعانق عدوه السابق امام جماهير الحجاج الجالسين تأهباً لاداء فريضة الظهر ، قبــل بداية المسير الى عرفات .

ويشير ابن بشر الى انه لم يجرؤ احد من الحجاج ان يدخن في شوارع مكة ، ولم يتلكأ احدفيها عن الذهاب الى الصلاة عند سماع اصوات المؤذنين يدعون اليها وكان المكان المفضل لذى سعود هو سطح البناية التي تضم بئر زمزم قبــالة الكعبة مباشرة .

وخلال هذا الحج ، توفي ــ في مكة ــ الشيخ احمد بن ناصر بن عثمان بن معمر

بعد اتمام مراسم الحج في منى . وكان احد شيوخ نجد العظام وتلميذ حسين بن غنام . وكان هناك ايضاً احد تلامذة المؤرخ البارزين وهو الشيخ سليمان بن عبدالله حفيد محمد بن عبد الوهاب .

ولدى عودة سعود الى الدرعية،واجهته مشكلة عائلية ، فقد ذهب اولاده - تركي وناصر وسعد ، الى عمان بحثاً عن المجازفات والموارد الكافية التي لم يسمح بها والدهم . وقد حدث نقاش في هذا الامر قبل ان سافر سعود الى الحج فطلب الاولاد منه السماح لهم بالانضمام الى الجيش في عمان . الا ان سعوداً كان مقتنعاً بان مخصصاتهم تكفيهم ، ورفض ان يسمح لهم بمغادرة البلاد . وفي خلال غيبة والدهم ، تم لهم ما ارادوا دون اذن منه ، فسافروا برفقة بعض اتباعهم الاقربين. ولم ينتظروا طويلا .. فلدى وصولهم رأس الخيمة ، تآمر سكان بطينة وهي قرية في سحار ، بأن يهجموا عليهم ويقتلوهم ليلا . وتم الهجوم . غير ان ابناء سعود ورفاقهم قاوموا مقاومة عنيدة، فتراجع المهاجمون وتكبد الطرفان بعض الخسائر .

وبعد هذه الحادثة ، طُلب الى مطلق المطيري ، قائد البريمي ، أن ينضم بقواته الى الامراء الثلاثة ، وانيطت القيادة العامة بتركي ابن سعود ، وهكذا تم تشكيل الحملة الجديدة فهاجموا مطرح ، المدينة الساحلية القريبة من مسقط، واستولوا عليها عنوة . وفي هذه الاثناء كانت قوات تركي الغازية تجوب قوس الدائرة في شبه جزيرة عمان من الضاهرة Dhahira الى بطينة ، فصور Sur حتى جعلان Ja'lan . وكانت الاوامر الصادرة تقضي بالنهب والسلب وإعمال القتل بدلا من الاستيلاء على المواقع . ولكن سعوداً غضب غضباً شديداً لدى سماعه ذلك ، فأرسل جماعة من اربعين رجلا الى البريمي واعطاهم تعليماته بوجوب الاستيلاء على الحصن من حاميته السابقة التي كان يقودها ابن مزروع ، وأن يُمنع اولاده واتباعهم من الدخول اليها . وفي نفس الوقت صدرت الاوامر الى مطلق المطيري بأن يخلي عمان من قواته وألا يترك فيها اي جندي منهم .

وبدأ اولاد سعود الثلاثة يشعرون بمبلغ الحماقة التي ارتكبوها . ورفض سعود رفضاً باتاً جميع الوساطات التي بُذلت للعفو عنهم وأصرّ على وجوب الاستسلام له دون قيد ولا شرط . وعلى هذا واكبوا مطلق اثناء انسحابه الى الاحساء ، الا انهم رفضوا ان يسيروا ابعد من ذلك فقد كانوا يخشون غضب والدهم . وفي النهاية عفا سعود عنهم فعاد الابناء الضالون الى وطنهم، واستقبلوا بمظاهر الاستياء والسخط الابوي على تصرفاتهم الطائشة . وبعد شهرين مرض ناصر ومات ، فرفض سعود البكاء عليه او حضور مراسم جنازته ودفنه .

وانصرف سعود لمعالجة نتائج فرار اولاده الذي خلق كرهاً شديداً للقضية الوهابية . فقد أعلن بنو اياس وهم من الضاهرة، الثورةَ . فأمر سعود عبدَ العزيز ابن غردقة ان يسير من الاحساء ليعالج الامر . وفي القتال الذي تلا ذلك في أيار سنة ١٨١١ ، اندحرت القوة الوهابية وقتل قائدها ، وبدت عمان جميعها على وشك الاستقلال عن الدرعية . ويبدو ان مطلق المطيري أُعيد فعيِّن في منصبه القديم ليرقب تطور الوضع ، وكانت عمان آنذاك في حالة فوضى . وفي نهاية السنة – في كانون الثاني سنة ١٨١٢ – كان حاكم مسقط سعيد بن سلطان على اهبة الاستعداد، بمناصرة الفرس ، لان يهاجم المناطق الوهابية بجيش قوامه ثلاثة آلاف جندي كانوا يطوفون حولها ينهبون السكان بلا تمييز . ثم استولوا فعلاً على مركز مهم يدعى سمايل Samaïl مقر عائلة جبري . اما مطلق فكان مستعداً لان يشدد قبضته على حركة الثوار . فالتقى الفريقان في معركة ضارية دارت رحاها في مكان ما بين سمايل والبريمي . وكانت الغلبة لمطلق فتمزق جيش مسقط وانهزم .

وكان الوهابيون يلاحقونهم فيقتلون منهم من يقتلون ، وينهبون ما يجدون في طريقهم . وكانت الغنيمة التي استولوا عليها هائلة ، من ضمنها عشرة مدافع للعدو أُرسلت للدرعية باعتبارها حصة الدولة من الغنائم . واستمرت هذه العمليات اكثر من سنة ، اي من بداية فرار الامراء الى عُمان . ثم استقر الوضع في الاقليم كله ولو ظاهرياً، فيما عدا المدن التي كان ممثلو عائلة سعيد لا يزالون يسيطرون عليها .

وفي هذه الأثناء عاد سعود من مكة في شباط سنة ١٨١١ ، فسمح لزعماء آل خليفة المعتقلين في الدرعية بالعودة الى بلادهم على شرط قبول سلطة حكومته في البلاد وخضوعهم لها . وصادف رجوعهم نشوب معركة حربية عند جزر البحرين في نهاية آذار ، بين اسطول ابراهيم بن عفيصان يسانده رحمة بن جابر العذبي من خور حسن ، وابو حسين من حويلة على ساحل قطر ، وبين ابناء زعماء آل خليفه المعتقلين وقاتل الطرفان بضراوة وتصميم ، الا انها انتهت دون التوصل الى نتيجة حاسمة ، وان كان اهل البحرين، هم الذين شعروا بوطأتها اكثر من اعدائهم .

وشبت النيران في بعض السفن اثناء الاشتباك وغرقت لدى انفجار الذخائر فيها ، فخسر كل من الطرفين قرابة السبع سفن بهذا الشكل ، الا ان خسائر البحرين قدّرت بألف رجل بين قتيل وغريق ومحروق . وكان منهم راشد بن عبدالله بن خليفة. اما خسائر الوهابيين فكانت مائتي قتيل، من ضمنهم زعيم الحويلة.

وفي صيف هذا العام قرر الاتراك استرجاع الحجاز من الحكم الوهابي ، وبدأوا يعدون العدة لذلك على نطاق شامل . فأرسلت القوات التركية لتقوية الحشود في سوريا ومصر ، ومن ثم ارسلت كميات هائلة من الذخائر الحربية ، بينها المدافع والرشاشات وما شابهها ، الى محمد علي باشا الذي عُيّن قائداً عاماً للحملة .

ثم سارت قوة عن طريق البحر ، فلم تصادف اية صعوبة في الاستيلاء على ميناء ينبع ، بينما انتقل الجيش الرئيسي تحت قيادة احمد طوسون باشا ابن محمد علي باشا ، بحراً وبراً . وكان جيشه يتألف من اربعة عشر الفاً من الاتراك والمغاربة. فهرب امير ينبع الى المدينة المنورة بينما أرسل سعود رسله الى جميع انحاء البلاد يدعون الى التعبئة العامة لمقاومة الغزو . وكان الجيش الوهابي تحت امرة عبدالله بن سعود الذي يظهر لاول مرة في تاريخ الجزيرة العربية . واتخذ عبدالله مواقعه في

خيف،في اضيق جزء من وادي الصفرا في منتصف الطريق بين المدينة والساحل ، وظل هناك ينتظر قدوم العدو . ويقدر عدد قواته بثمانية عشر الف مقاتل منهم ثمانمائة من الفرسان . وأرسلت فرقة من هـذا الجيش تتألف من قبائل الوشم وحرب تحت امرة زعيم قبيلة حرب ـ مسعود بن مضيّان ـ الى مكان آخر ، كفرقة احتياطية في حال اقتراب العدو من تلك الناحية .

ويبدو ان الاتراك سلكوا طريق الوادي الرئيسي من واجـهة حمرة بموازاة طريق القوافل من ينبع . فوجه عبدالله فرقه المتقدمـة لتهاجمهم ، فدحروها . وحشد العدو جيوشه للهجوم على قوات عبدالله الرئيسية . فأرسل عبدالله فرسانه، تحت قيادة اخيه فيصل وزعيم مطير حبّاب بن قحيصان Habbab ,Quhaisan للاشتباك مع الاتراك . وقد خسر الطرفان خسائر فادحة في المعركة ، اما العناصر البدوية في الجانب الوهابي فاقترفت عملاً يستحق كل لوم ، اذ انها تقهقرت امام العدو تاركة فرق المجندين الاخرى مكشوفة في المواقع التي تركزت فيها .

واستمر القتال على هذا المنوال طوال ثلاثة ايام ، ودفع عبدالله بقوته الرئيسية لمهاجمة العدو ، فزاد ضغط هـذه القوات التي اشتركت في الهجوم على العـدو وزعزعته من مراكزه . فاندحر الاتراك والمراكشيون وفروا تاركين للمنتصرين جميع معداتهم ، ومن بينهـا سبعة مدافع . وطاردتهم قوات عبدالله على طول الطريق حتى وصل من نجا منهم ساحل البريكه ولجأوا الى السفن الراسية هناك .

وتقدر خسائر الاتراك بأربعه آلاف قتيل ، اما قتلى الوهابيين فقـد بلغوا الثمانمائة . وكان منهم مقرن بن حسن بن مشاري بن سعود ، وهو من امراء العائلة المالكة ، وعـدد آخر من القادة البارزين ، منهم هادي بن قرملة المشهور وهو من قبيلة قحطان . وقـد وقعت معركة خيف في القسم الاول من شهر كانون الاول سنة ١٨١١ ،وكان الوهابيون هم اول من سفك الدماء في معركة اصبحت حديث السنوات السبع التالية بأهوالها وشدة غاراتها .

وفي حين لجأ الاتراك الى ميناء ينبع ليضمدوا جراحهم،قاد عبدالله جيشه عن طريق الحج ، ماراً ببدر ، المكان الذي انتصر فيه النبي انتصاره العظيم على قريش قبل اثني عشر قرناً . واتجه الى مكة حيث حظي بمقابلة والده اثناء تأديته فريضة الحج للمرة الثامنة ، وكرّس ثمار نصره الى الله رب الجهاد .

وقد رافق سعوداً في حجه هذا عـــدد كبير من المحاربين يضاهي عدد قوات ابنه في الميدان . وبعد القيام بجميع المراسم المطلوبة في مثل هذه المناسبة ، صرف قسماً من هذه القوات ، اما القسم الآخر فتمركز في منطقة المدينة المنورة لمواجهة احتمال اي هجوم تقوم به قوات العدو التي كانت لا تزال على الساحل . اما غالب فلم يحمله وجود منقــذيه الاقوياء على الانضمام اليهم ، او اظهار اي نقص في الاحترام او الود القلبي القائم بينه وبين سعود لعدة سنوات خلت . واحتُفــل بالحج الذي لم يؤمه ايــة عناصر اجنبيــة ، بالابهة المعتادة وبدون اي حادث مكدر يذكر .

ويبدو ان عبدالله رافق والده في عودته الى الدرعية فوصلاها في نهايــة شهر كانون الثاني سنة ١٨١٢ .

وفي هذه الاثناء كان محمد علي باشا يفكر تفكيراً جدياً في تغيير الوضع الذي نتج عن هزيمة ابنه طوسون في خيف . فتدفقت الامدادات الى ينبع تحت امرة ضابط يسمى احمد بن نابارت(بونابرت!) وبُذلت جميع المساعي والجهود لضمان انضمام القبائل المحلية . فانضمت اليهم مناطق جهينة ، وينبع ، والقسم الجبلي من حرب . فاحتلت واحة « ينبع النخـــل » الداخلية . ولم يكن في وادي الصفرا اي جيش يدافع عنه فسار العدو الى المدينة المنورة حيث وصل اليها واحتلها في منتصف شهر تشرين الاول .

ويبدو ان الحامية الوهابيه المؤلفــة من سبعة آلاف جندي ، كانت في حالة

ضعف وخور بسبب الامراض المختلفة . وبعد قصف قليل بالمدفعية ،فتح السكان ابواب المدينـــة للعدو ، الذي اكره بعض الحاميـــات في الحصون المختلفة على الاستسلام ، بعد ان أظهرت عزماً على المقاومة والصمود . وفي منتصف شهر تشرين الثاني سقطت المدينـــة في ايدي الاتراك مرة اخرى . ولم يبدِ سعود اي عزم على انقاذها من مثل هذه الكارثة . . كان الاتراك يسيطرون سيطرةً شديدةً تامةً على الحجـــاز الى الشمال من الخط الذي يصل ينبع بالمدينة . وكان هـــذا الوضع من وجهة النظر الوهابيـــة ، وضعاً خطيراً . فكان جل اهتمام سعود الآن ان يرسم خطة للحج الى مكة للمرة التاسعة والاخيرة . ومن قبيل الاستعداد لهذا الامر ارسل سعود ابنه عبدالله بقوة مهمة لاختبار تحصينات منطقة مكة . فامضى عبدالله بعض الوقت معسكراً في وادي فاطمة دون نشاط ، قبـــل ان ينضم الى والده لدى وصوله الى ضواحي المدينة لاقامة الاحتفالات المعتادة . وفي بدايـــة شهر كانون الثاني سنة ١٨١٣ ، بدأ سعود سيره عائداً الى الدرعية ، الا انه ترك وراءه قسماً كبيراً من جيشه الذي رافقه ، لحماية المدينة ، وأصدر تعليماته الى عبدالله بأن ينصب خيامه في وادي المرّ (القسم الاوسط من وادي فاطمة) قاطعاً بذلك الطريق الرئيسيه الى المدينة المنورة. ومع ان غالباً أبدى كل ود واخلاص في هذه المرة الا ان سعوداً جعله يجـــدد القسم بكل المقدسات ، على الولاء والاخلاص وعدم الخيانة .. لقد كان يشك فيه . وكانت آخر هدية قدمهـــا سعود لبيت الله كسوةً جديدة من الحرير الاسود .

وبعد سفر سعود بمدة وجيزة قامت القوات التركية الموجودة في المدينة وينبع بالزحف على مكة ، وما كادت اخبار هذه الاحداث تصل الى مسامع غالب ، حتى غيّر لهجته ، وكان فيما يبدو ، يتحدث بشكل أفزع عبدالله .

ومع هذا ، ارسل عبدالله الى الحاميات التي تركها في مكة ، يطلب منهـــا الانضمام الى جيشه الرئيسي ، ثم سار الى الممرات التي تصل جبال الحجاز بهضبة نجد ، من حيث زحف الى عُبيلة ، عند سفوح تلال الطايف . ومن ثم أوفـــد

عثمان المضيّفي الى قاعـــدته في الطايف وأصدر اليه التعليمات بوجوب فحص تحصيناتها والدفاع عنها مهما عز الثمن . وعاد عبدالله نفسه الى خرمة .

وجاء على لسان ابن بشر قوله : « لقد سادت الفوضى والقلاقـــل صفوف المسلمين بإذن من الله، وذلك بسبب خطاياهم وذنوبهم التي كان عليهم ان يتضرعوا اليه كي يغفرها لهم » .

كان عثمان يخشى انتقام طوسون ، فما ان وصل الى الطايف حتى جمع نساءه وخيوله وفر لينضم الى عبدالله . وكان ذلك في السادس والعشرين من شهر كانون الثاني سنة ١٨١٣ .

وصدف ان حدث كسوف شمسي بعد اسبوع، فكان هذا نذيراً بزوال الحكم الوهابي في الديار المقدسة .

*

دخلت قوات طوسون مكة بلا مقاومة واستقبله غالب بالحفاوة والترحاب . وبعد ذلك ببضعة ايام ، احتل الطايف ، فسارع سكان المرتفعات جميعهم لتأدية فروض الولاء والخضوع للحكم الجديد ، فيما عدا الواحات الغربية التي ظلت على ولائها لسعود . وكذلك الواحات الجنوبية وعسير تهامة، فقد بقيت هي الاخرى موالية للحكم الوهابي .

كان مركز سعود الآن حرجاً ، فقد ادرك انه يحتاج الى جيش قوي جـــداً يتمكن من الوقوف في وجه التحدي التركي من جهة ويقلب ميزان القوى مـــن جهة اخرى . وكان الهم ينهش صدره حسرة على ضياع الحجاز من يده . فسار بنفسه على رأس جيش ، جمعه من مختلف المناطق والمقاطعات في نجد ، سواء منها البدوية والحضرية ، ومضى به الى الحنكيّة . وهي واحة عظيمة الاهمية تقع على الطريق الرئيسي من المدينة المنورة الى القصيم. وكان الاتراك بقيادة عثمان كاشف ، لا يزالون يحتلون حصنها ، بينما كانت الآبار في يد انصارهم مـــن قبيلة حرب .

لكن ما كاد هؤلاء يبصرون الوهابيين حتى ولوا الادبار ، ولجأوا الى الحرّة الممتدة حتى المدينة المنورة، مخلّفين وراءهم خيامهم وامتعتهم غنيمة باردةللعدو.

وحينئذ كان على سعود ان ينتهز الفرصة السانحة ، فبادر الى محاصرة الجيش المتمركز في الحصن ، الا ان الحاميه طلبت الصلح بعد قتال بسيط. فمكنهم سعود من الخروج بشرط الا يذهبوا الى المدينة المنورة بل الى العراق . فساروا الى العراق في حراسة امير جبل شمر ورجاله .

ثم زحف سعود بعد ذلك على المدينة المنورة نفسها ، ناهباً في طريقه اليها تجمعات بدوية متعددة .والتقى بعدها بثلّة من خيالة الاتراك وهجانتهم فهاجمهم وهزمهم ثم طاردهم حتى لجأوا الى المدينة واحتموا باسوارها . فدار حول المدينة حتى وصل الى وادي الحسّي ،من هناك هبط الى وادي الصفرا ، ناهباً السكان في طريقه . ثم استدار جنوباً واتجه الى الجبال والمنطقة البركانية حتى وصل الى السُوَيركية Suwairikiya فاستسلم السكان الا انه اشترط عليهم ان يدفعوا اليه نصف محصولهم من التمور المعد للخزين في شهر آب . وبعدها اهلك كثيراً من أشجارهم ودمر معظم المنازل . وتوقف هناك بعض الوقت لتوزيع الاسلاب والغنائم على جنده ، وانتظارِ ما قد يحدث من تطورات .

في هذا الوقت بالذات اوفد طوسون مصطفى باشا يطلب اليه توجيه حملة على تُرابة . فتعرضت الحامية الوهابية لحصار دام بضعة ايام قبل ان تصلها الامدادات من بيشة والواحات الاخرى . وفيما كان هؤلاء مشتبكين مع الاتراك ، قامت قوة احتياطية كانت مختبئة ، والتفت حول معسكر الاعداء ، واستولت عليه وهزمت حراسه الترك . وعندها انسحب مصطفى باشا الى الطايف،حيث اشتبك مع قوة اخرى جهزها عثمان المضيفي للهجوم على الحاميات الصغيرة ، عند سفوح التلال المحيطة بالمدينة المنورة . فوقع عدد كبير منهم في ايدي العرب. ثم سار هؤلاء الى بصل Basal وهي واحة متوسطة الحجم تقع في

أعالي الوادي تشتمل على منازل عدة محصنة تملكها عشيرة عشفرة .وبعد احتلالها هاجمهم الشريف غالب على رأس جيش تركي نظامي فاحتل الحصون بعد حصار استمر بضعة ايام ، وقتل الكثير من جنود الحاميات .

اما عثمان فتمكن من الفرار ، الا انه وقع اخيراً في أيدي بعض الرعاة من عشيرة أسامة ، فسلموه الى غالب . وما كاد عثمان يقع في يد خصمه القديم حتى بادر هذا الى قتله .

وقد عاد سعود الى الدرعية ، بعد العمليات الحربية قرب المدينة المنورة والسويركية ليجد امامه طائفة من القلاقل الخطيرة التي وقعت في منطقة عمان . فأرسل مطلق المطيري اليها مرة اخرى على رأس جيش وهابي ، هاجم به جعلان بعيداً الى الجنوب من البريمي وعاد يحمل الاسلاب والغنائم . غير ان القبائل عادت فنظمت قواتها لمطاردته واضطرته ان يخوض معركة ضارية معها. فدارت الدائرة على مطلق وقتل .

وقبل ان يبادر سعود الى وضع الترتيبات اللازمة للقضاء على الاضطراب ، واجهته في الغرب ازمة جديدة .

كان ذلك في تشرين الاول لسنة ١٨١٣ ، يوم قرر محمد علي باشا ان يترأس محمل الحج ويزور مكة بنفسه. فدخل مكة بالابهة والفخامة اللازمة لمثل هذه المناسبة الفذة في التاريخ ثم استولى على جميع الحصون ووضع فيها وفي المراكز القوية الاخرى ، حاميات من جنده. ووقف غالب امام هذا الرجل العظيم بكل ذلة مقدماً فروض الطاعة والولاء بالاضافة الى الهدايا الثمينة. فاستقبله محمد علي بالتجلة والاكرام وقدم اليه بعض الهدايا شاكراً له خدماته الجلى. الا انه عاد فالقى القبض على غالب ، احتياطاً منه للطوارىء وحفظاً للامن والنظام . ثم طرد عائلته من قلعة اجياد المشرفة على الحرم الشريف وسجن ولديه وصادر امواله الطائلة . كما عين مكانه اخاه سرور بن يحيى بن سرور اميراً على مكة . وفي الوقت ذاته نقل

غالباً وولديـــه ، عبدّ الله وحسين ، الى مصر تحت الحراسة المشددة . واصدر السلطان بعدئذ امراً يقضي بنقلهم الى سالونيك،حيث مكثوا في معتقلهم مكرمين معززين ، يُقدّم اليهم ما يحتاجون اليه ، ويتقاضون مرّتبات كافية مع اعادة ما صودر مـــن املاكهم. وكُتب على غالب ان يقضي بقية عمره هناك حيث توفي بمرض الطاعون سنة ١٨١٦ .

وبعد ان اعد محمد علي العدةّ لفرض سيطرته على الحجاز ، بدأ يبحث عـــن الوسائل التي تكفل له توسيع فتوحاته حتى تبلغ نجداً . ففر الكثيرون من اشراف مكة الى الجبال لئلا يصيبهم رشاش غضب الباشا ورذاذ شهواته. غير ان محمدعلي اختار «الشريف راجح» الخبير في شؤون الصحراء ليحمل العرب على الانضمام اليه ملوّحاً له بامارة مكة بـــدلاً من شقيق غالب. وكان راجح راغباً عن خدمة الاتراك ، ففرّ في ذات يوم وانضم الى الوهابيين في ترابة.

وتبعه الشريف يحيى بن سرور ففر هو الاخر وانضم في غفلة من مراقبيه الى العناصر الوهابية في عسير تهامة . فارسل محمد علي ابنه طوسون باشا الى ترابة على رأس قوة تركية تبتغي تصفية الحساب مع الحامية الوهابيةو كانت هناك هذه. قد وصلتها الامدادات من سعود. وبعد ايام من بدء المناوشات الغير المجدية، وقصف المواقع المحصنة ، انسحب طوسون من الواحة . وانتهت بذلك السنة التي تميزت بشيء من الركود الذي لم يكن ليستمر طويلاً . والجديرُ بالذكر ان هـــذه السنة المؤسية من تاريخ الاسلام، والاخيرة من حـكم سعود ، كانت سنة ١٨١٣ حسب التقويم المسيحي. وكانت بدايتها في الرابع من كانون الثاني ونهايتهـــا في الثالث والعشرين من كانون الاول .

وتميزت الشهور الاولى من سنة ١٨١٤ بالعمليات الحربيـــة التي وقعت في الحنكية . ولكن اسراب الجراد التي غزت نجداً اضطرت السكان الى الاهتمام بهذا الخطر الداهم اكثر مـــن اهتمامهم بمـــا يهددهم به الاتراك من غزوات محتملة في

المستقبل،غزوات ظلت طوال ايام سعود الاخيرة كالسحابة المظلمة في حياةرجل لم يعرف للسلام والهدوء طعماً زهاءنصف قرن من عمره الذي كرسه لخدمة القضية الوهابية .

ولحق سعود باجداده.. ودُفن في مدافن العائلة في الاول من ايار سنة ١٨١٤ تاركاً لولده عبد الله مهمة الدفاع عن الدولة والقضية . هذه الدولة التي عمـــل في سبيل امتدادها ونشر اعلامها اكثر من اي رجل اخر من افراد تلك الاسرة التي انشأتها وحلمت بامتدادها .فقد كان سعود مسلماً عظيماً ووهابياً فذا ومحارباً قديراً وملكاً عزيز الجانب كما يجب ان يكون الملوك حسب معتقدات اهل زمانه والاعراف الشائعة بينهم .وما أعظم مـــا حققه باصراره ومقدرته على التنظيم ، وخططه الحربيـــة البارغة ، وبعد نظره ، وتمرسه في السياسة .



الفصل الخامس

عبدالله الاول ابن سعود



في بداية عام ١٨١٤ ، وبعد فشل حملة احمد طوسون في اخضاع واحة ترابة ، خلال اشهر الشتاء، باشر محمد علي باشا بنفسه العمليات الحربية ،لاقرار الاوضاع في الحجاز وغيره من اقاليم ساحل البحر الاحمر . فاحتلت الامدادات المرسلة من مصر ، ميناء قنفذة ، جنوب جدة . غير ان تامي بن شعيب ، زعيم قبيلة عسيري ، هاجم معسكر المصريين . ففر من تمكن منهم من النجاة الى القوارب وحملتهم الى جدة ، تاركين وراءهم عتادهم غنيمة باردة للاعراب . وفي الوقت نفسه تمركز احمد طوسون في الطائف ليرقب الصحراء الواقعة بينها وبين ترابة، لأن الشريف الساخط « راجح » انضم الى الوهابيين ترفعاً عن أن يتملق المصري نائب السلطان ، الذي أخذ يغري القبائل العربية بالتخلي عن قضية عدوه . وفعل مثل ذلك الشريف يحيى بن سرور وتظاهر بقيادة حملة على القبائل المعادية للمصريين ، غير انه فر الى عسير تهامة كارهاً لبلاده ان تخضع لطوسون .

قوبل الهجوم المشترك الذي شنته قوات قصيم وحايل بمقاومة ناجحة ابدتها عناصر من عشيرة حرب،مشايعة للمصريين.وذلك بعد الفشل الذي وقع في ترابة. ولكن في السنة نفسها ، اندحرت هذه القبيلة بالذات امام عبدالله ابن الامام البكر

في منطقة الحرة حول سُفَيْنة وكانت هذه الغزوة من الغزوات المعتادة . وكان الوهابيون يقصدون من ورائها تحذير البدو من مغبة تعاونهم مع الأعـداء . ولم يمكث عبدالله طويلاً في تخوم البلاد التي يحتلها العدو ، اذ تلقى خبر وفاة والده عند وصوله الى آبار خانوقة ، قرب الدوادمي ، وهو في طريقه الى بلاده . فآل اليه بذلك عبء حماية بلاد أجداده ضد عدوه العنيد ، في فترة من الحكم قدّر لها ان تكون قصيرة ، ومليئة بالضيق والشدة . ويبدو انه كان مصمماً ألا يترك زمام المبادرة في يد اعدائه . وقبل ان يعود الى الدرعية ليتقبل فروض الطاعـة لدى تسلمه العرش ، فصل غصّاب ، زعيم عتيبة من قيادة الحملة ، وارسله ليتـولى القيادة العامة على كل التشكيلات العسكرية العاملة حول ترابة . وكانت هذه قد اصبحت الآن النقطة الهامة الرئيسية في الدفاع عن الدولة . وفي ايلول من ذلك العام ظهر عبدالله نفسه في الميدان على رأس جيش كبير من قوات نجد . وبعد ان جعل مركزه الرئيسي في رسّ ، غزا قطاعات مختلفة من قبائـل مطير ، وهي قبيلة اخرى اظهرت تحيزاً نحو النفوذ المصري . وفي تشرين الثاني سار مرة اخرى الى الحجاز ليهاجم قبيلة حرب في حرّة جبل غراب . ومن هناك غاد الى القصيم حيث اقام مدة ، عاد بعدها الي الدرعية في سنة ١٨١٥ . وفي هذه الأثناء ارسل اخاه فيصل ، على رأس جيشه الرئيسي ، ليتولى القيادة في ترابة ويدير العمليات على الحدود . وهناك انضم اليه تامي بن شُعيب بامدادات قوية يُقدر عـددها بعشرين الف من جبال الحجاز وتهامة . وزحف هذا الجيش المشترك البالغ عدده الثلاثين الفاً الى بصل ، عن طريق آبار غُزَيْل في وادي ترابة ، فوجد قوات كبيرة من المصريين بينها وبين الطائف ، فهاجمها . وكان النصر حليف الوهابيين . ولكن الامدادات وصلت الى العدو في صباح اليوم التالي ، فدارت الدائرة على العرب وهزموا شر هزيمة وتفرقوا شذر مذر . إلا ان جيش فيصل احتفظ بمواقعه ثم تراجع بنظام الى ترابة (دون ان يطارده العدو) ، حيث قرر ان يستعد لجولة اخرى . اما تامي وقواته البدوية فقد اختفت في الصحراء . وعندما وصلت الى

فيصل اخبار الزحف المصري ، أخلى ترابة وسار جنوباً الى رنية ، حيث صرف حلفاءه المحليين قبل عودته الى نجد .

وفي هذه الاثناء كان علي باشا قد تسلم القيادة بنفسه (اما قبل معركة بصَل Basal او بعدها) فاحتل ترابة وزحف على بيشة وطباله ، فقضى على مقاومته ، ونظم شئون الدولة. اما الشريف راجح الذي انحاز الآن الى حظيرة الجيش الظافر فأرسل الى رنية لاحتلالها وتدميرها بسبب مناصرتها القضية الوهابية سابقاً .

واستمر محمد علي في تقدمه فاحتل خميس ومشيط وواحات وادي شهران، كما استسلمت له قبيلة الرقيدة احدى عشائر الشهران . اما تامي وقبيلته الجبلية فقد تحدوا الغزاة الذين شقوا طريقهم عبر الجبال. وكانت قرية طلحة التي تسد الطريق الى ممر الشعار، على الطريق من «أبها» الى قنفذة، مزودة بحامية قوية مجهزة للمقاومة تحت امرة رجل يدعى « حوان؟ ». اما تامي نفسه فعاد الى مرتفعات بني مغيد ليدير حرب العصابات . ولم يجد محمد علي كبير عناء في القضاء على طلحة ، فدمر تحصيناتها قبل ان يهبط الى الممر . ومن هناك تقدم عن طريق وادي «تيه» الى محيل وقنفذة . وفي هذه الاثناء غادر تامي الجبال متوجهاً الى حصن تهامة في المصليّة ، ومن هناك غرر به بعض اصدقائه الذين اضمروا له الخيانة ، بان يذهب الى سبيه Sabya . فالقوا القبض عليه وارسلوه الى محمد علي الذي ارسله بدوره من القنفذة الى مصر حيث شنق .

وسمع محمد علي باشا وهو في قنفذه بحدوث اضطرابات في مصر بين مماليك الغز وحكومته ، فقرر العودة الى مصر ، تاركاً امر العمليات العسكرية الاخرى لابنه طوسون . وكان آنئذ في المدينة المنورة ، يقوم بالاستعدادات لحملة على نجد . وجرت اتصالات بينه وبين العناصر الساخطة في رس والخبْرة Khabra شجّعته على العمل بدون اي تأخير. فامر القوة (النازلة) المعسكرة في الحنكية ان ترحف على القصيم . فاحتلت القريتين بدون اية مقاومة، بينما اخضعت الحصون في القرى

الصغيرة المجاورة ، فيما عدا المدن والقرى الواقعة في المناطق الوسطى والشرقية من القصيم . اذ ظلت هذه موالية للحكومة الوهابية وتحارب المصريين حرباً غير نظامية ، الى ان سارع عبد الله لانقاذهم بجيشه الذي جمعه من جميع انحاء نجد .

وفي منتصف نيسان من سنة ١٨١٥ غادر عبد الله الدرعية للتطواف في المذنب، ومن هناك تقدم نحو الرويضة القريبة من رس . اما المصريون فاكتفوا باطلاق مدافعهم من بعيد بينما هاجم عبدالله حشداً من قبائل حرب ومطير قيل بانهم كانوا يحتشدون في الغرب من آبار بصيري. وفي الطريق سمع بأن طوسون نفسه قد وصل بقوة كبيرة الى داث Dath في طريقه الى رس فاستدار في الحال الى تلك الجهة مؤملاً ان يفاجىء العدو على الآبار ، ولكن طوسون كان قد توقع هذا الهجوم فاستمر في زحفه نحو رس . فارسل عبد الله ، فرقة القصيم لتصد اي تقدم للعدو في ذلك الاتجاه . بينما رجع هو الى خطته الاولى في مهاجمة القبائل في بصيري . وبعد ان اخضعهم وهزمهم ، وردته اخبار جديدة تقول ان طابورا تركياً مع المصريين قد وصل بئر البعجة وحصنها في المنطقه المجاورة . فسار نحوهم. وقد التجأت القوة المؤلفة من مائة وعشرين رجلاً الى الحصن فاقتحمها عبدالله عنوة وقتل جميع افراد الحامية عن بكرة ابيهم. ثم عاد عبد الله الى قاعدته في المذنب، بينما ارسل طوسون ، المتمركز جيداً في رس والخبره قوة امامية الى الشبيبية قرب عنيزة، من اجل احتلال عنيزة في الوقت الملائم، وجعلها مقره الرئيسي. الا ان عبد الله هو الذي وصلها اولاً واتخذ منها قاعدة للغارات المتكررة على المصريين وحلفائهم من البدو الذين اصبح مركزهم العام في وسط اراضي العدو حرجاً. بينما سارعت بعض العناصر من رس نفسها الى احتلال حصون شنانة لمصلحة عبد الله بعد ان ندموا على تسرعهم في خضوعهم لطوسون . اما مركز الشبيبية الطليعي فسحب، وانتقل عبد الله من عنيزة الى ابار الحجناوي حيث امضى قرابة الشهرين ضاغطاً باستمرار على مواقع طوسون .

وقد عقبت ذلك حدوث تطورات جديدة على الموقف . وهي اما ان تكون

ناشئة عن وضع طوسون الخطر في وسط الصحراء ، أو ضغط الاحداث في مصر او سوء حالته الصحية، فقد ثبت ان ضابطاً بصحبة دليلين من حرب ومطير هوجم وهو في طريقه الى طوسون وُنقِل على يد آسرية الوهابيين الى معسكر عبد الله. فقُتل الدليلان في الحال بدون سؤال او جواب . اما الضابط التركي فنقل الى عبد الله المعلومات التالية : وهو انه يحمل رسالة الى طوسون من والده، يأمره فيها بعقد الصلح والعودة الى مصر . وبعد معاملة كريمة أُرسل الضابط الى طوسون . فتوصل القائدان المتحاربان الى اتفاقية تنص: (١) على انهاء الاعمال العدوانية (٢) انهاء التدخل التركي في شؤن نجد (٣) اطلاق حرية التجارة بين الجزيرة العربية وجاراتها ، وتأمين الحج لجميع الاطراف المعنيّة .

وهكذا غادرت القوات المصرية رس ّالى المدينة المنورة في منتصف شهر تموز سنة ١٨١٥ . ورافق طوسون ممثلان ساميان سعوديان يحملان رسالة من عبد الله الى محمد علي باشا الذي ابرم بدوره اتفاقية الهدنة وايدها. ولم يعش طوسون طويلا بعد الفشل الذي لحق به في الجزيرة العربية ، اذ توفي في مصر في اواخر ايلول سنة ١٨١٧ .وقبل ذلك بشهر واحد توفي في سالونيك الشريف غالب بن مساعد الذي كان محمد علي قد نفاه اليها .

ويبدو ان عبد الله قد ادار دفة الحرب ضد طوسون بكل نشاط ومهارة ،فقد سيطر بيد من حديد على قواته الكبيرة بما فيها من عناصر فرارة طيارة. وكان هو الذي ألهم شعب القصيم ان يصمدوا في وجه الاعتداء المصري كما ظهر ذلك في توبة اهل رس ّ المتأخرة لسهولة انقيادهم للعدو . وكونُ محمد علي هو الذي طلب التوقف ، يُعتبر بحد ذاته نصراً معنوياً للوهابيين . تأتي بفضل المقاومة الضارية التي ابداها اهل نجد لمطامع ابراهيم باشا .

اما عبد الله فقد فاز بفترة قصيرة للراحة من الاعمال الحربية، وكان باستطاعته ان ينام هادىء البال فوق اكاليل غاره في الدرعية ولو الى حين. وكان لايشك في

ضرورة تأديب بعض العناصر من السكان الحضر والبدو لعدم ولائهم الذي اظهروه ، والذي اصبح معروفاً لا يصح السكوت عنه .

وانقضت سنة.. ثم قرر ان يحشد قوات كبيرة من كل ناحية في مملكته : من عمان ووادي الدواسر والاحساء وجبل شمر ، وحتى من الجوف في الشمال، علاوة عن الفرق المحلية من اقاليم موطنه والقصيم . ووجه انظاره اولا الى الحبرّة والبكيرية ، فدمر اسوارهما اتقاء اذاهما في المستقبل . ثم سار غرباً نحو حشود من قبائل حرب ومطير فوصل الى آبار العَلَم قرب الحنَكية، ثم اندفع جنوباً الى آبار حرّة الكِشْب ، ليعود الى بلاده عن طريق الدفينة Dafina دون ان يبدر منه اي نشاط. وذلك لأن معظم القبائل انتشرت في الصحراء لتتجنب الاحتكاك به بعد ان دمرت معظم الآبار التي يمكن للغزاة أن يعتمدوا عليها . بينما أُخذ امير رسّ رسّ واثنان آخران من اهلها البارزين رهائن الى الدرعية .

رلقد اوجدت هذه الأفعال تذمراً في القصيم، ومن ثم ارسل بعضُ الاشخاص الساخطين رسائل الى محمد علي الذي كان فيما يبدو ميالاً الى استئناف نشاطه الحربي في الجزيرة العربية . وبما ان طوسون قد مات، فقد وقع اختياره على ابنه ابراهيم ليقود قوات الحملة . فارسل عبد الله رسلاً يحملون هداياه الى نائب السلطان ، ورسائل يطلب اليه فيها تجديد الهدنة او تأييدها . ولكن هذه لم تلق الترحيب الحار الذي كانت تلاقيه سابقاتها في الماضي. وفي هذه الاثناء كانت الاستعدادات لغزو الجزيرة العربية تسير قدماً .

وفي تشرين الاول او الثاني من سنة ١٨١٦ ، وصل ابراهيم باشا الى المدينة المنورة بجيش قوي ، واقام القاعدة الامامية لعملياته في الحنكية ، ليبدأ عملية طي بساط الصحراء البطيئة حتى يصل الى التفاحة الكائنة في وسطه، اي الى الدرعية ، متبعاً التكتيك الحربي الذي شرحه لابيه وجميع مستشاريه العسكريين ، كما جاء في القصة الشائعة في ذلك الزمن. وكان من نتاج غزواته على القبائل البدوية ان تحقق

له انضمام هذه العشائر كحلفاء له في الحملات المزمع شنها في المستقبل القريب . وابرز هؤلاء الحلفاء بالطبع ، قبائل حرب ومطير كما كان الحال في السابق. هذا علاوة عن بعض العناصر من عشائر عتيبة وعنزة (الدهامشة) .

ولقد امتدت غزواته الى الشرق حتى وصلت الى حدود تلال عبانات Abanat. اما عبد الله بن سعود فقد بدأ استعداده لمواجهة هذا التهديد بالغزو . فأمر جيوش الوشم والسدير بالانضمام الى حجيلان بن حمد زعيم القصيم وقوات مقاطعته ، هذه القوات التي تمركزت عند الغُمَيل بين بريدة والخبرة. ويبدو انهم امضوا الاشهر الأربعة هناك وهم لا يفعلون شيئاً . غير ان عبد الله جاء على رأس قوة كبيرة الى رس في شهر آذار سنة ١٨١٧ فدعا اليه حجيلان وجيشه ليوافوه هناك . ثم سار من هناك في وادي ريما الى آبار العلم ، مؤملا أن يلحق بحلفاء ابراهيم باشا من البدو. غير انهم تراجعوا الى الحنكية ، فانسحب عبد الله بدوره الى مسكة ونجخ في انتظار ما قد يطرأ . وطرق سمعه بأن علي عزان Azan مع قوة تركية ترافقها قوة بدوية ، قد توجه الى آبار ماوية Mawiya على بعد مسيرة يومين من الحنكية الى الجنوب الشرقي، فهاجمهم عبد الله في الحال . وباغتهم على الآبار في الصباح الباكر من اليوم الأول في أيار ، وطاردهم حتى اصبحوا في متناول المدافع التركية . وتمركز عبد الله في موقع مقابل لمعسكر العدو غير ان المدافع احدثت كثيراً من الاضرار في صفوفه فتغلب المصريون بذلك على محاولته احتلال الآبار . وظل المصريون يسيطرون على ميدان المعركة وعلى الآبار بينما هرب عبد الله وفرقة من فرسانه عائدين الى نجخ، حيث ترك معداته الثقيلة. ومن هناك سار الى عنزة عن طريق خبره .

اما ابراهيم فلم يضع الوقت بل اخذ يطور نصره ويستفيد منه ، فسار من الحنكية الى ماوية مع جيشه الرئيسي ومعداته كلها. ومن هناك اندفع نحو القصيم فوصل قبالة رس في التاسع من تموز. ووجد السكان غير ميالين هذه المرة الى الاستسلام ، فقد ارسل اليهم عبد الله قوة من الجيش لتقوية دفاعهم . واشتد

حصار رس" ، وكذلك اشتدت المقاومة العنيدة . غير ان الأمور سارت في صالح ابراهيم ، ولم تترك مدافعه ومعدات حصاره راحة للمدافعين لا ليلاً ولانهاراً .. كانت الثغرات والشقوق التي تحدثها المدافع في الاسوار نهاراً يعيد المدافعون اصلاحها ليلاً دون كلل ولا ملل .. وكانت الألغام والقنابل تطلق من الداخل لإبطال مفعول الغام العدو المهاجم من الخارج . وقد استعمل المصريون قنابل يطلقونها من مدافعها فتنفجر وسط التحصينات . وكلما مرت الأيام بلا امل في الخلاص ارسل المحاصرون يستنجدون بعبد الله الذي كان مقيماً في عنيزة، فيتوسلونه ويلحون عليه في طلب المساعدة او السماح لهم بطلب الصلح مع الأعداء. ويبدو ان عبد الله لم يكن بوسعه التدخل بأي شكل . اما الأعداء فكانوا يتلقون الامدادات والذخائر من مصر بلا انقطاع . واصبح وضع المدافعين أبعث على اليأس . وبعد اربعة اشهر من الحصار اضطرتهم الاحوال الى طلب الصلح بشروط سخية في الخامس والعشرين من تشرين الأول سنة ١٨١٧ . وسمح للمدافعين ان يخرجوا بكامل اسلحتهم ومعداتهم لينضموا الى عبد الله في عنيزة . اما خسائرهم فبلغت ٧٠ قتيلاً بينما يقدر ابن بشر عدد قتلى المصريين بستمائة قتيل.

وامضى عبد الله اعياد الحج في عنيزة ليلة سقوط رس" وكان منهمكاً في وضع الترتيبات للدفاع عن المدينة وحصونها ضد هجوم ابراهيم المتوقّع . فارسل حامية الى حصن صفا المهم ، تحت امرة ابن عمه محمد بن حسن بن مشاري بن سعود . وزودها بكل ما يلزمها من ذخيرة لحصار طويل الأمد ، بينما ارسل حاميات الى حصون المدينة والى المدينة نفسها بقيادة ابراهيم شقيق محمد . ثم سار عبد الله الى بُريدة ليرقب التطورات من هناك .

ويبدو انه قرر ان يرهق القوات المصرية وينهكها بعمليات الحصار المتعبة والباهظة التكاليف بدلا من ان يواجههم في ميدان المعركة ، متبعاً اساليب حروب العصابات التقليدية المعروفة في الصحراء . اما ابراهيم باشا فاسرع الى عنيزة واحتلها . وقد اظهر حصن صفا العزم على المقاومة ، غير ان قذيفة انفجرت

في مخزن كحل البارود في الحصن فاحدث الانفجار فجوة كبــيرة في الاسوار . وكان سقوط عنيزة نفسها والحالة اليائسة في وسائل دفاع حصنها ، ما اجبر محمداً السعودي على طلب الصلح . ومرة اخرى وافق ابراهيم على عقــد الصلح ، وبشروط جد سخية ،فسمح للحامية بأن تغادر المدينة بكامل اسلحتها .

وهكذا ضاعت القصيم .

لذا سار عبدالله الى الدرعية للاسراع في تنظيم الدفاع عنها ضــد العاصفة القادمة . وتوقف في الشقرا ، مشجعاً سكانها على ان يبدوا مقاومــة ضارية بكل ما لديهم من قوة . وكان حمد بن يحيى بن غيهب امير المدينة قد اخذ فعلاً يدفع السكان الى حفر خندق يحمي المدينة . وكان قد بُدىء في حفره قبــل ذلك بسنتين الا انه أهمل فلم ينته العمل فيه بسبب عقد الهدنة آنذاك . وزود عبدالله المدافعين بذخائر كافية لحصار طويل الأمد جمعت اثمانها من العائلات الغنية. اما أشجار النخيل التي كانت على اطراف الخندق فقد جردت من اغصانها وسعفها لئلا تحترق من جراء اطلاق النيران .

وبعد ان وضع ابراهيم باشا الترتيبات الضرورية لتأمين سلامة عنيزة ، تقدم صوب بريدة حيث استسلم الامير حجيلان مع المواطنين دون مقاومــة . وهكذا سقطت جميع القصيم في يد ابراهيم خلال اسبوعين او ثلاثة بعــد انهيار مقاومة رس الباسلة . وأخذ ابراهيم باشا يتقدم الى الجنوب بحرّية . وبعد ان اخذ معه ابن حجيلان وشخصين آخرين بارزين من أهل بريدة كرهائن حسب عادتــه ، زحف على المذنب وعُشيّقير والفرّعــة على التوالي . فاستسلمت كلها لدى ظهوره على ابوابها . وقد اتخذ من عشيّقير قاعدة له،ثم تقدم في الرابع والعشرين من كانون الثاني سنة ١٨١٨ للاستيلاء على الشقرا وما جاورها ، وليضع خطة الهجوم على المدينة التي يعرف جيــداً انها ستبدي مقاومــة ضارية وراء تحصيناتها القوية .

وفي اليوم الثاني بدأ ابراهيم الهجوم من مواقعه في الشمال والشرق من الواحة

حيث جرى قتال ضار بين اشجار النخيل .وتكبد الاتراك فيه اصابات فادحة ، فاضطروا الى طلب الامدادات من عشيقير. غير ان المدافعين اندحروا الى داخل المدينةو ُجرح أمبرهم جرحاً بليغاً .

اما ابراهيم باشا فقد بدأ يستخدم تكتيك نسف الاسوار بفضل مدفعيته الثقيلة المنصوبة على رابية مشرفة تتحكم بدفاع المدينة . وكان القصف شديداً حتى سمع هديره في اقليمي السدير والمجمعة القريبين فحسب ، بل في هضبة عرمة ايضاً. أما السكان فتحصنوا وراء أسوارهم الا ان ابراهيم احضر مدافعه الى أمكنة قريبة وقام بقطع عدد هائل من أشجار النخيل المحيطة بالمكان . غير ان المدافعين ردوا على الهجوم بكل ضراوة وشدة ، ومن كل نقطة ملائمة بين الأسوار المهدمة والأبنية المدمرة ، وعلى الأخص في الخندق الذي حماهم من طلقات الرصاص وقنابل المدافع . وقد تجاهلوا يوماً بعد يوم دعوة الباشا لهم للاستسلام بشروط مشرفة . لكن الأمور لم تكن في مصلحتهم على الاطلاق . وفي العاشر من نيسان عرضوا أن يستسلموا .

كان سقوط شقرا يعني وقوع الوشم بأكمله في يد المصريين . فأرسل ابراهيم باشا قوة من جيشه تحت قيادة رشوان آغا لاخضاع السدير والمجمعة ونهبها اذا أبدتا أية مقاومة. أما الحولة والمحمل فقد تجنبتا الهجوم المصري باعلان خضوعهما الى ابراهيم اثناء شهر اقامته في الشقرا ، ذلك الشهر الذي قضاه الباشا منهمكاً في الاشراف على ردم الخنادق وهدم ما تبقى من الأسوار . وأدخل بعض الناس من ذوي المصالح في روعه امكانية الانتقاض عليه بعد رحيله ، ولذا عامل الأمير" الجريح" والمواطنين الآخرين معاملة صارمة، الى ان ثبت لديه ان هذه الافتراضات لا أساس لها من الصحة . ومع هذا ، اخذ ابراهيم معه عشرة من أهل المدينة كرهائن عندما غادر الشقرا سائراً الى ضرمى،(ضرمه).

كان عبدالله قد توقع هذه الحركة.. فأرسل امدادات من عنده الى ضرمى

لتعزيز وسائل دفاعها ، بقيادة ابن عمه سعود بن عبدالله بن محمد بن سعود، وقادة آخرين (بن عفيصان ومحمد العميري) . وفي العشرين من شباط ، وصل ابراهيم الى مشارف المدينة فوجدها مسلحة على أهبة الاستعداد لمقاومة هجومه . فاتخذ مواقع له في واحة المزاحمية على بعد بضعة أميال من المدينة . وجلب مدافعه وآلات حصاره لقصف أسوار المدينة حسب خطته الحربية الجديدة . وبعد ان تضعضعت وسائل الدفاع ، قام بالهجوم على المدينة محاولاً اقتحامها عنوةً ، غير ان صمود مدافعيها رده على أعقابه ، وتراجع جنوده بلا نظام بعد ان تكبدوا ستمائة قتيل .

اما رجال ضرمي فأخذوا يصلحون ما أصاب بعض الاسوار من خلل . ولاحظ ابراهيم ذلك فقرر ان ينقل مدافعه الى ناحية اخرى ، الى حيث كانت قوات الخرج يقودها متعب بن عفيصان . فصمدوا بالرغم من قصف المدفعية الشديد . وفي هذه الآونة سمع رجل يصيح بين صفوف المدافعين قائلاً ان الاتراك قد اصبحوا وراءهم وان أبواب المدينة أصبحت مفتوحة أمامهم . فتوقفوا عن القتال وتقهقروا بينما أخذت قوات العدو تطاردهم داخلةً المدينة من كل جهة . وزاد الطين بلة ان نزلت الامطار في ذلك الحين ، وكانت موجة البرد شديدة للغاية . وقد استعر القتال في الشوارع دون هوادة ولا رحمة الى ما بعد شروق الشمس ، وعند ذلك شق محمد العميري على راس قوات ثادق ، طريقه وسط صفوف العدو ونجا بمن معه . بينما استمر المصريون ينهبون المدينة ويذبحون من يصادفونه من أهلها في الشوارع . اما سعود بن عبدالله ومعه مائة رجل من الدرعية فقد التجأوا الى احد حصون المدينة ، واستسلموا فيما بعد بشروط مشرفة الى ابراهيم . فسمح لهم بمغادرة المدينة بامان . وساروا الى الدرعية. وأما سكان المدينة فقد هرب معظمهم الى الصحراء . وأخذ ابراهيم يجمع الاسلاب والغنائم ، ثم جمع زهاء ثلاثة آلاف شخص بين امرأة وطفل وأرسلهم تحت الحراسة الى الدرعية ، دون ان يصابوا بأذى أو تساء معاملتهم في الطريق .

وهكذا سقطت ضرمى ، التي تعتبر اقوى مدن نجد بعد الدرعية ، واستولى عليها ابرهيم بعد ثلاثة أو اربعة ايام من بدء الهجوم . وقد هلك في المعارك لا اقل من ٨٠٠ من رجالها البالغ عددهم ١٢٠٠ رجل ، بالاضافة الى عدد آخر من القتلى بين النجدات التي هرعت الى المدينة .

وبعد ان نهب ابراهيم المدينة ودمرها ، انسحب ليعد العدة للمرحلة الأخيرة من عملياته الحربية التي كلفه بها ابوه ، وسار عن طريق ممر الحيسية ووادي حنيفة، ماراً بالعُيينة وجبيلة ، حتى وصل الى مزارع ملْقة على بعد مسيرة ساعة من الدرعية ، وعسكر فيها . ثم أخذ يقوم باستكشاف الوادي حتى عِلْبْ في مدخل الواحة ، برفقة بعض اركان حربه وقليل من المدافع . وسارت خيالته الى المرتفعات في طرفي المدينة . وبعد مناوشات ضارية مع طلائع عبدالله ومواقعه الامامية ، عاد الى مقره كي يعد العدة للمعركة التي كانت ستقع في الحادي عشر من آذار سنة ١٨١٨ .

ومع ان المقاطعات والمدن والقرى النجدية سقطت واحدة تلو الاخرى في يد الأعداء الغزاة ، فقد كان هنالك دائما عناصر ترفض فكرة الخضوع للاجنبي ومسالمته تحت حكم وثني . وتقاطر هؤلاء الي الدرعية. مما أدى الى زيادة سكانها غير ان عبدالله عالج الامر بصورة مرضية .. كانت واحة الدرعية تقع في وادي حنيفة البالغ عرضه ٥٠٠ ياردة . وكان هنالك مزارع نخيل كثيفة في هذا الوادي الذي يمتد مسافة اربعة اميال من الشمال الى الجنوب . وكانت هذه المزارع تمتد على جانبي قناة المسيل حتى تصل الى مرتفعات صخرية يبلغ ارتفاعها مائة قدم . في هذه المزارع نشأت عِزَب صغيرة يقطنها معظم السكان ، وتشرف عليها قلعة طريف السامقة ، جاثمة على بعض الصخور البارزة الى الجانب الايمن . وكان هناك قصور العائلة الملكية السعودية ومساكن حاشيتهم ، بالاضافة الى الجوامع ومظاهر الرفاهية الاخرى التي تزخر بها المدن عادة . وكان هناك خندق عميق يفصل القلعة عن الجناح الأيمن المجاور ، وتنتشر على جانبيه اكواخ

حقيرة ومبانٍ يقطنها اصحاب الحرف من الطبقات الفقيرة من الشعب . امـا خارج هـذه الضاحية، فكان هناك سور تكثر فيه الابراج والحصون الصغيرة، يمتد حول مجرى الوادي من الجهة الشرقية . وكذلك كان هنالك سور آخر اطول من الأول يلتف حول الصخور في الجانب الشرقي او الايسر مـن الوادي ، في قوس ضحلٍ قليلة العمق . اما الدخول الى القسم الرئيسي من الواحة فقد كان كان مقصوراً على طريق قاع الوادي من الشمال والجنوب، بينما كانت القوافل تهبط من الصخور الواقعة في ضفتّيه . واهم طرق القوافـل هذه ، الطريق المؤدي الى الرياض . على هذه الصورة كان الموقـع الذي قدّر له ان يشهد كفـاح الوهابية المرير الأخير من أجل الحياة ضد أعظم دولة اسلامية، ضد الباب العالي.

وفي الحادي عشر من آذار ، سار ابراهيم باشا بكل قواته عبر ذلك الوادي ، خيـالته تنتشر على جانبيه في الصحراء ، ومركز قيادته العليا في علْب . وكان يواجه الباشا في هذا الوادي ، جيش الدرعية الرئيسي المؤلف من سكان المدن والقرى النجدية ، بقيادة أشقاء عبدالله الثلاثة ، ـ فيصل وابراهيم وفهد. ولم يكن لديهم غير ثلاثة مدافع يقابلون بها مدافع العدو القوية . و كان سعد وتركي شقيقاهم يقفان على يمينهم الى الشمال ، على رأس قوات الدرعيـة ، يسدّان بها مدخل شعيب المغيصبة . بينما كان الى القرب منهم قوات منفوحة يقودها زعيمها عبدالله بن مزروع . وبين هذا الخط الدفاعي ومواقع العدو ، كان يقف الحرس الامامي المؤلف من قوات الحريق بقيادة تركي بن عبـد الله الحزّاني ، وعناصر اخرى تسد بوابة سمحان Samhan في الطرف الشمالي مـن القلعة ، حيث تمركز عبدالله نفسه داخل الأسوار ومعه بعض المدافع الثقيلة . وتمركز فهد بن عبدالله ابن عبد العزيز (ابن عمعبدالله الأدنى) في قرى عمران القريبة من نخيل رفيعة ، على رأس قوات من الدرعية والسدير ومعـه بعض المدافع . هـذه هي المواقع التي تشكل الخط الامامي من خطوط الدفاع التي تواجه مواقع العدو . ووراء هذه الخطوط الدفاعية ، وفي الجزء الاسفل مـن الواحة ،كان الشيوخ،

والعناصر التي لا تستطيع القتال ، يقفون في كل برج وحصن للذود عن مواقعهم اذا ما دعت الضرورة الى ذلك . اما سعود بن عبدالله بن عبد العزيز فكان يقف على تلة القُرين مع مدفعيته الثقيلة ، ليصد العدو فيما اذا حاول ابراهيم باشا الالتفاف من الصحراء الواقعة في أسفل الوادي .

وعلى الضفة اليمنى او الغربية من الوادي ، كان يتمركز عبدالله بن عبد العزيز عم عبد الله، وحسن شقيقه الآخر ، بحميان مدخل شعيب الحارقة ، على امتداد الخط الذي تمركز فيه تركي وزيد ، ابناء عبدالله بن محمد ، مع قوات الدرعية الاخرى ، يحميها من جناحها الآخر قوات من العبيد ، بقيادة فرج الله الحربي. وهو عبد معتق لسعود الكبير . وتمركز فهد بن تركي وابن عمه محمد بن حسن بن مشاري الوارد ذكره كقائدلحصنِ الصفا فيعنيزة،ـ تمركزا في أعلىالوادي.ووراء هذه المواقع في الضفة اليمنى كان يقف مشاري شقيق عبـدالله محتلاً الأرض المخصصة لصلاة العيد على المنحدر الواقع وراء الضاحية الغربية المار ذكرها . وقرب هذه المواقع تماماً كان يقف سعود بن عبـدالله على ضفاف شعيب الصفا ليمنع اية محاولة من جانب العدو للتقدم من الخلف الى هذه الجهة . وكان هـذا الامير ، كما أسلفنا ، يسيطر على موقع القُرين الذي يحمي مؤخرة خطوط الضفة اليسرى .

اما ابراهيم باشا فلم يضع الوقت ، بل بادر حـال وصوله عِلْب° الى شن هجوم على خط الوهابيين الامامي ... واستعر أوار المعركة الوحشية عشرة ايام باستمرار ، ولكن دون نتائج حاسمة لأي من الجانبين ، بالرغم من ان معركتين نشبتا وجهاً لوجه ، عند مدخل شعيب المغيصبة والحارقة عـلى طرفي الوادي . وكان الوهابيون هم الذين بدأوا الهجوم . واوقف ابرهيم القتال كي يتخـذ مواقع جديدة يشن منها هجومه على المراكز الدفاعية في اقصى المنطقة الشمالية من وادي غُبيرة . ولاح فجر ذلك اليوم ، وابراهيم ينشط في هجومه العنيف دافعاً بسيل من الامدادات ليشغل الحامية ، بينما اتى بفرقة قوية من الخيالة كان قـد

اخفاها ليلا ، لشن هجوم كاسح من الخلف . وتم الهجوم . . فكان مباغتة للوهابيين اضطرتهم الى التقهقر في فوضى شاملة على طول الوادي ، وخسروا مائة قتيل ، بعضهم من أفراد العائلة المالكة . فقد كان بين القتلى ، فهد بن تركي ومحمد بن حسن بن مشاري وحسين زعيم الحزاني . اما الناجون فلمّوا فلولهم وساروا الى الخط الامامي الذي لم ينجح الاتراك في زعزعته . وكان لهذه الهزيمة المؤسية أثرها السيء في نفوس بعض الذين فتر ولاؤهم للعقيدة الوهابية ، فانسحبوا من جيش عبدالله وحاولوا استرضاء ابراهيم باشا باعطائه معلومات واقعية عن الوضع في المدينة .

وبعد هذا النجاح الذي اصابه ابراهيم في غبيرة ، ارسل فرقة من الفرسان مع عناصر اخرى من المشاة ، سحبها من مواقعه المحصنة في وادي العزّان المسيطر على القوات المتمركزة في الضفة اليمنى ، واصدر اليهم تعلياته بوجوب الهجوم على موقع الوهابيين في حصن سمحة . بينما امر قواته على الضفة اليسرى بان تشن هجوماً شديداً على القوات الامامية للحيلولة دون انسحاب اي من الوحدات المتمركزة هناك وفقاً للغاية الرئيسية من هجومه . ثم فتح مدافعه على الحصن وما يحيط به من مواقع ، فتحولت التحصينات الى خرائب ، مما اضطر عبدالله بن عبد العزيز الى ترك مواقعه علّه يحمي المراكز الخلفية المحصّنه . ومن هذه النقطة شنّ علي عزان هجوماً على الحصن الذي تمركز فيه عمر شقيق عبدالله ، فصمدت قواته وقاومت ببسالة بالرغم من قصف المدفعية الشديد . غير انهم بوغتوا بهجوم من الخلف قامت به القوات التي احتلت حصن سمحة . فانهزم رجال عمر وهربوا في الوادي ، حيث كان ابراهيم يوجه هجومه الرئيسي على الخط الهام الذي تمركز فيه فيصل بن سعود . وقد قاوم فيصل مقاومة ضارية : غير ان علي عزان ارسل فرسانه ومشاته الذين كمنوا في مزارع النخيل عند الفياض ، لشن هجوم عن طريق شعبي الحارقة وغبيرة . فاضطر عمر بن سعود لترك مواقعه . ثم شق المهاجمون طريقهم والتفوا حول مراكز فيصل الرئيسية . فانهزم جيش

عمر بعد معركة ضارية ولاذ بالفرار تاركاً وراءه معظم مدافعه ومعداته . كذلك فرت القوات المتمركزة على جانبي الوادي واصابها الذعر .

ولم تتوقف القوات عن التقهقر ، حتى نجح فيصل واخوه سعد في جمع فلول قواتها عند مزرعة السلماني وتمكنا من دحر العدو المطارد وكبداه خسائر فادحة . الا ان هذه القوات لم تحاول استرجاع المواقع التي فقدتها بل ظلت في المواقع التي وصلتها لتقيم خندقاً آخر محصناً ، يربط المواقع الاخرى المختلفة بخنادق صغيرة انشئت في الأرض التي يتمركز فيها جيش اخوة عبد الله : فيصل وتركي وفهد ، وعمهم عبد الله بن عبد العزيز . والى اليسار من هذا الموقع ، كان يقف ابراهيم بينما تركز سعد بن عبدالله على افريز القلعة بجيش ومدفع ضخم يشرف اشرافاً جيداً على الوادي باكمله ويسيطر على ميدان المعركة . وفي الضفة العليا من شعيب غبيرة كان يقف تركي بن عبد الله بن محمد بن سعود وابنه فيصل الذي يظهر لاول مرة على مسرح سيلعب عليه دوراً رئيسياً مدة تزيد على ثلاثين سنة . وكان عمر وحسن اخوا عبدالله ، والعبد فريج الحربي ، يحتلون منطقة شعيب بليدة .

وبين هذه المواقع وشعيب كتلا كان يقف اخ آخر من اخوة عبدالله يدعى عبد الرحمن ، بينما احتل مشاري بن سعود شقيق عبد الله ، موقع مصلّى العيد . كانت هذه المواقع تواجه مراكز الأعداء فيقوم على حراستها جيش قوي ليلاً ونهاراً . اما المراكز الواقعة في اسفل الوادي فكان يحرسها جيش صغير وُضع ليقوم بواجبه اذا دعت الحاجة ، ولم يكن له شأن يذكر في تطورات المعركة . وتولى عبدالله بن مزروع المنفوحي (من منفوحة) وعبد الله بن ابرهيم بن حسن المشاري الدفاع عن المراكز الواقعة فوق السلماني على الضفة اليسرى ، والمشرفة على مرتفع ناضرة . وكان يقوم على هذا المرتفع حصن صغير من الحجارة يحميه رجل اسمه سديد آل لوح Al Lauh المحملي ، مشكلاً احدى النقاط الهامة في خطوط الدفاع . وبين هذا الموقع ، ومسيل شعيب قُليْقِل كان يقف سعد بن سعود ،

شقيق عبد الله مع قواته . بينما احتل ابراهيم وعلي ولدا دغيثير الشعيب نفسه . وكان عبد الله يقف بين بوابتي سمحان والظهرا قرب بطارية من المدفعية الثقيلة ، مع عدد من الزعماء وعلماء الدين والفقهاء .

دفع ابراهيم مراكزه الى الامام حيث مدخلُ قري قُصَيِر Qiri Qusair قرب المدينة من الجهة الشمالية ، بينما تمركز علي عزان على طول الضفة اليمنى في مواجهة القلعة من الغرب . واشتدد نار المعركة .. واستمرت ليل نهار بنفس الضراوة والشدة . وكثيراً ما كان يجري القتال وجهاً لوجه اثناء توقف قصف المدفعية المستمر . وكان هذا النوع من القتال في مصلحة المدافعين ، الا ان العدو كان متفوقاً في العدد ، وبمقدوره ان يسد الثغرات التي تحدث في صفوفه من جراء خسائره الفادحة . وكانت الامدادات والذخائر تصل اليه بصورة مستمرة من المدينة المنورة . اما الوهابيون فكانت خسائرهم في الرجال والعتاد لاتعوّض ولاتسد.

ودارت المعركة حول عدد من النقاط الدفاعيّة مثل مزرعة السلماني ، وخرائب حصن سمحة ، وشعيب بليدة على ضفة الوادي اليمنى ، وفي شعيب قُلَيْقِل الى اليسار . اما خيالة العدو ، فالتفوا حول منطقة المدينه ليقوموا بشن هجوم على قرية عَرْقَة Arqa على بعد بضعة اميال من الدرعية ، واستولوا عليها فدمروها . وهرب الناجون من سكانها الى العاصمة عن طريق الوادي . وعاد عبدالله فاحتل القرية في موسم التمر لحماية المحصول وجمعه . وشن ابراهيم باشا هجوماً معاكسا على الحامية بمساندة امير الرياض ناصر العَيْضي Al Aidhi وعناصر اخرى من الرياض ومنفوحة والقرى النجدية التي انضمت الى العدو. فاستسلمت حامية القرية على شروط ، وسارت الى الدرعية .

وأصيب ابراهيم باشا بكارثة خطيرة ، اذ انفجر احد مستودعات ذخيرته مدمراً مقادير هائلة من الذخائر وخسائر فادحة في الارواح . هذا علاوة عن

الذعر العام الذي أصاب الجيش بسبب هذه الكارثة . وانتهز الوهابيون هــذه الفرصة السانحة فهاجموا العدو ولكن بدون فائدة تذكر . اما ابراهيم باشا، فأرسل قطعات من جيشه تجوب البلاد طولاً وعرضاً وتجمع كل ما تجده من عتاد ومال ليعوّض الباشا ما فقده . وشرع الاتراك الموجودون في العراق وغيرها ينظمون قوافل لتمويل جيش ابراهيم وتزويده بحاجاته .. وهكــذا كانت قوة العدو في ازدياد ونمو يوماً بعد يوم . اما في الدرعية فكان عدد المرتدين في ازدياد . وحتى غصّاب زعيم عتيبة الذي كان دائماً يعتبر من اقوى انصار العائلة المالكة السعودية تخلى عن الوهابيين وانضم الى الاعداء . ثم قدّم الى ابراهيم باشا معلومات قيمة وأسدى له النصح بشأن الخطط الحربية الدفاعية ومواقع الوهابيين، اذ انه كان قائد فرقة (الفرسان) الخيالة في جيشهم .

وفي نيسان سنة ١٨١٨ أصيبت القضية الوهابية بخسارة فادحة بوفاة فيصل شقيق عبدالله ، برصاصة طائشة اثنــاء جولة تفقدية بين صفوف جيشه . فخلفه اخوه تركي . وهكذا استمر القتال المضني بلا هوادة ولا راحة من الجانبين . وقد جرت معارك دامية في شعيب كتلا وقرى عمران ، كما نشب قتال مرير حول مزارع رفيعة ، حيث شن ابناء دغيثير واتباعهم هجوماً شديداً على مواقع العدو . غير انهم ردوا على اعقابهم بخسائر فادحة ، من بينها رجلان من عائلة دغيثير نفسها . ونشبت معركة اخرى اثر هجوم شنه ابراهيم باشا على حصون الوهابيين ، الا انهم ردوا المصريين على اعقابهم ، وتتبعهم فهد بن عبدالله، غير انه قتل في المعركة التالية التي نشبت حين صمد الاعداء للمطاردين . ثم خرجت قطعات من الدرعية واخذت تضغط على الاتراك ، فدارت رحى المعركة واستعرت من الفجر حتى الظهيرة دون نتيجة حاسمة لأي من الجانبين .

وبدأ المدافعون في هذا الوقت يشعرون بوخزات الجوع . فقد اوشكت مؤونتهم على النفاد وارتفع سعر القمح بشكل لم يُسمع بمثله من قبل ، حتى اخذ الكثيرون يغادرون المدينة. وكان من الواضح ان تيار الاحداث يسير معاكساً لعبدالله وشعبه.

وفي الخامس من تشرين الثاني ، شن ابراهيم باشا هجوماً شديداً مركزاً على حصون المدينة من جميع الجهات . فأرسل قطعة من الجيش مع مدافعها الى طرف الواحة الاسفل للمرة الاولى ، ليرعب الحاميات الضعيفة في تحصينات عبدالله ، بينما تمركزت قوة كبيرة اخرى ، بقيادة علي عزان في الضفة اليمنى ، مهددةً القلعة من الغرب . وشن هجوماً شديداً على الضفة اليسرى ، لاستدراج اكبر عدد ممكن من الحاميات الى تلك الجهة ، بينما وزع علي عزان قواته لتقوم عند الفجر بشن هجوم على مراكز دفاع عبدالرحمن شقيق عبدالله ، فوق بستان نخل المشيرفة . ودخلت قواته البستان عندما وجدت الموقع خالياً ، واحدثت فجوات في سوره الممتد على طول القناة ، وانتظرت دورها للاشتراك في المعركة الدائرة رحاها على كلتا ضفتي الوادي . اما الحاميات فقد كانت منهمكة في التهيؤ لمواجهة الاحداث فلم ينتبهوا لما كان يجري وراءهم الا بعد ان هاجمتهم قوة المشيرفة من الخلف. فانهزموا تاركين حصونهم بعد ان دب الرعب في صفوفهم. وظل العدو يطاردهم حتى تفرقوا وساروا الى منازلهم في القرى المنتشرة في الوادي واغلقوا ابوابها عليهم وتحصنوا وراء الاسوار. اما سعد بن عبدالله فالتجأ الى قلعة طريف ، قلعة جده ، مع عدد من اتباعه البارزين . الا ان ابراهيم باشا شرع يقصفها بمدافعه . وكان عبدالله واتباعه لا يزالون صامدين في مراكزهم بين بوابتي المدينة ، وسكان الوادي يقاتلون ببسالة في معركة يائسة خرجت السيطرة عليها من ايديهم .

وادرك عبدالله ، بعد ان قتل اخوه في المعركة ، انه فقد كل شيء ، فعاد الى منزله في طريف ، تاركاً مدافعه واعتدته الى الاعداء . وأرسل وفداً مؤلفاً من عبدالله بن عبدالعزيز والشيخ علي ابن الشيخ محمد بن عبد الوهاب الكبير، الى ابراهيم باشا للتفاوض في عقد الصلح . فقبل ابراهيم باشا مطلبهم بالنسبة لقرى الوادي ، مستثنياً القلعة ، واشترط ان يخرج عبدالله بنفسه ويستسلم بلا قيد او شرط . فعقدت هدنة منفصلة بينه وبين قرى الوادي بموجب شروط مشرفة في التاسع من ايلول

سنة ١٨١٨ ، بينما اصبحت القلعة المحصورة مسرحاً لأعنف المعارك وأشرسها . اذ قصف ابراهيم باشا منازل العائلة المالكة من بوابة سمحان ، التي اتخذها عبدالله مقراً لقيادته العليا . وجلب عبدالله المدافع من القصر الى الجامع ، استعداداً للجولة الاخيرة مع الاقدار . وانضم اليه اعداد كبيرة من المواطنين الموالين له . واستمر يقاوم العدو الذي يفوقه عدداً ، مقاومة يائسة مدة يومين كاملين ، وبعدها اتخذ قراره بالاستسلام في الحادي عشر من ايلول ، بعد ستة اشهر من القتال الضاري ضد قوات الباب العالي بمواردها الهائلة ، وضد نائب السلطان الوالي الارناؤوطي ، على مصر . ولقد تم عقد الصلح بشرط ان يشخص عبدالله بنفسه الى اسطنبول مع رشوان آغا وعلي دويدار . فوصلها عن طريق مصر وهناك نفذ فيه حكم الموت بأمر من السلطان التركي .

اما حملة ابراهيم باشا على الجزيرة العربية فكلفت الاتراك اثني عشر الف قتيل ، منهم عشرة الاف سقطوا في المعارك التي دارت في الدرعية . وكان هذا النصر الساحق زهيد الثمن ، فقد دُمرت قوات الوهابيين وسحقت تحت اقدام الامبراطورية العثمانية ، وربما الى الابد ، لو لم تبدد الادارة التركية هذه المكاسب وتذروها هباءً بضعفها وسوء معاملتها . فهي التي أوجدت في المناطق التي احتلتها روح الاستياء الذي تبدى اكثر ما تبدى في مظاهر الولاء والاخلاص نحو الاحياء من امراء العائلة المالكة السعودية .

وكان الكثيرون منهم قد هربوا من الدرعية قبل ختام المأساة ، بينما نُقل آخرون منهم الى مصر وظلوا اسرى ، الى ان عاد البعض منهم في الوقت المناسب ، ليلعب دوره في خدمة بلاده . وكان من بين الامراء السعوديين الذين فروا ابن عم عبدالله ، سعود بن عبدالله بن محمد ، غير ان خيّالة ابراهيم باشا طاردوه فقتلوه . وتمكن اخوه تركي من الهرب ، وقدر له ان يلعب دوراً عظيماً هاماً في اعادة الامجاد السابقة للبيت السعودي خلال الاعوام العشرة التي تلت الاحتلال التركي ، وهي الاعوام التي تميزت بالفوضى والقلاقل . ورافق زيد اخاه تركي

الى الصحراء ، اما فيصل بن تركي فكان من بين الذين نفاهم ابراهيم باشا من العائلة السعودية الى مصر .

وتقدر خسائر الوهابيين اثناء دفاعهم عن الدرعية بألف وثلاثمائة قتيل ، منهم اخوة عبدالله الثلاثة ، وثمانية عشر رجلاً من العائلة المالكة . وخلال الحصار الذي دام ستة اشهر كاملة ، اشترك في الدفاع عن الدرعية عشرة من اخوة عبدالله وواحد من ابنائه الثلاثة . اما عائلة معمر امراء العُيَيْنَة السابقون، فقد أسهموا بما لا يقل عن خمسة عشر رجلاً دُونت اسماؤهم في سجل الشرف . كما قدمت عائلة دغيثير ستة شهداء ،وكان لكل فرقة من فرق الاقاليم نصيب لا يستهان به في قائمة القتلى هذه .

لقد مضت الامبراطورية الوهابية في تلك الحرب الى النهاية ، وبدا انها لن تقوم ، ولكنه كتب لها ان تنهض مرة اخرى من بين رماد انقاضها في زمن لاحق ، وبعد الاضطراب الذي جاء في اعقاب تلاشيها الموقت .

وقد عامل ابراهيم باشا ، حسبما نعلم ، جميع افراد العائلة المالكة السعودية بالتجلة والاحترام اللائقين بهم . غير ان الحال يختلف بالنسبة الى انصارهم ، وعلى الاخص افراد الهيئات العلمية . فقد قُتل بعضهم رمياً بالرصاص ، بينما مزّقت اجساد الباقين منهم ارباً إرباً بقذائف المدافع . اما احمد الحنبلي،قاضي الدرعية ، فقد ضُرب وعُذب بعد ان قلعوا اسنانه . واما سليمان بن عبدالله ، حفيد محمد بن عبد الوهاب فقد تعرض لعار الاصغاء الى عزف القيثار قبل قتله رمياً بالرصاص . اما علي بن حسين الحفيد الثاني لمحمد بن عبد الوهاب فتمكن من الفرار الى قَطَر فعُمان، من حيث عاد بعد بضع سنوات للخدمة تحت لواء تركي .

دام حكم ابراهيم الارهابي بعد سقوط الدرعية زهاء التسعة اشهر . وأصدر محمد علي بنفسه امراً يقضي بتدمير مدينة الدرعية تدميراً تاماً في حزيران من سنة ١٨١٩ ..وكان هذا خاتمة الانتصار الساحق .

الفصل السادس

تركي بن سعود



لقد ادى انهيار القيادة الوهابية ، تلك القيادة المستندة الى المبادىء الدينية والاخلاقية التي فازت بتقدير الشعب واحترامه ـ الى الاهمال المثير لتلك التعاليم السامية التي انقذت العرب من بربرية كانوا يرسفون في اغلالها قبل ظهور المذهب الوهابي . فقد بدأت تظهر في الافق تلك المنافسات والمنازعات القبلية القديمة بتشجيع من لدن اسياد البلاد الجدد . ذلك ان هؤلاء ما كانوا ليهتموا مثقال ذرة بمصلحة الشعب وخيره ، ولا باعادة بناء اقتصاد البلاد الذي تداعى وانهار من أثر الحروب .

على العكس من ذلك لقد كان هدف ابراهيم الاول هو اشاعة الرعب في قلوب الناس وفرض الضرائب الباهظة المجحفة لتمويل قواته التي وزعها على الحصون المختلفة ، في طول البلاد وعرضها ، آملاً بذلك ان يقضي على كل مقاومة لطغيانه . ولم يعد صوت العقل بله صوت الدين مسموعاً في البلاد .. كان السفر بين القرية والاخرى محفوفاً بالمخاطر ، وحتى علية القوم لم يكونوا يجرؤون على الانتقال من مكان الى آخر في المدينة دون ان يواكبهم حرس . واصبح الدس والنميمة من الفروض اليومية . اما المصريون الذين قضوا على

ضحاياهم الضعفاء واحداً تلو الآخر ، فلم يجدوا أدنى صعوبة في الاستيلاء على املاكهم ومحصولاتهم لمنفعة الجيش ، بالاضافة الى تدميرهم كافة الاسوار والابنية التي يمكن استخدامها في مقاومة مظالمهم وطغيانهم .

وبالاضافة الى هذه المطالب الباهظة والضرائب الجائرة التي فُرضت على الموارد المحلية المحدودة ، وتدمير مزارع النخيل والمحاصيل الزراعية ، فقد ذر قرن المجاعة واجتاحت البلاد . وقد نجد صعوبة في تصديق القصة التي تروي ان المصريين قد اضطروا في بعض الاحايين الى اكل الخشب ، لكنه من المحتمل ان ضحاياهم التعساء قد مروا بهذه التجربة فعلاً . وليس لدينا ما يحملنا على الاعتقاد بان السلطات ذات الشأن قامت باي عمل من شأنه تحسين حالة السكان او زيادة انتاج المناطق المحتلة . هذا دون الحاجة الى ذكر الأمن خلال السنوات الست التي عقبت سقوط الدرعية حتى مغادرة الحاميات المصرية للبلاد .

ويظهر ان هذا الاهمال المقصود كان جزءاً من سياسة محمد علي في مصر . وكان حاكم مصر مستعداً لأن يدع الصحراء العربية تغرق في الفوضى ، فلا يهمه من امرها الا ان تمتنع عن الاعتداءات الخطيرة على اقاليم ساحل البحر الاحمر ، بالنظر لاهميتها الحيوية للامبراطورية العثمانية . ولم يكن هو ولا غيره يتصور أن الدولة الوهابية قد تبرز مرة اخرى في اقل من عشر سنوات ، فتنتفض من بين انقاض الفوضى التي غرقت فيها الجزيرة العربية ايام حكم ابنه ابراهيم .

لابد ان فكرة امتداد الحكم التركي حتى الخليج الفارسي داعبت ابراهيم باشا . فبعد سقوط الدرعية ، قام الأخوان ماجد ومحمد من عائلة عريعر وزعيما عشيرة بني خالد ، يطالبان باعادة حكمهما الى البلاد . فسارعت كل من الهفوف والقطيف الى الاعتراف بهما كرهاً في حكم المصريين . غير انهما لم يتمتعا بالاستقلال طويلاً . فقد ارسل ابراهيم باشا قوة صغيرة من جيشه بقيادة ضابط من عنده اسمه محمد كاشف ، وامره ان يستولي على جميع اموال عائلة سعود وانصارها .

وتوجهت القوة نحو مقر الشقيقين المطالبين بالامارة ، فهرب هذان برفقـة زعيم عشيرة السَّياسب. واخذ الاتراك يمارسون ضغطهم على كل من كانت له علاقة بالسعوديين ومذهبهم ، ويعتدون عليهم . فمكثوا في الاحساء حتى بارح ابراهيم الجزيرة العربية . اما الفضل في اخلاء الاحساء فيعود الى محمد علي نفسه .

وقد كان هذا الامر في الظاهر في مصلحة بريطانيا ، وذا اهميـة كبيرة في نظرها. فقد كان عملاؤها وجندها،خلال السنوات العشرين التي خلت منصرفين الى ايجاد سلسلة من المنافذ التوسعية التي لا تزال تقبض بيد من حديد على الاقاليم الساحلية بعد مرور قرن ونصف من الزمن .

لم يكن لنشاط الانجليز في هذه المنطقة علاقة بتاريخ السعودية ،الا انه يصعب علينا ان نصدق بان انزال قوة كبيرة من الجيش البريطاني في القطيف،اثناء احتلال محمد كاشف لها ، لم يكن الا تظاهرة لتأييد الاتراك ومعاضدتهم . فوجود تركيـا على ساحل الاحساء كان بحد ذاتـه تحدياً غير مباشر لمركز بريطانيـا على ساحل القرصان . خصوصاً وان الاتراك كانوا يعتبرون انفسهم الورثة الشرعيين للتركة الوهابية . ومن ناحية اخرى ، كان يهم البريطانيـين ان يقفوا على نوايا ابراهيم وابنه محمد علي بالنسبة لساحل الخليج .

وكان الكابتن ج . ف سادلير يهدف من وراء سفرتـه التاريخية عبر الجزيرة العربية سنة ١٨١٩ الى هذه الغاية . ولكن ، اذا كانت فرصة وجود قوة انجليزية في القطيف قد توفرت،فما هو السبب الذي اضاع امكانية تحقيق الفكرة البريطانية في السيطرة على ساحل الخليج كله ! ان هذا امر غامض لا يمكن تعليله . ولربما كانت عودة ماجد بن عريعر واخيه الى الاحساء بعد مغادرة الاتراك لها ، حـلاً مؤقتاً مرضياً من وجهة النظر البريطانية،الى ان تحدث تطورات جديدة في الوضع الذي كان غامضاً ، ولكن هذا التطورات لم تقع .

كانت الاوامر قد صدرت الى ابراهيم من ابيه بوجوب اخلاء البلاد من السكان

اخلاء تاماً ، وان يقوم كذلك بتدمير الدرعية تدميراً تاماً ، بعد هدم التحصينات وردم الآبار الموجودة في القرى والمدن . وبعدئذ بدأ يسحب جيوشه طالباً اليها الاجتماع في ضرمى ، ومن ثم بدأ السير ، بعد ان اقام تسعة اشهر في العاصمة الوهابية . وفي غضون الشهر الذي اقامه ابراهيم في ضرمى ، وجه عدداً من الغزوات ، ضد بعض عشائر قبائل سبيع ، وعجمان ، وعنيزة . وكان الغرض منها جمع المؤونة . وفي احدى هذه الغزوات نجا الباشا باعجوبة ، من طعنة خنجر شقت سرواله (بنطلونه) وسرج حصانه ، واصابت الحصان بجرح بليغ .

وبعدهذا سار ابراهيم الى القصيم ومنها الى المدينة المنورة،آخذاً معه حجيلان، حاكم الاقليم المسن الذي توفي هناك في الثمانين من عمره . وقام اغوات ابراهيم باشا قبل تركهم مراكزهم باقتراف اعمال منكرة كان الغرض منها القضاء قضاءً أبدياً على جميع الشخصيات البارزة في الجزيرة العربية ، كي لايتمكن هؤلاء في المستقبل من اعادة الحياة الى بلاد شملها الدمار . فالقوا القبض على محمد بن عبد المحسن بن علي امير حايل، وعلى اخيه علي، وايضاً على عبد الله بن رشيد امير عنزة ،وقتلوهم .

وقد لاقت عائلة عفيصان في الخرج ، الأمرّين على يد الآغا حسين جوخدار الذي كان عائداً من الحوطة،فتوقف خصيصاً ليذبح ثلاثة من زعماء تلك العائلة، ويصادر ممتلكاتهم . كما قتل قرب الدرعية علياً بن عبد الله ، حفيد الشيخ محمد بن عبد الوهاب . وكان هذا متفقهاً كبيراً في الدين .

اما المنازعات المميتة والمؤمرات والفتن وحوادث القتل ، التي تلت رحيل ابراهيم باشا عن القصيم وجريلة وغيرها من الاماكن ، فكانت مجرد موجة من الرعب في مجرى الحوادث الرئيسي الذى بدأ يظهر من خلال الفوضى .

* * *

لقد أشرنا سابقاً الى عودة ابناء عريعر الى مركزهم التقليدي في الاحساء ،

والى تقوية هذا المركز بالقائهم القبض على سيف بن سعدون ، زعيم السياسب ، وتخلصهم منه . ويبدو انهم لم يقنعوا بملك اسلافهم وهم يرون عرش الدرعيـة المرموق خالياً . وقد كان اخطر مطالب به ، امراء العيينـة الذين انصهروا في الدولة الوهابية . وكان ممثل هذا البيت وزعيمه في هذا الزمن، محمد بن مشاري بن معمر ، الذي كان في الدرعية يوم حصارها ، غير انه غادرها الى العيينة بعد ان دمرها ابراهيم باشا .

وفي ايلول سنة ١٨١٩ سار الى الدرعية ، واعلن نفسه اماماً وأميراً على نجد كلها بدلاً من السعوديين الذين تلاشوا ، طالباً من أهلها مساعدته عـلى تحقيق هذا الأمر . وصادف طلبه قبولاً لدى بعض المناطق الموالية له ، فشرع في اتخاذ الخطوات الضرورية لاعادة بناء المدينة المهدمة . غير ان الجفاف الذي اجتـاح البلاد في تلك السنة ، والمجاعة التي جاءت في أثره، ثم الامطـار والفيضانات الغير الطبيعية التي حدثت في تموز سنة ١٨١٩ ، اعاقت جهوده في هذا السبيل .

وما كادت تمر فترة من الزمن حتى بدأت المعارضة لحكمه ، تظهر في الافق، وبين سكان الرياض وحريملة والخرج على الخصوص . فطلبوا الى ماجـد بن عريعر ان ينضم اليهم ويساعدهم على طرد الغاصب قبل ان يثبت اقدامه. وهاجم المتحالفون مدينة (منفوحة) حليفة محمد بن مشاري الرئيسية . الا ان هدنـة عُقدت بعد القتال الذي لم يكن حاسماً ، فاغرى ابن معمر ماجداً بالهدايا مؤكداً له بانه لا ينوي الاعتداء عليه في الاحساء . واعلمه في نفس الوقت بان حكمه في نجد كان باسم السلطان العثماني . ويبدو ان شيئاً من هذا ، كان قد تم بينه وبين ابراهيم باشا الذي كان يعامله معاملة ودية فيها الكثيرُ من الصداقة والاحترام.

ومهما كان رد فعل ماجد ، على هدايا ابن معمر وتأكيداته ، فالبدو هم الذين انهوا القضية ، فعاد ماجد الى بلاده يجرّ اذيال الخيبة . وتمكن ابن معمر أن يوسّع ويثبت نفوذه في الارياف التي انتهزت فرصة ارتفاع اسعار المواد الغـذائية في العاصمة فبدأت ترسل قوافلها الى الدرعية ، لبيع منتجاتها ومحاصيلها بربح وفير .

اما الرياض وحريملة والخرج ، فلم تعترف بحكم ابن معمر . ليس هذا فحسب بل يبدو ان حريملة كانت في طليعة العناصر المناوئة له . وكان لا يعدل عداوتهـــا له الا ظهور تركي بن عبد الله بن محمد بن السعود واخيه زيد ، المفاجىء ،بعد ان أعطيت لها التأكيدات بالولاء والمساعدة . وكان من جراء ذلك التشجيع ان دُعي تركي لأن يتدخل نيابة عن بعض أهالي حريملة ، فوعدهم بمساندتهم فيما اذا نظموا ثورة على حمد بن راشد الزعيم المحلي عندهم . فارسل ابن معمر ابنــه مشاري ، وزيداً شقيق تركي ، على رأس قوة انضمت اليها عناصر اخرى اثنــاء مرورها بالمحمل والسدير ، لمساعدة أصدقائهم في حِريملة .

وبعد محاصرة حمد بن راشد في حصنه اسبوعاً واحداً استسلم عــلى شروط ، ونُقل الى الدرعية . وهكذا سارع خضوع حريملة في خضوع باقي المدن والقرى في العارض والوشم والسدير ، واعلن زعماؤها قبولهم بالحكم الجديد ، اما بحضورهم شخصياً الى الدرعية ، او عن طريق رُسلٍ من طرفهم .

وقعت هذه العمليات في بداية آذار من سنة ١٨٢٠ تقريباً .

وفي نهاية الشهر ذاته تزعزع مركز ابن معمر بوصول مشاري بن سعود المفاجىء الى الدرعية . وكان هذا احد ابناء عبدالله السيء الحظ ،فكان من حقه المطالبـــة بولاء الأهلين كوارثٍ شرعي لامجاد العائلة المالكة .

وكان مشاري هذا قد تمكن من الفرار من حرّاسه اثناء نقله الى منفاه في مصر في مكان يقع بين المدينة وينبع ، فعاد الى القصيم ، حيث جمع في زلفي وثرمدة ، عدداً من الانصار لمساعدته في مطالبته الجريئة بالعرش . اما ابن معمر فقد انزعج طبعاً من هذا المنافس الجديد . الا انه لم يقم تجاهه بأي عمل عدواني ظاهر . على العكس من ذلك فقد رآه الناس يعلن ولاءه للامام الجديد . وتقبّل الامام التهاني وفروض الولاء من الاقاليم الاخرى بما في ذلك الرياض وحريملة والمحمــل والسدير والوشم .

وكان اعظم مكاسبه انضمام تركي بن عبد الله اليه، ثم تبعه عمّه عمر وابناؤه. واخيراً انضم اليه عضوان من عائلة مشاري،هما حسن بن محمد ومشاري بن ناصر. وكان هؤلاء جميعاً قد فروا من الدرعية قبل سقوطها .

كان هم مشاري الأول الآن اخضاع اقليم الخرج الذي كان لايزال يقف في صف المعارضة بالنسبة اليه . اما السليمية Sulaimiya واليمامة فقد قاومتا فترة وجيزة ، الا انهما عادتا فاستسلمتا. فطرد مشاري اميرهما البجادي من منصبه، ثم عادالى الدرعية.وهناك وجد ان ابن معمر قد غادرها الى سدوس متظاهراً بالمرض. فلم تنطلِ الحيلة عليه ،وقدّر ان ذلك الادعاء الكاذب يخفي في طياته نيّة في تزعم الثورة عليه. وقد افصح ابن معمر عن نياته الى زعيم حريملة، فرحب بخطته هذه، وطلب منه القدوم الى المدينة ليجعلها قاعدة لعملياته الحربية المقبلة . وكان قد جمع لها المجندين والمتطوعين ، ومعظمهم من عشيرة فيصل الدويش وقبائل مطير . وقدانضم اليهم آخرون في الهجوم المباغت الذي شنه على العاصمة ودخلها دون مقاومة فعالة،ليتجه بعد ذلك الى قصر مشاري ، حيث القى القبض عليه وسجنه . وبعد ذلك ترك ابن معمر ولده يتولى شؤون العاصمة وتوجه بنفسه الى الرياض كي يلقي القبض على تركي بن عبد الله وافرادٍ اخرين من العائلة المالكة . الا أن هؤلاء كانوا قد سمعوا بالخبر فهربوا من المدينة قبل وصوله اليها. وحينئذٍ تمكن ابن معمر من احتلال المدينة بسهولة ، فاسرعت القرى المجاورة في اعلان خضوعها .

وهكذا انتهى حكم مشاري الذي لم يعمر طويلاً ، وحكم ابن معمر البلاد من جديد ، وباعتراف من الاتراك هذه المرة . فقد اسرع وأعلم«عبوش باشا» التركي، الذي كان قد وصل قبل فترة وجيزة الى عنيزة على رأس قوة من الجيش ، بانه لم يحكم باسم السلطان فحسب ، بل انه القى القبض على مشاري وسجنه ليسلمه اليهم في الوقت المناسب .

واثناء ذلك كان تركي بن عبد الله مع عدد من اتباعه ، قد ذهب الى ضرمى في

شأن من شؤونه . وبلغ هذا الخبر ابن معمر فارسل ، في الحال، ابنه مشاري (حاكم الرياض الآن)، على رأس قوة كافية لالقاء القبض عليه. اما تركي فاعتقل الرسول وسلمه الى سكان ضرمى ، ثم عمل على تجنب الخطر باحتلاله احد حصون القرية كي يدافع عن نفسه فيه . ولكنه خرج منه ليلاً وداهم بيتاً كان فيه بعض انصار ابن معمر ، فهربوا باديء الامر، الا انهم عادوا ووضعوا انفسهم تحت تصرف تركي. وقد هرب مشاري بن معمر مع بعض من أتباعه على جواد. وبقي تركي في ضرمى ، حيث وفد عليه الأنصار والمؤيدون من قبيلة سبيع والمناطق الجنوبية .

وفي كانون الاول من سنة ١٨٢٠ زحف تركي على الدرعيـة والقى القبض بنفسه على محمد بن معمر بمساعدة محليّة من اهل البلدة . ثم اعتقل فيما بعد ابنه مشاري في الرياض، ووعدهما بالحرية بشرط اطلاق سراح مشاري بن سعود الذي كان لا يزال محبوساً في سدوس .

ولكن السكان الذين وصلتهم قوة من الجيش التركي مع فيصل الدويش، تهيّبوا ان يطيعوا اوامر ابن معمر ، فسلموا مشاري بن سعود الى الاتراك ، كما وعدهم بذلك ابن معمر نفسه من قبل . وانتقل الخبر الى الدرعية فقتل تركي أسيره ابن معمر وابنه في الحال .

اما مشاري بن سعود فتوفي بعد وصوله الى عنيزة بقليل ، ولم يثبت أن عبوش باشا كان مسؤولاً عن وفاته .

ثم قام الاتراك وفيصل الدويش بهجوم عقيم على الرياض ، وارسلوا بعد ذلك قوة أخرى الى الشمال والغرب ، وفرضوا غرامات كبيرة على الثادق والسدير والوشم . ومثل ذلك فعل عبوش آغا في القصيم .

وبعودة الاتراك الى الجزيرة العربية عادت الفوضى تنشر سلطتها كرة ثانية، وتجددت العداوات في مناطق عدة ، بينما ساءت الاحوال الاقتصاديـة ، بسبب

اسراب الجراد الهائلة التي اجتاحت البلاد . وفي غضون شتاء ١٨٢٠ ـ ١٨٢١ ، وصل حسين بك بقواته لمساندة جيش الاحتلال واستلام القيادة العامة في نجد ، وزحف في الحال على الوشم .

ومن هناك ارسل عبوش آغا لمهاجمة الرياض ، بخليط من الاتراك والجنود المحليين من المدن والقرى والقبائل المختلفة ، مع زعماء بارزين كان ابن معمر قد طردهم من الرياض . فأخذ تركي يعد العدة لمقاومة هذا الهجوم ، الا ان اهل الرياض كانوا قد ملّوا القتال الذي انهكهم، فدخل عبوش أغا المدينة دون مقاومة.

ولم يقنع تركي باندحاره هذا، فتحصن في القلعة مع سبعين من أنصاره ليقاوم الحصار . وكان واضحاً انه يقاتل في معركة خاسرة، اذ سرعان ما دارت الدائرة عليه فهرب وحده ليلاً ، تاركاً رجاله يستسلمون في الصباح التالي . وقد قتلوا جميعاً، فيما عدا عمر بن عبد العزيز وابنائه الثلاثة ، الذين أرسلوا الى المنفى في مصر لينضموا الى اقربائهم الآخرين هناك .

وصل حسين بك الى المدينة ، وفرض غرامات باهظة على اهل الرياض ومنفوخة ، بينما طلب الى الاشخاص الذين استقروا في الدرعية بأمر ابن معمر ، ان يغادروها في الحال . فانتقلوا الى ثرمدة حيث استقبلهم خليل آغا ، قائد المدينة استقبالاً حافلاً ، ووعدهم باعطائهم ارضاً في اي مكان يختارونه .

وقد بدا ذلك أمراً غريباً في حينه .. ولكنه سرعان ما اتضح بعد قليل . فقد اعتقلو وقتلوا فيما بعد ، بناءً على اوامر صدرت من حسين بك لدى عودته من الرياض. وكان قد قام هناك ايضاً بقتل عدد من الاشخاص وتدمير ممتلكاتهم ومصادرتها .

كان هذا مجرد استهلال لا اكثر لتحكم الارهابي في نجد. اما القطعات العسكرية المتركزة في القصيم والسدير والمحمل والوشم والاماكن الاخرى ، فقد وفّت ما

عليها وزيادة ، اذ أخذت تسلب الشعب وتنهب امواله ، وتضطهد المواطنين حتى اضطروا للهرب باعداد كبيرة الى الصحراء. فانتهزت فرصة غيابهم وقامت بتدمير ممتلكاتهم ما استطاعت من تدمير . ولم تسلم النساء ولا الاطفال من الاعتداء .

لم تنته قصة الدمار والموت برحيل حسين بك حوالي نهاية السنة . فقد خلّف وراءه تركة من المنازعات المهلكة ، استمر من جرائها سلب الاقليم . وخصوصاً السدير والمجمعة الدائمة الاضطراب ، ثم العارض والقصيم بدرجة اخف . وزاد الأمر سوءاً أن تُوجت فظائع السنة بانتشار وبأ الكوليرا الوبيل ، الذي وفد من الهند الى الجزيرة العربية عن طريق الخليج الفارسي والعراق، ليزيد في حياة أهلها مأساة الى مأساة .

ومرة اخرى كان اقليم السدير في مقدمة الاقاليم المضطربة في سنة ١٨٢١ – ١٨٢٢ ، بينما كان لمنفوحة ولبريدة نصيبها الوافي من هذه القلاقل . اما ابرز الاحداث في هذه السنة فكان قدوم القائد التركي حسن ابو ظاهر ، الى رس . ذلك القائد الذي اعلن بانه ما جاء الا لاخضاع القبائل البدوية لمصلحة سكان المدن . وقد استحق تقدير البلاد وشكرها بالفعل حين اطلق سراح الكثيرين من الرهائن الذين كانوا قد طال اعتقالهم في حصن ثرمدة وفقاً لأوامر سلفه . فارسل السكانُ بما في ذلك اهل المجمعة وقرى السدير يُؤكدون له ولاءهم .

غير ان ارساله حملة عسكرية على هذه الاقاليم ، بقيادة موسى كاشف ، لجمع الضرائب المعتادة، ولّد في نفوس الناس شيئاً من التردد والإحجام . فعمد الاتراك الى اتخاذ اجراءات عنيفة لافهام الناس ما يريدون. لقد نهبوا عدة مدن، واعتقلوا كثيرين من اعيان الاقليم وقتلوهم . فثار البدو ونشب القتال . ولما كان موسى كاشف قد تنطح لذلك فقد خسر حياته في معركة وقعت بين قواته وبين عشيرة السُهُول التي قام بغزوها . اما اخو موسى واسمه ابراهيم، فقد تقدم الى الوشم ثم الرياض حيث اتخذها مركزاً لعملياته، فارتفع علَمه حتى على منطقة جنوب الخرج.

وفي هذه الاثناء زار حسين بك جبلَ شمر ، طالباً من أهله تسديد جميع الضرائب المستحقة منذ رحيل ابراهيم باشا . ولما دفعوها فرض عليهم الوالي التركي ضرائب اخرى . فامتنع أهل مُقَاق عن الدفع ، مما دفع القائد التركي الى ان يقتل معظمهم بعد استسلامهم في اعقاب حصار قصير . وفي نفس الوقت تقريباً ، قاد ابراهيم كاشف جيشاً قوياً الى الجنوب لغزو السبيّع ، على مقربة من حاير . غير ان رجال القبائل قاوموه بضراوة ، وهزموا الاتراك وحلفاءهم من اهل الرياض هزيمة نكراء . وقد قُتل ابراهيم نفسه في هذه المعركة مع ثلاثمائة رجل، بينما هرب ناصر العيضي زعيم الرياض . غير ان البدو لحقوا به وذبحوه في مغارة كان يختبىء فيها .

كان تركي بن عبد الله قد اختبأ بعد مغادرته الرياض ، في منطقة الحوطة . واستمر الاتراك في جمع الضرائب ، وارسال الحملات التأديبية الى القرى والعشائر العاصية . وفي شهر ايار من سنة ١٨٢٣ ، وفي خلال شهر رمضان ، خرج تركي من مخبئه مع اتباعٍ له يقدَّر عددهم بثلاثين رجلاً ، ووصل الى قرية عرقة في وادي حنيفة ، بين الدرعية والرياض . ثم استكان فترة من الزمن ، يجسّ نبض البلاد . وكان زعيم الشقرا ، حمد بن يحيى بن غيهَب ، اول من رحب بظهوره وعرض عليه المساعدة . فاستبشر تركي خيراً ، وارسل ابن عمه مشاري بن ناصر بن مشاري بن سعود ، الى سُوَيدْ ، زعيم جلاجل ، في اقليم السدير ، يدعوه الى الانضمام اليه والمجيء مع اي عدد من الرجال يستطيع تسليحهم .

وكان سُويّد هذا ، قد اختلف مع الاتراك في السنة السابقة . ولدى وصول رجال سوّيد رفع تركي علم الثورة، وزحف على الرياض . وكانت تحميها آنذاك حامية تركية تحت امرة ابي علي البهلولي المغربي . غير ان المحاولة باءت بالفشل ، فدب الذعر في قلوب سويّد ورجاله وعادوا الى بلادهم تاركين تركي مع حفنة من انصاره في الميدان . فبادرهم الاتراك وحلفاؤهم بالهجوم ، وحاصروهم في عرقة ، ولكن بلا نجاح يذكر .

واستمرت المناوشات الغير المنظمة حتى مطلع ايلول ، وعندهـا هاجم تركي مدينة ضرمى المهمة واحتلها تاركاً قوة صغيرة له في عرقة .

والحق ، ... إنه ابدى في احتلالها بسالة شخصيـة نادرة تركت في نفوس الاعراب اثراً كبيراً .

اما حسن ابو ظاهر ، فبعد ان آب من حملته على حايل، وجد نفسه في جو من المتاعب في القصيم . ذلك ان الناس كانوا ساخطـين عليه لكثرة الضرائب التي فرضها على مواردهم الضئيلة . وكان سجنه ، لعبد الله الجا َمعي ؟ حـاكم عنيزة الميالي، للاتراك ولقادة اخرين ،قد ادى الى ثورة بين السكان،فاجبروه على التسليم بشروط.ووافق على سحب جنوده الى المدينة المنورة بما في ذلك القوات الموجودة في ثرمده . لكنـه ترك قوة صغيرة في حصن صفا في عنيزة ، فاستسلمت هـذه بعد ذلك بقليل وتبعت قائدها خارجة من البلاد. ولم يبق في المنطقـة قوات غير تلك الحاسيات الصغيرة المبعثرة في الرياض ومنفوحة . وكانت هذه الحاميات قد اشتبكت مع قوات تركي كما ذكرنا .

وفي هذه الاثناء بدا ان ماجداً بن عريعر قد وطد مركزه في اقليم الحسا الذي لم يشأ الاتراك أن يدخلوه ، فنعم بالطمأنينة والسلام . وكان لتركي من المشاغل ما جعله يضرب صفحاً عن التفكير باقاليم الخليج الفارسي . ومع هذا وجد ماجد نفسه يواجه تحدياً سافراً من فيصل الدويش ، حليف الاتراك القديم . فقد خرج اليه على رأس جيش مختلط من قبائل مطير والعجمان .فوقعت معركة الرُضيمة في هضبة َعر ْمة،وانتهت بهزيمة بني خالد هزيمة شنعاء . غير ان فيصل لم يكن آنئذ في وضع يمكّنه من متابعة انتصاراته .

وقد وقعت اضطرابات في اقليم السدير ، غير انها لم تكن خطيرة هـذه المرة تستأهل من تركي بن عبدالله ان يغادر ضرمى في شهر تموز ويتجـه الى ثادق ليتدخل في الأمر . ولكنه فعل، وطلب الى الاطراف المتنازعة أن تعمل على انهاء

خلافاتها في سبيل المصلحة العامة. وكانت دعوته مثمرة ، فقد سارع زعماء المدن والقرى في السدير يعلنون عن ولائهم له . وتقدم بعد ذلك باتجاه جلاجل ، مركز الاضطراب الذي حدث ، على رأس قوة جنّدها من اهل المحمل ، فما كان من سكانها الا ان رحبوا به اجمل ترحيب ، عارضين عليه خضوعهم وولاءهم .

اما أهل المجمعة ، فقد ترددوا في الانضمام اليه ، بادىء الأمر ، لكنهم عادوا فقبلوا بما عرضه عليهم بعد ان حاصرهم بقوة كبيرة من جيشه . ثم عزل مَزْيَد، زعيم المدينة وحاكمها ، وعين مكانه محمداً بن صقر ، وهو شخصية بارزة من العمارية ، وزوده بحامية جعل مركزها الحصن . وبادر السكان لتأدية يمين الطاعة والولاء الى فرد من بيت آل سعود مرة اخرى ، وان كان لا ينحدر من الفخذ الذي سبق له ان حكم نجداً آنذاك .

وقد بقي تركي في المجمعة زهاء الشهر ، فأعاد تنظيم ادارات الاقليم وما جاوره . وأرسلت غات وزلفي والشقرا وقرى الوشم، وفوداً عنها لاداء فروض الولاء والخضوع فقبل تركي ذلك . ثم استولى على جميع المعدات الحربية والذخيرة والمتاع الذي خلفه الاتراك خلال حملتهم الأخيرة على الاقليم .

وما ان اتم تجهيز القوات اللازمة من العناصر المحلية حتى زحف على حريملة ، وكانت هذه لم تبدِ رغبة في دخول الحظيرة الوهابية حتى ذلك الحين . وما كاد يعد العدة اللازمة للهجوم ويجهز قواته بالسلالم الضرورية لتسلق الاسوار ، حتى ارسل انذاراً الى امير المدينة ،حمد بن راشد يطلب منه الخروج والاعتراف بالولاء، والا فانه ورجاله سيقابلونه في وسط المدينة قبل غياب القمر .

واستسلم حمد .. فلم يستقبله تركي بالحفاوة والتكريم فحسب ، بل ابقاه في منصبه ، وترك له جميع ممتلكاته ، العائلية .

وبعد ان انضمت قوات حريملة الى الجند،زحف تركي على منفوحة البعيدة.

فاستسلمت دون مقاومة، وخرج اميرها ابراهيم بن مزروع شخصياً ليقدم فروض الطاعة والولاء .

اما الحامية التركية فطُردت من المدينة، وخرجت لتنضم الى حامية الرياض، هدفِ تركي التالي . وأما الأمير حمد العيضي الذي خلف اخاه ناصراً في منصبه لدى وفاته في حاير ، فقد ظهر انه لا يريد الاستسلام .. فأدى ذلك الى نشوب بعض القتال حول المدينة وتكبَّد الطرفان بعض الاصابات . وقد أمر تركي جنوده أن يجمعوا محصول التمر ليستفيد منه في اطعام قواته ؛ تحت سمع وبصر الحامية التركية في المدينة . وكانت هذه عاجزة لا حول لها ولا طول .

وعاد تركي فرفع الحصار عنهم بعد مرور شهر تقريباً ، اذ هرع فيصل الدويش بقوات كبيرة من عشيرة مطير لنصرة الحامية المحاصرة . وتراجع تركي الى عرقة ، غير انه عاد فحاصر الحامية،حالما رحلت العناصر البدوية بعد مكوثها فترة وجيزة في تلك الانحاء .

وطلب القائد التركي عقد الصلح فقبل منه تركي ذلك ، مشترطاً عليه رحيل الاتراك نهائياً الى المدينة المنورة .

وانسحبت الحامية بالفعل .. وسقطت الرياض،فعُين مشاري بن ناصر حاكماً للمدينة ، بينما زحف تركي نفسه الى ثرمدة وشقرا ليتأكد من ان الاتراك لن يحاولوا البقاء هناك ناكثين بالعهد الذي قطعوه على انفسهم بترك البلاد .

وفي اثناء وجوده في شقرا وصلته وفود تحمل رسائل من عنيزة وبقية نواحي القصيم يعرضون ولاءهم ، فتقبل ذلك ، ولكنه لم يفارق شقرا الى ان اطمأن الى مرور الاتراك بالوشم في طريقهم الى المدينة . وحينئذٍ عاد الى الرياض ..الى عاصمة نجد ، منذ ذلك الحين .

ولدى سقوط الرياض ، ارسل اهلُ الحوطة والحريق ، وفوداً من طرفهم

تعرض ولاءهم للنظام الجديد . وبهذا خضع القصيم والوشم : ووجد تركي نفسه يسيطر على نجد بكاملها فيا عدا اقليم الخرج الذي كان حكامه آنئذٍ هم الذين طردهم الحكم السعودي من قبل ، فتربصوا به وعادوا بعد سقوط الدرعية .

والحق ، ان تركي كان حكيماً حينما لم يحاول التسرع في معاقبة عناصر عاجزة عن الاضرار به . ولم يتخذ الخطوات الفعالة لاخضاع الخرج الا في شهر أيار سنة ١٨٢٥ . وذلك ان الامير زَقْم بن زامل امير دِلَمْ أبدى شيئاً من امارات المقاومة، فضايقه تركي حتى اضطره الى عرض الاستسلام بعد ضمان سلامته وسلامة اتباعه . وتم ذلك بسهولة . فاستولى تركي على الحصن بما فيه من العتاد الحربي، وارسل زقْم الى الرياض ليبقى هناك في ضيافة الحكومة (سجينا). ثم خضعت السليمية واليامة بدون مقاومة تذكر ، فاستقر الأمر لتركي وعاد الى عاصمته الجديدة مطمئناً راضياً من ان نجداً قد تخلصت من السيطرة الاجنبية وآبت الى الحظيرة الوهابية . ومنذ وصوله لاول مرة الى عرقة لم يجد تركي الموارد المادية التي وجدها الآن تحت تصرفه .

ويعود الفضل في نجاحه التام في مثل هذه المدة القصيرة الى شخصيته ، فقد كان يجمع في شخصه سحراً مغناطيسياً غامضاً ، وشيئاً من السيطرة الذاتية غريباً. هذا بقطع النظر عن الجو البطولي الذي خلقه بشجاعته الشخصية وفروسيته. وتذكر بعض الروايات ان الامام سعوداً كان يرغب في أن يخلفه تركي على العرش الا ان تركي نفسه قد حال دون ذلك . فقد كان ولاؤه لشقيقه عبد الله عظيا ، ولم يتغير قط . والحق يقال بأنه كان روح الدفاع عن الدرعية ، وكان مستعداً لان يخدم ابن معمر ومشاري ايضاً في سبيل مصلحة البلاد .

وكان الفضل في بعض نجاح تركي يعود الى اخفاق الاتراك في تغيير خططهم التعسفية والاستعاضة عن الطغيان والعنف في ادارتهم بشيء من تحسين اوضاع نجد التي انهكها الاستبداد والفوضى، والتي رحبت بالاتراك في بداية الامر للتخلص من نظم الوهابيين .

وتعتبر بداية حكم تركي في نجد عند وصوله الى عرقة في ايار من سنة ١٨٢٣. أما تمامُ سيطرته فقد تحقق عندما استسلمت حامية الرياض التركية في تشرين الأول سنة ١٨٢٤ . وظهر اثره في برنامج اعادة بناء الاسوار المدمرة وبناء القصر والجامع اللذين يحملان اسمه . وقد ظلت آثاره تمثل اعظم الاعمال الهندسية في عاصمته حتى تهدمت سنة ١٩٥٠ ليقوم مكانها ابنية عصرية اضخم واوسع .

وبالاضافة الى هذا النشاط العمراني، عَمِل تركي في اعادة الادارة الفعالة الى اقاليم مملكته ومقاطعاتها . فعين في مناصب الحكام والقضاة اشخاصاً يمكن الاعتماد عليهم في فرض هيبة القانون والمحافظة على الأمن دونما خوف او مراعاة وجوه . أما اقليم الخرج فمنحه الى عمر بن عفيصان الذي قتل الاتراك عدداً كبيراً من عائلته في دِلَمْ ، قبل انسحابهم .

ويبقى هرب ابن عمه، مشاري بن عبد الرحمن بن مشاري بن سعود، من مصر ووصوله الى الرياض . فقد جعل له ذلك الامر عذراً في وضع مدينة منفوحة المنافسة للدرعية تحت حكم أحد أعضاء العائلة المالكة الكبار . الا ان مشاري لم يكن جديراً بثقة تركي واحترامه ، ولم يكن تركي يستطيع ان يتغاضى عن اية اساءة .

ثم وصل من مصر شخص بارز آخر ، هو الشيخ عبد الرحمن بن حسن ، حفيد محمد بن عبد الوهاب ، فاجتل منصب قاضي الرياض ، ذلك المنصب الذي قدر للشيخ ان يشغله سنوات عدة، يشاركه في ذلك ابنه وتلميذه عبد اللطيف . وقد لعب الوالد وابنه دوراً مهماً في جعل الدين عاملاً له أثره في حياة العرب ، وان كانت الوهابية الآن لم تعد تأخذ بناحية التعصب الديني الذي تميز به نظام الدرعية أيام سعدها .

والواقع ان الحافز السياسي ، لا الحماس الديني هو الذي أوجد الامبراطورية السعودية ، خلال حكم تركي وفيصل ، وان كانت المؤسسات الدينية لم تنزل من

على مستواها السابق كثيراً . وكان في العقد الثاني من القرن العشرين فقط أن بدأ الحماس الديني يسيطر مرة أخرى، على حياة العرب ويضع اسس الامبراطورية الوهابية الثالثة .

لم يكن تركي فيما يبدو ، يريد الاسراع في توسيع حدود بلاده وامتداد رقعتها في هذه الفترة . ففي شتاء سنة ١٨٢٦ - ١٨٢٧ لا قبل ذلك ، بادر الى اعداد حملة ضد بني خالد الذين كانوا قد عبروا الصحراء ونزلوا على آبار حفار العتك. وأسندت قيادة هذه الحملة الى مشاري بن عبد الرحمن بن حسن بن مشاري بن سعود، الذي يصفه ابن بشر بانه ابن عم تركي ، الذي جرح جرحاً طفيفاً اثناء اشتباك وقع مع البدو .

ونحن لانعرف على التحقيق فيما اذا كان مشاري هذا هو نفس مشاري الذي عيّنه تركي حاكماً على منفوحة في السنة السابقة . ويقول ابن بشر انه كان خاله . وليست هذه بالنقطة المهمة على كل حال ، الا انها ترينا ما أشدّ ما كانت انساب السعوديين معقدة بسبب ترديدهم لنفس الاسماء : ويصدق هذا بالطبع على عائلة مشاري .

* * *

تميزت هذه السنة نفسها (١٨٢٨) بالجفاف الذي اناخ بكلكله على البلاد. وبالمجاعة التي انتشرت فيها ، فتسببت في وفاة الكثيرين من أهل القصيم والسدير ، التي عين فيها امير جديد من اهل ضرمى ، اسمه محمد بن عبد الله . وكان ابرز احداث تلك السنة وفاة رحمة بن جابر ، قرصان الخليج الفارسي ، اثناء اشتباك بحري بينه وبين الحملة التي وجهها اليه ماجد بن عربعر ، بالتعاون مع حكام البحرين والقطيف .

وقد حاول ابن جابر المقاومة ، فترك ابنه يحرس مقره الرئيسي في الدمام وخرج الى عرض البحر، غير انه سرعان ما حوصر وأجبر على الاستسلام . وكان

رحمة هذا ،صديقاً وحليفاً قوياً للسعوديين ، قبل كارثة الدرعية. وبموتــه تقوّى مركز ماجد كثيراً في الأحساء .

ولقد غيرت غزوات تركي المتعاقبة على الوشم وغيرها طبيعةَ عهــده البنّاء وأيامه السلميّة فانقلب الى ضده. وكان مما زاد الضيق أن خابت آمال المواطنين في محصول جيد،اذ ان غزارة الامطار التي هطلت في خريف سنة ١٨٢٦،ثم هطولها في نيسان من العام التالي، سببت تعفّن التبن والزرع على البيادر. كما أصيب التمر الناضج بآفة اهلكت محصوله . واستمرت هذه الاحوال الزراعية السيئة عاماً آخر الا انها كانت على نطاق اضيق . ومع هذا ، كان تركي مضطراً لأن يعالج تهديداً بالعدوان من جانب بني خالد. فأمر ابن غبدان ، حاكم السدير ان يردم آبار حفار العَتك وأم بماجم ، الا أن الاعراب اهتدوا اليها بسهولة .

وكان على تركي ان يعالج غزوة قام بها العجمان بالقرب من بلاده، في بابان (وربما بنبان او ممر العرمة القريب من بابان). وقد وصف المؤرخ النجدي(ابن بشر) هذه السنة بقوله .

« انهـــا كانت سنة يمْنٍ وبركات ، ولو ان سعادةالسكان في ان لايكون لهم تاريخ يدوّن »

اما زيارة حاكم جبل شمر، عيسى بن علي، الى الرياض لاعلان الولاء والخضوع واستعداده لوضع الاقليم كله تحت تصرف تركي فكانت حدثـــاً بارزاً وتطوراً بالغ الاهمية . خصوصاً وانه أعقبها عودةُ فيصل ، الابن البكر لتركي، من مصر الى الرياض، فلم يكن هذا حدثاً محلياً مبهجاً فحسب ، بل كان فألَ يُمْنٍ وسعادة للعائلة المالكة والدولة .

كانت القلاقل المحلية التي وقعت في القصيم تتطلب تدخل تركي .. فاستدعى قادة الاقليم الى الرياض ، ليجددوا ولاءهم وطاعتهم . وعزل محمـــد آل علي

الشاعر، حاكم بُريدة من منصبه واعتقله بصورة مؤقتة في الرياض، وعين عبد العزيز بن محمد بن عبدالله خلفاً له . اما مطير والعناصر الاخرى من بني خالد، حلفائهم، فقد تم اخضاعهم بعد غزوة شنها عليهم في الربيع،في جهة صُمّان. وبعد قليل، استقبل تركي وفداً يمثل عدداً من قبائل أواسط نجد (السبيع والسهول والعجمان، ومطير وقحطان) جاءه معلناً الولاء راغباً في مساندة حكمه .

والآن، اتضح استقرار الدولة واتساع نفوذها وسلطانها بوصول وفد من عُمان، يطلب مد يد المساعدة بارسال قوة من الجيش وتعيين وال وقاض . فلبى تركي طلبهم، وأرسل عمر بن محمد بن عفيصان على رأس قوّة كافية، لينصّب عبدالله بن سعود من القُويعيّه والياً على الاقليم، على ان يتخذ مركزه في البريمي . وعين كذلك الشيخ محمد بن عبد العزيز العوسجي (?) قاضياً . ولدى وصولهم الضاهرة استقبلتهم وفودها مع عناصر اخرى من البطينة، الواقعة في المنطقة الساحلية من عُمان، بمظاهر الترحيب والتكريم .

وفي هذه الاثناء، طلب تركي وولده فيصل، (وكانا في الرياض) اجتماعَ عشائر مناطق واسعة تمتد من وادي الدواسر جنوباً الى الوشم والسدير في الشمال، بغية القيام بمناورات الخريف والشتاء . وكان الغرض الرئيسي من ذلك هو اظهار الوحدة والوفاق . فعين تركي الوشم مكاناً للاجتماع، الا انه عاد فاستبدله بمرتفعات الطويق، ابتعاداً عن شرور وبأ الكوليرا الذي كان منتشراً في اقليم الوشم . ومع هذا ظهرت اصابات الكوليرا بين افراد الجيش، فمات الكثيرون منهم في معسكر المجمعة، غير ان المرض لم ينتقل الى المدينة .

ومن الوشم سار فيصل بجيشه للاغارة على عنيزة في الاراضي المجاورة،ألاان رجال القبيلة كانوا قد لاذوا بالفرار قبل وصوله، فلم يتم له ما أراد . وأمضى تركي قرابة الشهر في المجمعة وهو يصرّف شؤون الاقليم، فأعفى ابن عبدان من منصبه، كحاكم للسدير، وعين مكانه احمد بن ناصر الصانع .

وانقضى صيف عام ١٨٢٩ ، هادئاً دون حوادث . اما خريف ذلك العام فقد شهد تركي يرسل محمداً بن عفيصان في غزوة على الاحساء ، فيستولي هـذا على قافلة محملة بالبضائع الوفيرة ، وهي في طريقها من العقير الى الهفوف . ويبدو ان الغرض من هذه الغزوة كان مضايقة عائلة عريعر في الاقليم. لكن ابناء عريعر اخذوا بزمام المبادرة ، فأعلنـوا الحرب على تركي ، وتجمعت قواتهم الكبيرة العدد في الصُّمّان .

وهكذا وجد تركي نفسه مضطراً الى ان يحشد قوات عشائره بسرعة ويرسلهم بقيادة فيصل لمقابلة التهديد بالمثل . فنشبت معركة ضارية متكافئة بين الفريقين عند آبار عَقلة Aqla بالقرب من خُفيسات المحماري ، استمر فيها القتال مـن منتصف شباط حتى الرابع والعشرين منه، اي الى اول شهر الصوم. فقُتل ماجد ابن عريعر .وقد ارسل فيصل يعلم والدَه بما حدث وهو واثق كل الثقة من النصر في النهاية . فوصل ابوه الى مكان المعركة بامدادات قوية للسير قدماً في قطاف ثمرات النصر .

وحينئذٍ تجدد القتال بين الطرفين قاسياً مريراً . ويبدو ان جيش تركي كان ينتزع النصرَ من عدوه شيئاً فشيئاً ، حتى قام تركي في الثاني والعشرين من آذار ، بشن هجوم كاسح على مواقع الاعداء فتقهقروا ولاذوا بالفرار . وظلت قواته تطاردهم وتذبح الهاربين منهم حتى بعد استيلائها على معسكر عريعر وذخائره غنيمةً خالصة .

غير ان عدداً قليلاً منهم نجا بجلده ، مثل مطير حليفة ماجد ، التي كانت قد انسحبت لدى رؤيتها تطورات المعركة قبل الهجوم الأخير ، وبذلك اسهمت في نجاح تركي اسهاماً كبيراً .

* * *

زحف تركي وابنه فيصل على الاحساء بعد ان امضيا زهـاء الاسبوعين في ميدان المعركة ،يجمعان الاسلاب ويوزعانها على الجند. ثم ارسل تركي رسله امامه

الى القبائل والمدن طالبين من اهلها اعلان ولائهم . وسار بعد ذلك في اثر رسله ارهاباً ، فعرضت معظم القرى خضوعهـا لحكمه . اما محمد بن عريعر واقرباؤه ومشايعوهم فقد سارعوا الى تحصين الحصون والقلاع للمقاومة . غير ان معظم زعماء بني خالد هربوا لدى وصول تركي . فاحتل مدينة الهفوف سلماً ، ثم أقام قاعدة عملياته في تل غنيمة ،قريباً منها .

وهناك زاره الزعماء المدنيون والروحيون من مختلف المدن والقرى في الواحة الكبيرة ، واخذوا يقدمون له فروض الطاعة ويتعهدون بالاخلاص للوائه . هذا في الحين الذي كان فيه ابن عريعر يحتل حصن الكوت العظيم في الزاوية الشماليـة الغربية من المدينة . وطلب تركي اليه ان يستسلم ، فقدّر محمد الموقف ونزل عند رغبة خصمه بشروط مشرفة . وهكذا عادت الاحساء تحتل مكانها المرموق في الدولة الوهابية من جديد. وقدظل تركي وفيصل في المنطقة قرابة الشهر والنصف، والوالد يدير شؤونها ويصرف امورها مهتماً بالحاجات الدينية على الخصوص، طالباً الى الاهلين ان يحافظوا على تعاليم الله ويطيعوا اوامره ونواهيه في سبيل خيرهم وفلاحهم . وان يواظبوا على الصلاة في الجوامع ، ويطبقوا بصورة عامة انظمة الوهابيين واحكام مذهبهم . وعين بعد ذلك عمر بن عفيصان حاكماً على الاقليم، بينما أسند الامور الدينية الى الشيخ عبدالله الوهيبي . وشارفت السنة على الانتهاء والبلاد مستبشرة بالامطار الغزيرة التي هطلت ، فكانت المحاصيل جيـدة وفيرة وهبطت اسعار الحاجيات .

ولم يأتِ ذكر لأي حادث مهم في اخبار نجد حتى نهاية سنة ١٨٣٠ .

وفي اواخر كانون الثاني من سنة ١٨٣١ ، قام تركي بشن غارة في ناحيـة حفار البطين قرب الحدود العراقية ، على عناصر من قبيلة السبيع . الا انه أعاد لهم الاسلاب حين ادّعوا ان هجومه كان خرقاً للاتفاقية المعقودة بينهم ، والتي قدموا بموجبها فروض الطاعة وتعهدوا بالولاء والاخلاص .

ثم زحف باتجاه السبيحيّة في الكويت ، وأمضى هنالك وقتاً طويلاً ، يتقبل الهدايا من جابر بن عبدالله صباح زعيم الكويت ،والطاعة والولاء من قبائلهـا . ووصلته بعـد ذلك اخبار من نجد أقلقته ، فسارع بالذهاب اليها ليقف على الحقائق بنفسه .

لا بد واتنا نذكر ان تركي قد عين ابن عمه مشاري بن عبد الرحمن حاكماً على منفوحة ، قبل بضع سنوات ، وانه أرسل مشاري هذا على رأس حملة ضد بني خالد في حفار العتك . ويبدو ان هذا التعيين كان عذراً انتحله تركي لابعاده عن منصبه في منفوحة (اذا كان المشاريان هما نفس الشخص) . وها هو الآن يبلغه الخبر ان مشاري قـد غادر الرياض مع اتباعه للقيام بثورة عليه . غير ان تركي لم يأبه للأمر ولم يتخوف. بل سرّح معظم قواته وأعادهم الى بلادهم . وكان مشاري آنذاك في طريقه الى الشمال ليطلب مناصرة حركته. فاجتمع في المستَوي بزعيم عشيرة من عشائر مطير يطلب منه المساعـدة ، غير انه اختلف وإياه ، فرفض الزعيم ذلك .

ومن هناك توجه مشاري صوب القصيم ينشد المساعدة من عناصر مختلفة ، لكنه باء بالفشل . ثم شخص الى شريف مكة محمد بن عوف فلم يقبل اقتراحه . فغادر مكة يائساً ، بعد ان ثبت له ان اهل نجد لا يريدون الثورة على تركي ،وقرّ رأيه على ان يقصد الرياض حيث يلقي بنفسه على اقدام عمه راجياً العفو بعـد المقدرة . وكان تركي عند امل قريبه فاستقبله بلطف وترحاب ووهبه منزلاً في الرياض قرب القلعة .

ويذكر ابن بشر ان تاريخ عودته والعفو عنه كان في نهاية ايار سنة ١٨٣٢ ، فاذا كان هذا صحيحاً ، فلا بد من ان مشاري قد أمضى معظم السنة في مكة . ومهما كان الحال فقد كانت محاولته القيام بالثورة عقيمة ولم تترك اثراً في تاريخ نجد الحديث .

وفي تموز من سنة ١٨٣١ قاد فيصل جيشاً قوياً الى مرتفعات نجد ليغزو عتيبة. فوجدهم عند آبار طلال حيث تغلب عليهم وهزمهم شر هزيمة . الا ان جنوده تفرقوا يجمعون الاسلاب والغنائم فانتهز المنهزمون الفرصة وعادوا بنجدات قوية ، من قبائل مطير (التي كانت آنذاك في مواقعها الصيفية في الاراضي المجاورة)، فدارت الدائرة على الفائزين . لكن فيصلاً وحرسه غطوا تراجع قواته فلجأت الى القويعية بكثير من الاسلاب التي غنمتها في المعركة الاولى (وقيل انها بلغت ٣٠٠٠ جمل) .

وفي الربع الاول من ايار ، هبّ اعصار مدمّر على نجد فأحدث اضراراً بالغة في مزارع النخيل ، وخصوصاً في الاشجار الصغيرة منها . وأصيب الحج الذي اتفق في نهاية شهر أيار من صيف ذلك العام بوبأ الكوليراء الذي انتشر بين الحجاج وتسبب في وفاة الالوف منهم ومن الذين اختلطوا بهم .

ويذكر ابن بشر عدداً من الظواهر الجوية التي أنذرت بوقوع الطاعون الذي أهلك العراق والكويت سنة ١٨٣٢ ، لينتقل من هناك الى نجد بعد عام .

ومن الظواهر الطبيعية الاخرى التي ذكرها ابن بشر ذلك النور الذي ظهر في الفضاء . فقد أضيئت السماء خمس ليالٍ متتالية بنور يشبه نور القمر . وكان هذا في آخر شهر صفَر (من ٥ آب ــ ١٠ منه) . وكذلك لون الشمس الاخضر عند الشروق ، وظهور الشفق الشمالي الباهر في الليالي الاولى من الشهر التالي ، وتقابُل الكواكب السيارة الخمسة (الشمس والقمر والمريخ وزحل وعطارد) في برج ليو Leo .

قضى تركي اشهر صيف سنة ١٨٣٢ في صحراء العرّمة ، ولم يكن هنالك من امور خاصة تشغل باله سوى تقاعس بعض القبائل عن دفع الضرائب المستحقة وما تبع ذلك من حملات عسكرية لاجبارها على الدفع . وفي اواخر الصيف او بالاحرى اوائل الخريف ، أرسل ابنه فيصل على رأس جيش حشده له ، لمعاقبة

احد بطون قبائل َعنزةَ الذي كان انذاك يرعى ابله في اراضي ضرمى . الا ان البدو ولوا الادبار لدى سماعهم بهذه الحملة . فسار فيصل الى المجمعة للاقامة فيها فترة من الزمن ؛ وهناك حشد قوة ليغزو بها ُعمان تحت قيادة معمر بن محمد بن عفيصان . ولا يذكر ابن بشر شيئاً عن تفاصيل هذه الغزوة .

وبعد ذلك عاد فيصل الى الرياض . اما والده تركي فقاد حملة الى اقليم الحسا لمعاقبة العجمان على بعض تصرفاتهم السيئة . ففر فلاح بن ِهذْلين قبل وصول تركي الى ام ربيعة . وقد انتهز زعيم قبيلة ُمرّة فرصة وجود تركي وعرض عليه ولاءه وخضوعه . ولما سمع فلاح بهذا، استسلم بلا قيد او شرط، ونقل الى الرياض ليظل معتقلاً فيها. وبعد ذلك زار تركي القطيف حيث قدمت اليه الهدايا المعتادة بالاضافة الى تأكيدات الولاء والاخلاص . ثم امضى شهراً في منطقة الهفوف قبل ان يعود الى الرياض . وقد توقف في الطريق عند آبار وثيلان Wutbailan الى الغرب من الدهناء لعقد اجتماع عشائري عام ، تحدث فيه عن فلسفة الحكومة الصالحة . وعندما طلب اليه امير بريده ان يكون حازماً وصريحاً في تبيان اخطاء القادة ومخالفاتهم ، َرد عليه تركي بقوله :

« ان كلماتي موجهة في الواقع اليك والى امثالك . لانكم تعتقدون بانكم انتم الذين فتحتم البلاد بسيوفكم ، بينما الواقع ان سيف الاسلام لا سيوفكم هو الذي انقذ البلاد وصانها بالاتحاد تحت لواء قائد واحد . »

وتفرق الاجتماع بصورة تدل على خضوع المكرَه المغلوب على امره امام رجل يعرف كيف يحسن الانتقال من القول الى العمل ، وخصوصاً حين ينشد القضاء على الفساد بين علية القوم . فقد اكد الناس ولاءهم لتركي وقطعوا عهداً بطاعته، الا ان حديثه بتلك الصراحة في الوقت الذي استعاد فيه الامبراطورية التي اضاعها عبد الله يدل على ان هناك الكثير من العمل الواجب انجازه قبل ايصال سفينة الدولة الى شاطىء السلامة .

لقد اثبتت الحوادث التي مرت ، انه لم يكن امام تركي غير هذا السبيل ، اذا اراد ترسيخ حكمه. الا ان المنازعات القبلية والحزازات الشخصية والضغائن العائلية مكنت الفتن من ذر قرنها من جديد . وفي هـذه الاثناء مات فيصل الدويش ، فأضعف ذلك من زعامة قبيلة مُطير القوية، التي آلت زعامتها الى ابن محمد المكني.

وظهر في القصيم دعي[*] زعم انه خالد بن سعود ، الذي نفاه ابراهيم باشا الى مصر ، فاحدث ظهوره بلبلة[*] في الاوساط الوادعة في اقليم نجد. واستُقبل الرجل بحفاوة بالغة بامر من تركي ، غير ان الناس الذين يعرفون خالداً معرفة جيدة ، سرعان ما اكتشفوا فيه دعياً كاذباً. اذ كان آخر ما يعرفونه عن خالد هو اعدامه، كما قيل ، بامر من محمد علي .

وربما كانت عودة مشاري كما ذكر انفاً ، اخطر من هذا الحدث . غـير ان الخطوات التي خطاها تركي في الترحيب به واتخاذ جميع الترتيبات التي تكفل راحته كان لها الاثر الاكبر في التخلص من جميع المشاكل والمخاوف الناجمة عن وجوده في نجد.

وتحسنت الاحوال الاقتصادية في البلاد بعد الامطار الموسميـة الغزيزة بالرغم مما رافقها من برد قارس خلال شتاء ١٨٣٢ ـ ١٨٣٣ . فقد كان الماء يتجمد بعد خروجه من البئر ، واصيبت مزارع النخيل باضرار بالغـة وتلف عظيم ، الا ان اثار ذلك لم تظهر الا في صيف كلتا السنتين التاليتين .

أما أحداث الزبير والبصرة وتهامة اليمنية ، فقد اراحت الجزيرة العربيـة ومنحتها هدوءاً نسبياً في حكم تركي . غير ان السلام عاد فتعكر خـلال الصيف والخريف من سنة ١٨٣٣ اذ وقع شغب وقتال في المربى Murabba في مقاطعة السر[*] . وكانت قبائل عنزة ومُطير وحلفاؤهم الذين جاءوا مـن معظم عشائر الصحراء هم الذين اثاروا الفتنة . ولسنا ندري مـا هو السبب الذي جعل تركي لا يتدخل في القتال الذي انتهى بهزيمة عنزة وحلفائها هزيمة منكرة تامة . ويعتقد ابن بشر بان تركي كان مشغولاً[*] انئذٍ بقضية مشاري .

وهنالك تعليل اخر معقول ، يذكره ابن بشر حـــين يرّجح ان امتناع تركي عن التدخل يعود الى اهتمامه بارساء الاستقرار في اقليم الحسا . فقد وردته أخبار عن نشوب اضطرابات في منطقـــة القطيف بـــين اهل جزيرة العماير وحاكم قطيف ، عبد الله بن غانم . وقُطعت طرق المؤن وتعطلت . فحشد تركي قواته وارسلها بقيادة فيصل لنصرة تابعه . وزحف فيصل عن طريق آبار الرمحية على حافة الدهناء ، وهاجم اهل العماير وحاصرهم وهزمهم شر هزيمـــة . ففروا الى حصن الدمام التي كانت من املاك حاكم البحرين. ثم طاردهم فيصل حتى سيهات ووضع خطة لمحاصرة الحامية واكراهها على التسليم. فاحتل جزر تاروت ودارين واقام فيها حاميات من جنده . غير انه توقف عن العمليات الحربية لدى ورود اخبار مرعبة من الرياض، تتحدث عن مقتل والده تركي، على يد انصار مشاري ابن عبد الرحمن ، عند خروجه من الجامع بعد صلاة الجمعـــة ، واحتلال مشاري للقلعة واجباره سكان العاصمة على الاعتراف به اميراً عليهم .

حدثت هذه المأساة المروعة قبل العاشر من ايار سنة ١٨٣٤ ... الا ان فيصلاً كتم الخبر ، ففك الحصار عن سيهات واخذ معه عبدالله بن غانم الى المفوف . وهناك جمع قواده واركان حربه ، ومن جملتهم حاكم الاحساء ، عمر بن عفيصان ، وامير حايل ، عبد الله بن علي بن راشد صديقه الحميم منذ قدومـــه الى الرياض ليعرض خدماته على والده .

وكان هناك اخرون غيرهم يعتمد عليهم فيصل اعتماداً كلياً ، مثل حاكم بريدة عبد العزيز بن محمد بن عبد الله بن حسن ، وحمد بن غيهب من اهل شقرا ، وتركي الحزاني من الحريق . واسرّ اليهم فيصل الخـــبر المفجع الذي ورده ، ثم طلب نصحهم. فقرّ رأيهم بالاجماع على ان يعملوا على استعادة الرياض ومعاقبة المغتصب باقصى سرعة ممكنة . ولتوثيق ما ارتأوه اقسم الجميع يمين الولاء والخضوع لفيصل كإمامهم وحاكمهم، ووضع ابن عفيصان الخزينة المحلية تحت تصرفه التام، ثم وضعت الترتيبات للزحف في اقرب فرصة .

وفي العاشر من حزيران سنة ١٨٣٤ ، وصلت قوات فيصل الى مشارف الرياض . ويبدو ان مشاري لم يكن على علم بهذه التحركات ، غير ان اسوار المدينة وابراجها كانت محروسة بقواته. وأرسل فيصل طليعة جيشه لدخول المدينة واحتلال الابنية المحيطة بالقلعة ، وحين تمكنت هذه من دخول الاسوار ، بوشر بعد ذلك بقصف القلعة في الحال . وكانت القلعة مزودة بالذخيرة والاسلحة لمقاومة الحصار والصمود في وجه المهاجين . الا ان هرب فريق من قبائل السبيع ، اضعف الحامية التي كان تعدادها مائة وأربعين رجلاً . وكان مشاري وحليفه سوّيد بن علي ، اميرُ جلاجل، قد ارسل رسالة الى فيصل،يعرض عليه الاستسلام هو واتباعه على ان تكفل سلامتهم . فوافق فيصل على هذا العرض ، شريطة السماح لرجاله بدخول القلعة. .ودُلّيت الحبال من على الأسوار وصعدت بواسطتها فرقة مؤلفة من اربعين رجلاً بقيادة عبدالله بن رشيد الى السطح وتوزعت تبحث عن مشاري واتباعه ، فأخرجوا من مخابئهم وسحبوا سحباً ثم ذبحوا . والقى الجند برأس مشاري في الساحة العامة ليؤكدوا للشعب بانهم قد ثأروا لمقتل إمامهم .

وبعد ذلك تقاطر أهل الرياض للسلام على فيصل ،حاكمهم الجديد .

كان ذلك في الثامن عشر من حزيران سنة ١٨٣٤ ، أي بعد مرور اربعين يوماً من مقتل تركي الذي دام حكمه زهاء احدى عشرة سنة ،محسوبةً من تاريخ وصوله الى عَرْقَة .

الفصل السابع

فيصل بن سعود



كان حكم تركي القصير الأمد ذا اثر عظيم في استعادة بعض أمجـــاد الدولة الوهابية التي تمزقت شذر مذر ، واعادة مركز بيت سعود السامي . فقد رسّخ تركي مرة ثانية الاسس التي قامت عليها الدولة ، وسارت عليها العائلة المالكة في حكمها خلال نصف القرن الذي سبق كارثة الدرعية . وبفضل ذلك تم له انشاء تلك الدولة التي امتدت حدودهـــا فاضحت امبراطورية لم تعرف الجزيرة العربية لها مثيلاً منذ عصر ما قبل الاسلام ـ هذه الاسس التي مكنت الوهابيين في الماضي ، وستمكنهم في المستقبل من النهوض مرة اخرى ، ليأخذوا مكانهم في العالم المتمدن ، بصورة تفوق ما كان يحلم بـــه تركي ومعاصروه . ولا بد ان يمر كل تطور واصلاح بمحن كثيرة ونكسات متنوعة فالدهر غلّب قلّب . ويجدر بنا ان ننوه بتركي فنقول : ان من الحق القول بانـــه : لولا صبر تركي وجهوده المتواصلة في سبيل اصلاح التركة التي تسلمها مثقلة بالخراب والدمـــار ، لما قامت الدولة السعودية العربية في عهد حفيد سعود العظيم . واذا كان قدّر لأي رجل ان يقوم بهذا العبىء فهو تركي .

لقد ولد هذا الرجل في البيت المالك ولكنه لم يكن ليتوقع الحكم أو يطمع فيه. وها هو الآن .. لقد دعي في الوقت الملائم..وحين كانت بلاده في امس الحاجة لأن يتولى قيادها .. ونجح . بينما فشل الآخرون الذين كانوا يطمحون الى الحكم ، وفي مهمتهم الذي سعوا اليها من ذات انفسهم .

كان تركي متقدماً في السن حينما اغتيل . بيدَ انا لا نعرف تاريخ مولده الا بالحدس والتخمين . وجل ما نعرفه انه لعب دوراً بارزاً جديراً بالتقدير، مثل أي شخص من بيت سعود ، في الدفاع عن الدرعية ضد ابراهيم باشا ، وان ابنه فهداً قتل في المعركة . وكذلك دافع فيصل هو الآخر فقدّر له ان يكون خليفته على العرش . وقد حارب ثلاثة آخرون من اخوته في معركة الدفاع عن الدرعية هم زيد ، ومحمد ، وسعود ، وقُتل الأخيران منهم .

والواقع انه لايرد ذكر لتركي في العمليات العسكرية التي قام بها عبد العزيز الأول وسعود الاول ، غير انه كان مع اخوته حين حضور والده عبد الله وابنائه الى البلاط الملكي ، كما ظهر لأول مرة في تاريخ الوهابية سنة ١٧٤٦ ، عند ما رافق الحملة التي سُيرت لانقاذ منفوحة من حصار دهام بن دوّاس، حاكم الرياض.

ومن هذا الوقت فصاعداً، نجد اسمه يذكر في قيادة حملات حربية عديدة، نيابةً عن والده ، وعن اخيه العظيم عبد العزيز الاول .

وفي سنة ١٨٠٣ نجده بجانب عبد العزيز الاول عندما قتل اثناء تاديته صلاةَ الجمعة في جامع طريف ، على يد احد الشيعيين المتعصبين، انتقاماً لتدنيس كربلاء. ويذكر المؤرخ كذلك انه كان يعيش عن سعة خلال السنوات الاحدى عشرة التي امضاها ابن اخيه سعود في الحكم ، وان كان تاريخ وفاته غير مدون . ولا بد ان وفاته وقعت في زمن ما قبل عام ١٨١٤ . وربما سنة ١٨١٢ . و بهذا يكون قد امضى ستا وستين سنة من العمر منذ الحملة التي جرت سنة ١٧٤٦ .

ومن المعقول ان عمره آنذاك كان عشرين عاماً . فيكون عمره حين وافته المنيـة ٨٦ سنة . بينما ولد اخوه عبد العزيز الاول سنة ١٧٢١، وابنه البكر وخلفه سعود في سنة ١٧٤٨، ولهذا يكون عمر عبد العزيز عندما اغتيل سنة ١٨٠٣ ، ٨٢ سنة ، ويكون عمر سعود يوم ارتقى العرش ٥٦ سنة وعمره عند وفاته ٦٦ . وهكذا نجد ان ابناء العم سعود وتركي لايكبر أحدهما الاخر بكثير. وعليه فلا يمكن ان يكون عمر تركي اقل من ثمانين عاماً يوم اغتياله سنة ١٨٣٤ .

والمعروف ان فيصل بن عبد الله اشترك في القتال الذي وقـع في الدرعيـة . ويذكر ابن بشر انه رافق حملة سعود التي ادت الى احتلال مكـة سنة ١٨٠٣ ولم يكن قـد تجاوز الخامسة عشر في تلك المناسبة بينما كان في منتصف العقد الرابع عندما اعتلى العرش ، واكثر من سبعين عاماً عندما توفي سنة ١٨٦٥ .

وطول اعمار حكام السعودية البارزين ظاهرة غريبة. فقد بلغ عمر ثمانية اجيال فقط ثلاثمائة سنة : منذ مولد محمد بن مقرن والد سعود الجد الكبير سنة ١٦٤٠ . وهناك مائة عام تفصل بين مولد سعود وموت اكبر ابنائه وخلفه محمد. بينما هنالك اكثر من قرن كامل بين مولد ابي الملك المتوفى (عبد العزيز) واسمه عبد الرحمن وبين وفاة ابنه عبد العزيز نفسه سنة ١٩٥٣ .

لم يبلغ تركي قطّ الحدود التي كسبها ثم أضاعها سلفه. فلم يكتَب للحجاز ان تعود الى الحظيرة الوهابية الا بعد قرابة قرن من الزمن . اما اليمن فقد ضاعت نهائياً ، بينما كانت اقاليم نجران وعسير مستقلة فعلاً تحت قبائلها الحاكمة . ومن ناحية ثانية نجد ان اقليم الاحساء قد استسلم وخضع ، بخلاف عُمان التي لم تخضع كليةً ، بل اعيدت الى الحكم . وكان جبل شمر ووادي الدواسر يشكلان الحدود الشمالية والجنوبية للحاجز الاوسط. بينما كانت الواحات الغربية (بيشة ورنيا ،حرمة وترابه ، خيبر وتيماء) فيما يبدو متصلة بدولة سعود براوابط اضعف. ولقداستطاع تركي ان يرسي قواعد شيء من السلام والنظام في المناطق العشائرية والحضريـة

وان كان وصف المؤرخ الشعري[٤] للحالة في زمنه يجب ان يُسقط من الحساب عند تقدير التركة التي آلت الى فيصل .

كان فيصل رجلاً ديّناً ،ميالا للبحث والدرس والتقشف،مطلعا تمام الاطلاع على مبادىء الدين . فقد حفظ القرآن في صغره ، وكان يقضي الساعات الطوال في التهجد ، والتضرع الى الاله القدير طالباً المعونة الربانية ليتغلب على متاعبه الدنيوية . ويا لها من متاعب ! تلك التي انصبت عليه ، كما يقول ابن بشر . واي مخاطر تلك التي واجهها ! تلك التي تبعث اليأس في نفس الاتقياء والعظماء على السواء ، ناهيك عن الحكام والامراء .

ولقد خُيل اليه عندما ارتقى العرش ان حكمه ميسوده الهدوء والازدهار. فقد كان تكريسه حياته لدينه وبلاده وشعبه لايقل قطعاً عما كان يتميز به والده في هذه الناحية . ولدى عودته الى نجد سنة ١٨٢٨ كان قد امضى زهرة ايام حياته اسيراً عند الاتراك بمصر . وفراره من مصر للانضمام الى والده دليل على عزمه المخلص على تحرير بلاده من الحكم والتدخل الاجنبيين .. وبعد مرورست سنوات اصبح يد والده اليمنى في اعادة بناء الدولة وارساء الاستقرار فيها .

لقد لعب دوراً بارزاً في استرجاع اقليم الاحساء الحيوي الذي كان يعتمدعليه اقتصاد البلاد الى حد كبير.ولم تكن دعوته لتسلم عرش اجداده بالصورة المفاجئة التي عرفناها فاصلاً في تصريف امور الدولة بل استمراراً له.ومع هذا فلم يُكتب لحكمه ان يمر بسلام . فهذه الصور الاخيرة التي رسمها وليم جيفور بلغريف William Gifford Palgrave والكولونيل لويس بلي ColonelLewisPelly له في اواخر ايام حياته تظهره لنا كشيخ اعمى محطم، كثير الشكوك،سريع الغضب متقلب الاطوار ، ينقاد الى رجال البلاط بسهولة ولا يزال ظل الفتن الداخلية يخيم على اواخر أيامه .

وقد عاش ابن بشر ليرى هذه المتاعب تتطور وتصبح نزاعاً يقتل فيه الاخ

اخاه . الا انه ليس من سبب يدعونا للاعتقاد بان تقدير ابن بشر الموجز لمزايا اولاد فيصل يعود الى معلوماته السابقة. وكونه لا يذكر عبد الرحمن الذي ولد سنة ١٨٥٠ ، وانهاؤه تاريخه بسنه ١٨٥١ ، يدل ، كما يبدو، على ان ابن بشر لم يكن مهتماً بالأمر ولا متحمساً له . الا ان دعاءه الى الله أن يجعل ذرية فيصل جديرة باسمه ، وان يسدد خطاها للسير في الطريق السوي يستثير في نفس قرائه الشك في ان الامور كانت سائرة سيراً حسناً .

ومها يكن من امر فإن المؤرخ ليفضل محمداً على اخوتـه ابناء فيصل، دون ان يذكر بأنه كان اكبرهم سناً . وهو يذكر مثلاً عن محمد هذا واخيه عبد الله ، أنهما كانا أنموذجاً للفضيلة والحماس الديني ، بينما يمتدح سعوداً ، اصغر الثلاثة، على مسلكه الملكي وشجاعته وكرمه منذ طفولته .

وهكذا يظل القارىء لا يعرف تاريخ مولد اي منهم ، وان كان من المحتمل ان يكون محمداً وعبد الله على الاقل ، قد ولدا قبل سقوط الدرعية. هذا اذا لم يكن سعود ايضاً . ومن الجائز ان سعوداً ولد بعد هرب والده من مصر سنة ١٨٢٨ . وعندئذ ، لا بد انه كان لا يزال طفلا يوم ارتقاء فيصل العرش. فقد مات سعود وعمره يقل عن الخمسين .

كان ذلك سنة ١٨٧٥ م .

كانت الاضطرابات التي حدثت في اواخر عهد فيصل لاتزال بعيدة طي الغيب سنة ١٨٣٤ حينما تسلم زمـام الحكم. وقد افتتح عهده بمؤتمر الرياض الذي استمر شهراً كاملاً ، حضره اثناءه جميع فقهاء الدولة البارزين ، ومنهم علي وعبد الرحمن ، حفيدا الشيخ محمد بن عبد الوهاب وولدا حسين ، اللذين كانا قاضيين في الحوطة والخرج .

ثم تبع هذا المؤتمر زيارات التهنئة المعتادة من زعماء مختلف المناطق والمقاطعات لتأدية فروض الطاعة نيابة عن الاهلين في اقاليمهم . . وانتهى فيصل من هذه

المراسيم، فارسل جباته شمالاً وجنوباً وغرباً وشرقاً لتحصيل الضرائب المستحقة لبيت المال. اما الجباة الذين أرسلوا الى الجنوب فذكروا قيام فتن داخلية في وادي الدواسر والافلاج، مما دعا فيصلاً الى ارسال حملة عسكرية لاعادة النظام بين السكان.

وفي هذه الاثناء تمكن من اخضاع شرذمة من قبيلة الدواسر كانت تعسكر في مرابعها الشتوية في صحراء العرمة، أثناء طريقه الى معسكره الربيعي قرب الطوير. وكان قد عيّنها كنقطة اجتماع للفرق العشائرية والقوات الحضرية التي تؤلف جيشه. ثم سار بجيشه لإقامة طويلة في الشعرا Sha'ra من مرتفعات نجد، وهناك وجه اهتمامه الأول نحو حاجات الناس الدينية فجعل فقهاءه يفرضون على الاهلين حضور الدروس كل يوم بعد صلاة العصر. غير انه لم يهمل حاجات الدولة الدنيوية، وخصوصاً خزينتها. فقد ظل الجباة يعملون بلا هوادة.

وحين نمي اليه ان جماعة من قحطان هربوا فراراً من دفع الضرائب المستحقة عليهم بحث الجند عنهم حتى وجدوهم. وقام فيصل بنفسه يعاقبهم على فعلتهم عقاباً صارماً، فقتل زهاء الستين رجلا اثناء هذه الاجراءات التأديبية. ومثل هذه الحوادث شيء عادي كثير الوقوع في حياة الصحراء، ولا يعني السخط على الحكومة مطلقاً.

وفي أيار سنة ١٨٣٥، جلب فيصل على نفسه المتاعب في اقليم قصي، عندما قرر بان يكافىء عبد الله بن علي بن رشيد، صديقه الحميم ونصيره الجبار في القضاء على فتنة مشاري، بتعيينه حاكماً لجبل شمر بدلا من صالح بن عبد المحسن، حاكمه آنذاك. وكان هذا يمثل مشيخة العائلة الحاكمة في حايل.

وقد ارسل فيصل مع الأمير الجديد أحد الفقهاء البارزين ليلقن الاهلين مبادىء الدين الصحيحة. غير انه حدث اضطراب في حايل من اثر هذا التعيين الجديد، بدأ بنزاع حدث في الجامع بعد صلاة الجمعة، وانتهى بفرار الحاكم المخلوع مع جميع افراد عائلته الى القصيم، بعد اشتباك شديد مع رجال الزعيم الجديد. فلما علم فيصل بالأمر، أصدر تعليماته الى امير القصيم ان يلقي القبض على الفارين

ويقتلهم . فنفذ الأمير ذلك ، وقتل صالحاً وبعض افراد عائلته ، بينما هرب الاخرون الى المدينة المنورة .

وهكذا ظل عبد الله، سيدُ شمر المطلق تابعاً للدولة الوهابية. ثم خلفه في الامارة ولدان من اولاده . اما ابنه الثالث محمد فلم يكتف بأن يعمل على استقلال دولته استقلالا تاماً عن الرياض بل استطاع ضم الدولة الوهابية الى دولته حتى نهاية القرن.

وفي هذه الفترة ، كان الاتراك في الحجاز يحاولون ، جاهدين ، ان يسيطروا على اقليم عسير ، بمساعدة شريف مكة ، محمد بن عوف . غير ان الضرائب والغرامات الفاحشة التي فرضها الجيش الكبير الذي وفد من اجل هذه الغاية ، ادت الى رد فعل بين القبائل . فاحتشدت للهجوم على جيش العدو واوقعت به شر هزيمة . ولم ينج من افراده الا القلائل الذين فروا الى مكة مع احمد باشا والشريف . وعلى اثر ذلك استدعى محمد علي باشا ، الشريف واحمد باشا الى مصر ، في صيف ١٨٣٥ واعتقل الشريف : اما لارتيابه في انه لم يلعب دور التابع المخلص الامين ، او انتقاماً منه جزاء الفشل الذي منيت به الحملة .

وفي هذه الاثناء ، ارسل شيوخ عسير ، معظم الغنائم والاسلاب. التي استولوا عليها من الاتراك الى فيصل . وكان هذا دليلاً على دعمهم للقضية الوهابية . بينما ارسل محمد علي الذي كان في سبيل وضع خطة لاخضاع فيصل ، ارسل اليه الدواسري ابن عبد الوهاب ابي نقطة الذي كان اسيراً في مصر منذ سقوط الدرعية ، ليطلب منه ان يدفع الجزية .

اما فيصل فكان قد ارسل هدايا ثمينة الى احمد باشا في مكة مع اخيه جلوي .. وكان هذا شاباً لا يربو عمره انذاك على الخامسة عشرة. فقد ولد اثناء اقامة ابيه في المنفى بعد هربه من الدرعية . ثم مكث جلوي في مكة ليؤدي فريضة الحج في نيسان من سنة ١٨٣٦، اي قبل عودة اخيه من مضاربه الربيعية في روضة طنْحَة (في الطرف الغربي من الدهناء)، حيث كان يجمع الضرائب ويعمل على حفظ

الأمن والنظام في الصحراء . ومن المحتمل ان هذا المكان هو نفس المكان الذي استقبل فيه فيصل ابناء عبدالله بن خليفة ، شيخ البحرين . وكان هو نفسه قد قام بزيارة ساحل الخليج ليتقبل فروض الطاعة والولاء من حكام القطيف وسيهات .

ولدى عودته الى الرياض ، ارسل احدَ عبيده الموظفين الى القصيم ليجمع الضرائب من قبيلة عنزَة . كما وأرسل ، بناءً على طلب زعماء القصيم البارزين ، عبدَالله بن عبد الرحمن ابو بطيّن ، احد الشيوخ المعروفين ، الى عُنزَة ليرعى الشؤون هناك خلال زيارة اراد الشيخ ان تكون قصيرة .. وقد نجح في مهمته حتى ان السكان الحّوا عليه ان يأتي بأهله ويقيم بين ظهرانيهم اقامة دائمة . وصادف ان احتبس المطر سنة ١٨٣٥ ـ ١٨٣٦ فتميزت السنة الجديدة بفترة طويلة من الجفاف وارتفاع فظيع في الاسعار هاجرت بسببه اعداد كبيرة من السكان الى جهات البصرة والزبير .

ويذكر ابن بشر ظهور مذنب معروف، في برج الدب الاكبر ، مدة خمسة او ستة أسابيع ، ويعتبره نذير شؤم يدل على الجفاف الذي اجتاح البلاد انتقاماً لمقتل تركي وما نتج عنه من شر . ويذكر المؤوخ ان جفافاً مثل هذا اصاب البلاد بعد مقتل عبد العزيز .

الا ان المذنب والجفاف وانحباس الأمطار كانت نذير سوء وشؤم لكارثة اعظم واشد . فقد صمم باشا مصر على اخضاع الصحراء العربية لارادته. وساعفه في سبيل تحقيق مشروعه مساندة خالد بن سعود (الجد) ، وشقيق مشاري الذي حاول اعادة العائلة المالكة سنة ١٨٢٠ ففشل . وكان خالد هذا ، احد افراد العائلة المالكة الذين اخذهم ابراهيم باشا معه الى المنفى في مصر ، حيث امضى ثمانية عشر عاما ، كما انه اكبر الذكور الاحياء من اخوة عبدالله ، السيء الحظ .

وقد انتحل احد الاشخاص شخصيته محاولاً بذلك تحدي مركز تركي في

الرياض غير ان المحاولة فشلت كما رأينا . أما الآن فلا حاجة الى الانتحال . وانما لحركة بارعة من محمد علي ، ان يشرك معه في مشروع الاغارة على نجد شخصاً قد يعتبره النجديون الوارث الشرعي لامجاد البيت الحاكم .

وفي اواخر سنة ١٨٣٦ او في بداية السنة التالية ، وصل خالد هذا الى ينبع . وكان يصحبه اسماعيل آغا ، القائد التركي للحملة التي قدر عددها بالفي مقاتل. اما فيصل فارسل جاسوساً مع بعض الهدايا الى اسماعيل وكلفه ان ينقل اليه ما ينوي القائد عمله . وبناء على المعلومات التي نقلها الجاسوس عن تقدمه ماراً الى الحنكية ، وتمشياً مع نصيحة عبد الله بن رشيد والزعماء الآخرين الذين كانوا موجودين في الرياض انذاك، قرر فيصل احتلال القصيم، استباقاً للعدو، ولئلا يؤدي وصول اسماعيل الى خضوع اهلها . وبعد ان اصدر اوامره الى قواته بوجوب الاحتشاد في مكان معين يقع في الشمال ، غادر الرياض في شهر آذار عن طريق خفيسة الى صريف . وهناك علم بان اسماعيل وخالداً قد وصلا الى رس . فانتقل الى عنيزة حيث انضم اليه جنودها وجيش بريدة تحت قيادة امرائهم ، في زحفه على موقع رياض الخبرة ، القريب من رس .

وبعد مناوشات غير منتظمة ورفض سكان شنانه، الذين ذهب امراؤهم الى رس للمفاوضة على شروط الاستسلام ، ان يسمحوا لقوة من جيش فيصل بدخول المدينة ، انسحب فيصل الى عنيزة . وكان هذا بدء انهيار القوات الوهابية ، فعاد فيصل نفسه الى الرياض وتخلى كما يبدو، عن فكرة مقاومة احتلال العدو للقصيم.

وحتى في الرياض وقع فيصل فريسة للخداع. فقد وجد الناس هناك غاضبين ليس لديهم ادنى ميل الى مساعدته : اما لفشله في مقاومة احتلال الاتراك للقصيم، واما لان اصدقاء خالد قد نجحوا في تأليب الرأي العام عليه . وخوفاً من الخيانة والخديعة بقي فيصل في عاصمته حتى فرغ من جمع الاسلحة، والمؤن والأموال الموجودة في القلعة . . فحملها معه وسار ببقايا جيشه الى الخرج . وبعد ان مكث

فيها عشرة ايام ، اتجه نحو الاحساء فوصلهافي بداية شهر أيار سنة ١٨٣٧ تقريباً . ومكث هناك الى منتصف شهر تموز حتى تأكد من ولاء حاكمها،عمربن عفيصان. ثم اخذ يحشد جيشاً يتألف من قبائل مطير والعجمان وسبيع والسُّهول ، ومن مدن الاحساءوقراها. وكانت هذه القبائل تكره رؤية الاتراك بين ظهرانيهم مرة اخرى.

وفي هذه الاثناء زحف اسماعيل آغا بجيشه على عنيزة فاستسلمت بعد مقاومة قصيرة . ثم خضعت بريدة بدون مقاومة . وكذلك باقي الاقليم . فوجه اسماعيل انتباهه الى حايل . وفرّ اميرها عبدالله بن رشيد تاركاً المنصب خالياً ، فعين فيه اسماعيل أغا رجلا يدعى عيسى بن علي نيابة عن خالد بن سعود . وفي هذه الاثناء وصل وفد من الرياض الى عنيزة كي يعرض على خالد بن سعود خضوع بقية نجد فيما عدا الخرج وفرَعة . وكان زعماء هذين البلدين قد كاتبوا خالدا يعرضون عليه قبولهم به حاكماً على نجد شريطة ان لا يكون للاتراك به علاقــة . ووصلت هذه الرسالة لدى وصوله واسماعيل آغا الى الرياض في بداية شهر أيار، فاصر اسماعيل على تأديب هؤلاء على وقاحتهم .

وفي الاول من تموز قام خالد واسماعيل باخضاع اهل المحمل وتنظيم الشؤون الادارية في المنطقة ، ثم سارا بجيش من الاتراك والعرب يقدّر بسبعة الاف مقاتل الى الجنوب . وانظم اليهما في الطريق ، فهد بن عفيصان حاكم الخرج . اماسكان الحوطةوالحريق وبقية اهالي وادي فرعة فقد قرروا ان يقاوموا الاتراك مهما كانت النتيجة . وقد شجعهم على اتخاذ هذا القرار ثلاثةٌ من احفاد الشيخ محمد بن عبــد الوهاب وجميع مُشايخ الرياض البارزين الذين كانوا قد هربوا الى الحوطة قبــل وصول خالد واسماعيل .

وقد قابل الفلاحون كتائب الجيش الغازي وقاوموها بكل بسالة . ونشبت بين الفريقين معركة عنيفة اندحر فيها الاتراك ومشايعوهم اندحاراً ساحقاً. ومنوا بخسائر فادحة في الميدان، فولوا الادبار باتجاه الصحراء ، مخلّفين جميع مدافعهم

ومعداتهم . وفر خالد واسماعيل الى الرياض مع فلول فرسانهما ، بينما فر فهـد بن عقيصان الذي انضم الى المعتدين في الطريق ، تحت جنح الظلام . واخـذ هو وجنوده يبحثون عن الهاربين ويقتلون منهم من امكن قتله .

وعاد فيصل الى الاحساء لدى سماعه بهزيمة العدو ، فعسكر بجيشه في دِ دَلَمْ ، حيث انضم اليه اهل الخرج واعداد كبيرة من اهل الحوطـة والحريق . وكان اسماعيل اغاقبل زحفه الى الجنوب، قد وضع قوة من الاتراك والمغاربة في الرياض وعندما وصل فيصل الى قرية المصانع الزاخرة بمزارع النخيـل ، خرج اليه خالد بقوة كبيرة من الاتراك واهل الرياض ليمنعه من المرور، ولكنه اندحر عندما القى فيصل بقواته الاحتياطية الى اتون المعركة . فلجأ خالد الى منفوحة لأن الطريق الى الرياض كانت مسدودة بقوات فيصل .

ويبدو ان خالداً نجح في الفرار الى العاصمة، ان كان قد حضر معركة المصانع . لأنه لم يكن بين الذين استسلموا لفيصل بعد حصار منفوحة. ثم اخذ فيصل يحاصر الرياض نفسها بعد ان احتل جميع مزارع النخيل المحيطة بها . اما خالد واسماعيل فلم يكن في ايديهما غير المدينة الواقعة داخل السور .

وقد بدأ هذا الحصار في السابع من ايلول سنة ١٨٣٧ واستمر حتى نفذت منها جميع ضروريات الحياة . فقتلت جميع الحيوانات الموجودة داخل المدينة من اجل لحمها ، حتى خيول الفرسان ذبحت وأكلت . وارتفع سعر البن حتى بلـغ سعر الصاع ثمانية ريالات .

واخذ خالد ينتقم لنفسه بتدمير بيوت كل من كان في معسكر الاعداء، وبعد ذلك بمدة جمع جميع الذين لا يصلحون للدفاع وقذف بهم ليلاً مـن احد ابواب السور ليجدوا لهم عوناً في معسكر الاعداء اذا استطاعوا .

وقد استمر الحصار حتى الخامس من تشرين ، عندمـا قرر فيصل، بناءً على نصيحة مستشاريه، أن يقتحم المدينة. فنصبت السلالم على نقاط كثيرة من السور . .

ونجح المهاجمون في فتح ثغرة ثبّتوا فيها اقدامهم. غير ان المدافعين قاتلوا بشراسة.. ففشل الهجوم وأحبط .

وفي هذا الوقف الشديد الحرج ، اي في العاشر من تشرين الاول مــن ذلك العام وصلت قوة كبيرة من قبائل السبيع وقحطان لتخفف الضغط عن المدينة . وغربت الشمس.. وتحت جنح الظلام ، رفع فيصل الحصار عن المدينة وانسحب الى منفوحة . وبعد مرور خمسة أيام تم اثناءها تبادل الرسائل بشأن تسوية سلبية للنزاع ، اجتمع فيصل وخالد على ارض محايــدة بين المدينتين ، طوال ثــلاث ساعات . ولكن دون نتيجة. فلم يكن هنالك اي امل في حل مشكلة وجود الاتراك الذين انضم اليهم خالد. هذا من جهة. اما من الجهة الاخرى فان فيصلا وجميع ضباطه البارزين علاوة على اهل نجد، كانوا يرفضون عودة الاحتلال التركي.

وهكذا استعر القتال من جديد ، مع ان انسحاب فيصل مكّن انصار خالد من ارسال الاغنام والمؤن الى الحاميــة ، بالرغم من محاولة فيصل الاستيلاء على القافلة التي حملتها . فنشبت معارك متفرقة في نهاية تشرين الثاني واوائل رمضان . ووصلت قافلة اخرى من القصيم بالرغم من الجهود التي بذلها فيصل لمنعها ، ولم تات هذه القافلة بكميات من النقود للجنود الاتراك فحسب، بل حملت معها اخباراً مشجعةً عن وصول خورشيد باشا مع نجدات الى اسماعيل وخالد .

حدث ذلك في الثالث من كانون الثاني سنة ١٨٣٨ .

وكانت المشكلة الان هي كيفية الاسراع في مجيء الاترك الى الرياض ، فقد تأخروا في القصيم خوفاً من ان يهاجمهم فيصل في الطريق . فتقرر ارسال حرس من العرب مع عدد من الجمال الى هذه القوة ، تحت امرة شخص يدعى السُيَيْفي بصحبة ضابط تركي. ووصل الحرس القصيم .. ولكنهم وجدوا ان خطة الإتراك تقضي بمداهنة فيصل وملاطفته بدلا من مداهمته والقضاء عليه .

ومن اجل هذه الغاية ، اصطحب خورشيد باشا ، عبدَ الله ، وهو من ينبع ،

ومضى لزيارة فيصل حاملاً اليه بعض الهدايا . وتحدث اليه بكلام معسول واعداً بتثبيته في منصب امارة نجد . ولذا بقيت النجدات والامدادات مع خورشيد في القصيم ولم يحتاجوا الى حراسة السُّيَيْفي. غير ان الشريف عبد الله، خرج لمقابلة فيصل . واغراه فعلاً على ترك مقاتلة خالد . وربما كان هذا على امل ان يـفي الاتراك بشيءٍ مـن وعودهم التي قطعوها له في وقت ملائم . واقتناعـا بهذا جمع فيصل المؤن والذخائر في الرياض وضواحيها ، وصرف حلفاءه من القبائل، ثم قصد الى الخرج،حيث استقر في دلمفي ضيافةعائلةعفيصان. وكان بصحبة هناك قوة من المناطق الجنوبية كافية للدفاع عن نفسها. ثم ارسل فيصل اخاه جلوي الى خورشيد باشا في المدينة المنورة ، في الرابع والعشرين من شباط ، مع بعض الهدايا والرسائل ، ليقف على ما يضمره الاتراك نحوه .

وفي الوقت ذاته ، اتخذ جميع الاحتياطات اللازمة لتأمين الجنوب باكمله بما في ذلك عُمان والاحساء ووادي الدواسر ، واعدادهم لمجابهة الطوارىء . ويبدو ان فيصلاً كان محظوظاً آنئذٍ في الشمال. فقد نجح ابن رشيد في الاستيلاء على حايل من عيسى بن علي منتخب الاتراك . اما شمالي الخرج ، فقد كانت البـلاد تحت سيطرة خالد ، الذي استقبل وفوداً من مقاطعـات المحمل وضرمى ، فطلب الى جباتـه بان يحصلوا الضرائب من البـلاد التي كانت لاتزال ترزح تحت وطأة الجفاف والمجاعة .

ووصلت الامدادات التركية من القصيم في وقتها المحدد،بقيادة القائد الكردي الملا سليمان، وكان قد وقع عليه الاختيار ، ليخلف اسماعيل آغا الذي عـاد الى مصر . وأرسل احمد السديري حاكماً لاقليم السدير ومعه قوة من خيالة الاتراك. ثم صدرت اليه الاوامر بتحصيل الضرائب المستحقة للحكومـة وتحصيل غرامة من زعمـاء الاقليم ، عقاباً لهم على الدور الذي لعبوه في حصار الرياض قبل مدة. واستطاع احمد أن يهدىء من عاصفة غضب الاتراك على بلاد انهكتها المجاعـة وقتلها

الجفاف . وفي نفس الوقت كان حازماً في تحذيره للسكان من ابداء اية ميول عدائية نحو حكامهم الجدد (الاتراك) . .

وفي نهايـــة ايار وصل خورشيد باشا الى عنيزة ، يصحبه جلوي . فاستُقبل بحفاوة واكرام بالغين وبتاكيد الولاء والاخلاص، من قبل السكان . غير ان حادثا تافهاً وقع في حزيران كان من أثره ،اثارةُ العداوة بين الشعب وضيوفهم . مما ادى الى خسائر فادحة بين الطرفين . لكن الأمن اعيد الى نصابه بعد ثلاثة ايام .

وقد امضى خورشيد في عنيزة زهاء الخمسة اشهر ، قضاها في تصريف شؤون الاقليم ، واستقبال الزوار والضيوف . وكان اعظم الزيارات تلك التي قام بها عبد الله بن رشيد، فثبّته خورشيد أميراً على حايل وقدم له الهـــدايا الكثيرة لدى رحيله . وكان من جملة الزوار البارزين الاخرين ، زعيم قبيلة مطير ، محمد الدويش واحمـــد السديري الذي جاء معلنـــاً ولاء الاقليم وخضوعـــه ، فاستقبل بمظاهر الحفاوة الخاصة .

اما خطة خورشيد في احتلال الجزيرة العربية احتلالا دائمـــاً والاقتتال الذي لابد منه بينه وبين فيصل ، فقد بدأت تتضح وتنجلي . ولم يكن جلوي في الواقع الا اسيراً لدى مضيفه ، فتمكن من النجاة بجلده ، بحيله بارعة . اذ استحصل على اذن بزيارة بريدة ، ومن هناك هرب فانضم الى اخيه في الخرج . وكان خورشيد آنئذ منهمكاً في اعادة بناء حصن الصفا الواقع في واحة عنيزة وتزويده بما يلزمه من المؤن والعتاد .

وفي اواسط تشرين الاول من سنة ١٨٣٨ زحف خورشيد جنوباً الى الرياض عن طريق الوشم ، حيث انضمّ اليه خالد وجنود العارض، للزحف على الخرج . فوصلت هذه القوات المشتركة الى نجعان في اخر يوم من تشرين الاول، لتجد أن السكان جميعهم قـــد انضموا الى فيصل في دلم . فهاجمهـــا خورشيد وخالد . وخرجت جماعة من حامية المدينة ، الا انها رُدت على اعقابها بعد معركة ضارية

عرف باسم معركة الخراب،على اسم خرائب قرية قديمة كان خورشيد قد اتخذها مقراً لرئاسة اركانه .

اما فيصل، فبعد ان حصّن أسوار المدينة وحفر حولها خندقاً واقام حصونا للاشراف على المنبع الرئيسي للمياه خارج الاسوار ، نظّم جيشه وأعدّه لمواجهة هجوم العدو .. واستعرت المعركة بشراسة في نقاط حيوية مختلفة . وخاصةحول حصن هنا، الذي تبادلته الايدي مراراً كثيرة. غير ان الاتراك احتلوه آخر الامر فأصبحوا يسيطرون على موارد المياه .

وفي هذه المرحلة الخطيرة من القتال وصل عمر بن عفيصان الى قرية السليمية على رأس قوة من الاحساء ، وبعث الى فيصل يقترح عليه ان تخرج من الحامية جماعة قوية تهاجم الاتراك ، كي يقوم هو بالهجوم من الخلف .. ونشبت المعركة في ٢٥ تشرين الثاني .. وسيطر الموت من الفجر حتى العصر. وكان هجوم الاتراك عنيفاً بعد هجوم معاكس قاموا به واضطروا ابن عفيصان ان يتوقف عن هجومه ويرتد الى السليمية .. ونظم ابن عيفصان كميناً لقافلة تركية قادمة من الرياض ، عنـــد حاير في وادي حنيفة . غير ان خورشيد ارسل طابوراً من الجيش لانقاذ القافلة وصد الهجوم ، فوصلت بامان الى هدفها .

وانتقل ابن عفيصان بعـــد ذلك الى قرية زُميقَة قرب دلم،حيث كان قسم كبير من ذخيرة فيصل . لكن خيبة امله في النتائج البسيطة التي حصل عليها حتى الآن ، ادت الى تذمر بين جنوده فرفعوا عقيرتهم بالشكوى . ثم انسحبت فرقتا الحوطة والحريق ومضتا الى بلادهما . اما اهل زميقة فقـــد اعتراهم الذعر لدى حدوث هذه التطورات ففروا مع عائلاتهم الى الصحراء .

وحينئذ انسحب ابن عفيصان الى السليمية ومنهـــا الى آبار السدير ليكون بمنأى من مطاردة اعدائه له . فاحتل خورشيد قريةزُميقة ، واستولى على مخازن المؤن ، في الثاني من كانون الأول (١٤ رمضان) . وبعد اربعة عشر يوماً ارسل

اهل الحوطة الهاربون وفداً عنهم الى خورشيد يطلبون العفو وعقـــد الصلح ، لا بالنسبة اليهم وحدهم بل بالنسبة الى مواطنيهم الذين انضموا الى فيصل ايضاً . فمنحهم خورشيد ما طلبوا .

وهكذا وقع فيصل في ورطة كبيرة . فما كان منه الا ان وافق على طلب العفو العام عن الحامية بأكملها . . وكان ما دعاه الى ذلك أنه شعر بأن فرقة الحوطة ستنسحب من جيشه او تغدر به. وقد أبلغ خورشيد رسول فيصل أن الاتراك على استعداد لأن يوافقوا على طلبه ، شريطة ان يستسلم فيصـــل نفسه ، ويذهب الى مصر ، لينضم الى بقية أفراد عائلة سعود هناك .

عندئذ توقف القتال بعد ان قرر فيصل الاستسلام للقائد التركي بعد ضمان سلامته وحماية ممتلكات الذين اخلصوا له وخدموه . وتم له ذلك . . وانقضت اربعة ايام ، اي في العشرين من كانون الاول سنة ١٨٣٨ ،ثم بدأ فيصل السير الى مصر بحراسة حسن اليازجي ومرافقة اخيه جلوي وابنيه : عبدالله ومحمد(فقد كان سعود صغيراً فلم يرافقهم) ، وابن عمه عبدالله بن ابراهيم بن عبدالله بن محمـــد المعروف باسم سنَيْتَان .

ولدى وصول فيصل الى القاهرة أعدّ له منزل يقيم فيه تحت الحراسة . ويبدو انه كان يقضي أيامه ولياليه في التهجد والصلاة ، حتى قيـــل إن المرضى كانوا يقصدونه ليتلو عليهم شيئاً من القرآن الكريم وليشفيهم ببركته .

اما عمر بن عفيصان الذي كان مخلصاً لقضية فيصل فلم يثق بوعـــد خورشيد بالعفو العام ، والتجأ الى البحرين فترة من الزمن ، ثم استقر نهائياً في الكويت . الا انه اسدى النصح الى اصحابه في الاحساء ان يذهبوا الى الرياض ويقسموا اليمين على الطاعة لإمامهم الجديد الذي اصبح السيد المطلق على اقليم نجد تحت نائب السلطان المصري وممثليه المحليين .

وهكذا دام حكم فيصل اربع سنوات ونصف ، وأمضى عشر سنوات حراً طليقاً قبل ان يعود ثانية الى الأمر .

ونقل الاتراك احمد السديري من امارة السدير الى اقليم الاحساء الذي لم ينس اهله اعتداءات جيش ابراهيم باشا . وكان هذا النقل اشارة الى ان العهد الجديد سيكون ارحم من القديم ، الا ان تغيير الاسلوب كان مؤقتاً فقط . فما كاد احمد يهدىء مخاوف الاحساويين وينظم ادارة اقليمهم ومنطقة القطيف ، حتى نُقل ليشرف بنفسه على الخزينة العامة ، بينما خلفه في المنصب رجل تركي اسمه محمد افندي صار يُضرب المثل بطغيانه وقسوة معاملته .

وطبيعي ان الظالم قصير العمر ، فقد قتل محمد افندي على يد مجهولين بينما كان عائداً من زيارة قام بها الى عين نجم ذات المياه المعدنية . وخشي احمد السديري ان تُسند اليه تهمة التحريض على مقتله ، فأعلن عن مكافأة سخية لمن يدلي بمعلومات تؤدي الى اعتقال القتلة وتنفيذ حكم الاعدام فيهم . واتجهت التهمة الى ثلاثة رجال من قبيلة العوازم من اتباع امراء بني خالد ، كانوا قد طلبوا الغاء منصب الحاكم. ولكن خورشيد باشا لم يقتنع بصواب رأيهم فأرسل من الرياض حاكماً آخر اسمه محمد افندي ايضاً . وتابع الحاكم الجديدسياسة العنف والطغيان التي انتهجها سلفه ، فسخط من ذلك احمد السديري وبانت نقمته على هذه التصرفات الرعناء ، فطُرد من منصبه وعُيّن مكانه عيسى بن علي بن فايز ، تعويضاً له عن منصب امارة حايل الذي فقده من قبل . وكان مقتل محمد افندي الاول في تشرين الاول سنة ١٨٣٩ ، وطرد احمد السديري في الشهر التالي .

كان خورشيد باشا في هذه الاثناء منهمكاً بتخريب اقليم الخرج ، فدمر تحصينات دلم ووضع حامية في السليمية ، ووكل اليها أمر الاشراف على الاعمال الزراعية والري التي تعتمد على ينابيع منطقة سيح Saih المشهورة. هذا كما فرض على اهل الحوطة ووادي فرعة ان يدفعوا مقادير كبيرة من التمر والحنطة .

ولدى عودته الى الرياض ارسل خورشيد الى قائد الحامية ، حسن المعاون ، بتعليمات يطلب اليه فيها وجوب احصاء المحاصيل الزراعية والواردات في نجد باكملها : من القصيم حتى الاحساء. ولم يكتف القائد التركي بكل هـــذا . ففي ١٨٣٩ ، نقل مركزه من الرياض الى ثرمدة ، حيث بنى حصناً كبيراً لإقامـــة الحامية، وطلب من سكان المدن والقرى أن يرسلوا نصف محاصيلهم الى هنـــاك بالرغم من ان الاحوال السيئة التي خلفتها المجاعة وكانت لا تزال سائدة في البلاد.

وفي آذار من سنة ١٨٣٩ علم خورشيد بوفاة السلطان محمود بن السلطان عبد العزيز ، وارتقاء ابنه عبد المجيد العرش خلفاً له . وبعد سنة مـــن استقراره في ثرمدة ، وصلته الاوامر من مصر تطلب اليه العودة مع جيشه كله . فاصبح همه الآن ان يجمع عدداً كافياً من الجمال ينقل عليه رجاله ومعداتهم الى المدينة المنورة.

وقد كانت تلبية طلبه هذا تختلف من قبيلة الى اخرى ، فزودته ثرمدة في الحال بسبعمائة جمل جمتعها من مناطق شمر ، وارسلها عبـــدالله بن رشيد الذي كان يستعجل رحيل (ضيوف) الجزيرة . وانتظر خورشيد وخالد الذي لحق بـــه ، وصول الجمال . وفي هذه الاثناء نظم حملة عـــلى قبيلة Shamir شامر في صحراء البيّاض جنوبي الخرج . فلم يكتب لها النجاح .

وتنحصر اهمية هذه الحملة في ان قائدها خالداً صحب معه عبـــدالله بن ثُنيّان الذي يُذكر لاول مرة ، في تاريخ نجد . وكان عبدالله هذا ، ابنَ عم بعيـــد لخالد. فقد كان جده الاعلى اخاً لجد خالد الاعلى محمد الاول، اول امير للوهابيين.

وفي نيسان سنة ١٨٤٠ احدث خورشيد تغييراً في منصب حـــاكم الاحساء . فقد عين فيه حمد بن مبارك من اهل حريملة ، خلفاً لمحمد افندي الثاني . ولكن خالداً عاد فاستدعى حمد ، وعين موسى الحاملي ، احد زعماء بني خالد ، بعـــد ذلك بعام . بينما عيّن عبدَ الرحمن بن مانع للاشراف على الشؤون المالية خلفـــاً

لعيسى بن علي الذي توفي وهو على ظهر جواده . وكان هذا بعد رحيل خورشيد الذي بدأ سفرته في ايار الماضي ، جامعاً في طريقه حاميتي: الشقراء وزلفي .

وقد توقف خورشيد في منطقة السر ّ ليتزوج امرأة اكره زو ّجها على طلاقها او تخلص منه بشكل ما ، ثم وصل ِشنانة في الوقت المعين ، فقام بوضع الترتيبات الاخيرة لانسحابه . وفي منتصف تموز سحب حامية ثرمدة : فأصبحت نجد خالية من القوات التركية فيما عدا بعض الجيوب في ثرمدة نفسها (عشرون جندياً) وضرمى والرياض واماكن اخرى .

وفي نهاية تموز ، استُدعي خالد الى ِشنانة للمقابلة الاخيرة ، فزار عنيزة وبريدة في طريق عودته الى الرياض . وتبعه اليها اميرا المدينتين . وفي الشقرا التقى بعبدالله بن رشيد الذي كان في طريقه الى زيارته .

وفي تشرين الاول (رمضان) اصدر اوامره لاجتماع جيوشه في حشد عام في الرياض . ويبدو انه لم يكن هنالك غاية واضحة من عمله هذا غير تثبيت مركزه في الاقاليم المختلفة التي يعتمد فيها على مساعدة الاتراك ، ضد الحكام المتقلبين الفاتري الاخلاص ، وغيرهم من العناصر التي لا يمكن الاعتماد على ولائها . فاحتشدت قبائل السدير مع حاكم الاقليم محمد السديري وابيه الذي كان قد طرده خورشيد من الاحساء واصبح مواطناً عادياً في موطنه . وانتهز خالد فرصة تجمع القبائل، فأخذ يحقق في الشكاوى التي كانت وردته عن سوء تصرف السديريين وغيرهم من الحكام المحليين . وكان من نتيجة ذلك ان طردهم جميعهم من مناصبهم ، وعين عبدالله الحسيني حاكماً جديداً على الاقليم . وصدرت اليه التعليمات بوجوب طرد عائلة السديري من قلعة المجمعة ، ووضع جيش السدير تحت قيادة عبد العزيز بن الشيخ عبد الله ابي بطيني ، ليقوم بحملة على بعض بطون قبيلة قحطان . بينما كانت قيادة الجيش العليا في يد عمر بن عفيصان الذي قدم الى الرياض لعقد الصلح مع خالد ، بعد ان عاد من الكويت التي اختارها منفى ً اختيارياً مؤقتاً له .

كان خالد قد ظل موضع شبهة وريبة في نظر اهل نجد ، لاعتماده الظاهر على الاتراك وتبعيته لهم. لكن رحيل خورشيد مع كامل جيشه محا هذه الوصمة وازال تلك الشكوك فلم يكن هنالك ما يدل على زوال حكم خالد وعدم بقائه .

ومع هذا فقد ظهر الى الوجود مطالب جديد بالعرش يتحداه . أو نشب في الاقاليم الشمالية كالقصيم وجبل شمر حرباً سرية ذات اهمية نسبياً ، بين حاكم حايل وبريدة ، دون ان تحاول الحكومة المركزية ان تتدخل. فكان هنالك نفور بين عبدالله بن رشيد حاكم حايل ، وبين عبد العزيز بن محمد ، حاكم بريدة. وقد ظهرت بوادر هذا النزاع بعد وصول خالد من شنانة ، لكن حضور خالد اجبر كلا منهما على الانطواء . . اما حين عادا الى بلديهما فقد كان الامر يختلف عن ذلك . وساعدت حادثة طفيفة على الحرب المكشوفة بينهما . اذ أغار فريق من عنيزة كان نازلاً في القصيم ، فريقاً من شمر يقوده طوالة واستولى على عدد من الجمال . فقام عبدالله بن رشيد بغارة معاكسة ، استعاد فيها الاسلاب واستولى على معظم جمال فريق عنيزة .

وقد وُضح ان المعتدي هم فريق عنيزة ، الا ان حاكم بريدة أخذ على عاتقه معاقبتهم . ولكنه فعل العكس . اذ استشار حليفه حاكم عنيزة وزعماء قرى القصيم ، بشأن حشد قوة كبيرة والقيام بهجوم شامل على حايل نفسها . ولما وافقوه في الرأي سار حاكما عنيزة وبريدة ، على راس جيش كبير يتألف من مجندي مدن القصيم وقراها ، وعربان عشائر عنيزة ، واحتشدوا في البُقيْعة .

ومن هناك سار الجيش لغزو عشيرة شمر . وحالف النجاح هذه الغزوة ، فاستولى العنزيون على قدر كبير من الغنائم. واقترح يحيى بن سليمان حاكم عنيزة على صاحبه القائد الآخر ان يكتفيا بالغنيمة. يكتفيا بالغنيمة ويعودا الى بلادهما . غير ان زعيم بريدة ابلغه انه لن يفعل ، ولن يحمله شيء على العودة قبل ان يحارب ابن رشيد في حواري عاصمته وعقر داره .

وهكذا تابعت الحملة زحفها ... وتقدم الحليفان الى آبار البقيعة ومزارعها على بعد قليل من حايل . وارسل ابن رشيد قوة تحت إمرة اخيه عبيد ، للهجوم على رجال قبيلة عنزة عند آبار ساعدة ، على مقربة من هناك . وعلى اثر الهجوم نشبت معركة ضارية مريرة تأرجح فيها النصر ، حتى خفّ يحيى على رأس قوة لنجدة اصحابه من اهل البقعة . وما ان وصل للاشتراك في القتال ، حتى ظهر ابن رشيد نفسه في ميدان المعركة على رأس جيش كبير كان قد لحق به أخاه . وكان هجومه عنيفاً حاسماً، ففر رجال عنيزة على جمالهم لا يلوون على شيء .. وتبعهم فرسان شمر ، تاركين يحيى ووجاله من المشاة يواجهون مصيرهم المحتوم . ثم هرب عبد العزيز وأهل بريدة لدى رؤيتهم ما حدث آخذين معهم رواحل يحيى نفسه .

اما يحيى ورجاله فقد قاوموا ببسالة ، ولكن ابن رشيد لم يكن حديث عهد بالقتال . ولما ادرك يحيى ان وصوله الى الآبار مستحيل ، بدأ يشعر بوطأة العطش حين اشتدت الحرارة . فقُتل معظم رجاله ، بينما نُقل هو الى خيمة ابن رشيد بناءً على طلبه .

كان يمكن ان تشفع الصداقة القديمة التي كانت قائمة بينهما وتحول دون قتله . غير ان عبدالله ابن رشيد وصل في تلك اللحظة واخبره عن مقتل عُبيْد في المعركة . ولم يستطع ابن رشيد احتمال هذا الخبر ، فقتل يحيى في فورة غضبه . الا انه فيما يبدو ، ندم كثيراً على فعلته هذه لدى اكتشافه بان عُبيداً كان لا يزال حياً يرزق .

وقيل بأن قوات بريدة وعنيزة ، فقدت مائة وخمسين قتيلاً ، سبعين من بريدة وثمانين من عنيزة . هذا فضلاً عن خسائر البدو واهل القرى ، من جيش قوامه ١٢٠٠ جندي . وكانت الغنائم التي استولى عليها ابن رشيد هائلة للغاية . وكان شقيق يحيى في تلك الاثناء يقوم بزيارة لخالد في الرياض، فأسرع الى عنيزة ليتولى الحكم فيها وأخذ يتشاور مع زعماء القصيم في الوسائل الكفيلة باخذ الثار من ابن رشيد.

ولما بدا القصيميون متحمسين للحروب، حشد قوةً قوامها اربعة آلاف مقاتل للزحف على حايل . وما كادوا يصلون الى حدود العدو عند كَحْفه حتى تخلى الرجل عن فكرة الغزو ، لسبب غير معروف، فتفرق الجيش . وربما كانت التطورات الخطيرة التي وقعت في الرياض ، هي العوامل الرئيسية التي حملته على التخلي . اذ ان تلك الاحداث كانت تتطلب منه استعداداً لمواجهتها . فقد ادرك عبد العزيز ان قيام اي تحالف بين الرياض وحايل ، سيقلب ميزان القوى ويُضعف مركزه ، فلا يستطيع المضي في القتال .

كان لخالد الحق كل الحق في جعل ابن عمه عبدالله بن ثُنيّان تحت مراقبته الشخصية . وقد رأينا كيف انه اخذه معه اثناء حملته على شامر . وفي تموز سنة ١٨٤٠ ، دعا عبدَ الله ليرافقه عند زيارته لخورشيد باشا في شنانة ، ولكن ثنيّان رد على ذلك معتذراً بسوء صحته ، فرفض خالد تعلّله وعزْمه على البقاء في العاصمة . ومع ذلك فقد تمكن عبدالله ان ينسلّ من القافلة في غفلة من رجالها ، والتجأ الى عيسى بن محمد زعيم المنتفك بالقرب من الحدود العراقية . الا ان خالداً أرسل اليه ، لدى عودته من شنانه ، يدعوه اليه ، ويؤكد له علاقات المودة والصداقة ، ويطمئنه مما يخشاه .

ولكن عبدالله لم يطمئن .. فأرسل رجلاً الى الرياض ليستطلع الأمور هناك ويُعلمهم بمقدمه ثم يعود فيخبره جلية الواقع . ولا بد ان الرسول عاد باخبار سيئة ، لأن عبدالله فر الى حاير السبيّع في وادي حنيفة فور وصوله .

ويبدو ان رشيد بن جفران ، زعيم قبيلة سبيّع ، عرض عليه المساعدة ، فلقد كانت تربطهما روابط المصاهرة .

ثم طلب عبد الله المساعدة من الحوطة والحريق ، وشرح لأهلها سياسته الرامية الى تخليص البلاد من سلطان الاتراك وحاميا تهم . كما استخدم نفوذ الشيوخ الذين كانوا لاجئين هناك، كرهاً منهم للبقاء في الرياض تحت سلطة حاميتها

التركية. وجاءت محاولة خالد استرضاءه عن طريق بعض الزعماء الموالين له من السبّيع، لتلقي نوراً على حقيقة الوضع في البلاد. فأعلن عبد الله عزمه على المضي في الحرب . واصاب الذعر خالداً فاخذ يدعو الى تجنيد اتباعه. غير ان استجابة المناطق لدعوته هذه ، كانت مخيبة للامال . فماذا يفعل ؟ لقد امر اهل الرياض ان ينضموا الى الحملة المزمع تسييرها ضد عبد الله ، وفر بنفسه واهله الى الاحساء تاركاً الحاميات التركية والمغربية مع أتباعه في القلعة ، بقيادة حمد بن عيّاف امير الرياض ، وعمر بن عفيصان ، قائدها .

كان هذا في بداية تشرين الاول سنة ١٨٤١ . وهكذا انتهى حكم خالد الذي استمر اقل من ثلاث سنوات، قضاها عميلاً وتابعاً للاتراك في بلاد آبائه واجداده.

وبعد انهجَره اعوانه الواحد تلو الاخر ، حين تلقوا اخبار الاحداث السيئة في الرياض ، انسحب خالد من الهفوف الى الدمام ، ومن هناك سار الى حصن مكة الأمين، عن طريق الكويت فالقصيم حيث مات بعد ذلك بعشرين عاماً .

وفي هذه الآونة ، رفع عبد الله بن ثنيّان علم الثورة واخذ يتتبع خطة تركي في مطالبته بالعرش ، يساعده في ذلك قبيلة السبّيع والمناطق الجنوبية . وقد زحف اولاً على ضرمة حيث كانت لاتزال هناك حامية تركية صغيرة عرض عليها الاستسلام فرفضت، مع أن قرية المزاحميّة المجاورة لها رحبت به واعترفت بملكه. وبعد قتال طفيف وحصار قصير، قبلت الحامية التركية ان تخرج من المدينة وتنضم الى رفاقها في ثرمدة. فاحتل عبد الله ضرمة واعدم احد زعمائها البارزين ، وصادر امواله الطائلة، كمقدمة لتطبيق اساليبه الجديدة في الحكم. اما سكان حريملة فاختاروا سياسة الحياد ، عندما طلب مساعدتهم . بخلاف اهل العمارية وابي الكباش الذين ارسلوا اليه فرقاً من المتطوعين . فسار عبد الله قدماً صوب عرقة ، واحتلها قسراً رغم المقاومة الضارية التي أبدتها حاميةٌ اقامها حمد بن عيّاف هناك . ثم توجه الى منفوحة إثر اعترافها به .

ولنعُد الآن الى الرياض . كان اهل الرياض يطلبون الى خالد مساعدةً عاجلة

بينما اخذ الذين كانوا يرافقونه يلحّون عليه في ارسال النجدة المطلوبة او السماح لهم بالعودة الى بلادهم ، وعقد الصلح مع الغاصب . فأرسل قوة مؤلفة من ثلاثمائة هجّان وخمسمائة رجل . وسرعان ما اشتبكت هذه القوة مع العدو في قتال نشب حول منفوحة ، تساعدها في ذلك قوة اخرى خرجت من حامية الرياض . ولدى عودتها الى المدينة ، باغتها ابن ثنيّان ورجاله تحت جنح الظلام ، وكان اعوانه قد مكنوا له التسلل الى احياء الدخنة اثناء مـا كانت القوات العـائدة تحتفل بالاهازيج والرقص ، فرحاً بهزيمـة العدو في منفوحة .

ويبدو ان عبد الله كان يتمتع ببعض مزايا تركي العسكرية. ومن ذلك انه ظهر بين المحتفلين فجأة ، وقائم سيفه في يده ، فلعب دوراً بارزاً في القتال الذي نشب اثر ذلك . فتقهقر المغاربة الى داخل القلعة واغلقوا بابها في وجه المهاجمين . الا ان ثنيّان كان قد وزع جنوده في اماكن مختلفة من المدينة ، واتخذ من بيت اميرها حمد بن عياف مقراً له . فتقاطر اليه المواطنون ليعترفوا به حاكماً عليهم . وحتى عمر بن عفيصان ، لبّى هو الآخر دعوته واقسم له يمين الطاعة . ثم عرض عبدالله على الاتراك والمغاربة ان يستسلموا بشروط سخيّة مشرفة ، اهمها ان يغـادروا الرياض ويأخذوا معهم كل ما يملكون .

وفي اليوم التالي ، اخذ عبدالله يحصّن البيوت خوفاً من قيام الحامية باطلاق النار عليه . غير انها عادت فقبلت بشروطه وخرجت من المدينة. وهكذا اصبح عبدالله بن ثنيّان سيد نجد بلا منازع .

وتقاطرت الوفود المعتادة على الرياض لتؤكد له ولاءها . اما هـو فأعلن بصورة واضحة انه لن يتغاضى عن اي اضطراب او قلاقل في الاقاليم . وكان قبل استسلام الحامية قد ارسل يطلب حضور اثنين من اقوى اعوان خالد ، وهما سعد بن دغيثر احد افراد عائلة بارزة ، والعبد زويد ، فأعدمهما في الحال .

ثم وجه انتباهه الى وفد السدير واختار منهم خمسة يُعــدمهم بسبب الدور الذي لعبوه في نصرة خالد ومساعدته في تنظيم ادارة الاقاليم . غير ان اثنين منهم تمكنا من الافلات فاعدم الثلاثة الآخرين .

وطلب من سكان المجمعة أن يعيدوا بناء قلعتهم التي دمرها خالد ، واحتفظ بخمسة منهم رهائن عنده في الرياض حتى نفذت اوامره . ثم عيّن عبد العزيز بن مشاري بن عياف حاكماً على الاقليم .

وجاء دور وادي الدواسر ليدفع ثمن ما اقترف اهله من جرائم . فعزّل محمداً بن جلاجل حاكم الاقليم ،وطرد الزعماء المحليين من وظائفهم ، وعين عبد الرحمن بن عبيقان اميراً مطلق الصلاحية في الوادي .

وفي مطلع سنة ١٨٤٢ ارسل عبد الله القائد عبدَ الله بن بطّال المطيري ،وهو من عائلة محاربة مشهورة ، ليحتل الاحساء . فقام ابن بطال بالمهمــة على خير وجه ، وحينئذٍ تعيّن عمر بن عفيصان ليتولى منصب الحاكم هناك . وقد نقل عمر مركز قيادته الى كوت الهفوف ، وامر زعماء الاقليم ان يذهبــوا الى الرياض ، لتقديم فروض الطاعة لسيدهم الجديد ، مرتهناً أربعة مــن مشايخهم ، كي يضمن حسن سلوك البقية ، والاقليم ، بوجه عام . وكان لا بد لعمر من معالجة الأمور في المنطقة الساحلية المحيطة بالقطيف . الا ان المشكلة بدت معقدةً بسبب وجود بعض المصالح للعائلة المالكة في البحرين .

وفي حزيران ، امر ابنُ ثنيان بحشد جيوشه على آبار رحيّة ورماح في منطقة عرمة ، حيث اقام مركز قيادته . وأرسل من هناك جيشاً يقوده العبد بلال بن سالم الحرْق ، ليحتل القطيف نفسها ، وامر عمر بن عفيصان ان يشخص اليها لتولي الأمور هناك في حين يبقى ابن عمه ، فهد بن عبدالله بن عفيصان ، نائبــاً له في الاحساء اثناء غيابه .

ولقد سار عمر ، يصحبه فــلاح ِهذْلين زعيم العجمان، وقواتُ بني هاجر

فاخضع الميناء . وقد توجه حاكم القطيف السابق واسمه علي بن غـــانم لزيارة ابن ثنيّان فحبسه هذا لاتهامه بالتجسس لحساب البحرين ، كما صادر املاكه الكثيرة . وفعل ذلك ايضاً مع ابن مانع مدير خزانة الاحساء وآخرين كثيرين . والقى عمر القبض على حاكم سيهات ودمر اسوار المدينة ، وكانت مـــن املاك آل خليفة في البحرين .

كان مرجل الاختلافات المهلكة والمنازعات القتالة يغلي بين حكام البحرين في هذه الآونة بالذات . فقد ثار محمد بن خليفة ، على عمه عبدالله، شيخ البحرين. فاستدعى عبدالله قبيلة آل مرة لدخول البلاد، فشرعت تنهب وتدمر مدن الجزيرة. ولم يتمكن محمد من السير قدماً في مطالبته بالعرش فما كان منه الا ان لجــأ الى ابن ثنيّان في رحية .

وفي الوقت ذاته ، تمكن حاكم سيهات من الهرب من سجنه فقصد البحرين . ولم يهتم ابن ثنيَّان بشيء من ذلك ، بل انصرف الى تدبير ملكه ، فعين احمــد السديري اميراً على القطيف ومنطقتها ، وأعاد عمر بن عفيصان الى منصبه السابق في الهفوف .

ثم انتهى مـــن بحث شؤون أقاليمه الشرقية ، فصرف قواته وامرها بالعودة الى بلادها بعد ان نفحها بهبات سخية . وتوجه الى مقره في الرياض . ومـــن هناك حاول ارضاء السلطات التركية فأرسل الهدايا الى عمر باشا حاكم مكة ، والى الشريف عون ، شريفها ، مع محمد بن جلاجل ، الحاكم الذي عزله مـــن وادي الدواسر قبل حين . ومن هناك ايضاً ارسل ابنُ ثنيان شرذمة من جيشه وكَل اليها احتلال ميناء العُقير الذي كان لايزال في يد سلطات البحرين . وبذلك أتم احتلال الاحساء .

وفي خلال النصف الاول من تشرين الثاني ، (أي في النصف الثاني مـــن رمضان) توقف الجفاف الذي اجتاح البلاد طوال التسع سنوات التي تلت مقتل

تركي . فقد هطلت امطار غزيرة في كافة انحاء نجد ، فامتلأت مسايل الاودية على صورة لم يشاهد مثلها من قبل . وحدثت فيضانات في السدير التي لم تشهد ذلك منذ اربعة عشر عاماً ، فألحقت اضراراً بالغة في مزارع النخيل والمحاصيل الزراعية الاخرى . غير ان البلاد بأسرها استفادت كثيراً ، فأمرعت الهضاب وكثرت المحاصيل .

ومن الطبيعي ان يكون كل ذلك الخير فألاً حسنا من ناحية سياسية.. فهل يتم ذلك ؟ لنرى ...

في شباط سنة ١٨٤٣ ، تمكن فيصل وابن عمه عبدالله الإبراهيم ،وابنه عبدالله واخوه جلوي من الفرار من سجنهم في قلعة القاهرة بالرغم من الحراسة المشددة. وذلك بان تدلوا من علو مائة قدم بواسطة الحبال : ثم امتطوا ظهور الجمال التي أعدت لهذه الغاية .

وجل مايذكره المؤرخ النجدي ، عن هذه القصة الرومانتيكية البطولية،أن الفارين توجهوا الى جبل شمر ، حيث استقبلهم عبد الله بن رشيد ، صديق فيصل القديم ، بكل حفاوة وترحاب ، واضعاً جميع موارده وجيشه ونفسه تحت تصرفهم . فارسل فيصل الى كافة المناطق طالباً من زعمائها ولاءهم ومعونتهم . اما عبدالله بن ثنيان ، فأعلن الجهاد بناءً على نصح اصدقائه ، وخرج لمجابهة الخطر مؤملاً ان خروجه الى القتال سيحول دون الناس والانضمام لفيصل . ولكنه سرعان ما تأكد من ان فيصلاً يحظى بالتأييد العام ، فأرسل له بعض الهدايا مع أمير ضرمه ، موصياً رسوله بدراسة اوضاع فيصل.

وفي نفس الوقت سار هو الى السدير عن طريق خفس Khafs حيث اتصل بأمير بُريدة الذي سبق ان وجده اكثر حلفائه استعداداً لمناصرته اثناء المعارك المريرة بينه وبين ابن رشيد . واتجه بعد ذلك الى بريدة، فعاهده اميرها على الولاء والمساعدة . غير ان هذه التطورات الجديدة ، أوجدت اضطراباً في عنيزة .

فعقد أميرها عبدالله بن سليمان بن زامل مؤتمراً من الزعماء والشيوخ للبحث والتشاور فيما يجب عمله .

وكان قرارهم الاجماعي ، وجوب مساندة فيصل . فارسلوا عبد العزيز بن الشيخ عبدالله ابي بطين لينقل اليه قرارهم هذا ويدعوه للمجيء الى عنيزة . وكان فيصل قد سار الى الجنوب ، فقابله عبد العزيز عند كحْفة وابلغه رسالته. فشكره فيصل واتجه الى عنيزة بينما أرسل اخاه جلوي وعبيدَ بن رشيد مع قوة صغيرة لزيارة زعيم مطير، محمد بن فيصل الدويش ، في معسكره في سهل حمدان . ولدى سماع ابن ثنيَّان بخطط عدوه ، ترك معداته الثقيلة في بريده ومضى سراً ليباغت فيصلاً غير ان هذا كان قد سلك طريقاً منحرفاً فسبق ابن ثنيَّان. وكان اول ما سمعه هذا عند وصول فيصل الى هدفه ، الغناء واطلاق النار والاهازيج التي حيا بها الناس مقدمه . .

وعاد ابن ثنيَّان الى بريدة،آسفاً على فوات الفرصة من يده . وهناك وجد أن معظم اتباعه قد انضموا الى فيصل،وأهل السدير والمناطق الجنوبية على الخصوص. فاستشاط غضباً وأمر جيشه بالاستعداد لشن هجوم على عنيزة ، الا انه عاد فغير رأيه وسار الى مضْنب لينعطف من هناك الى الجنوب، خوفاً من ان يهاجمه جلوي وحلفاؤه من بني مطير . وكان هؤلاء قد اشتبكوا مع بعض الفارين في مؤخرة جيشه في منطقة الوشم .

وفي هذه الاثناء فر عدد كبير من جيش ابن ثنيَّان وعادوا الى منازلهم ، فكان هذا زيادة في مصيبته . وخاصة بعد أن علم أنّ جلوي وحلفاءَه من مطير يتجهون شرقاً لاحتلال واحة ثادق الهامة التي تشرف على الطريق من الرياض الى السدير. وقد استولى جلوي على بغيته،وارسل عبدَالله بن ابراهيم لتطهير الواحة. ثم كتب الى فيصل يعلمه بان الطريق الى الرياض باتت أمينة خالية من الاعداء .

كان ابن ثنيَّان منهمكاً في تحصين الرياض آنذاك بعض المنازل القريبة من القلعة ووضع الحاميات في الابراج والحصون المختلفة على السور المحيط بها .

وفي نيسان سار فيصل الى حريملة ، حيث انضم اليه جلوي مع قواته ، بينما زاره زعماء السدير ليعرضوا عليه ولاءهم . وبعـــد ان امضى في حريملة بعض الوقت، كتب الى ابن ثنيَّان مقترحاً عليه تسوية النزاع سلمياً ،تجنباً لاراقة الدماء، وواعداً اياه بشروط سخية،من جملتها ان له ملء الحرية في الذهاب والاستقرار بأمان في أي مكان يختاره في نجد أو سواها. وأن له الحق في اخذ اتباعه واسلحته معه . وان فيصلاً يتعهد بدفع راتب سنوي يكفيه ، ويسد حاجاته . ولكن ابن ثنيَّان رفض هذا العرض .

واتجه فيصل الى سدوس عند ذلك ، ومن هناك كتب الى امير منفوحة يقترح عليه جعل مدينته قاعدة لعملياته الحربية كما كانت يوم حاصر خالداً في الرياض قبل خمسة اعوام .. فرضي أمير منفوحة بذلك ، واستقبلت المدينـــة فيصلاً المطالب بالعرش من جديد. ولم يبادر فيصل الى اتخاذ اي عمل عدواني ضد الرياض، فقد كان يتصل سراً ببعض زعمائها البارزين .

وفي الثاني والعشرين من أيار ، ارسل اخاه جلوي ليدخل برجاله المدينة من بوابة الدخنة التي كان سيفتحها لهم حلفاؤهم في الداخل . وسمع ابن ثنيَّـــان بدخول جلوي المدينة ، فأسقط في يده وهرع الى القلعة .

واحتل جلوي البيوت العديدة المقابلة للقلعة ، واخذ يحصنها ويضع فيهـــا الحاميات . ثم دخل فيصل المدينة بنفسه فنشبت معارك استمرت بصورة غير منتظمة طوال ثلاثة اسابيع .

وفي اثناء ذلك اكتشف فيصل مؤامرة دبرتها عناصر من سبيّع لاغتيالـــه فأحبطها . وفي الحادي عشر من حزيران ، كتب ابن ثنيان الى عبيـــد بن رشيد يطلب اليه التوسط من اجل تسوية سلمية . فزاره عبيد للبحث في أمر هذه التسوية المقترحة ، غير ان المفاوضات توقفت بسبب عدم التوصل الى اسس للاتفاق .

وبعد ليلة او ليلتين ، غادر ابن ثنيان القلعة لسبب مجهول .. وعرفته دوريات فيصل فألقت القبض عليه . وسُجن في احـــدى حجرات القلعة التي استسلمت آنذاك بعد هجوم قصير . وقد صادر فيصل جميع ممتلكاته ، وعفا عن اعوانه ، واطلق سراح جميع الذين القى بهم ابن ثنيان في السجن، ثم عوّضهم عما فقدوه من املاك . فسارع اهل الرياض يهنئون (فيصلاً) بمناسبة توليه عرش اجداده بعد فترة تقل عن الخمس سنوات .

وكان اولَ ما قام به من اعمال الغازه كافة الاجراءات التي فرضها ابن ثنيان في الاحساء ووادي الدواسر . فعيّن عبد الله بن بطال المطيري أميراً على الاحساء ، وابن عثيمين اميراً على وادي الدواسر . وصرف الجيوش التي ساعدته في استعادة عرشه وارسلهم الى بلادهم . ولم يطُل حبس ابن ثنيان ، فقد توفي في سجنه في الثالث عشر من تموز سنة ١٨٤٣ . وحضر فيصل نفسه صلاة الجنازة عليه وشيّع جثمانه الى مثواه الاخير في مقبرة المدينة .

واستبشر الناس بعودة فيصل الى نجد. وقد ظهر مذنب في الغرب بعد غروب الشمس في الثاني من اذار سنة ١٨٤٣ ، وظل ظاهراً للعيان حتى نهايـــة الشهر . ويقارن ابن بشر هذه الظاهرة بتلك التي ظهرت في السادس عشر من كانون الاول سنة ١٦١٨ كما ذكرها الشيخ مرعي بن يوسف الحنبلي، وان لم يرافق ظهور المذنب الاول اي نشاط ملحوظ بين الناس .

ويشمل تاريخ ابن بشر الثماني السنوات الاولى من حكم فيصل بعد استعادته عرشه . اذ يذكر المؤرخ انه فرغ من تصنيفه في شهر ايار سنة ١٨٥٤ غير انه لا يشرح السبب الذي دعاه الى التوقف عن التدوين . وبما انه ظل حياً يرزق حتى الخامس عشر من آب سنة ١٨٧٣ ، فلا بد انه كان شاهدَ عيان لجميـــع الاحداث التي وقعت اثناء حكم فيصل ، ومعاصراً لنتائجها المباشرة . وليس بوسعنا الا ان نأسف لتوقّف المؤرخ عن تدوين تعليقاته وملحوظاته عن العهد الذي عاصره ،

والذي لابدّ لمعرفته من الاعتماد على المؤرخ ابراهيم بن صالح بن ابراهيم بن عيسى المولود في عشيقير من اقليم الوشم سنة ١٨٥٤ .

تعتبر المرحلة الثانية من حكم فيصل ، مدخل تاريخ الجزيرة العربية الحديث . وجلّ ما نعلمه أن الحاميات التركية الصغيرة الموزعة في الصحراء ، قد انسحبت جميعها الى الحجاز في حكم ابن ثنيان ... وهكذا لم يكن هنالك قوات اجنبية تزعج فيصل ، فاستأنفت نجد مجرى حياتها العادية . غير ان هذا لم يكن ليعني الحياة السلمية الهادئة او الانتعاش والانسجام بين الناس ، فقد كانت هذه بركات نادرة في الصحراء . مع العلم ان فيصلاً لم يشر الى هذه الحقيقة من قريب اوبعيد في رسالته التي وجهها الى رعيته في جميع انحاء مملكته ، بعد تسنمه العرش .

لقد كانت الرسالة في معظمها تتعلق بالمسائل الفقهية الدينية . ويبدو انها كانت ثمار وحي وتأملات روحية طويلة اثناء سجنه في مصر ،حيث كان ايمانه العظيم بالله وثقته الوطيدة فيه هما عزاء فيصل الوحيد في كربته ومحنته . وقد وجه انظار قراء رسالته والمستمعين اليها الى هذه النقطة : فتقوى الله ومخافته اساس الحياةالسعيدة، واهم عناصر هذه السعادة الاعتقاد بوحدانيه الله: ومن هذه جاءت فريضة الصلاة والتصدق بالمال او الزكاة صفة لازمة للصلاة : ويتبعها بالطبع تادية الضرائب المستحقة للدولة . ومن واجب كل مسلم صادق مؤمن ، ان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر. ثم استطرد القول مستشهداً بالحديث المأثور،ان اعمدة الاسلام عشرة: فنها الشهادتان — (الشهادة بان الله واحد احد وان محمداً نبيه ورسوله ، والصلاة والزكاة ، وصيام شهر رمضان ، والحج ، والامر بالمعروف ، والنهى عن المنكر والجهاد في سبيل الله ، والشورى في الحكم ،والطاعة لذوي الامر والسلطان) وقد اضيف مبدأ جديد الى هذه المبادىء : الا وهو الاحسان الى الفقراء والمعوزين والرأفة بهم. وطلب الى شعبه ألايسيروا في طريق الاشرارالذين يقترفون الذنوب ويطلبون الغفران ، لان التمـني هو رأس مـال المفلسين . ثم طلب الى حكام الاقاليم في مملكته أن يقرأوا هذه الرسالة في جوامع البلاد وان يعيدوا قراءتها كل

شهرين . وفيما عدا هذه النصائح كان اهتمام فيصل الخاص منصرفـاً الى اختيار الموظفين الاكفاء للمناصب المختلفة في الاقاليم والمقاطعات .

ويبـدو ان فيصل ، شأنه شأن والده ، لم يكن يفكر في استغلال الحمـاس الديني لصالح النشاط الدنيوي في دولته، مثلما فعل اسلافـه من قبل أيام « حشود الوهابيين المتحمسة » ، ومثلما فعل حفيده بـ « الاخوان » في زماننا الحاضر . فقد كانت ترتيباته العسكرية ادارية محضة . فالتعبئة العامـة للجيوش تستند الى قيود وسجلات تفرض على كل قرية ومدينة وقبيلة ان تقدم عدداً معينا مـن الرجال والجمال والخيول . وكانت هذه النصوص جميعها مفهومة ومعروفة لدى كل من يعنيهم الامر . وكانت الدولة تقوم بتزويـد الجيش بالسلاح والذخيرة عنـد الضرورة . غير ان المجنـدين هم الذين كانوا يحضرون معهم جمالهم (في بعض الحالات رحلين لكل جمل) او يسيرون على اقدامهم ، بينما كان الخيالة يحظون بمعاملة خاصة. وكان كل موظف ، يتناول راتبه من نتاج دائرته . واذا ما استولى جيش وهابي على غنائم ، خصص قائده خمسها لخزانة الدولة ، ووزع الباقي بنسبة سهم واحد لذي الراحلة وسهمين للفارس .

اما مجرى الحياة العادية في نجـد فقد كان يتضمن الخروج للرعي او الغزو ، خلال فصلي الشتاء والربيع من كل سنة ، وفترة استراحة خـلال اشهر الصيف الحارة . ويلذ لنا ان نعرف كم من النشاط العسكري امتد حتى اشهر الصيف الحارة وكم بدأ في اشهره الشديدة الحرارة التي تكاد تجعل القيام باية اعمال حربية متعذرا .

اما بخصوص الشتاء والحملات التأديبية التي كانوا يوجهونها ضد القبائل ايامه، فلربما كان السبب ان القبائل تنتشر اثناء ذلك الفصل الممطر في مساحات واسعة من الصحراء ، فتسهل الاغارة عليها . اما في الصيف فانها تتجمع قرب موارد الماء للسقاية .

ويبقى العمل ضد الاتراك . وربما كان تأثير الطقس في الاعداء يعتبر عاملا ملائماً للعرب في حملات الصيف .

ويمكن تلخيص تاريخ الثماني السنوات الاولى من المرحلة الثانية من حُكم فيصل وبعض الاحداث الاخرى التي يفصّلها ابن بشر بتوسّع واسهاب، من وجهة نظره كمشاهد عيان : يمكن تلخيصها ، في مجموعة لوحات تعطينا صورة عامة عن الوضع في نجد ، في العقد الخامس من القرن التاسع عشر .

كان فيصل بادىء ذي بدء منزعجاً قليلا بسبب الضغط على بلاده من الخارج. والحادث الوحيد الذي حاولت فيه دولة اجنبية الاعتداء، كان في نيسان سنة ١٨٤٧ ، اذ زحف محمد بن عون شريف مكة على القصيم . فقد قامت بعض العناصر من سكان القصيم الذين اختاروا النفي في الحجاز من تلقاء انفسهم، بسبب كرههم للحكم الوهابي ، فأشارت على الشريف ان يهاجم نجداً لمصلحة خالد بن سعود . وكان خالد لاجئاً في مكة كما أسلفنا .. واقنعته ان فيصلا لن يعتبر الهجوم احتلالا اجنبياً لنجد ، وأن خالداً سيحظى بمساندة السكان هناك . وسارت الامور سيراً حسناً مع الغزاة الذين رافقهم خالد على رأس قوة من الجنود الاتراك . اما اهل القصيم فكانوا يؤمنون بفكرة الاستقلال تحت نوع من الحماية التركية . وكانوا يكرهون عبد الله بن رشيد المعروف بولائه واخلاصه لفيصل ، فخضعوا لقوات الشريف دون ابداء اية مقاومة. وكذلك سارع زعماء مطير وغيرها من القبائل إذ ربطوا مصيرهم بمصير الغزاة .

اما رد فعل فيصل على هذه التطورات فلم يكن كما تصوره اعوان الشريف.. لقد أرسل ابنه عبد الله الى المجمعة على رأس قوة جهزها عاجلاً من اهل الاقاليم الوسطى لحماية مناطق السدير والطويق ضد اي هجوم يقوم به الاعداء . وأرسل الشريف محمدُ بن عون ، رسولاً الى فيصل يؤكد له حسن نواياه السلمية ، فكان جواب فيصل بالشكل التقليدي الذي اعتاده ، اذ أوفد اليه اخاه عبد الله مع بعض الهدايا . الا ان الشريف ، بناءً على نصح بعض الاشخاص ، رفض هداياه وطلب اليه ان يخبر أخاه فيصلاً بان يجيء بنفسه، لكنه في الوقت ذاته اكرم الرسول وزوّده بهدايا ثمينة . فما كان من عبد الله الا ان أعاد هدايا الشريف حالما وصل

الى مكان أمين فيه على نفسه ، وبعث معها رسالة يهدد فيهــا الشريف. وعندما وصل الى شقرا ارسل يخبر فيصلاً بما حدث ، وبقي هناك في انتظار اوامره .

اما فيصل فاعتبر مسلك الشريف هذا ، بمثابة اعلان حرب .. ولذلك سارع الى شقرا بقوات حشدها في الرياض واصدر التعليمات الى ابنه عبد الله في المجمعة ان يوافيه الى المكان المعيّن .

ويبدو ان الشريف تملّكه الذعر ، فارسل رسولاً الى فيصل في قرية شَمْس Shams على حدود الوشم، يقترح عليه سلماً وصداقة دائمة . ووافق فيصل على مطلبه هذا مشترطاً ان يتخلى الشريف عن المطالبة بالقصيم او اية منطقة من مناطق القبائل في نجد بلا قيد او شرط . وارسل اليه بعض الهدايا ، ليخفف عليه وقع هذا المطلب . وكذلك ارسل له مبلغاً من المال . وربما عاد الشريف فقدم هــذا المبلغ بدوره الى الاتراك في مكة ، على اعتبار انه الجزية التي دفعها له تابعه فيصل.

وعلى كلٍ ، فقد رحل الشريف عن القصيم في حزيران ، واغار في طريقه على احد بطون عشيرة مطير في الحيْد ، وسمح للاتراك في جيشه ان يحملوا معهم بعضاً من نساء القبيلة . وفي نفس الوقت وقبــل عودة فيصل الى بلاده ليصرف جنوده ، قام بالاغارة على تجمعات من قبائل الشامر وغيرهم من البدو عند آبار البنّا al Banna قرب قويعية .

اما العملية الحربية الوحيدة الاخرى ضد بلد اجنبي. فكانت اجراءات تأديبية على نطاق محدود ضد آل خليفة حكام البحرين . ففي سنة ١٨٤٣ قاد فيصل قواته الى ساحل الخليج الفارسي قرب القطيف ونجح في غاراته على عشيرة المَناصرة ، وال مرة وبني حجير Hajir ، عندما هاجم الدمام وقوات البحرين ، تحت إمرة عبد الله بن خليفة احد ابناء العائلة المالكة. وبعد حصار دام اقل من اسبوعين استسلم المدافعون بلا قيــد او شرط . فاستولى فيصل على الذخائر الموجودة في الحصن ، ووضع فيه حامية من مائة رجل مع كافة مؤنهم وذخائرهم الكافية لصد أية محاولة من جانب البحرين لاستعادتها .

وفي هذا الوقت بالذات وقعت معركة ضارية بين العجمان وسبيع من جهة ، ومطير بزعامة الدويش من جهة اخرى . واندحر جيش محمد الدويش . فتوجه محمد الى فيصل عند الدمام يطلب منه التعويض عن الخسائر التي تكبدتها قبيلته . ذلك مع ان الوقائع تشير الى ان عشيرة مطير هي المعتدية ، لان الحادث وقع في اراضي بني خالد . ومع هذا فقد عوض فيصل على محمد ما لحقه من خسائر بكرم وسخاء ، ودفع اليه من حصة الدولة في غنائم الدمام قدراً كبيراً .

ثم توجه فيصل الى الهفوف في زيارة طويلة زاره خلالها كثير من الناس ، وأحدث تغييرات موفقة في ادارة مقاطعات الخليج . وكان من هذه التغييرات أنه عين احمد السديري اميراً على الاحساء ، وعبد الله بن سعد المداوي al Madawi حاكماً للقطيف .

وبعد ان عاد فيصل الى الرياض في بداية صيف سنة ١٨٤٤ أستدعى المداوي سلفَه ، حاكمَ القطيف السابق ، علياً بن عبد الله بن غانم ، وامر بجلده ، لعدة مخالفات اقترفها . منها ان الرجل كان شيعياً ذا اتصالات سرية مريبة مع البحرين . ولقد توفي ابن غانم نتيجة هذه المعاملة ، الامر الذي ازعج فيصلاً وأسخطه . فاوفد بلال بن سالم الحارق ، شقيقَ عبيدة ، ليحلّ محل المداوي ، ويرسله مخفوراً الى الرياض . وهناك اقنع المداوي سيده بانه تصرف بنية حسنة ، فأعيد الى منصبه ، ليقوم باعمال عدوانية ضد البحرين ، واهل عماير . ولا نعرف شيئاً عن هذا ، غير نشوب قتال مرير .

ثم وجه فيصل حملة اخرى الى عُمان بقيادة عبد الله بن بطال المطيري . وقد رافقه قاضي البريمي الذي كان قد عُين حديثاً ، واسمه الشيخ ناصر بن علي العُريني . الا ان المطيري أعيد الى الاحساء في السنة التالية ، قائداً لجيوش الاقاليم تحت امرة احمد السديري .

وفي نهاية سنة ١٨٤٧ تقريباً ارسل فيصل حملة اخرى الى عمان بقيادة رجل من منفوحة اسمه عبد الرحمن بن ابراهيم ، واصدر اليه تعليمات خاصة تطلب منه

ان يتخذ من البريمي قاعدة لقواته، بعد ان يضم اليها حامية يسحبها من الاحساء. ثم تلا ذلك قلاقل في هذه المنطقة سببتها مؤامرات بعض الزعماء المحليين، فاضطر فيصل الى ارسال حملة اخرى بقيادة سعد بن مطلق المطيري ، وهو ابن عم عبد الله بن بطال ، ليعالج الوضع . اما ابن طحنون ، الرجل الوحيد الذي اخل بالأمن ، فجمع انصاره واراد ان يكمن للحملة في الطريق . لكن بعض الزعماء المخلصين من مثل مكتوم من "دبي" وسلطان بن صقر احد ابناء الشارقة ، ارسلوا رسولاً الى قائدها يحذرونه من الكمين .

وكان من سوء الحظ ان اخفق الرسول في الاتصال فوقع جيش فيصل في الشرك الذي نُصب له ، وانسحق تماماً في الاشتباك اليائس الذي تلا ذلك. اما الذين كتب لهم السلامة من المعركة المريرة ، فقد قتلهم العطش اثناء فرارهم الى "دبي". ومن هناك واصلت بقيتهم مسيرها حتى بلغت الشارقة .

وبعد معركة العانكة ، تآمر سعد المطيري وانصاره ، على مهاجمة البريمي ، فاحتلوا قلعة ابن طحنون وجميع المواقع المحصنة الاخرى في الواحة ، واستعادوا جميع الاسلاب التي أخذت منهم في الكمين . اما سعد المطيري فقد ألقي القبض عليه ليؤدي حساباً عن هذه الكارثة ، وعزل من منصب القيادة في تشرين الثاني سنة ١٨٤٩ .

والآن .. لقد رأينا ان ساحل الخليج الفارسي كان احدى المناطق الرئيسية التي سبق ان احتلها فيصل في تلك السنوات . فمن البريمي في الجنوب الى القطيف واراضي بني خالد شمالاً ، كانت الحاجة ماسة لأخذ الحيطة والحذر المستمر ضد من قد يعمدون الى تعكير السلام .

وفي سنة ١٨٤٥ قام العجمان بقيادة فلاح بن حذلين فشنوا هجوماً فظيعاً غادراً على قافلة من الحجاج كانت تعبر الاحساء في طريقها الى مكة ، بالرغم من انها كانت في حراسة حزام بن حذلين ، قريب فلاح نفسه .

واستنكر فيصل ذلك ، فسار بنفسه الى حريملة التي عينها ملتقى لقوانه ، بما فيها فرقة حايل ، بقيادة متعب بن عبد الله بن رشيد ، الابن الثاني لصديق فيصل القديم . وتمركز فيصل في سلسلة المجزل في الجناح الشرقي مـن الطويق ، ماراً بالكاظمة . فزارته هناك عناصر كثيرة من قبيلة العجمان المعتدية، واظهرت رغبتها في التبرؤ من جماعة فلاح واعمالهـا . فأمنهم فيصل على انفسهم مشترطاً عليهم مغادرة اراضي بني خالد التي اتخذها فلاح مركزاً له استعداداً للمعركة القادمة. ثم أرسل عشائر مطير بقيادة حميدي بن فيصل الدويش لاحتلال منخفض السر"، ففر فلاح لينضم الى محمد بن هادي بن قرملة زعيم قبيلة قحطان، في معسكره في خَفْس الا انه عاد ففر الى عشيرة الملاعبة احدى بطون مطير ، وطلب منهم الحمايـة والمساعدة . ولكن مَنْديل بن غنيان زعيم العشيرة رفض هذا الطلب وارسل يشرح الامر لرئيسه حميدي الدويش . فسارع حميدي بالحضور وابقى فلاحاً في حمايته الى ان تتم المفاوضات مع فيصل بشأنه .

وقد اصر فيصل على تسليم فلاح اليه كي ينال عقابه على ترويعه قافلة الحجاج ، فأُخذ اسيراً الى الهفوف وسلم الى احمد السديري الذي اعدمه هناك. اما شريكاه الرئيسيان في الهجوم على القافلة والاعتداءات الاخرى كقطـع الطريق والسلب والنهب ، وهما مشعان بن هذال وهادي بن مذود فالقي القبض عليها وأعدما . واما القبيلة كلها فخضعت للحكومة وأجبرت على تسليم جميع مـا بحوزتها من غنائم واسلاب .

ويذكر ابن بشر في هذه المناسبة بانه تشرف بالمثول بين يدي فيصل اثناء هذه العمليات في معسكره في المجزل. ويرسم لنا صورة شيقة عن النظم المتبعة في البلاط انذاك، وبصورة خاصة عن ساعات الصلاة والمواعظ والخطب التي اعدت لمجابهة الفتور الديني الذي ظهر بين افراد القوات المسلحة .

وبانتهاء هذه الحملة التأديبية الناجحة التي تمت سنة ١٨٤٦ ، اخذ فيصل يعد"

العدة لتصفية الحساب مع حكام البحرين الذين ما فتئوا يقومون بنشاط عسكري ويطالبون علناً بحق السيطرة على مواقع مختلفة من بر الجزيرة العربيــة . وكانت مطالبهم المرفوضة هذه ، مصدر قلاقل واضطرابات وازعاج في المنطقة .

والواقع ان فيصلا لم يوجه انظاره الى الشرق الا في مطلع كانون الاول سنة ١٨٥٠ ، وذلك بسبب انهاكه في انحــاء مختلفة من البلاد . وكان ابنه عبــد الله موجوداً انذاك في شقرا يراقب التطورات في القصيم ، فطلب اليه فيصل ان يلحق به في الرمحية على الطرف الغربي من الدهناء .. وتم ذلك ، فقاد فيصل قواته الى قليم الاحساء ماراً بآبار النجبّية ثم عسكر في حُلَيْو ن بين الواحــة الرئيسية والقطيف ، حيث ازداد عدد قواته بانضمام جيوش الاحساء، والقطيف ،وقبائل بني حجير ، وآل مرة ، وعشيرة العجمان الموالية بقيادة حزام . وكان الهــدف الرئيسي مهاجمة جزر البحرين بسبب القلاقل الداخلية فيها،وعدم دفع أهلها الجزية. ورفض فيصل بشدة محاولة امراء آل خليفة التخفيف من حدة غضبه بكلامهم المعسول ووعودهم الخلابة . فزحف فيصل على شبه جزيرة قطَر التي كان قــد أقام مخيمه عند طرفها في مكان يدعى عُريق الساوى . وكان هدفه حصن بِدعْ في ميناء الدوحة . وكان هذا في حوزة علي بن خليفة ، شقيق شيخ البحرين الذي زوّده بكل ما يحتاج اليه من طعام وذخيرة،كي يصمد في حالة وقوع اي اضطراب. وقد ارسل فيصلُ ابنَه عبدالله لمحاصرة الحصن ، الا ان قائد الموقع كان يتوقــع هذا الهجوم ، ففر في القوارب التي كانت راسية في الميناء . وعندها سارع اهل الدوحة فاعانوا خضوعهم لابن فيصل ، الذي اكتفى بالاستيلاء على المستودعات الزاخرة بالذخائر بقليل من العناء : هذا بالاضافة الى طرد آل خليفة مــن آخر حصن لهم على البر .

ويبدو ان فيصلاً لم يقنع بما انجزه ، فاتجه على التو نحو آبار مُسيَّمير بالقرب من الساحل ، واحتل احمد السديري حصنها، فوجد ما لا يقل عن ثلاثمائة مركب سرعان ما جهزها للقيام بهجوم على جزر البحرين نفسها . وقد جعل هذه الحملة

البحرية بقيادة ابناء آل خليفة المنفيين الذين كانوا معه . وفي هذه الأثناء طلب أمير البحرين المساعدة من سعيد بن طحنون امير « ابو ظبي » فسارع طحنون الى الاشتراك في المعركة باسطول قوي . ويبدو انه لدى اقترابه من قطر ، فقدَ رباطة جأشه فتملكه الفزع . فأرسل رسالة الى فيصل يقترح عليه عقد صلح دائم بينه وبين آل خليفة .

غير ان فيصلاً اصر على حضوره بالذات ليقدم فروض الطاعة . وتم ذلك بكل سهولة ، بعد ان ضمن احمد السديري شخصياً عدم اعتقاله او معاقبته . وبعد اجراء بعض المفاوضات وافق فيصل على عقد الصلح مع البحرين بشرط ان يدفع امراؤها تعويضاً . وهكذا سُوِّيت المشاكل بصورة أرضت جميع الأطراف المعنية وبدون سفك نقطة واحدة من الدم .

وعاد فيصل في شهر حزيران او تموز عبر الصحراء الى بلاده . وكان من المحتمل ان تتكبد قواته اصابات فادحة لولا سقوط الامطار الغزيرة المصحوبة بالفيضانات في جميع الاودية الواقعة في طريقه الى الاحساء .

وكان الوضع في القصيم من جملة المشاكل التي ادت الى تأخير تسوية الأمور مع حكام البحرين . فبعد الغزو العقيم الذي قام به الشريف محمد بن عون سنة ١٨٤٦ ، غفر فيصل لسكان القصيم مساعدتهم للشريف ، غير انه ظل يشكّ في ولاء بعضهم . وها هو امير عنيزة ، ابراهيم بن سليمان بن زامل تثبت فيه الشكوك والريب . ها هو يقوم بخلق فتن في المدينة . فقرر فيصل الآن ان يطرد الامير ويعين ناصراً بن عبد الرحمن السحيمي مكانه. وقدأرسل الأمير الجديدأخاه مطلق الضُرير الى الحصن الكبير مع حامية كافية . بينما قبل أهل المدينة بالنظام الجديد ولو في الظاهر على الاقل .

اما عبدالله بن يحيى بن سليمان ابن اخي ابراهيم واعوانه فلم يقبلوا الخضوع لهذه الاهانة التي وجهت لعائلتهم . فهاجم خدمهم السحيمي في الشارع العام

ذات ليلة واطلقوا عليه ثلاث رصاصات اصابته بجرح بليغ . الا ان قائـدهم عبدالله وجد الحصن محروساً حراسة قوية ، فهرب الى بريدة ، واقام هنـاك في حماية اميرها عبد العزيز آل محمد . وارسل عبد العزيز هذا هذا الى فيصل يبرر الجريمة على انها بسبب من مسلك السحيمي الاستفزازي . الا ان فيصلاً أصر على ارسال عبدالله الى الرياض ، حيث ظل هناك في انتظار بحث القضية .

وفي هذه الاثناء ، قام ضرير بجلد احد اتباع زامل حتى الموت . اما ناصر الذي شفي من جرحه ، فاعتقل سلفه ابراهيم بن سليمان بن زامل واعدمـه . واما شقيق ناصر فهرب الى مُذنب خوفاً من بطش السحيمي . وسخط النـاس على ذلك . فامر فيصل ، السحيمي بان يمثل للمحاكمة امام محكمة الشرع في الرياض وكانت تحكم بدفع الدية . وما ان تمت المحاكمة حتى عزله فيصل وعين مكانـه في عنيزة عبد الله المداوي ، حاكم القطيف السابق . وذلك خشية من ان يؤدي النزاع الى وضع خطير ربما كان آخره اللجوء لشريف مكة .

ورفض مطلق الضرير اخلاء الحصن ، فسار المداوي الى بريدة . ولما وصلت اخبار هذه التطورات الى الرياض اقنع السحيمي فيصلاً بان الحل الوحيـد لمنع الفتنة هو ان يعيده الى منصبه ويسنده في القيام بعرض عسكري عنـد حدود القصيم الجنوبي .

وقد قبل فيصل ذلك ، فتحرك السحيمي الى عنيزة . وهناك وجد في أهلها حالة من الثورة والهياج والاستعداد لتحدي سلطة فيصل . وكانوا يعلمون جيداً بان فرص نجاحهم ضئيلة للغاية ما لم يقنعوا جميع سكان الاقليم ، وعلى الاخص عبد العزيز آل محمد زعيم بريدة ، ان ينضموا اليهم . ولهذا طلبوا الى عبد العزيز ان يقود جميع قوات الاقليم ، فوافق على شرط ان لا يكون هنـاك تراجع بعد اعلان الثورة . هذا من جهة معسكر الثائرين .

اما فيما يتعلق بفيصل فقد غادر الرياض على رأس جيوشه في مطلع نيسان من

سنة ١٨٤٩ ، يرافقه ابناه عبد الله ومحمد ، اما سعود ابنه الثالث الذي عين اميراً على الخرج سنة ١٨٤٧ فقد انضم اليه في الطريق مع قواته الاقليمية . وكان يرافقه كذلك اخوه جلوي والشيخ عبد اللطيف. وهو حفيد بعيد لمحمد بن عبد الوهاب ، بينما بقي اخوه تركي نائباً عنه في الرياض . وقد توجه الى السدير والمجمعة عن طريق بنبان والحسي ، حيث أمضى بعض الوقت للتأكد من اخلاص اهل القصيم .

وهناك زاره مؤرخنا ابن بشر الذي يذكر انه كان في خيمة فيصل بعد صلاة العصر ، حين جاء الخطيب والقى درسا عن موضوع الوثنية من كتاب التوحيد للشيخ ابن عبد الوهاب .

وفي اليوم التالي سار فيصل من المجمعة الى الجُرَيْفَة في سهل حَمَادة ، ومن هناك سار الى عشيقير ومنطقة السر ، ثم قضى بعض الوقت في ساجر قبل ان يواصل زحفه الى مُذنِب . ومن هناك ارسل جيشاً قوياً بقيادة محمد بن احمد السديري ، حاكم السدير لاحتلال واحة العَوْشزيَّة على مسافة قصيرة من عنيزة . كما ارسل الى اهل القصيم يحذرهم من مغبة اصرارهم على الاستمرار في ثورتهم . وقدْ ردّ الثوار على تحذيره هذا بان ارسلوا مهنا بن صالح ، احد أعيان بريدة لبحث الامر معه .

كان فيصل متفائلاً ، يعتقد ان الأمور ستسوّى دون اراقة الدماء . وبعد أن غادره مهنا ليحمل نتائج المحادثات الى الثوار ، علم فيصل بان هناك حشوداً من بدو الدهامشة (عنزة) في طَرَفِيَّة Tarafiya الى الشرق من بريده . فارسل ابنه عبدالله على رأس جيش قوي لغزوهم ، وحذره من الاشتباك مع اية عناصر من اهل القصيم ، وأبلغه انه قد وعدهم في رسالته التي بعثها مع مهنا ان لا يعتدي عليهم . وعلى اساس ذلك سمح لقافلة متوجهة الى بريدة ان تمر بأمان .

غير ان اخبار حملة عبدالله وصلت الى الطرفية ، فبارحها بدو الدهامشة قبل

ان وصلتها، لكن مقدمة جيش عبدالله لحقت بهم فطاردتهم وقست في معاملتهم. ووصل بعض الفارّين الى عنيزة لينذروا أهلها . ولم يجد عبد العزيز آل محمد صعوبة في اقناع انصاره بان فرصة مثل هذه في سبيل الحرية قد لا تعود ثانية . وانطلق مع الف وخمسمائة مقاتل ليتمركزوا في تلال اليتيمة الرملية بين شماسية وتعميـِّة في قناة وادي ريما .

وفي هذه الاثناء ارسل عبدالله من الطرفية رسالة الى أبيه يخبره فيها عن نجاح حملته الحربية ضد الدهامشة . غير ان الرسول شاهد آثار جيش كبير متجه الى الشرق فعاد ليعلم عبدالله بالأمر .

وقد نصح المستشارون عبدالله ان يتجنب الثوار في طريق عودته الى أبيه غير انه اصر على الاشتباك معهم بالرغم من تفوقهم العددي الكبير . فساق الاغنام والجمال التي استولى عليها من الدهامشة باتجاه مراكز العدو ، تغطية لفرقة خيالته . ثم قامت الخيالة بالهجوم في الوقت المحدد . وأخذ الثوار يتقهقرون ويقاتلون ، ألا انهم انهزموا شر هزيمة .

وقد نجا عبد العزيز آل محمد ووصل الى حصن تعمْية . من حيث سار الى عنيزة عندما علم بان عبدالله أمر بايقاف المطاردة والعودة الى المذنب . وكانت اخبار نصره قد سبقته الى هناك ، الأمر الذي اراح بال والده . فقد كان اصدر أمره بارسال الامدادات اليه ، كما اراح بال الجيش الذي أخذ يهلل ويهزج حتى امرهم عبدالله بالكف عن الغناء والرقص وطلب اليهم ان يشكروا الله على دلائل رحمته .

كانت كل قرية في القصيم قد فقدت بطلاً عليها ان تبكيه وترثيه ، اما بريدة فقد منيت بأفدح الخسائر واعظمها ، اذ بلغ عدد قتلاها مائة قتيل . ودخل عبد العزيز مدينة عنيزة مع انصاره بمظاهر الرقص والحماسة لبث الطمأنينة في نفوس حلفائه ولتشجيعهم على مواصلة القتال . ولكنه ادرك ان اهل المدينه قد سئموا القتال ،

فصاروا على استعداد لأن يستسلموا لفيصل . فسار الى بريدة، بينما فر السحيمي وتوجه الى طلال بن رشيد الذي كان آنذاك في قرارة ، وفي طريقه ليساعد فيصلاً ضد الثائرين . وعلى ذكر طلال نقول .. كان طلال قد خلف والده عبدالله بن رشيد في امارة حايل بعد وفاة الوالد في ايار سنة ١٨٤٧ حين غزا شريف مكة القصيم . فأخذ سكان عنيزة يتشاورون فيما يجب عمله في المستقبل . ثم عرضوا على الشيخ عبدالله ابي بطيّن ، قاضي الاقليم ، ان يتوسط لدى فيصل للعفو عنهم. ووافق عبدالله، بعد لأي، على شرط ان يكفل محمد بن عبد الرحمن بن بسام ، زعيم احدى العائلات الكريمة المحتد في المدينة ، عدم نكوصهم .

وهكذا سوّيت الأمور بسهولة ، فدخل فيصل المدينة ليتسلم ولاء اهلها، بعد ان غفر لهم دورهم في ثورة الاقليم ثم كتب الى عبد العزيز آل محمد يدعوه ان يختار بين السلم والحرب ، وكان عبد العزيز قد قرر الفرار ، الا ان اقاربه وزعماء بريدة اقنعوه ان يسمح لهم بالتوسل الى فيصل من أجل العفو عنه .

وبعد أخذ ورد ومباحثات طويلة ووساطة من ذوي النفوذ ، وافق فيصل على ان يتناسى الماضي بعجره وبجره وان يسدل عليه ستار النسيان ، وثبّته في منصب حاكم المدينة . ثم عين جلوي حاكماً عاماً للاقليم على ان يكون مركزه في حصن عنيزة العظيم ، كي لا تتكرر مثل الاحداث السابقة في المستقبل، خصوصاً في مثل تلك البيئة المعروفة بعدم استقرارها ، وبين اولئك السكان الذين لا يركن اليهم . وكان جلوي أول أجنبي وأمير سعودي يشغل هذا المنصب الذي كان مقصوراً على الزعماء المحليين .

ولا بأس بهذه المناسبة ان نذكر ان الجد الأعلى لعبدالله بن مساعد الحاكم الحالي ، ١٩٥٤ للاقليم ومن قبله عمه عبدالله بن جلوي المشهور ، وأبوه عبد العزيز بن مساعد حاكم حايل الحالي ، كانوا يشغلون هذا المنصب .

وهكذا يكون فيصل قد أدخل مبدءاً ادارياً جديداً في الحكم سار عليه السعوديون بلا انقطاع لأكثر من قرن .

كان الآن قد انتهى كل شيء . . . فتوجه فيصل الى بلاده بعد ان اقام شهراً في عنيزة . وقابل اثناء عودته طلال بن رشيد في المذنب . غير انه سرعان ما عاد ليستأنف عملياته الحربية في فصل الشتاء (سنة ١٨٤٩ ـ ١٨٥٠) . فقد توجه شمالاً لمهاجمة تجمعات متنقلة من قبيلة عتيبه في جراب . الا انهم كانوا على علم بنواياه فتراجعوا الى قُبة حيث احتشدت عناصر كبيرة من مطير . ولدى وصول فيصل زاره زعماء الدويش وقدموا له الهدايا فعفا عنهم وغفر لهم ما قاموا به في الماضي . ثم سار نحو القصيم حيث انضم اليه جلوي مع جيش القصيم عند بئر « ابو الدود » قريباً من الحدود الشمالية . ويبدو ان عبد العزيز حاكم بريدة اوجس خيفة من هذه التحشدات فلاذ مع اولاده بالفرار الى مكة تاركاً وراءه نساءه واملاكه . ووصل فيصل الى بريدة فكان تصرفه غاية في الحكمة حين لم يصادر املاك الحاكم الفار بل تركها لافراد عائلته الذين بقوا في المدينة كما عين اخاه عبد المحسن آل محمد، حاكماًمكانه .

* * *

استقبل شريفُ مكة عبدَ العزيز آل محمد بالعطف والود . غير ان مظهره هذا سرعان ما تبدل عندما علم ان الهدايا الصغيرة التي احضرها عبد العزيز كانت هي كل ما يملكه في العالم . فاخذ يكتب الى فيصل بخصوص ضيفه الغير المرغوب فيه . وكان رد الشريف على طلب عبدالله المساعدة رداً يتسم بالغلظة ، اذ اجابه ان جنوده ليسوا من اولئك الذين يقاتلون دون ان تُدفع لهم رواتب معقولة ، وبشرط ان تدفع سلفاً .

وفي هذا الوقت اي حوالي نهاية تشرين الاول سنة ١٥٨٠ سار عبدالله بن فيصل من الرياض الى الحجاز للقيام بغزوة عامة ، وزحف على رأس قوة كبيرة كانت تظل تزداد عدداً بمن ينضم اليها في الطريق . وبعد ان مكث فترة في القُويعيّه ، شرع يبحث عن معسكر مرزوق الهيذال (من عُتيبة) . فمر بآبار

شبكة وبئر مصلوب في مرتفعات نير ،واقترب من الحنايج دون ان يلتقي بأحد. غير انه كاد يقع على فريسته عند آبار ثعل Tha'l في الحزم ، لولا ان مرزوقاً وجماعته اركنوا الى الفرار لدى سماعهم بزحفه ، ولجأوا الى ابن ربيعان في نيفي ، وهو من زعماء عتيبة البارزين .

وقد ذُعرت الحجاز من اقتراب الجيوش الوهابية من مرّان في منطقة حرة الكِشْب البركانية . وخشي الشريف ان يُحدِثَ وجودُ عبد العزيز آل محمد في مكة اضطراباً ، فبدأ يرسم خطة لازعاجه. اما عبد العزيز فثبت له ان آماله في مساعدة الشريف له قد ضاعت .. فما عتم ان طلب منه ان يتوسط لدى فيصل من أجل العفو عنه ، والسماح له بالعودة الى بريدة . وكان فيصل آنذاك على ساحل الخليج الفارسي يهاجم سكان البحرين .

ولا مندوحة من الاعتراف بأن فيصلاً كان رجلاً فذاً يتحلى بطول اناة وصبر نادرين ، فقد قبل وساطة الشريف في العفو عن عبد العزيز ، واشترط ان يشخص عبد العزيز الى عنيزة لينضم الى الحملة التي كان يعدها جلوي للزحف على سلوى . وحين وصل عبد العزيز الى معسكر فيصل في كانون الثاني من سنة ١٨٥١ عفا فيصل عنه، واعاده الى منصبه حاكماً لبريدة ، وذلك بعد ان اعترف بجرائمه في حق سيده ، وعبر عن توبته وندمه عليها .

وفي مطلع السنة التالية انتشرت الشائعات بان هنالك غزوة اخرى لنجد ، اعدها نائب السلطان آنذاك عباس بن طوسون ، حفيد محمد علي باشا . وكان ما روج تلك الشائعة ان المصريين ارسلوا فعلاً اعداداً كبيرة من الجنود الى المدينة المنورة . ولربما كان السبب في ذلك ، ظهور عبدالله بن فيصل وحشوده قرب الحدود الحجازية .

وكانت العمليات الحربية التي تلت وصول قواتَ عباس ، ذات طابع متقلب وان كانت احداها قد وصلت حتى دفينة . وحينئذٍ عبأ فيصل جميع قواته ،

كاجراء احتياطي لضمان مملكته ، وسار بها الى المجمعة . وفي تموز وردت الاخبار ان عباساً وجه جيشاً كبيراً الى اقليم عسير ، وامر قوانه في المدينة المنورة الانضمام اليه استعداداً للعمليات المتوقعة في تلك المنطقة . فتنفس اهل نجد الصعداء لدى سماعهم بهذا التطور الجديد . اما فيصل ، فأمر جنوده ان يتفرقوا ويعودوا الى منازلهم ، بعد ان غزا بطناً من بطون عشيرة مطير ، عند ام الجماجم وهو في طريقه الى بلاده .

ولم يلقَ الاتراك نجاحاً في حملتهم على اهل عسير ، الذين بادر زعيمهم عايض ابن مرعي الى ربط قضيته بقضية فيصل حين ارسل اليه وفداً يحمل الاخبار السارة مع نصيبه في الغنائم . غير ان فيصلاً كان منهمكاً آنذاك بمشاكل الشرق فلم يأبه لأحداث الحجاز .

وقضى فيصل قسماً من شتاء عام ١٨٥٢ ــ ١٨٥٣ في الصحراء، فأغار على أحد بطون مطير في وفرة ، كما وكل الى عبدالله امر الاقتصاص من آل مرة .

وكان هؤلاء قد أخلوا بالأمن حين استولت فئة منهم على قافلة ثمينة الأحمال كانت وافدة من عقير الى الهفوف . فالحق عبدالله خسائر فادحة في معسكرهم في نعرية. ومن ثم سار الى سلوى ، حيث غزا عشائر بني نعيم القطرية ، وعشائر حجير والمناصير ، وكان لهم ضلع في سلب القافلة المذكورة.

وصرف فيصل الآن جزءاً من جيشه وسار بما تبقى منه الى عمان ليرفع علمه هناك وليتأكد من ان كل شيء في المنطقة يسير على ما يرام ، ولم يعد الى بلاده من هذه الحملة الا في نهاية عام ١٨٥٣ . وفي هذا العام (او في مطلع السنة التالية) وردت الى الرياض اخبار اغتيال عباس باشا وتولي سعيد باشا ابن محمد علي منصب نائب السلطان خلفاً له .

* * *

وفي الاول من ايار سنة ١٨٥٤ ، استرعى انتباه فيصل قيام الاضطرابات في القصيم ، فقد ثار اهل عنيزة على جلوي وطردوه من المدينة . فلجأ الى بريدة . ثم لحق به الشيخ عبدالله بن عبد الرحمن ابوبطيّن الذي اشمأز من روح المشاكسة والشغب في اهل تلك المدينة . فقد اغتصب عبـــدالله بن يحيى بن سليان الذي تشتهر عائلته باسم آل سليم ، منصب امارة المدينة . وما ان سمع فيصل بهـــذه الأخبار حتى حشد قواته وارسل جيشاً قوياً الى بريـــدة بقيادة عبد الرحمن بن ابراهيم ، وهو من مدينة منفوحة ، واصدر اليه تعلياته بعزل عنيزة وقطـــع اتصالها بالعالم .

وفي اواخر آب ارسل فيصل ابنه عبدالله الى شقرا ، حيث اصدر الامر الى الوحدات الاقليمية بالتجمع فيها . وبعد قرابة الاسبوعين قام بغارة شديدة على قرى وادي ريما ونخيلها الذي يملكه سكان عنيزة ، واستولى عـــلى املاكهم وماشيتهم وقتل منهم عشرة رجال . ثم أمر بقطع نخيلهم وابادته . فخرجت من المدينة قوة حاولت منع ابادة النخل ، ونشبت بين الفريقين معركـــة ضارية انسحب عبدالله على أثرها الى العوشزية ومن هناك توجه الى رُباعية ، وتخذ متها مقراً مؤقتاً لعملياته الحربية .

وفي رباعية انضم اليه طلال بن رشيد مع قوات حايل، وبدأ عبدالله مناوراته للقيام بهجوم شديد على عنيزة نفسها . ولم تكد تبدأ المناوشات المعهودة ، حتى سارع عبدالله آل سُليم يطلب الصلح والعفو مـــن فيصل مباشرة . فاصر فيصل على حضوره شخصياً الى الرياض،الا انه استبق ذلك فبادر الى العفو عن جرائمه ورضي ان يظل في منصبه ، حاكماً في عنيزة . وعاد عبدالله وجلوي مـــع قواتهما الى الرياض لدى صدور الأمر بذلك . بينما سار الشيخ ابو بطين معهما حتى شقرا مسقط رأسه .

وكان هذا سنة ١٨٥٥ .

ويبدو ان نجداً بعد ذلك ، قضت عامين من حياتها دون حدوث ما يعكر السلام . فلم يذكر المؤرخ ابن عيسى شيئاً ، عدا استمرار سقوط الامطار الموسمية وقيام اضطرابات بين عشائر المنتفك العراقية التي اخضعها مصطفى باشا للحكم التركي المباشر ، بسبب الشغب الذي كان يقوم زعماء عائلة سعدون المتنافسون. وكان كل منهم يحاول جاهداً الاستئثار بمنصب زعامة القبيلة .

وفي سنة ١٧٥٦ ـ ١٨٥٧ نجد عبد الله بن فيصل في طريقه لغزو عنزة وعتيبة في انحاء مختلفة من الصحراء . وبعد سنة قامت عشيرة بريح احدى بطون مطير فهاجمت تجمعات من اهل عنيزة عند آبار داث واستولت على قطعان اغنامها . وفي شتاء هذا العام بالذات نزلت بقبيلة مطير خسارة فادحة ، حين توفي زعيمها حميدي بن فيصل بن وطبان الدويش . وفي اواخر سنة ١٨٥٧ توفي محمد بن عون شريف مكة في السبعين من عمره تاركاً منصبة لاكبر ابنائه عبد الله .

وفي هذه الاونة تقريباً اشتبكت قبيلتا عتيبة وحرب بالقرب من الساق، شمال القصيم ، فدارت الدائرة على عتيبة ، وكانت خسائرها فادحة في الغزوة التي شنها عليها عبد الله بن فيصل ، اذ وصل غرباً حتى اراضي البقوم وسبيع بجوار ترابة وخرمة .

غير ان ابرز احداث هذه السنة ولا شك كان انتشار الطاعون الذي دخل نجداً عن طريق البحرين والاحساء فقضى على عدد كبير جداً من الاهلين فيها .

ولنرجع الآن الى سنة ١٨٤٧ . ولا بد اننا نذكر مع اخبار ثورة القصيم سنة ١٨٤٧ ، كيف هرب زعيما الحركة ، عبد العزيز آل محمد وناصر السحيمي ، الى الى بريدة .. لقد مر معنا ما قام به عبد العزيز من مجازفات، الى ان اعاده فيصل حاكماً على بريدة . اما جل ما نعرفه عن السحيمي منذ هربه ، فهو انه قتل في شتاء سنة ١٨٥٨ في ظروف غامضة تشير الى الضغائن وعادات الاخذ بالثار المستحكمة بين العائلات الحاكمة في الدول المدينية الواقعة في اواسط الجزيرة العربية حينذاك.

كان جد ناصر وابنه عبـــد الرحمن هما اللذين هاجرا مـــن عشيقبر في الوشم واستقرا في عنيزة مع فخذ من سبيع يعرف باسم آل بكر، كان يطمح الى منصب زعامة المدينة الذي كان يشغله انذاك سُليم . وحين وفد ناصر السحيمي دخيلاً كان يحيى بن سليم اميراً يسانده آل بكر بصفته أليق وانسب المرشحين للزعامة .

واصبحت الاحوال خطيرة بالنسبة الى يحيى .. ولم يرَ بدأ من بحث الوضع

مع المُطالب بالزعامـــة ، فتكرم وعرض عليه ان يختار بين .. الإمارة او النفي الاختياري ، مشترطاً بانـــه اذا اختار الامارة فان يحيى سيترك له الأمر ويهاجر من المدينة . وقال : هكذا كان العُرف السائد ايام الفوضى بعد سقوط الدرعية قبل استلام تركي زمام الحكم وتهدئة الاحوال في نجد .

اما ناصر الذي كان فيما يبدو ذا كرم غريزي فتأثر بهذه التضحية الذاتيـــة في سبيل سلام المجتمع وخيره ، ورفض الاقتراح ، واعلن امام الله والناس بان يحيى صاحب الحق في الامارة ، وقدم له وفقاً لذلك ، فروضَ الطاعة والولاء .

وبقيت التنظيمات الادارية في عنيزة كما هي دون تغيير . وعندما قتل يحيى في البَقعة سنة ١٨٤١ خلفهاخوه عبد الله بن سُليم بحكم العادة.وقتل بدوره في معركة مـــع ابن رشيد وقعت سنة ١٨٤٥ . فآلت الامارة الى الاخ الثالث ، ابراهيم بن سُليم الذي طرده فيصل بعد ثلاث سنوات وعين ناصر السحيمي مكانه فنتج عن ذلك ان عادت جذوة التِّرات القديمة فاشتعلت من جديـــد ، وتحركت الضغائن العائلية التي ظلت خامدة فترة من الزمن.وحاول اولاد يحيى وعبد الله ان يقاتلوا ناصراً في شوارع عنيزة ، الا انهم اخفقوا . كما حاولوا احتلال الحصن الذي في حوزة شقيق ناصر ، مطلق الضرير؛ فباءت المحاولة بالفشل ايضاً .

وزاد الأمر سوءاً ان اعتدى ناصر على احد اتباع عائلة سليم بالضرب المبرح فتوفي . وذبح ناصر نفسهُ ابراهيمَ بن سليم عندما اندمل جرحه . ولا ندري إن كان ناصر قد عاد الى عنيزة ام لا.غير انه من المؤكد بانه كان يعيش هناك كمواطن

عادي مع اخيه مطلق في اواخر سنة ١٨٥٨ ، تحت امارة عبد الله بن يحيى الذي كان قد اغتصب المنصب بعد ثورته على جلوي ، وقد أيد فيصل وجوده فيه.

وفي ايام الشتاء، خرج ناصر الى الهلالية الواقعة في اعالي وادي ريما لتفقّد اسطبل خيوله ، فتعقبه عبد الله ، الأمير وابناء عمه : زامل بن عبد الله ، وحمد بن ابراهيم ، وقتلوه في الصحراء انتقاماً منه لقتله ابراهيم بن سليم. وهرب مطلق شقيق ناصر الى قرية عشيقير مسقط رأسه وبقي هناك حتى وافاه الاجل في سنة ١٨٦١ .

ويبدو انه لم يحاول ان يثأر لاخيه ولا اهتم فيصل ايضاً بالأمر ، وان لم يكن راضياً عن مسلك عبد العزيز آل محمد امير بريدة عدوه القديم ، الذي اكرم فيصل وفادته في اكثر من مناسبة. فاستدعاه فيصل الآن الى الرياض في شباط سنة ١٨٥٩ ، وبعد ان واجهه بقائمة اساءاته ، اعتقله مع ولديه اللذين رافقاه الى العاصمة ، وعين عبد الله بن عبد العزيز بن عدوان من عائلة عليّان ، حاكماً للمدينة بدلاً منه . الا ان الحاكم الجديد قتل في شهر ايلول التالي على ايدي بعض الافراد من عشيرته . فالقى فيصل القبض على سلفه وسجنه ، لارتيابه بانه له ضلعاً في المؤامرة .

ومن الغرابة بمكان ان يعود فيصل فيعين محمد بن غانم وهو احد القتلة ، حاكماً جديداً للمدينة . وكانت شائعات احتمال قيام اضطرابات في بريدة ، قد شجعت عبد العزيز آل محمد الذي كان في السجن انذاك، على أن يعرض خدماته على فيصل لتسوية الأمور وإصلاح ذات البين. فوثق فيه، وقبل عرضه ، واعاده الى منصب الحاكم في كانون الاول سنة ١٨٥٩ بعد أن الغى تعيين ابن غانم .

وفي آذار من نفس السنة ، استقر فيصل في معسكره الربيعي في رُمّاح فاوفد ابنه عبد الله للاغارة على عشيرة البُريح احد بطون مطير لاقترافها بعض المخالفات . فلحق بها عند دُخنة جنوبي القصيم، وعاملها معاملة قاسية فظيعة . وبعد ان قدمت العشيرة الاعتذارات المعتادة وعرضت ولاءها ، سمح لها عبد الله بالرحيل . ثم

التقى رجال القبيلة بغزو مـــن قبيلة قحطان قرب آبار شُبَيْكة فكبدوهم خسائر اخرى ، منها مقتل عدة شخصيات بارزة .

وقد تصرف المنتصرون بدون روية حين قاموا بزيارة لعبد الله ، الذي ما كان منه الا ان اظهر سخطه عليهم وسجن اكثر من عشرين من رجالهم . هـــذا كما استولى على جميع رواحلهم وعلى مائة واربعين فرساً ، وطلب اليهم دفع دية نقدية كبيرة اعطى جزءاً منها الى عشيرة البريح المنكوبة ديةً للذين قتلوا .

وفي آذار من السنة التالية (١٨٦٠) كان دور العجمان في التعرض لغضب فيصل وسخطه ، بسبب حماقتهم في الاغارة على ابل العائلة المالكة في مراعيها . وكان راكان بن هذلين زعيم العجمان انذاك . وهو الذي خلف اباه بعد اعدامه في الهفوف ، انتقاماً منه لاغارته على قافلة الحجاج . وكان فيصل قد ثبته في الزعامة بعد أن قدم له راكان جميع التأكيدات والضمانات بعدم تكرار هذه الاعمال الاجرامية من قِبل قبيلته ، ولكنه الآن لم يفِ بوعده فسخط عليه فيصل .. وندم راكان على ما فعل .. وما كان منه الا ان فرّ الى سُبيحيّة في اقلـــيم الكويت . فاعلن فيصل الجهاد ، واسند قيادة قواته الانتقامية كالعادة ، الى عبد الله ..

اجتمع الجيش عند آبار دِجّاني ومن هنالك سار عبـــد الله الى وفرة ، حيث وجد ان قبائل العجمان قد تركت الحذر جانباً ، فهاجمهـــا وكسرها واستولى على معظم مقتنياتها . ثم لحق بالفارين الى سُبيحية فهاجمهم هجوماً شديـــداً ، وساق الهاربين من وجهه وهم يحاولون اللحاق براكان في معسكره في جهرا قرب مدينة الكويت نفسها .

وجمع عبد الله قواته عند مَلَحْ القريبة ، حيث قرر زعماء العجمان ان يهاجموه بشدة . وحسب الطرق التقليدية المعروفة في الصحراء ، كان في مقدمـــة قواتهم الزاحفة سبعة جمال يحمل الواحد منها امرأة جميلة سافرة متحليـــة بكل زينتها لتشجيع الرجال على حماية اعراضهم . ونشبت المعركة في الثالث من نيسان سنة

١٨٦٠ .. وكانت حامية الوطيس أبدى الطرفان فيها منتهى الشجاعة والعزيمة . الا ان العجمان لم يكونوا اكفاءً لجيش عبد الله، فدارت عليهم الدائرة وانكسروا شر كسرة ، وهربوا الى الكويت ينشدون النجــاة . بينما سار عبد الله الى جهرا لاحتلال معسكر العــدو وتوزيع الاسلاب على الفائزين حسب العادة . وقيل ان خسائر العجمان بلغت سبعمائة قتيل .

وكان لانتصار عبد الله كل الوقع الحسن على تخوم العراق وفي الرياض ، لأن تكرار غارات العجمان على الزبير وضواحي البصرة احدث رعباً للسلطات العربية والتركية على السواء . فارسل والي البصرة وامير الزبير ، وفوداً تحمل هدايا قيمة الى عبد الله لتهنئته الصادقة على عمله الباهر .

ثم عاد عبد الله الى الرياض ، حيث اُستقبل بمظاهر رائعة توازي ما احرزه من انتصار .

اما قادة العجمان الذين ُكسروا ولم يسحقوا ، فقد أخــذوا يتشاورون بأمر المستقبل ، فليس بمقدورهم وحدهم ان يأملوا في الصمود امام قوات عبــد الله المتكتلة . وكان قرارهم ان يتحالفوا مع قبائل المنتفك للقيام بسلسلة متعاقبة مـــن الغارات المستمرة. وفي الخريف من ذلك العام بدأوا بازعاج تخوم البصرة والزبير والكويت . فانتدب حبيبُ باشا ، والي البصرة ، اميرَ الزبير لحشد قواته والرد على عملياتهم الحربية . وقام الوالي بتزويد تلك القوات الكبــيرة بالمال والسلاح والذخيرة والمؤن اللازمة ، وتجنيدها وارسالها الى الميدان .

كانت اول خطوة قام بها العجمان وحلفاؤهم، ان اغاروا على مزارع نخيل شط العرب، واستولوا على محصول التمر لاختزانه من اجل حملة طويلة الامد ضد نجد، فهاجمهم جيش الزبير بمساندة الاتراك والمجندّين من قبائل نجــد ، وطردهم من مزارع النخيل الى الصحراء . ثم طاردهم حتى لحق بهم واشتبك معهم وكسرهم مرة اخرى. وحينئذٍ اضطر العجمان الى الانسحاب الى جهرا و كبدَةْ وكو يبده .

اما حبيب باشا، فأراد الانتقام من قبائل المنتفك الذين كانوا يملكون اراضي واسعة في ولاية البصرة ، بتهديدهم بمصادرة اراضيهم ومزارع نخيلهم . وكان زعيم المنتفك ناصر بن راشد بن ثامر بن سعدون ، فتملكه الرعب من تهديد الوالي وكتب اليه ملقيا اللوم في الحوادث السابقة على العجمان ومبرئاً ساحة رجال قبيلته ، لانهم انمـا كانوا مع العجمان في البحث عن المراعي لماشيتهم في صحراء نجد ، لا البحث عن الغارات والنهب والسلب . وبعد ان تبادلا الرسائل في هذا الموضوع وافق الوالي على ألا ينفذ تهديده . ويبدو ان المساعدات الكاملة التي أمل فيها العجمان من قبائل المنتفك كانت مجرد عناصر غير منظمة من القبيلة تنزل معهم بالقرب من جهرا .

ولا شك ان فيصلا قد سمع بان الثوار وحلفاءهم عازمون على مهاجمة الكويت ونجد نفسها . فأعلن الجهاد مرة اخرى ، وطلب من قوات المدن والاقاليم ان تتجمع عند آبار حِفْنَـه في جهة عرمة ، حيث وافاها هناك في نهاية اذار سنة ١٨٦١ ليتولى القيادة . ومن ثم زحف عن طريق وفرة ،حيث انضمت اليه مطير وبني حجير . واتجه الى جهرا حيث قام بهجوم قوي على الحلفاء عند الفجر.

ومرة اخرى انهزم العجمان شر هزيمة فطاردتهم القوات المنتصرة ودفعت بهم الى موج البحر المنخفض المد آنذاك فغرقوا عند ارتفاعه . وقد نشبت هـذه المعركة في شهر رمضان مثل معركة وفره ، وبعدها بسنة واحدة تقريباً . وكانت الغنائم التي استولى عليها المنتصرون كبيرة جداً . وقد شكر اهل الزبير لعبد الله صنيعه هذا، وكانوا راضين كل الرضا عن النتيجة ، فقدموا اليه الهدايا الثمينة تقديرا منهم لنصره على الاعداء .

وصادف ان رافقه في هذه الحملة اخوه محمد ، الذي استحق الاعجاب والتقدير لاشتباكه مع حِمْدِي Himdi بن سكيان زعيم مطير المشهور ، وقتله اياه ، اثناء إغارة عبد الله على عناصر من القبيلة كانت مخيمة عنـد مَنسَف Mansaf ،

بالقرب من زلفي . وكانت هذه الغارة، مقدمة لزحفه على القصيم ، حيث عسكر عبد الله عند روضة رُباعيّة فاحدث وصوله رعباً في قلب عبد العزيز آل محمد ، حاكم بريدة . وكان هذا غير مطمئن على نفسه فهرب في الحال الى عنيزة مع ثلاثة من اولاده وجماعة صغيرة من خدمه واتباعه . ومن ثم واصل هربه الى مكة ، اذ لم يجد تشجيعاً في عنيزة .

ولدى سماع عبدالله بهذه الحادثة ، ارسل قواته في الحال ، بقيادة اخيه محمد لمطاردة الهاربين . فلحق بهم عند ابار الشكيّكة Shukaiyika ، وذبح الجند عبدَ العزيز وابناءه الثلاثة ، وأحدَ أبناء عمه ، وخادمين من خدامه . الا انهم سمحوا لبقية الجماعة ان تمضي بسلام .

ثم سار عبدالله الى بريدة لتنصيب حاكم عليها . فوقع اختياره على عبد الرحمن بن ابراهيم من منفوحة ، وكان هذا قد قاد حملةً على القصيم بعد طرد جلوي سنة ١٨٥٤ ، وامره بان يشرف بنفسه على تدمير منازل عبد العزيز وابنائه. ويوم سمح عبد الله لعبد العزيز آل محمد بان يستعيد منصبه كحاكم لبريدة ، كان هنالك ولد من اولاده اسمه عبد الله، معتقلاً في الرياض كرهينة. وكان هذا الابن قد رافق عبد الله في حملته على العجمان فهو معه الآن في رباعية عند قتل والده واخوته الثلاثة : فبقي مع الجيش وعاد معه ، الى الرياض، غير انه انسل وهرب قبل وصوله مشارف المدينة. فطورد في الصحراء وسُجن في القطيف حتى توفي هناك.

وهكذا تم القضاء على بطن مشبوه من بطون عائلة قديمة مشهورة ، لاقى افرادها أحسن المعاملة والاحترام من لدن سيدهم الذي لم يتورعوا عن خيانته مراراً وتكراراً .

* * *

وقام طلال بن رشيد ، الذي لم يشترك في الحملة على العجمان بزيارة لعبد الله في

بريدة جالباً معه بعض القوات للانضمام الى جيشه فيما اذا دعت الاحوال في القصيم. وكان اذلال عدوه الالد في بريـــدة ، مصدر سرور له . فقـــد كان ولاء اقليمه لحكومته المركزية يختلف اختلافاً كلياً عن فورة الخيانات الدائمة في القصيم . فما كادت سنة ١٨٦١ تنتهي حتى اصبح مركز القلاقل في الجزيرة العربية يتمخض عن اضطربات جديدة .

كان موت احمد السديري في مطلع هذه السنة خسارة مفجعـــة ً لفيصل، الشيخ المهدّم . فعيّن مكان السديري ابنه محمداً بصورة مؤقتة. وكان محمد ذا خبرة سابقة بالاقليم . غير ان الاحداث الجسام التي سنأتي على ذكرها في القصيم ، جعلت من الضرورة تعيينه اميراً في بريدة . ولكنه لم يعيّن هناك الا في اواخر سنة ١٨٦٣ . وبناءً على الحاح اهل الاحساء ، وافق فيصل بان يعود محمـــد الى ذلك الاقليم اميراً اصيلاً .

وفي هذه الاثناء (في شباط سنة ١٨٦٢) ولسبب لم يعرف، ثار اهل عنيزة. وربما كانت ثورتهم هذه بسبب سياسة عبد الرحمن بن ابراهيم الذي عين مؤخراً حاكماً لبريدة . وكان رد فيصل السريع على هذه الثورة ، ان سمـــح للبدو بان يهاجموا المدينة وينهبوا الاراضي القريبة منهـــا . ثم جهز جيشاً قوياً لارساله مع صالح بن شلهوب الى بريدة لمساعدة عبد الرحمن بن ابراهيم في عملياته ضد السكان الثائرين . وفي نيسان مـن ذلك العام استولت هذه القوات على جمال العنيزيـــين واغنامهم في مراعيها . غير ان اهل عنيزة كالوا للمهاجمين الصاع صاعين ، فقاموا بهجمات كثيرة اضطرت صالحاً الى ايقاف الهجوم .

وحوالي هذا الزمن (وفي شهر ايار) ،عاد محمد بن غانم احد قتلة عبدالرحمن بن عدوان وخلفُه في امارة بريدة لمدة وجيزة، الى القصيم. وكان ابن غانم هذا قد اختار النفي في المدينة المنورة حيث كان منفياً اثناء وجود ابن ابراهيم في منصبه. وبما انه من عائلة عليّان ، ومطالب ٌ بمنصب حاكم بريدة ، فقد انضم الى الثوار في

عنيزة، وشجعهم على مهاجمة المدينة المنافسة. وقد نجحت الحملة في الدخول الى المدينة تحت جنح الظلام الا انها اخفقت في ان تشق طريقها الى القلعة التي تمركز فيها ابن ابراهيم وجنود صالح بن شلهوب ، كما فشلت في الوصول الى المنازل المحصنة التي كانت تملكها عائلة « ابا الخيل » المنافسة . اما سكان بريدة فخرجوا الى الشوارع وطردوا الغزاة وكبدوهم خسائر فادحة .

وارسل فيصل في ذلك الحين امدادات قوية الى بريدة لتساعد في استمرار الضغط على عنيزة . الا ان اهل عنيزة هم الذين اخذوا بزمام المبادرة في الهجوم فهزموا المدافعين في اراضيهم بالقرب من رَواق . وكانت خسارة جيش فيصل زهاء العشرين قتيلاً ، منهم عبد الله بن عبد العزيز دغيثر قائد الامدادات التي وصلت مؤخراً . وقد غضب فيصل من فشل ابن ابراهيم المستمر في اخضاع الثوار ، فاستدعاه بصورة مذلة، وامر بمصادرة املاكه في بريدة وابقى صالح بن شلهوب قائداً للحامية فيها .

وبعد فترة الراحة والاستجمام في الصيف ، وعدم قيام اي من الطرفين باي نشاط حربي يذكر ، قرر فيصل اتخاذ اجراءات اكثر شدة وعنفاً . ففي الخريف، عبأ جيشه مرة اخرى وارسله ، بقيادة ابنه محمد ، الى القصيم . وهناك انضمت اليه قوات السدير والوشم ، بالاضافة الى جيش حايل الكبير تحت إمرة عبيد بن رشيد وابن اخيه محمد بن عبد الله ، الذي كتب له ان يكون الشخصية البارزة في الجزيرة العربية .

ولقد احتشد هذا الجيش القوي عند بريدة .. ومن هناك انطلق الى مدينة الاعداء ، الى عنيزة. واشتبك مع طليعة جيش العدو في ممر وادي ريما، الذي كان يشكل الحد الفاصل بين المدينتين المتنازعتين . فانكسر الثوار وتكبدوا بعض الخسائر . وخيم محمد في الوادي ، كي يشرف بنفسه على عمليات تقطيع نخيل العدو فانبرت له فرقة معادية لمنع ذلك .. ونشبت معركة ضارية في العاشر من كانون

الاول ، اندحر فيها جيش محمد وهرب الى مخيماته في الجسر . غير ان تهطال الامطار الغزيرة حال دون نقل المعركة الى هناك . وكان الدور لقوات محمد ان ان تقوم بهجوم معاكس على اهل عنيزة ، فقتلت منهم قرابة الاربعمائه قتيل، ولاذ الباقون باذيال الفرار .

واستمر تقطيع الاشجار.. واصبح الثوار محاصرين في مدينتهم . ثم جاءت امدادات جديدة تستحق الثناء ، فقد وصل طلال بن رشيد شخصياً على رأس بقية جيش حايل. كما ارسل فيصل ابنه عبد الله (في كانون الثاني من سنة ١٨٦٣) على رأس قوات من الاحساء واحتياطي المناطق الاخرى مع بعض المدافع . واصبحت عنيزة الآن مطوقة تطويقاً تاماً ، وتعرضت لقصف شديد من المدفعية استمر ليل نهار .. حتى اضطر سكان المدينة الى طلب الصلح .

وكان قد سبق لفيصل ان اصدر تعليماته لعبد الله بقبول اي عرض للاستسلام بشرط واحد : هو وجوب ذهاب الامير المعتدي ، عبد الله بن يحيى الى الرياض لتأدية فروض الطاعة والولاء رسمياً. فتوصل الفريقان لعقد الصلح على هذا الاساس.

وقد عفا فيصل عن الامير الثائر بمجرد وصوله الى الرياض وطلبه العفو والمغفرة، وسمح له بالرجوع الى بلاده . وارسل محمداً السديري الى بريدة وعينه اميراً على الاقليم كله . وبعد مدة وجيزة ، استدعي السديري كما ذكرنا انفاً، واعيد تعيينه حاكما على الاحساء . بينما آلت امارة بريدة الى سليمان الرشيد ، وهو من عائلة عليان. وكان هذا التعيين يعني ازدياد حدة التوتر في المدينة. فعزله فيصل بعد حين وعين بدلاً منه مهنا آل صالح ، من عائلة (ابا الخيل) المنافسة لعائلة عليان .

وفي خلال سنة ١٨٦٣ توفي في مصر ، نائب السلطان ، سعيد باشا ، وخلفه اسماعيل باشا ، وهو ابن آخر من ابناء محمد علي باشا . وفي اثناء حكم اسماعيل تم فتح قناة السويس ، واحداث اخرى اقل حظاً من ذلك العمل الباهر ، جعلت الفرص مؤاتية ،وفتحت الباب لاحتلال الاجنبي للبلاد. وقد توفي في هذا الزمن

تقريباً الشيخ تركي بن حميد ، احد زعماء عتيبة البارزين . وفي خريف سنة ١٨٦٤ كان عبد الله في طريقه للحرب في اقليم الاحساء،حيث صادف حشداً من العجمان فهزمهم والحق بهم بعض الخسائر . ويبدو ان السلام قد ساد ارجاء الجزيرة العربية بعد ذلك .

وفي غضون هذه السنة ايضاً توفي الشيخ عبد الله ابو بطين المشهور في شقرا ، موطنه الثاني ،وله من العمر خمس وثمانون سنة . فقد ولد هذا الشيخ في روضة السدير في تشرين الثاني من سنة ١٧٧٩ . وكان اول منصب شغله هو منصب القضاءفي الطائف.اذ عينه فيه الامام سعود نفسه سنة ١٨٠٥ بعداحتلاله للحجاز. الا انه اصبح مجرد مواطن عادي عندما تم طردُ جلوي من عنيزة سنة ١٨٥٥. فيكون بهذا قد شغل مناصب قضائية رفيعة طيلة نصف قرن كامل .

ومن الغريب ان المؤرخ ابن عيسى ، لايذكر شيئاً عن الزيارة التي قام بها الكولونيل لويس پلي Colonel Lewis Pelly ، المندوب السامي الانجليزي ، المشهور في الخليج الفارسي ، من اجل اجراء مباحثات سياسية مع فيصل . واقل من ذلك مدعاة للاستغراب ان يصمت المؤرخ فلا يأتي على ذكر زيارة وليم جيفورد بلجريف william Gifford Palgrave ،التي قام بها الى العاصمةالوهابية قبل ذلك بسنتين.وكم يكون شائقاً لو اننا وقفنا على انطباعات الوهابيين المعاصرين آنذاك حول هذه الزيارات التي كانت اشبه ما تكون بقصص خيالية . وعلى كل، فاولى هاتين الزيارتين ادت الى توقيع اتفاقية عربية انجليزية لم يُعثر على نصوصها في سجلات الرياض . غير ان الكولونيل پللي Colonel Pelly ،ترك لناتفصيلات رائعة حقاً ، وقيّمة للغاية ، عن النشاط والجو السائدين في البلاط الوهابي انذاك، أي في العام الاخير من حكم الامامفيصل.فقد اناط فيصل (لسنوات عدةخلت) تصريف شؤون البلاد وادارة العمليات الحربية الكثيرة على الخصوص ، الى ابنه عبد الله بالاشتراك مع اخيه الثاني ، محمد . الا انه كان يحتفظ لنفسه بالسلطة العليا في الدولة .

ويبدو انه لم يفكر يوماً من الايام في التنازل عن العرش . ومع هـــذا ، كان واضحاً انه بدأ يفقد شيئاً من حيويته ونشاطه مع كر الايام . وتوفي في الثاني من شهر كانون الاول سنة ١٨٦٥ ، بعد ان مارس الحكم واحداً وثلاثـــين عاماً ، تخللتها فترة خمس سنوات قضاها اسيراً في مصر .



الفصل الثامن

عبدالله الثاني وسعود الثالث ابنا سعود



كان لوفاة الإمام فيصل في كانون الأول سنة ١٨٦٥ ، اعظم الأثر في التعجيل بعهد من الفتن والمنازعات ، بلغت أوجهـا في زوال البيت السعودي المالك وكسوف شمسه كسوفاً كلياً ، في العقد الأخير من القرن التاسع عشر . فقد كان واضحاً تماماً منذ الزيارة التي قام بها الكولونيل لويس بلي ــ المنـدوب السامي البريطاني في الخليج الفارسي ، الى الرياض في شهر اذار ، من سنة ١٨٦٥ ــ أن صحة الامام فيصل في تدهور . وفي حزيران من نفس السنة عين ابنه عبـدالله وارثاً للعرش بشكل رسمي ، وبصفته هذه أخذ عبدالله على عاتقه تسيير دفة الحكم في الدولة .

وقد سبق لعبدالله هذا انه كان ساعد والده الأيمن قرابة العشرين عامـاً في مجالس الشورى وفي الحرب . في حين لم يترك سعودٌ ، اخوه الاصغر ، اي أثر في نفوس مؤرخي هذه الحقبة الا بعد وفاة والده . اذ طفق يبدي شيئاً مـن الحسد والعداوة نحو اخيه : فأناة عبدالله وفضائله الراسخة لم تكن لتقارن بكياسة أخيه المطالب بالعرش ولا ظرفه الذي لا يعرف الحدود . وكان من جراء هذا التناحر بين الأخوين ان تسببا في انهيار بيتهما ودماره .

وكان اول عمل قام به عبدالله بعـــد تسنمه العرش ان شيد لنفسه قصراً ذا حصون وقلاع أسماه المسماك في الجهة الشمالية الشرقية من قلعة تركي الاصلية التي قنع فيصل باتخاذها مقراً له ، ثم وسّعها وفقاً لمقتضيات حاجته وظروفه حتى قُدّر له أن يعيد للحركة الوهابية سؤددها ومجدها حينذاك . وهي نفس القلعة التي أزال آثارها العهد الحاضر، ليقوم مكانها قصر حديث يفي بمتطلبات العصر الحديث .

وخرج عبدالله في الربيع للاغارة على قبيلة الظافر عند الحـــدود العراقية، الا انه لم يتوصل الى نتيجة تذكر فيما عدا استيلائه على بعض الجمال والأغنـــام . وسرعان ما وجّه انظاره الى امور اشد خطورة من غزو قبيلة قصيّة الديار . اذ يبدو ان سعوداً رأى من الأوفق له ان يظل بعيداً عن متناول يدي أخيه ، فنزح الى اقليم عسير الجبلي الوعر . وهناك طلب الى امير المنطقة واسمه محمد بن عايض ان يساعده في مطالبته بالعرش

وتدبر عبدالله أمره .. ثم قرر ان يرسل وفداً الى أبها ، يحذر حاكمها من ان تداعب الثورة خياله ، ويطلب الى سعود العودة الى الرياض ، وهو في مأمـــن على حياته .

اما سعود فلم يجب وفد عبدالله الى طلبه ، بل رفض العودة . ولما ادرك ان لا أمل له في اغراء امير عسير على الانتقاض،قصد مكرمي زعيم نجران.وهنا كان حظه في النجاح افضل ، وكان لعلائق المصاهرة والزواج التي تربط بينـــه وبين قبيلة العجمان النازلة في الاحساء ، عن طريق والدته ، اثرها في التقدير والحفاوة التي لقيها . وسرعان ما وجد نفسه على رأس جيش قوي من البدو يسوقه صوب سليّل في وادي الدواسر اذ كان قد وعده زعيمها بالمساعدة .

وهكذا تهيأ المسرح .. وبقي على كل من الآخوين ان يبادر الى اختبار قوته فيضعها في كفة الميزان . فسارع عبدالله الى ارسال اخيه محمـــد الى الجنوب على رأس جيش قوي جنّده من حضر نجد وقبائلها. وكانت حواضر وادي الدواسر

المهمة قد ظلت على ولائها له ... وكان سعود هو البادىء في الهجوم ، فالتحم الجيشان في معتلى ، احدى قرى الدواسر ، وتكبد الجانبان خسائر فادحة في الارواح ، الا ان النصر كان حليف الموالين للملك ، حتى ان سعوداً فرّ من ميدان المعركة وهو يعاني آلام جراح بليغة في اماكن عديدة من جسمه .

وما ان اندملت جراحه اثناء اقامته في الصحراء بين افراد قبيلة مرّة ، حتى ارتحل الى البريمي وتخوم عمان واستقر هناك ضيفاً على تركي السديري ، الحاكم الوهابي للمنطقة . وكان هذا في أواخر سنة ١٨٦٦ .

وبعد اربعة اعوام من ذلك التاريخ استطاع سعود أن يعكر صفو أخيه من جديد . وفي هذه الاثناء قُتل تركي السديري في الشارقة وهو يحاول تجنيد قوة لمساعدة سالم بن ثويني ، سلطان مسقط ، الذي خلع من العرش .

اما اهل البريمي الذين لم تطب لهم اساليب تركي الادارية الصارمة ، فقد دعوا الغاصب الجديد عزّان بن قيس من مسقط وعمان لأن يحتل الواحة . وسواء كان لهذا التغيير في الحكم اثر في خطط سعود ام لم يكن ، فقد قام في السنة التالية بزيارة للبحرين ، حيث ضمن مساعدة حكامها من آل خليفة . ثم قام بهجوم عقيم على قطَر ، شلّته المقاومة الضارية التي ابدتها حامية كانت متمركزة هناك وتابعة لأخيه عبدالله .

ثم عاد سعود الى البحرين وشمر عن ساعديه للقيام بمجازفة اكبر واشد خطورة في الخريف القادم . فبعد رسائل عدة تبادلها مع العجمان ، نزل في عقير وزحف على واحة الحسا . وقد احتل سعود جميع القرى ومزارع النخيل المنعزلة ونهبها . وخرج قائد القوات الموالية للملك لمقابلة جيش سعود في قناة الوجّاج بناء على نصيحة شيوخ قبيلة العجمان الموالية لعبدالله في الظاهر .

لكن هؤلاء الشيوخ ورجالهم تخلوا عن قوات عبدالله وهاجموها . فاندحر

جيش الملك وانهزم هزيمة نكراء . إلا ان الهفوف،العاصمة ،قاومت الحصار مقاومة ضارية طيلة اربعين عاماً .

وكان عبدالله في الرياض يحشد قواته على امل ان تصمد المدينة حتى يصلها المدد . وانفصلت رواحل الجند . . الا ان سعوداً قرر ان يواجهها في الصحراء. فاحتل آبار جودا المهمة،قبل ان يصل اليها جيش الرياض الذي كان بقيادة اخيه محمد . ونشبت معركة جودا في الأول من كانون الأول سنة ١٨٧٠م ، وابـدى فيها الجانبان استماتة في القتـال ، وأزهقت ارواح كثيرة . الا ان النصر كان حليف جيوش سعود .

وقد أخذ سعود اخاه محمداً أسيراً فحبسه في قلعة القطيف . وبعـد ذلك استسلمت الاحساء دون كبير عناء، واصبح سعود سيد الجزء الشرقي من الجزيرة العربية فسيطر على جميع طرق تموين الرياض نفسها .

وفي الوقت الذي كان فيه سعود منفياً بملء اختياره في واحة البريمي (كمـا اسلفنا) حدثت هنالك تطورات كثيرة في نجد . وكان اول ما قام به عبـدالله بعد معركة معتلى ان حاول تأديب الذين ساعدوا اخاه في الثورة . فأرسل عمـه عبدالله بن تركي الى الاحساء ليؤدب العجمان . فطرد عبدُالله حاكمَ الاقليم، محمداً السديري(شقيق تركي الأكبر حاكم البريمي)،من منصبه وعين مكانه ناصربن جبر الخالدي . وسرعان ما ارسل الملك بعـد ذلك حملة كبيرة كاسحة الى وادي الدواسر ليعاقب العناصر الخائنة في الواحة وبين البدو . ثم لحق بها فتسلم قيادتها بنفسه وظل في الاقاليم المجاورة ازاء الشهرين ليرسّخ سلطانه في البلاد . ولدى عودته الى عاصمته ، استرعت انتباهه الاحداث في جبل شمر . و كان هذا الاقليم مستقلاً فعلاً الا انه خاضع للعائلة السعودية المالكة اسمياً .

أما أحداث شمر فذات شجون . . ففي سنة ١٨٦٦ اصيب الامير طلال بن عبدالله بمسّ في عقلة فانتحر وخلفه في المنصب شقيقه متعب . الا أن هذا قتل

بدوره بعد عامين من إمرته في حايل ، على يد ابناء سلفه . فآلت الامارة الى بَنْدَر بن طلال . وفي هذا الوقت بالذات صدف ان كان محمد بن عبدالله شقيق طلال متغيباً في زيارة للامام عبدالله في الرياض ، فرأى مـن الحكمة ان يبقى حيث هو فترة وجيزة من الوقت ، ليراقب اثناءها تطورات الوضع في حايل . وفي السنة التالية قام بندر نفسه بزيارة الى الرياض كي يقدم احترامه للامام وليُقنع عمه بالعودة معه الى بلاده متعهداً له بأن يلقى كل معاملة كريمة هناك .

وهكذا بدا ان بيت آل رشيد على عتبة مأساة مريعة قُدّر لها أن تعجّل في مجيء أبرز آل رشيد طراً، واحد افذاذ الرجال المشاهير في تاريخ الجزيرة العربية.

يتوقف المؤرخ النجدي عند هذه النقطة (١٨٦٩) ليدوّن بداية اعمال الحفر في قناة السويس ، والتي تمت حسب قوله سنة ١٨٧٤ ، فيقول : « ان الحكومـة الفرنسية والانجليزية والخديوي اسماعيل باشا هم الذين اسسوا المشروع وأنجزوه. وبعد ان فرغوا من مهمات الحفر انثنوا ليفرضوا الرسوم على البواخر المارة في القناة حسب حمولتها . اما من ناحية حفر القناة ليتم التقـاء البحرين ، فقد كان هارون الرشيد يريد ان يقوم به منذ زمن طويل لتسهيل عملياته الحربية ضـد البيزنطيين ، الا ان يحيى البرمكي نصحه بألا يفعل ذلك خوفاً مـن ان يطرد الفرنجة المسلمين من حرم مكة ، ولذا امتنع هارون عـن القيام بالمشروع » إذن كانت سياسة الدول العظمى في القرن العشرين اشد دهاءً من مثيلتها في السابق .

ولنعد الآن الى الملك في الرياض . . .

كان رد فعل هزيمة جودا مريعاً بالنسبة لعبدالله ولبلاده بالدرجـة الاولى . فقد كان يتوقع هجوماً صاعقاً يقوم به سعود على العاصمة . ولهـذا سارع الى الهرب منهـا قاصداً الالتجاء في حايل. وفي اثناء مسيرتـه الى هناك ارسل وفداً الى باشاوات البصرة وبغداد يطلب اليهم المساعدة الملحة لمواجهة ثورة اخيه. وكان من حسن حظه ان زاره آنئذٍ زعيم قبيلة قحطان محمـد بن هادي بن قرملة .

وكان محمد هذا قد قام بزيارة سعود الا انه اعتز البرود الذي استقباله بـه مهيناً لكرامته. فتشبث عبد الله بعرض مساعدته واستقتل. وغير رايه وعاد الى الرياض في الوقت المناسب ليثبط همة سعود عن مهاجمة المدينة .

وعقب ذلك هدوءٌ قصير الامد ، انتشرت فيه المجاعة التي قدّر لها ان تمتد لأكثر من سنتين عمتها فظائع الفوضى الضاربة اطنابها . وكان الجائعون يلتهمون حتى جثث الحمير الميتة حين يجدونها .. ويموتون ان لم يفعلوا ..

وفي نيسان سنة ١٨٧١ زحف سعود على الرياض ، فهرب عبد الله من هناك مرة اخرى الى بلاد قحطان في الجنوب . وكان قد ارسل قوة كبيرةً بمؤنها ومدافعها وذخيرتها لتقابله في مكان معين في الطريق. غيران سعوداً التقاها فوقعت غنيمةً باردةً في يده بعد قتال شديد في جزْع على مرأى من العاصمة تقريباً .

وبعدئذ دخل سعود الرياض دون اية مقاومة، فأعمل فيها يد النهب والسلب. وكذلك جرى في القرى المجاورة. وأصبح سعود الآن هو الحاكم الفعلي في نجد بدلاً من اخيه الهارب ، خصوصاً حين لبى زعماء المدن والقبائل دعوته في الحضور لتأدية اليمين على الطاعة والولاء لنظامه الجديد .

وفي حزيران كان سعود متأهباً على رأس جيش كبير من البدو والحضَر ، لمطاردة عبد الله وحلفائه من قبيلة قحطان، الذين نزلوا عند آبار أنجل ، ثم انتقلوا الى واحة بَرّة، بعد ان مر بها سعود في طريقه لاحتلال اقليم الوشم. ونُمي الخبر الى سعود، فعهد الى عمه عبد الله بن تركي لحماية شقرا وكر راجعاً لمقابلة العدو في برّة . فكسر عبدُ الله شر كسرة وهرب مع حلفائه الى الرُّوَيضة في منطقة العارض. ومن هناك ، توجه الى الاحساء ، لينضم الى الحملة التركية، التي كانت قد انطلقت من البصرة في حزيران ، ووصلت الى الهفوف عن طريق القطيف ، حيث اطلق قائدها فارق باشا ، محمداً بن فيصل من السجن. وفي القطيف طرد الاتراكُ الوالي الذي عيّنه سعود واعلنوا انهم انما جاؤوا بطلب من عبد الله لمساعدته ضد أخيه

المتمرد . وقد جاءوا في الواقع ، ليبقوا في البلاد . وكان عبدالله أسيرهم ، وان كان يلقى على ايديهم التجلة والاحترام .

كان مقدم الاتراك بلا ريب السبب في عودة سعود الى الرياض بعد معركة برّه . ولم يكن اهلها قد نسوا المعاملة الفظّة التي كانوا يلقونها على يديـه ، قبل بضعة اشهر . فشجعهم وجود اتراك على مقربة منهم على ان يثوروا على ملكهم الجديد حالما صرف جنده الذين رافقوه الى بر ه . فحاصره المواطنون في القلعة بضعة أيام ، الى ان قبل إنذارهم النهائي بمغادرة الرياض مع اتباعه .

وقد خرج سعود من القلعة ذليلاً ، فتوجه الى دلم حاضرة اقليم الخرج ، بينما سيطر عمه عبدالله بن تركي على الرياض . وما كان سعود ليظل عاطلاً عن العمل ، فها هو يصل اصدقاءه من القبائل في الاحساء ويأخذ في الاغـارة على القرى المنعزلة ومزارع النخيل . وقد هاجمه الاتراك حين علموا بأفعالـه وهزموه شر هزيمة في معركة خويرة ، وكان عبدالله نفسه حاضراً في هذه المعركة . .

وأخذت الشكوك في نوايا الاتراك تساور عبدالله . . إذ وصلت الى عقير امدادات كبيرة جداً لجيش الاحساء ـ كما أخبره ضابط تركي بوجـود مؤامرة للقبض عليه ، وطرده من البلاد مع بعض افراد عائلته ، كي تخلو الطريق لاعادة الاحساء الى الامبراطوريـة العثمانية . وكان هذا يتفق مع سياسة مدحت باشا الصريحة في العالم العربي . ومن المؤكد ان المؤرخ النجدي لايخالفه التوفيق حين يذكر ان مدحت باشا قد جاء بنفسه على رأس امدادات كبيرة لتحقيق مآربه ، فالواقع انه لم يفعل . .

ومهما يكن من أمر ، فقد وجد عبدالله نفسه واقعا في شرك يصعُب عليـه الخلاص منه . غير انه وابنه واخاه تمكنوا من الفرار رغم الحراسة، بواسطة حيلة بارعة اثناء فسحة الظهيرة . وقد وصلوا الليل بالنهـار في سيرهم ، سالكين دروبا ومسارب غير مطروقة ، حتى وصلوا الى الرياض نفسها ، وسط هتـاف الشعب وتهليله .

وها هو يعود الآن ولم يمر على فراره من العاصمة بعد معركة جودا سنة واحدة دارت فيها الدوائر على اخيه، بفضل سلسلة من الظروف التي لم يعمل لها ولم تكن له يد فيها .. ها هو عبد الله يعود بعد ان قامر بأهم اقاليم دولته فخسره .

ومرةً اخرى وجد سعود نفسه شريداً ناشطا في اثارة الاقاليم الجنوبية ، علّه يحظى بالمساعدة من اهلها . فانضمت اليه الدواسر والأفلاج باعداد كبيرة. واخذ عبد الله يفكر في منع زحف من جانبه على الرياض، فارسل اخاه محمداً وعمه عبد الله بن تركي على رأس قوة كبيرة لاحتلال دلمْ. لكن سعوداً بادر الى محاصرة المدينة، فاستسلمت له بسبب خيانة أهلها الذين أنهكهم الضيق والحرمان . وتمكن محمد من الهرب .

اما عبد الله بن تركي فقد أُخذ اسيراً وتوفي في احدى زنزانات سجن دلمَ بعد بضعة ايام من أسْره .

لم يكن هنالك انسجام بين عبد الله وبين سعود . الا انه فيما يبدو كان العامل الوحيد ذا النفوذ في غضون سنوات الفوضى التي تلت وفاة فيصل .

جرت هذه الاحداث في كانون الثاني سنة ١٨٧٣ على ما يظهر .

وبعد زهاء الشهرين كان سعود في طريقه الى الحرب فأنزلَ بضرمى وحريملة ما تستحقانه من عقاب ، ثم سار نحو الزياض نفسها . وقد خرج عبد الله لمقابلته فكان النصر حليف سعود في معركة الجزْع الثانية ، مما جعل عبد الله يهرب مع حرسه باتجاه الكويت ليقضي فترة اخرى من النفي بين قبائل قحطان عند آبار الصبيحيّة . وملّك سعود بدلاً منه في الرياض حيث تقاطر عليه اعيان الرياض وزعماء المناطق المجاورة ليجددوا له الطاعة والولاء للمرة الثانية .

وقد وجد سعود نجداً كلها مباءة للفوضى والاضطراب ، فكان عليه ان يجاهد كثيراً في سبيل استقرار الاوضاع القلقة التي ما كان اسهل على اي عدو ان يعكر صفوها فتنقلب على سعود.

ولا بدّ انه ادرك خطورة الاحداث التي جرت في حايل في اواخر عام ١٨٧٢ عندما قام محمد بن رشيد فثأر من قاتل اخيه . وتفصيل ذلك ان بندر بن طلال ، وفاءً منه لعهد قطعه على نفسه في الرياض ، قد عين محمداً في منصب المشرف على قوافل الحجاج بين العراق ومكة ، وكان هذا المنصب مهماً ومربحاً. وقد حدث بينما كان محمد عائداً من الحدود العراقية بعد ان سلم ما كان بعهدته الى السلطات التركية ان خرج بندر بنفسه مع امراء العائلة الحاكمة لمقابلته . وسخط بندر وأرعبه العدد الكبير من رجال قبائل الظافر الذين كانوا يواكبون محمد .

وقد ساد الاجتماعَ الذي تم بين العم وابن اخيه شيء من الفتور ، فلم يطمئن اي منهما للآخر . . وها هما الآن يتواجهان . كان زمام المبادرة في يد محمد فحمل عليه وقتله بسيفه محافظاً بقدر امكانه على قواعد الفروسية العربية : لقد قُتل القاتل بيد الشخص الوحيد الذي يحق له ان يثأر للضحية . وكان لبندر خمسة اخوة ،فتم البحث عنهم وقتلوا جميعهم ، عدا طفل اسمه نايف،فقد أُبقي على حياته مع طفل آخر من ابناء بندر من ارملة متعب التي تزوجها بندر بعد ان قَتل زوجها .

وكان هذا الطفل،واسمه عبد العزيز بن متعب هو الذي خلف محمداً في الامارة اذ ظلّ محمد عقيماً . هكذا زالت اللعنة التي حلّت بعائلة رشيد لانتحار طلال ولكن باقصاء جميع ابنائه عن الحكم .

لقد قيل لشارلز دوتي اثناء سياحته بعد ذلك ببضع سنوات : صحيح ان محمداً قد اقترف جرائم لم يسبق لها مثيل في العالم ، ولكنه حكم بشدة وحزم لم تعرفها الدولة من قبل . ولقد بررت هذه الحادثة التقدير المبكر لمزاياه ومواهبه، إذ كان مقدّراً لحايل ان تصبح حاضرة لامبراطورية عربية فترة من الزمن.

وفي حزيران من سنة ١٨٧٣ كان سعود في طريقه الى الحرب يبحث عن قبيلة عتيبة في مرتفعات نجد. فوجدهم نازلين عند آبار طلال . وكانت المعركة باديء الامر في صالحه ، الا ان رجال القبائل لمّوا شعثهم وتلقوا امدادات كثيرة ،

فدارت الدائرة على سعود ، وتكبد خسائر فادحة في الارواح والاموال . وقد استعاد انفاسه في الخريف من ذلك العام، فعاد الى اراضي عتيبة حينذاك، الا ان المؤرخين لا يذكرون شيئاً عن نشاطه هناك .

وفي هذه الاثناء بدأ الاضطراب يذرُّ قرْنه في الاحساء حيث وصل اليها عبد الرحمن بن فيصل الاصغر ، قادماً من بغداد في تشرين الاول سنة ١٨٧٤ . ويجوز انه قصد الاتراك كمندوب عن عبد الله بعد هربه للمرة الثانية من الرياض الى الكويت . إلاّ ان هذه الحقيقة ليست مذكورة في كتب المؤرخين .

ومهما يكن فإن عودته كانت ذات اثر في إحداث ثورة عامة ضد الحامية التركية في الهفوف. حيث قتل حرس الابواب واستولى عنوة على حصن خزام الجديد.

غيران القوة التركية الرئيسية تحصَّنت في (قلعة) الكوت وصمدت للمحاصرين. ثم وصلتها من العراق قوة مؤلفة من الجنود النظاميين والبدو، بقيادة زعيم المنتفك ناصر السعدون الذي كان يتولى منصب حاكم الاقليم آنذاك . فخرج عبد الرحمن لمحاربتهم .. وكسروه شر كسرة. فتعرضت الهفوف لموجة معربدة من النهب والسلب والتقتيل . اما العناصر الشيعية في المدينة فلم يلحق بها اذى . اذ هاجم الاتراك والبدو كلَّ من اشتبهوا ان له علاقة بالوهابيين .

وكان ذلك انتقاماً منهم للاتراك الذين لاقوا حتفهم من قبل .

وقد قُتل في تلك الايام عدد كبير من الناس. اما الغنائم فكانت هائلة لايمكن احصاؤها . وقد نجا زعماء المدينة واعيانها بفرارهم الى البحرين بعد المعركة بساعات ، بينما هرب عبد الرحمن وأتباعه الى الرياض . فوصلوا اليها في الوقت المناسب لاستقبال سعود الذي عاد مريضاً بعد غارة قام بها على جوار حريملة . وكان ذلك قبل وفاته في السادس والعشرين من كانون الثاني سنة ١٨٧٥ .

وهكذا انتهت مرحلة مؤسيةٌ مضطربةٌ في تاريخ العائلة المالكة السعودية .

هذا مع العلم بأنه قد قُدّر لابناء سعود وابائهم من بعدهم أن يعانوا البلاء الكثير من جراء الكوارث والمؤامرات التي شهدتها تلك الفترة ، لعدة سنوات.

واستولى عبد الرحمن على الحكم في العاصمة، باسم عبد الله الذي كان غائباً مع اخيه محمد في جهات الكويت . وكان عبد الله قد ارسل محمداً للاستيلاء على اقليم الوشم فأمضى محمد هناك بضعة ايام اقرّ فيها الاوضاع في شقرا، ثم توجه الى ثرمدة. ويبدو انه اسيء فهم هذه التحركات في الرياض . لذا سارع عبد الرحمن ومعه سعود ، وخرج من الرياض على رأس قوة من الاهلين والبدو . فحاصروا محمداً وحلفاءه في ثرمدة حتى نشب بين الجماعتين قتال خسر فيه الطرفان بعض الارواح.

وبعد مدة قصيرة تم عقد هدنة بين الطرفين وعادت العلاقات الودية الى مجراها، حين وضع محمد نفسه تحت تصرف اخيه الأصغر، بعد ان سلم اليه اسلحته ورواحله. ومن الممكن في هذه المرحلة ان يكون عبد الرحمن قد بدأ يفكر في (جلب النار الى قُرصه) العمل لمصلحته، اذ كانت خطوته التالية هي السير نحو دوادمي. الا انه التقى في طريقه بزعماء عتيبة الذين كانوا قد عزموا على ان يثبتوا أقدامهم هناك . وكان النصر حليفهم في الميدان .

ولدى عودته الى الرياض وجد عبدُالرحمن نفسه في متاعب مع ابناء سعود. ولمّا لم يكن من تلك الطينة التي يبرز منها الابطال في التاريخ أو رجال الحكم، وإن وجد فيه ابنه ، فيما بعد ، مستشاراً صائب الرأي فقد دفعته تصرفات ابناء سعود الى ربط مصيره بمصير عبد الله.. فلحق به في الطرف الشرقي من الصحراء تاركا الرياض تحت رحمة ابناء اخيه .

وحينئذ سار عبد الله بصحبة عبد الرحمن على رأس قوة كبيرة من البدو الى الرياض ، وهاجمها . فانسحب المطالبون بالعرش بدونه الى دلم . وعقد عبد الله بلاطه للمرة الثالثة ليتقبل التهاني وفروض الولاء من رعاياه . وكانت هذه هي المرة الثامنة التي تنتقل فيها السلطة العليا في الرياض منذ وفاة فيصل، قبل احد

عشر عاماً. اما تاريخ بداية وانتهاء هذه التقلبات فليست مدونة بضبطٍ في جميع الاحوال ، الا أنها تبدو كما يلي :

عبدالله الثاني ابن فيصل	١٨٦٥/١٢/٢	الى	١٨٧١/٤/٩
سعود الثالث ابن فيصل	١٨٧١/٤/١٠	«	١٨٧١/٨/١٥
عبدالله بن تركي	١٨٧١/٨/١٥	«	١٨٧١/١٠/١٥
عبدالله الثاني ابن فيصل	١٨٧١/١٠/١٥	«	١٨٧٣/١/١٥
سعود الثالث ابن فيصل	١٨٧٣/١/١٥	«	١٨٧٥/١/٢٦
عبد الرحمن بن فيصل	١٨٧٥/١/٢٦	«	١٨٧٦/١/٢٨
ابناء سعود الثالث ابن فيصل	١٨٧٦/١/٢٨	«	١٨٧٦/٣/٣١
عبدالله الثاني ابن فيصل	١٨٧٦/٣/٣١		

***

كان بين الزوار الذين وفدوا على عبدالله بهذه المناسبة ابراهيم بن عبد المحسن ابن مدلج من عشيرة عليّان في بُريدة ، جاء يطالب بترضية منصفة وتعويض معقول عن اغتصاب زعامة المدينة من يدي عائلته لصالح عائلة « ابا الخيل » المنافسة لها . ففي السنة المنصرمة كان زعيم هذه العائلة ، مهنا الصالح ابا الخيل أميراً على المدينة . فاستغل منصبه وطرد بعض افراد اسرة عليان لاشتباهه انهم يدبرون مؤامرة لاغتياله . ولجأ المطرودون مؤقتاً الى عنيزة ، ثم عادوا الى بريدة، حيث كمنوا لمهنا وقتلوه عند مغادرته بيته الى المسجد يوم الجمعة . ثم استولى القتلة على قلعة الحكومة، فهاجمهم أنصار الأمير المغدور بقيادة ابنه حسن وحاصروهم وضيقوا عليهم الخناق . وتولى حسن الامارة في الحال.. فقتل زعيمين من اسرة « أبا الخيل » رمياً بالرصاص . وتابع هجومه على المحاصرين بعناد . وقد نجح رجاله في وضع لغم تحت البرج الرئيسي ، فانفجر اللغم ودمر البرج . ودُفن معظم الذين كانوا فيه تحت الانقاض او أسروا فقتلهم المهاجمون .

وهكذا ثأر حسن لمقتل والده وانتقم من قاتليه .

وكان ابراهيم ، ضيفُ عبدالله ، غائباً عن بريدة فلم يشترك في الثورة . ومع هذا فقد ألقى حسن آنذاك ، القبضَ على والده واخويه وسجنهم بتهمة اتصالهم بعناصر من عنيزة . الا انهم فروا ليلاً من سجنهم . وما كادوا يفعلون ذلك حتى لحق بهم حسن وذبحهم جميعاً فيما عـدا مدلج ، الاخ الاصغر ، الذي كُتب له النجاة ليروي القصّة .

وقد وافق ملك الرياض، عبدالله ، على مهاجمة حسن المهنا للاقتصاص منه . فوصل في الوقت المناسب الى عنيزة على رأس قوة كبيرة لينفـذ قراره . وفي هذه الاثناء لجأ حسن الى محمد بن رشيد طالباً اليه مساعدته في صد هجوم الرياض، فسارع ابن رشيد الى مد يد المعونة الى حسن .. ودخل بريدة. وكان هذا ما اطفأ حماس عبدالله وجعله يقفل راجعاً الى عاصمته دون ان ينجز شيئاً . ومـن شأن هذا الحدث ان يظهر نوعية التحالف القائم بين حايل والرياض وخططها . لقد كانتا على غير وئام .

وسرعان ما قام حسن بن مهنا بموافقة حاميه ابن رشيد ، وتشجيعه ، بالهجوم على الاراضي السعودية ، فداهم مدينة شقرا ، الا انه انكسر على ابوابها . وكان ذلك خلال اشهر الربيع سنة ١٨٧٧ . ولكنه في زمن لاحق من نفس السنة انضم الى محمد بن رشيد في اغارته على قبيلة عتيبة في نفس المواقع ونهبوا محاصيل قرية عشيقير (أشَيْقِر) التي سبق ان اضرت بها غزوة الجراد . واستولوا على التمور الناضجة في مزارع النخيل الواسعة فيها .

وجـاء دور عائلة عليان لتجرب حظها مع ابن رشيد بعـد ان فشلت في مسعاها مع الرياض . الا ان اعضاء وفدها الثلاثة الذين قاموا بزيارة ابن رشيد ، ومنهم ابراهيم بن عبد المحسن نفسه، وقعوا في كمين نصبه لهم حسن المهنا في أُبقارية في طريق عودتهم من حايل الى عنيزة .

اما الحدث البارز الوحيد الذي وقع في سنة ١٨٧٧ فكان موت شريف مكة عبدالله بن محمد بن عون ، وتولّي اخيه حسين مكانه بعد ان استبعد ولديه علياً ومحمداً من الحكم . ولا يذكر ابن عيسى شيئاً عن زيارة شارلز دوتي للقصيم خلال هذه السنة ، ويقول انه لم يحدث في نجد اي شيء مهم خلال الاربع السنوات ما بين ١٨٧٨ الى ١٨٨١ م .

ولنعد الآن الى عبدالله في الرياض .. فلم يكن بمقدوره ان يفعل شيئاً لاعادة امجاد عائلته المتضائلة بعد ان ضاعت منه الاحساء للاتراك ، وتستقل القصيم في ظلال حماية محمد ابن رشيد . هذا بقطع النظر عن وجود ابناء سعود الساخطين في اقليم الخرج .

اما من ناحية ابن رشيد ، فقد كان مهتماً بتثبيت نفوده وتوسيعه الى الشمال ، حتى واحة الجوف ووادي سرحان . وكان الاتراك قد بدأوا يدخلون اليها بمساعدة ظاهرة من عشيرة الرُوَلة وزعيمها سطّام بن شعلان . وقبل هذا الزمن كانت قوة تركية صغيرة قد تمركزت في الجوف ، وفقاً لاتفاقية صورية مع محمد ابن رشيد . الا ان سوء تصرف هذه القوات ، اثار السكان المحليين فأجبروها على التراجع . وعلى العموم ، بقيت الواحة موالية لحايل فوسّع محمد نفوذه شيئاً فشيئاً الى وادي سرحان ، وحتى حدود حوران .

***

كان محمد بلا شك رجل الجزيرة العربيه القوي في هذه الفترة . فبعد أن اوقف التوسع التركي في الشمال منع كل تدخل للاتراك في شوون الاحساء والحجاز ، وكان في الاقليمين تذمر شديد من صرامة الحكم التركي . وكان من سوء حظ الشريف حسين ان يقع ضحية هذ التذمر ، فقد قُتل ذلك الرجل سنة ١٨٨٠ بسبب رضاه على الوضع في البلاد . وانتهز الأتراك فرصة هذا الحدث لاجراء تغيير عائلي في تولي امارة مكة فاستدعوا عبد المطلب ابن غالب ، من عائلة

ضاوي زيد الذي كان قد تولى المنصب من سنة ١٨٥١ ـ ١٨٥٦ ، ونصبوه اميراً . الا انه سرعان ما ثبت عقم هذه التجربة في ارضاء الحجازيين ، فخلعه الاتراك من الامارة سنة ١٨٨٢ وعينوا مكانه عون آل رفيق . وكان هذا اخاً آخر للشريف حسين الذي قُتل . وقدر له ان يشهد بداية مد الحظ الحجازي في اوائل القرن العشرين وان لم يشهد انجازه . فقد حكم حتى وافته المنية سنة ١٩٠٥ تاركاً وراءه سمعة طيبة لظُرفه وكفاءته .

اما من ناحية عبدالله فقد اخذ محمد بن رشيد يلعب به كما تلعب القطة بالفأر قبل ان تجهز عليه وتلتهمه. وكان جل ما فعله محمد ان ترك فريسته المقضي عليها بالفناء تشق طريقها الى حتفها بظلفها . وليس يعني هذا ان محمداً اطلق لخصمه العنان في الاستفادة من مكائده السياسية . كلا ، لقد احسن محمد تقدير قوته الحربية وتوصل الى تفاهم مع الشخصيات البارزة في معظم الاقاليم الواقعة في دولة عبد الله المتقلصة ، وذلك لمواجهة اية ازمة قد تنشأ في المستقبل .

وخير مثل على ذلك ما تمّ في اقليمي المجمعة والسدير اللذين ثارا لتحقيق استقلالها سنة ١٧٧٢ . فحشد عبد الله عشائره في العارض ، وجنودَ عتيبة للزحف على اقليم المجمعة . وطلب المجمعيّون المساعدة من ابن رشيد وفقاً لوعد قطعه لهم في السابق . فأجاب محمد طلبتهم في الحال ، وجلب قوة كبيرة الى بريدة . وهناك انضم اليه حسن المهنا وجيش القصيم ، فتقدم مع حلفائه حتى وصل الى زلفي . وكان من نتيجة ذلك ان تراجع عبدالله الى الرياض لدى سماعه بخبر قوات محمد ، بعد حصار عظيم ضربه على المجمعة طوال اربعين يوماً . وامضى محمد بضعة ايام في المجمعة يُصرّفُ امورها ، ثم عيّن احد سكان حايل واسمه سليمان بن سامي (صامي) حاكما على المدينة نيابة عنه وعاد الى بلاده ، وهكذا اضاف محمد دون تفاخر ولا استعلاء اقليما آخر الى دولته .

وقد كان يجب ان تكون هذه الحادثة انذاراً كافياً الى عبدالله . ولكن هذا تجاهلها في سبيل لقاء آخر مع القدر في حينه ، كما سنرى .

وصدف ان تحدى فرع من عائلة سعود ، سلطانَ ابن رشيد المتزايد في نجد ، وقدمت قبيلة عتيبة معظم القوات التي حشدها محمد ، اكبر ابناء سعود لهذه الغاية. وتمركزت هذه القوات على آبار أروى في مقاطعة العارض . فهاجمتهـا قوات مشتركة من جيش ابن رشيد وحسن المهنا ، ودحرتها . فانسحب محمد الى الخرج ليعد حملة اخرى في نفس الفصل (ربيع سنة ١٨٨٣) .ولكنه لم يهاجم ابن رشيد بل قبيلة مطير في الصحراء الشرقية ، فكأنه اراد ان يعوض عن الخسارة السابقة بالغنائم الكثيرة من الجمال والمؤونة التي استولى عليها الآن.وقد قتل أخوه عبـد الرحمن في موقعة مطير هذه ، فزاد ذلك من استقرار الاوضاع في ديار ابن رشيد.

كان شتاء ١٨٨٣ ـ ١٨٨٤ غزير الامطار ففاضت الوديان وانتعش الناس . وسار عبد الله الى الميدان في اول كانون الثاني محاولاً اخضاع اهل المجمعة . ومن قاعدته المتقدمـة في شقرا ارسل يستدعي العشائر الموالية له كي تحتشد في سهل حمادة، في مراعي ام العصافير الممرعة.وحينئـذ برز الى الوجود ذلك التحالف المعهود بين حايل و بُريدة ، للدفاع عن محميّتهم .

وقد انتهت المعركة التي نشبت باندحار عبد الله وحلفائه وهزيمتهم هزيمـة منكرة . وبقي محمد بن رشيد في حمادة ليعيد تنظيم ادارة المناطق في كلا الجانبين . فاصدر اوامره الى المواطنين البارزين في مدن الوشم والسدير وقراهمـا للاجتماع اليه وتنفيذ اوامره . ويقال بانه عين حاكماً لكل قريـة من قرى كلا الاقليمين . وكان هذا اول اصطدام مسلح فعلي يقع بين السيد وتابعه . وتدل اعمال محمد بعـد هذه المعركة على انه كان يتوقع تغيّراً في الاوضاع والمراكز بينه وبين عبد الله . ويذكر المؤرخ النجدي (الوهابي) في هذه الآونة ان ابن رشيد بدأ يطمع في مملكة نجد ، يشجعه على ذلك اصحاب المصالح والمنافع .

وفي اواخر شهر آب سنة ١٨٨٤ انتبه صاحب الرياض لما يجري وراء ظهره، فارسل اخاه محمداً الى حايل يحمل رسالةً وديةً الى ابن رشيد . فاستقبله هـذا

بالاجلال والاحترام واعاده الى الرياض في الحادي والعشرين من تشرين الاول وهو يحمل هدية تليق بالامراء، كما أعاد الى عبد الله في الرياض كلاً من الاقليمين اللذين كان ضمها الى املاكه في السنة السابقة.. فقد كان ابن رشيد موقناً ان هديته ستعود اليه بالفائدة المركبة في حينها.

وكانت الخلافات والمنازعات قد بدأت تفعل فعلها في الاراضي التي يحكمها عبد الله. لقد لاحت النهاية في الافق.. وبدت تباشير انتصار ابن رشيد تُفصح عن نفسها.. ومن سوء الحظ ان المؤرخ ابراهيم بن عيسى قد توقف عند هــذه النقطة فلم يدوّن شيئاً. وقد ذكر احد الكتاب فيما بعد، ان قصة الثمانية والثلاثين عاماً التالية قد مُنع تدوينها رسمياً. فمن الآن وصاعداً لابد ان نتبع دليــلاً آخر في معمّيات التاريخ الوهابي المعقد، وان كان هنالك من الاسباب المعقولة مايدعونا الى الاعتقاد بأن مصنَّف عبد الرحمن بن ناصر، المسمى «السعد والمجد» يؤلف الجزء المفقود من قصة سلفه، وان كان ذلك التصنيف قد تعرض لتحريف وتغيير سطحييّن وتصحيحات هامشية على الحواشي. فالاسلوب واحد، والاجزاء الملغاة التي من السهل قراءتها في المخطوط، تنمُّ عن حقيقة اسلوب ونمط مؤلفه بالرغم من الجهد الذي بذله الكاتب الجديــد لتغيير معالم الصورة. ومــع ذلك فلدينا المخطوطان وبامكاننا ان نختار منهما ما نشاء.

ومهما يكن من امر، فبعد ان ينقل المؤلف الجديد حرفياً سجل سلفه للاحداث التي جرت خلال سنوات عديدة سابقة وحتى النقطة التي وصلنا اليها، يبدأ ملحقه بسنة ١٣٠٣ هجرية التي بدأت (في العاشر من تشرين الاول سنة ١٨٨٥) بالقاء القبض على عبد الله وسجنه في الرياض على ايدي اولاد اخيه ابناء سعود الذين استلموا زمام الحكم فيها.

وكانت هذه فرصة محمد بن رشيد لاظهار صداقته لعبدالله، وبسط سلطانه على ماتبقى من الدولة الوهابية. وهذا ماهدف اليه حين توجه الى الرياض على رأس

جيش كبير . وقد انسحب امامه ابناء سعود الى الخرج فدخل ابن رشيد المدينة واطلق سراح عبد الله من سجنه واخذه الى حايل لتأمين سلامته ، وعيّن سالم الصبّحان حاكماً للرياض. وهو ضابط من اكثر ضباطه اخلاصاً وكفاءةً واقداماً. وتختلف الكتب التاريخية بصدد ما إذا كان عبد الرحمن بين الذين نُقلوا الى حايل في الوقت نفسه ، ومن المحتمل انه لم يُزرها الا بعد سنتين عندما قصد لزيارة اخيه . ولا تذكر تلك السجلات التاريخية شيئاً عن مكان اقامة محمد بن فيصل في هذا الوقت . ولا نسمع عنه شيئاً حتى الربع الاخير من سنة ١٨٩٠ عند ما ظهر في الرياض . وربما انه ظل هناك طوال مدة غياب عبد الله في حايل .

وفي غضون خريف عام ١٨٨٦ الذي جاء بعد ربيع غزير الامطار ، حدثت اضطربات في الخرج بين ابناء سعود والسكان المحليين ، فلجأ الاهلون الى سالم الصبّحان لانصافهم. وقد ارسل سالم فرقة من الجيش بقيادة شُنَيْف لمعالجة الوضع . فقتل الاخير ثلاثةً من ابناء سعود،وهم: محمد وعبد الله وسعد حسب خطة مرسومة وتدبير مسبق . وكان عبد الرحمن ، وهو ابن اخر من ابناء سعود قدقتل سابقاً في معركة ام العصافير ، اما عبد العزيز خامس اؤلئك الاخوة فقد كان في زيارة لحايل ، حيث زج به ابن رشيد في السجن بصورة مؤقتة . اما ابن سعود وهو طفل كان في الثانية من عمره آنذاك ، فقُدر له ان يضايق ابن عمه ، الملك الراحل ، (الملك عبد العزيز) بمطالبته بالعرش في مطلع القرن العشرين مع انه اصبح من اقوى مؤيديه فيما بعد

كانت الامطار غزيرة ايضاً في السنة التالية فخرج ابن رشيد للغزو في اراضي عتيبة . وصادف القبيلة محتشدة بكثرت وقوة عند أروى ، اي نفس المكان الذي جرت فيه المعركة السابقة سنة ١٨٨٣ . ويبدو ان النصر هذه المرة كان حليف زعيم القبيلة محمد بن هندي ، ولكن وصول حسن المهنا مع جيش قوي من القصيم مكّن ابن رشيد من ان يسحق البدو ويستولي على قطعان ماشيتهم وخيامهم .
وجاء الخريف التالي سنة ١٨٨٧ ايضاً وافر الامطار خصب المراعي . فوجه

ابن رشيد غزواته الموسمية المعتادة على قبائل العجمان مصطحباً معه حسن المهنا ايضاً . وكان تاريخ السنة التالية مشابهاً لسابقتها مع فارق واحد ، وهو ان عتيبة كانت ضحية غاراته في هذه المرة. وقد طرد ابن رشيد نائبه على الرياض من منصبه بناءً على شكاوي مفجعة وردت بحقه من اهالي المدينة، واختار مكانه فهاد بن راخص الذي كان يمتاز بالرصانة والمرونة .

وفي خلال فصل شتاء سنة ١٨٨٩ ـ ١٨٩٠ كانت غارات ابن رشيد تتميز بطابع الطموح ، فأوغلت حتى نفذت الى اراضي بللي وجهينة في الحجاز . ولدى عودته من هذه الحملة وجد ضيفه عبدالله بن فيصل في مرض الموت فوافق في الحال على طلبه العودة الى الرياض مع اخيه عبد الرحمن . ولم يسمح بعودته فقط بل اعاد اليه جميع حقوقه في حكم بلاده . الا ان كرم محمد لم يكن ذا نفع للامير المريض . فقد توفي بعد وصوله الى الرياض بقليل ، في الرابع والعشرين من كانون ثاني سنة ١٨٨٩ . وكان قد انقضى عشرون عاماً منذ خلف والده الفذ على عرش بلاده كوارث شرعي للدولة الوهابية التي امتدت من جبل شمر حتى ساحل عُمان ؛ ومن الخليج الفارسي حتى الحجاز وحدود اليمن . وقد بدد بعجزه وعدم جدارته هذه التركة الواسعة ، فلم يتورع عن طلب المعونة الاجنبية لتثبيت عرشه المتداعي. وكانت النتيجة ان ضم اولئك الأجانب لبلادهم المقاطعات التي جاءوا من أجل انقاذها ، ولم يبق في يد المستنجد بهم غير منطقة العارض ، وسلطةٍ اسمية على الوشم والسدير عندما نقل الى حايل لتطول سنواته الأخيرة في المنفى .

ولقد قضى عبدالله ثلث مدة حكمه لاجئاً لا وطن له ، اثناء ما حكم الآخرون مكانه في وسط دولة متفككة منحلة. ومع كل هذا كان عبدالله رجلاً يمتاز بسحر ودماثة خلق ، وان كان تاريخه يشهد على انه كان امرءاً تنقصه الحكمة والدهاء .

وكان من حظ اخيه الاصغر عبد الرحمن البالغ من العمر الأربعين عاماً ان

يرأس مأتم امبراطورية والده ويشرف عليه . فلم يتردد لدى موت اخيــه في ان يحل محله بالرغم من وجود أخيه الأكبر محمد ، الذي كثيراً ما لعب دوراً بارزاً في الحملات العسكرية التي جرت في زمانه . غير ان محمداً فيما يبدو ، لم يكن ذا مطامع سياسية . ونقل عبد الرحمن في الحال نبأ وفاة أخيه لابن رشيد وأعلمــه عن تسلمه زمام السلطة طالباً اليه في نفس الوقت ، ابعاد فهاد بن راخص ممثل آل رشيد في الرياض . ووافق ابن رشيد على هذا الاقتراح الذي لم ينصّ على عــدم استبدال رجل بآخر ، وأعاد تعيين سالم السبّحان ، الشرس الطباع ، ليمثله في حاضرة الوهابيين . ويعتقد الرواة انه لم يعمد الى ذلك الا ليراقب الحــاكم الجديد مراقبة شديدة .

ولا تورد السجلات المتوفرة تاريخ وصول سالم ، ولكنها تذكر مــع وصفها احتفال عيد الأضحى الذي تلا مراسم الحج في عرفات (٢٩ تموز ١٨٨٩) ان سالماً طلب المثول بين يدي عبد الرحمن وافراد العائلة المالكة الآخرين الموجودين في الرياض لينقل اليهم تحيات سيده المعتادة . وهذه ترتيبات رسمية تغاضى عنها عبد الرحمن . الا انه لمح من تصرفات سالم ما جعله يرتاب بوجود نية الغدر . فما كان منه الا ان أخذ بزمام المبادرة ، فهاجم سالماً وضباطه ، وذبح البعض منهم حال دخولهم قاعة الاجتماع ، غير ان سالماً فيما يبدو تمكن من النجاة .

لقد وقع الصيد في الشرك .. وتحدى داوودُ الصغير خصمه جالوت الجبار .. اما الذي فاز بالربح فكان الشيطان .

وبادر عبد الرحمن يفحص تحصيناته ويبحث عن الذخيرة وملــح البارود . وكان الحظ فيما يبدو حليفه بسبب التطورات الجديدة التي حدثت في القصيم ، فقد اساء ابن رشيد الى اهل الاقليم لسبب غير واضح يجوز انه ما كان قائماً بين بُريده وعنيزة من تنافس مستمر ، فأخذ القصيميون يبحثون عن حلفاء لمواجهة ما قد يلحق بهم من متاعب . فكتبوا الى عبد الرحمن يعدونه بالولاء ويطلبون اليــه العون والمساعدة .

لكن ابن رشيد شرع في العمل قبل ان يتم التحالف . فزحف في الحال على الرياض ، هدفه الرئيسي ، ووجه رسلاً الى عنيزة يؤكد نواياه الودية تجاه زعمائها وسكانها . ولدى وصوله الى الرياض وجد المدينة محصنة تحصيناً قوياً ؛ ليس بمقدوره ان يقتحمه ، فضرب خيامه حولها محاصراً . ثم اخذ يغير على طرق تموينها وأهالي القرى المنعزلة المحيطة بها فيدمر مزارع نخيلهم . ويقال ان جيشه قطع ما لا يقل عن ثمانية آلاف شجرة نخيل .

وبعد اربعين يوماً قضاها ابن رشيد في مثل هذه العمليات العقيمة ، اقترح على عبد الرحمن ان يتفاوضا لعقد الصلح وتسوية الخلافات بالحسنى . فوافق عبد الرحمن على ذلك ، وأرسل وفداً برئاسة اخيه محمد وعضوية آخرين من بينهم الشيخ عبدالله بن عبد اللطيف قاضي القضاة ، وعبد العزيز بن عبد الرحمن البالغ من العمر عشر سنوات . وهذه اول مرة يظهر فيها الفتى عبد العزيز على مسرح قدر له ان يسيطر عليه سيطرة تامة يوم آلت اليه ملكيته .

وقد سُوّيت المسائل المتنازع عليها بسهولة.. وتم الاتفاق على ان يفك ابن رشيد الحصار عن الرياض ويعود الى بلاده بسلام ، بينا يستمر عبد الرحمن في تسنّم عرش اجداده .

ومن المشكوك فيه ان يكون اي من الجانبين قد اعتبر الاتفاقية دائمة ونهائية ، فقد اضاع صاحب الرياض جزءاً كبيراً من بلاده ، فلا بد من استعادته . بينما كان ينقُص الطرفَ الآخر شيء منها ليصبح حلمه في الامبراطورية حقيقة واقعة . وكان عبد الرحمن البادىء في الاخلال بالهدنة .

قرر ابن رشيد ان يصفي حسابه مع أهل القصيم بعد ان خاب امله في الرياض ، وكان حسن المهنا قد اتفق مع زامل السليم زعيم عنيزة ، على تحطيم نير حايل ، لانه فيما يبدو ، قد فقد شيئاً من نعومته . فزحف ابن رشيد على جهات مُليدة وما يجاورها من رمال الضاحي ، الشاسعة ، وسط القصيم ، بجيش قوي كبير

حشده من قبائل شمر وظـــافر وحرب ، وحتى عشائر المنتفك في العراق . بينما اتخذ الأحلاف لهم مراكز حول مزارع النخيل في القراعة (قرَعة) . واستمرت المناوشات بين الطرفين بضعة ايام تكبدت فيها قوات حايل خسائر اكــبر ممــا تكبده الأعداء . ثم انتقل ابن رشيد غرباً الى سلسلة جبــال الصُلفعَة ، مستدرجاً قوات القصيم الى اراضٍ منبسطة مكشوفة حيث اصبحت تحت رحمة خيالته المتفوقة . فقُتل زامل بن سُليم في المعركة التي نشبت هناك مــع عشرة اشخاص من وجوه بريدة . وبلغت خسائر الأحلاف ستمائة قتيل . وهكذا كان انتصار ابن رشيد ساحقاً حاسماً بكل معنى الكلمة ، وغدا اقليم القصيم تحت رحمته . فنزل عند آبار الرّفيعة ليتقبل خضوع المدن والقرى . واستسلم حسن المهنا الذي جُرح في المعركة فاستاقه وعائلته ابنُ رشيدٍ اسرى الى حــايل ، حيث توفي حسن بعد ذلك بخمس سنوات . ثم عين سالمً الصبحان حاكما على بريدة بدلاً منه . كما عين شخصاً آخر من عائلة سليم يدعى عبــدالله بن يحيى حاكماً على عنيزة تحت اشراف سالم ، بدلاً من زامل المتوفى .

كانت معركة مليدة هذه في الحادي والعشرين من كانون الثاني سنة ١٨٩١ .

وهكذا بقي محمد بن رشيد ، بلا منازع ، الحكَم الفصل في مقدرات نجد ، وان كان يفضّل العود الى بلاده والأخلاد الى الراحة قبــل ان يعالج مشكلة الرياض البسيطة .

لقد اظهر عبد الرحمن نواياه باستعداداته الكبيرة ونشاطه الهائل في مساعدة حلفائه من اهل القصيم ، الا انه تأخر كثيراً عن المعركة التي طرقت اخبارهــا مسامعه لدي وصوله الى جُريفة في سهل حمادة . فعاد مسرعاً الى الرياض بعد ان ادرك انه ليس من صَيْدِ بعد ، وأخذ يعدُ العدةَ للهرب من عاصمته مع عائلته وبقية افراد البيت السعودي . ما عدا اخيه محمــد الذي بقي ليلقى ابن رشيد . وفي اثناء ذلك راح عبد الرحمن يتجول في الصحراء الشرقية في انتظار جواب

عيسى شيخ البحرين على طلبه السماح لنسائه وأطفاله باللجوء الى الجزيرة ريثما ينجلي الموقف. وكان جواب الشيخ بالموافقة فمكّن ذلك عبدَ الرحمن من ان يبعد نساءَه واولاده عن مسرح النزاع والاضطراب .

ويبدو أنه جمع اتباعاً من البدو وعاد فعلاً الى الرياض وان لم يقصد البقاء هناك. اذ انه سرعان ماالتجأ الى حريملة. وما كاد ابن رشيد يسمع بهذا حتى سار الى برّة بجيش لجب باغت به اللاجئين الى حريملة بهجوم عنيف . وكان من حسن حظ عبد الرحمن انه تمكن من النجاة بجلده ، ليهيم على وجهه في الصحراء من جديد .

وقد كاتبَ الاتراك ، في الاحساء وشيخَ الكويت طالباً السماح له بالاقامة في بلادهم . ولكن الاتراك والشيخ رفضا ذلك ، فسار عبد الرحمن في نهاية ذلك العام الى قطَر حيث امضى شهرين اتصل خلالهما بالاتراك . ووافقت الحكومة التركية ان تعين له راتباً شهرياً مقداره ستون ليرة ذهبية وسمحت له بالاقامة في اي مكان يختاره في البلاد الخاضعة لها . وكان هذا بفضل مساعي حافظ باشا متصرف الاحساء . فاختار عبد الرحمن الكويت علّه يستطيع من هناك مراقبة تطورات الأحداث في نجد، ويكون بمنجاة من حقد حاكمها الجديد .

***

سار ابن رشيد لاحتلال الرياض بعد حادثة حريملة.. فدمر سورها الدائري وتحصيناتها ، الا انه ترك محمداً بن فيصل أميراً عليها نيابة عنه . غير ان ذلك كان ترتيباً مؤقتاً لا أكثر ، فلم تنقض عليه سنة واحدة حتى عيّن مكانه رجلاً من حايل يسمى عجلان ، وخوّله امر الدفاع عن أهل المدينة . وكان هذا التخويل بناءً على شكوى الأهلين من ان مدينتهم قد غدت معرضة لغارات البدو بعد هدم السور، ومن جراء عدم وجود وسائل دفاعية فيها.

والآن أصبح اقليم نجد الوهابي ُغفلاً خاملاً لا أهمية له . أليس يسيطر عليه بيتٌ مالك اجنبي ؟ وحتى تاريخ ذلك الاقليم اصبح مجرد سجل ديني يسرد اسماء الأموات من « الرعيان » ويذكر التعيينات في الوظائف الصغيرة لحكومة ابن رشيد . ويبدو انه لم يكن هنالك ما يشغل ابن رشيد غير الاغارة على القبائل المختلفة . اما ما عدا ذلك فقد بدا جوُّه صحواً ، ورياح الطمأنينة تهبّ على بطاح الجزيرة .

ومع ذلك فقد حدث في الكويت سنة ١٨٩٤ ما جعله يفكر بقلق ... فقد قام مبارك الصباح فقتل محمداً بن صباح مضيف عبد الرحمن ، واخاه « جراح » ، وتولى زعامة المدينة وقبائلها . وهو مبارك الذي قدّر له ان يمارس نفوذاً واسعاً في شؤون الجزيرة العربية خلال السنوات العشرين التي تلت . اذ سرعان ما ادرك ان وجود أمير سعودي منفياً في مدينته عاملٌ لا تقدَّر قيمته في مجال نشاطه السياسي . وعلى يديه تلقى عبد العزيز الصغير تدريبه في شؤون السياسة والحنكة ، وبفضل ذلك التدريب استطاع ان يستعيد مجد آل سعود القديم في الرياض والجزيرة .

وهكذا تستمر سلسلة احداث الصحراء البسيطة مع كر الأيام ، ومحمد بن رشيد ثابت في مركزه لا ينازعه منازع .

وكان لخسوف الشمس الكلي الذي وقع في الحادي عشر من تموز سنة ١٨٩٧ اثره في حمل الناس على توقع كارثة تنزل بهم . غير ان شيئاً من ذلك لم يحدث ، الا اذا اعتبرنا وفاة ابراهيم آل عسكر امير المجمعة بمرض الكزاز من هذا القبيل !

وفي كانون الاول سنة ١٨٩٧ توفي ابن رشيد العظيم بعد ان عاش عمراً طويلاً ونال فيه الكثير من المجد . فخلفه ابن اخيه عبدالعزيز بن متعب بن رشيد ، وكان هذا شاباً في الثلاثين من العمر آنذاك . وكان مقدراً له ان يبدد خلال عقد واحد من الزمن تلك التركة العظيمة التي آلت اليه بوفاة عمه .

الفصل التاسع

عبد العزيز الثاني ابن سعود



بوفاة محمد بن رشيد اصبحت إمارة الكويت الصغيرة محور سياسة الصحراء وبؤرة للتنافس والتوتر الدولي في المنطقة . فقد خسر الاتراك بموته حليفاً قديراً لهم في أواسط الجزيرة العربية وأدركوا انه لا يمكنهم الاعتماد على خلفه في حايل. فليس عبد العزيز بن متعب بن رشيد في مكانة زعماء السعدون في قبائـل المنتفك العراقية او الشيخ مبارك الصباح ، في الكويت ، الا انه بالمساعدات المنـاسبة في السلاح والمال يصير قوة نافعة في المضايقة والازعاج . وليس مـن المحتمل ان يكون سعدون باشا قد طمع يوماً ما في حكم اواسط الجزيرة العربية ، فقد كان فيما يبدو قانعاً بسيادته على القسم الأدنى من العراق ويعتبر الصحراء بؤرة للغارات المعتادة ومسرحاً للمبارزة في ذلك الزمن .

وكانت هذه النظرة مغايرة لنظرة مبارك ، الذي اخذت تراوده الاحلام في ان يحتل مكان محمد المتوفي (بانتحال حذائه) ، ووجـود افراد سعود البارزين ضيوفاً عليه في بلاده .. لقد كانت في يده الورقة الرابحة ، لكنه لم يستطع التنبؤ بنتيجة المقامرة ووجهتها . الا ان تصلّف ابن رشيد وتجبّره على رعاياه شجعا

مباركاً وحملاه على التفاؤل . وكان ما زاد في تفاؤله أن تعهدت الحكومة البريطانية بحماية الكويت ضد اي اعتداء خارجي عليها . فقد ارعب بريطانية ما شهدته من تحالف تركي الماني يستهدف الكويت لمصلحة سكة حديد برلين ـ بغداد .

عند ئذ أصبح مبارك طليق اليد يستطيع ان يقوم بمجازفات في الصحراء، خصوصاً وأن مفتاحها كان في حوزته آنذاك . هذا علاوة عن امكانية اعتماده على مساعدة عشائر المنتفك له في الاغارة على أراضي ابن رشيد؛ مصدر الغارات على التخوم العراقية .

والواقع ان ابن رشيد هو الذي ابتدر العدوان ، حين قام في خريف ١٨٩٨ ، بزيارة الى ضواحي الرياض ليتعرف على سير الامور في البلاد ويتقصى رغبات السكان فيها . وليس من عجب في ذلك ، فقد ظل عمه حاكماً نافذ الكلمة فيها طوال اثني عشرة سنة . وقد وفد أعيان المدينة وزعماؤها الروحانيون لتأدية فروض الطاعة والولاء لسلطانهم الجديد . وبعد ان تحقق لديه ان عجلان حاكم المدينة، يسيطر على الوضع فيها، باشر الاغارة على قبيلة الدواسر في مقاطعة مروطة.

وفي الخريف التالي وجه انظاره الى الشرق فقام باتصالات مع بعض اهالي الكويت الساخطين الذين اختاروا المنفى في البصرة ، ليمهد بذلك الى ما كان في نيته . ولم يتمهل في الافصاح عن نواياه تلك ، اذ انه سرعان ما قام بغارة عادية على بدو الحدود العراقية ثم زحف بجيشه القوي الى الكويت. وقد قابله حلفاء الكويت من عشائر المنتفك في الطريق ، فاشتبك معهم ودمرهم . ثم طاردهم حتى سماوة الواقعة على نهر الفرات ، وبقي هناك بعض الوقت . وبعدها عاد الى حايل لقضاء فصل الصيف .

وشهد الخريف الاول من القرن الجديد (العشرين) تطورات اخرى في الوضع بعد ان كان كل من الجانبين على اتم الاستعداد للمعركة . فقد نظم عبد الرحمن غزواً على قبيلة قحطان ، وتغلغل حتى اقليم السدير ، ثم عاد يقول بأن

الاحوال ملائمة للقيام بعمليات حربية خطيرة اخرى . بينا عاد ابن رشيد من جانبه فاتجه نحو التخوم العراقية مرة اخرى ،وامضى فصل الشتاء في صحراء َحجَر َة ليستفيد من أي تطور قد يحدث . وهناك علم بان مبارك الصباح قد غادر الكويت واتجه الى وادي الشوكي وراء رمال الدهناء ، على رأس قوة فيها سعدون باشا وقبائل المنتفك، وجموع عشيرة الظافر ، والامراء السعوديون ايضاً. وقد انضم اليهم قبائل العجمان ومطير بقوات كبيرة ، ومن هناك وصل الى بريدة حاضرة القصيم .

فأخذ ابن رشيد زمام المبادرة بلا تردد وارتحل مسرعاً الى الغاب .

اما الشاب عبد العزيز ، فبعد أن سمح له والده ومبارك ، سار من شوكي على رأس جيش قوي اراد به ان يجرب حظه في الرياض . فدخلها من خلال خرائب اسوارها المهدمة ، الا انه لم يستطع ان يؤثر في الحصنين اللذين لجأت اليهما حامية ابن رشيد لتقاوم الحصار . وقد جرت المعركة الفاصلة في الواقع في ميدان صريف Sarif بالقرب من ُبريدة،حيث القى الحلفاء بكل قواتهم وثقلهم ضد ابن رشيد . الا انه كسرهم شر كسرة ، فتواثبوا امام جيشه دون نظام .

وحينئذٍ تتبعتهم قواته ، ولم يجدوا عند أفرادها رحمة ولا شفقة ، ومن وقع منهم في أيدي خصومهم الظافرين على الخصوص . وقد انسحب عبد العزيز بن سعود من الرياض ، عندما بلغته اخبار الكارثه. وبقي ابن رشيد ليحتفل بالنصر بالانتقام من بريدة ومدن القصيم الاخرى انتقاماً وحشياً ، في حين اوفد سالم بن صَبْحان المعروف بشراسته ، ليلقن سكان الرياض درساً مماثلاً .

وعاد ابن رشيد الى خطته القديمة في الاغارة اثناء فصل الخريف . ويبدو انه توصل الى تفاهم مع الاتراك حول مهاجمة الكويت التي تضعضعت مواقعها بعد معركة صريف . فسار الآن على رأس قوة كبيرة الى حفار البطين . ثم سرعان ما وجد نفسه امام اسوار جهرا ، وهي قرية في الطرف الداخلي لخليج

الكويت . اما مبارك (الشجاع !) فلجأ الى البريطانيين الذين شرعوا في قصف معسكر العدو . فانسحب ابن رشيد الى قاعدته في حفار البطين بعد حصار عقيم دام اسبوعين . ومن هناك سار الى حايل لقضاء العطلة الصيفية المعتادة . وها قد ثبت له الآن ان انتصاره ، في صريف لن يعود ، فقد برزت في الميدان سفن حربية ، وانتقل زمام المبادرة من يديه الى أعدائه

ويبدو ان مبارك وعبد الرحمن بن سعود ، اللذين ملأهما اليأس بعد الهزيمة التي أصيبا بها قبل حين ، لم يجدا في نفسيهما شجاعة كافية للقيام باية مجازفات في الصحراء ، في الوقت الحاضر على الاقل . ولكن عبد العزيز الشاب ، وهو في الحادية والعشرين من عمره آنذاك ، كان يتحرق شوقاً لينشط . كما شجعته خبرته السابقة في الهجوم على الرياض على التفكير بمهاجمتها من جديد . فوافق مبارك وابوه على خططه الرامية الى غزو الصحراء في خريف سنة ١٩٠١ ، ولكن بشيء من الريبة والشك .

وهكذا غادر عبد العزيز الكويت في اربعين من اصحابه ، وأخذ يحشد امداداً بدوية في الطريق .

وكان يغير على القبائل المعادية حتى حدود الاحساء (التركية آنذاك) ومشارف السدير . وفي كانون الاول وصل الشاب السعودي الى مياه حَرَضْ (وهي الآن منطقة بترولية مهمة) ، حيث استقر هناك طيلة شهر رمضان . وما كاد يفرغ من ايام عيد الفطر الثلاثة حتى شمّر عن ساعده للمقامرة الكبرى التي بلغت اوجها بعد خمسة ايام ، اي في الخامس عشر من كانون الثاني سنة ١٩٠٢ ، وحينئذٍ تم احتلال الرياض .

اما تفاصيل تلك القصة الخيالية فقد كررها المؤرخون في اكثر من تصنيف واحد ، فلا حاجة لروايتها من جديد .

وقد ذبح المهاجمون الحاكمَ الرشيديَّ عجلان مع عدد كبير من افراد حاميته فاستولى الذهول على أهل المدينة ، ودهمتهم المفاجأة ، وخافوا سوء العاقبة فسارعوا الى تقديم الولاء لفرد من بيت سعود مرة اخرى ، كما فعلوا في الايام السالفة .

وفي خلال شهر واحد أعيد بناء الاسوار التي دمرها محمد بن رشيد لتمدَّ أذرعها مطوِّقةً الحاضرة الوهابيّة فتحميها وتدفع عنها العدوان .

كان هم عبد العزيز (الآن) ان يؤمن نقل والده وبقية البيت السعودي من الكويت الى الرياض حيث أعدَّ احتفال فخم لاستقبالهم . وحضر الوالد .. وأخذ يبحث مع ابنه كبريات المشاكل التي تواجه نظام الحكم الجديد، فتوصلا الى وضع الترتيب التالي بكل سهولة : وهو ان يحتفظ عبد الرحمن بلقب الإمام ، راس الاسرة المالكة ، بينما يظل ابنه رأسَ الحكومة الفعّال ، وقائد جيشها .

ولم يشكل هذا الوضع الشاذ أية متاعب ، لان عبد العزيز كان دائم الرجوع الى والده في المسائل الرسمية بينما لم يتدخل الاب في شؤون الدولة وان ظلت آراؤه الصائبة مبذولة لابنه بدون تحفظ على الدوام .

هكذا نشأ ذلك التعاون السحري العظيم الذي يعتمد على المحبة الأبوية والاحترام البنوي ، والذي قدِّر له ان يدوم ، لايشوبه اي احتكاك او اختلاف الى ان توفي الامام عبد الرحمن سنة ١٩٢٨ وله من العمر ٧٨ عاماً . وبما ان عبد العزيز قضى هذه المدة في ميدان القتال فقد كان من نصيب الوالد ان ينوب عنه في جميع الامور الخاصة بالإدارة المركزية في العاصمة .

لقد اصبح ابن سعود الآن طليقاً بمقدوره ان يأخذ على عاتقه مهمة استعادة مركز اسرته في الاقليم ، واثقاً تماماً من ان كل شيء سيسير على خير صورة اثناء غيابه . فسار بنفسه لاعادة السلطة في الاقاليم الجنوبية ، ثم في المناطق القبلية التي لم

تستمرىءحكم ابن رشيد في ايامه . فزار الخرج والافلاج والحوطةوالحريق الواحدة تلو الاخرى، وتقبل فروض الولاء من شبوخ اهلها . كما استقبل وفداً ارسله وادي الدواسر . اما قبيلة قحطان التي استنكفت عن ارسال وفد للتهنئة ، فقد هوجمت ونُهبت ديارها في حا لبان . وذلك لاظهار تصميم السلطان الجديد على ان يحكم بالفعل والاسم معاً .

اما الاقاليم الشمالية فقد تركها عبد العزيز لمناسبة اخرى في المستقبل ، اذ كان الموالون من اهلها ليسوا في وضع يتمكنون معه من تحدي السلطة الواقعية للحكام الرشيديين .

وقد تباطأ ابن رشيد في الرد على الوضع الجديد في الجنوب . ولم يكن في موقف يمكّنه من الزحف الا في خريف سنة ١٩٠٢ ، وبعد ان جعل من رَغبة الواقعة في سلسلة الطويق قاعدة له ، ارسل دورية استكشافية لتتحرى اخلاص قبائل الاحساء : عجمان ومرّة . الا ان ابن سعود قابل هذه الحركة بارسال اخيه محمد وابن عمه عبد الله بن جلوي لقطع الطريق على دسائسه واحباطها . فبانضمام قبيلة مرة الى القضية الوهابية يمكننا ان نسقط من الحساب وضع العجمان الغامض في المعركة القادمة ونأمنه .

وبعد ان عسكر ابن الرشيد في رغبة كان ابن سعود حراً في وضع خططه لجرّه الى المعركة . وكانت حركته الاولى ان يترك الرياض في حماية اسوارها وحاميتها المحلية بينما يزحف على حاير في وادي حنيفة ومن ثم يتقدم نحو الحوطة لتعبئة أهلها الجبابرة . وفي نفس الوقت ارسل محمداً السديري بجيش قوي لاحتلال دِلَمْ ، حاضرة الخرج بينما ذهب اخوه الى الحريق ليحشد الامدادات .

ويبدو ان هذه الخطط العسكرية حيرت ابن رشيد ، ولذا سار قُدماً نحو آبار الحاسي Hassi عند مدخل ممر الحيسيّة . وقد اضطربت اقامته بسبب الحمى التي انتشرت بين قواته . وبعد التأخر القصير الامد الذي اعتبره اخطر من الإصابات

المرّضية التي لحقت بقواته ، توّجه ابن رشيد الى بنبان. وبحركة سريعة عبر وادي سُلَيّ ، وصل الى الخرج . وكان عازماً الهجوم على دِلمْ فما لبث ان وصل الى مزارع نخيل نعجان Na'jan فاحتلها ، الا ان الوقت كان متأخراً في النهار فلم يستطع القيام بأي هجوم فعّال .

ولم يعلم ابن رشيد حينئذٍ انابن سعودنفسه قد وصل الى دِلمْ على رأس جيش قوي في الليلة السابقة . وعندما دفع صاحب حايل قواته للهجوم في صباح اليوم التالي تعرضت لنيران حامية شديدة من لدن المدافعين المختفين جيداً بين اشجار مزارع النخيل . فأُكرهت على التراجع في شيء من الفوضى ، وخصوصاً حين ارسل السعوديون الخيالة وراءهم في المنطقة المكشوفة الواقعة بين الواحتين . وقد جمع ابن رشيد رجاله واعاد تنظيمهم ، فاستعرت معركة ضارية من الظهيرةحتى غياب الشمس. غير ان الانتكاسة الاولى الرئيسية كانت عاملاً حاسماً ضد وقوف ابن رشيد في وجه قوات اكبر مما كان يتصورها . فتقهقر خلال الليل الى السليمية في الطرف الاقصى من الاقليم . ولدى رؤيته خيالة السعوديين ، زحف بسرعة في وادي سُلَيّ حتى يصل بسلام في الوقت المعيّن. فوصل بأمان الى آبار حفار العتكْ القصيّة .

وبعد هذه المعركة الفاصلة بعدة سنوات ، كان ابن سعود يقول كلما أعيدت ذكراها : « لو ان ابن رشيد كان على علم بعامل حيوي واحد لتغيّر التيار بالنسبة لقضيته » . ولا ينكر ابن سعود ان رجاله كانوا كافين للقتال الا ان ذخيرته قد استُهلكت بالمعركة، أما مطاردة خيالته لأعدائه فقد كانت عبارة عن البدء بالتحدي . ومع ذلك فقد ادت واجبها .

لم يفزع ابن رشيد من هزيمته في دِلمْ . وهكذا بقي هناك في حفار العتك بأمان واطمئنان . وامضى الاشهر الباقية من فصل الحملات والغارات لسنة ١٩٠٢ ـ ١٩٠٣ في الاغارة على جهات مختلفة . وقد اغراه ما لاقاه من ظفرعلى عشائر

عتيبة بالقرب من ارطاويــة ،وضد السبيّع والسهول في رمال الدهناء ، بان يغير على الكويت .

هذه هي الغارة التي وقعت على رجال قبائل العريبدار القريبة من مدينة الكويت نفسها ، والتي ارعبت الشيخ مبارك وملأته فزعاً . وهي التي جعلته يرسل رسالة الى ابن سعود يطلب منه المساعدة . وبعد مدة وجيزة ظهر ابن سعود أمام المدينة على رأس قوة كبيرة ، (يقال انها عشرة الآف جندي) . ولا شك انــه كان مدفوعاً الى هذا العمل بحاجته الملحة لسد النقص في ذخيرته. وهنا انضم اليه جابر ابن الشيخ مبارك على رأس قوة تقدر باربعة الآف مقاتل لاظهار القوة الفعالة في الصحراء الشرقيــة . فهاجمت حلفاء ابن رشيد من قبائل مطير بقيادة عمــاش الدويش ، ونهبتها في مقاطعة الصمان .

وفي اثناء ذلك قرر ابن رشيد القيام بهجوم على الرياض نفسها بعد عودتــه السريعة الى معسكره في حفار العتك وسماعه بزيارة ابن سعود الى الكويت. فوصل تحت جنح الظلام الى تل ابي مخرومة القريب من المدينة ، دون ان يشاهده احد . ونزل هناك بانتظار طلوع الفجر .

ولكن بدويــاً راجعاً الى المدينة رأى جيشه اثنــاء ذلك ، فاتخذ المدافعون مراكزهم في الحصون بعد ان حذرهم البدوي ، واخذوا يوزعون عليها الجند . ولما رأى ابن رشيد ان الهجوم المباغت لم يعد مجدياً ، وجّــه غضبه الى مزارع النخيل المحيطة بالمكان ، فقتل بعض المزارعين الأبرياء واوقع في البساتين اضراراً كبيرة جداً .

وكان هم ابن رشيد الوحيد الآن أن يجعل الاقاليم الشماليـة (الوشم والسدير والمجمعة) في حالة ملائمة للدفاع ضد اية محاولة يقوم بها ابن سعود ليستعيدها . فبنى حصناً في ثرمدة من الوشم ، ووضع فيه حامية قوية للدفاع عنها . كما وضع حاميات اخرى مثلها في المجمعة وروضة السدير . ومن ثم عاد الى اقليم القصيم في

انتظار مايطرأ من تطورات ، بعد ان ضمن شقرا عاصمة الوشم ، الى جانبــه .

ولدى عودة ابن سعود من الكويت الى الرياض ، وجــد نفسه يسيطر على العارض،اقليمه، وعلى الاقاليم الجنوبية النجدية بلا منازع . وكانت اول الإخبار التي تلقاها من الميدان لدى وصوله عاصمته ، ان مساعداً بن سُويلم الذي اوفــده الإمام عبد الرحمن لاحتلال المقاطعات الشمالية في اثر الجيش المتقهقر لم ينجز مهمته فحسب ، بل تجاوز تعليماته بالهجوم على شقرا . وأن القائد الرشيدي صويــغ Suwaig لم يحاول الدفاع عن المدينة بل هرب الى حصن ثرمدة الجديد . فتبعه مساعد بعد ان احتل عاصمة الوشم بلا ادنى مقاومة .وحينذاك هرعت الامدادات الى اقليم الوشم بقيادة عبد الله بن جلوي . الا ان حامية حصن ثرمدة فيما يبدو ، كانت قد جلت عنه تحت جنح الظلام . وفي هذه الاثناء وصلت قوات اخرى من الرياض الى اقليم السدير حيث كانت روضة السدير هي المكان الوحيد الذي قاوم الاحتلال . الا ان السعوديين سرعان ما تغلبوا عليها ، وهربت الحامية الرشيدية الى المجمعة .

ويبدو ان ابن سعود قد وصل الى الشمال في هذه الفترة ليدير العمليات الحربية بنفسه ، بينما وصل ابن رشيد الى عشيْرة عن طريق زلفي في الحدود الشرقية من السدير في محاولة لتعديل الموقف . وكان كل ما استطاع فعله ان دمر بعض القرى الغير المحصنة قبل ان ينجو بنفسه ويغادر المكان. وعندها بادر اهل المجمعة يطلبون رأفة ابن سعود ليغفر لهم زلاّتهم الماضية وكفرانهم بنعمته . ثم استسلمت مدينة زلفي .. وهكذا انهار ذلك النظام الدفاعي المرتجل الذي اقامــه ابن رشيد قبل تراجعه الى القصيم .

وقدواجه قائد الجانبين مشاكل خطيرة في المعركة التي نشبت فيما بعدمن اجل الاستيلاء على اقليم القصيم الحيوي . ويبدو ان ابن رشيد بدأ يدرك ان مركزه كان حرجاً وخطيراً ، من جراء تخلي القرى والقبائل عن مناصرته بعد ان كانت في يده . ومع

ذلك كانت لاتزال لديه موارد يغذي جيشه بها طالما بقي هناك ،غير انــه لم يكن يثق بقبيلة القُصيْان المعروفة بمشاكستها ، ان تقف الى جانبــه فيا اذا ساءت الأمور . ويبدو ان امله الوحيد في مجابهة زحف ابن سعود كان في لجوئــه الى الأتراك ، الامر البالغ الخطورة وان كان لامناص منه . وحينذاك سيبادر الاتراك لتثبيت اقدامهم في اواسط الجزيرة العربية بانطلاقهم من الاحساء ، الاقليم الذي يسيطرون عليه نتيجة لتدخلهم ومبادرتهم لمساعدة عبد الله بن سعود قبل ذلك بثلاثين عاماً .

وقرر ابن رشيد ان يقامر ويتمسك بهذه القشّة الاخيرة . فأرسل رسائل الى الوالي التركي في بغداد وباشر في اتخاذ اجراءات موقتة للدفاع عن القصيم في انتظار مجيء قوات السلطان المتوقعة ، فوضع حاميــات قوية في عنيزة وبريدة . وكانت حامية عنيزة تحت امرة حاكمها المحلي . اما حامية بريدة فقد كانت تحت امرة ابن عمه ماجد بن حمود لسبب شكه في ولاء أهله . وقد اقام مركزاً طليعياً لقواته في اقليم السر ،زوده بامدادات من قبيلة حرب بقيادة حسين بن جراد ليقوم بالمراقبة وليصد اي تقدم تقوم به قوات ابن سعود ، اذا اقتضى الامر .

اما ابن سعود فوجد نفسه في ورطة تختلف عن السهولة التي تم بها احتــلال جميع الاقاليم حتى حدود القصيم . وقد رأى الامراء البارزون المعروفون بولائهم له أن من الحكمة ان يرحلوا عــن القصيم خوفاً من انتقام ابن رشيد ، وكانوا في الكويت ينتظرون التطورات في نجد . وعليه قرر ابن سعود ان يعود الى الرياض آنئذٍ ، بعد ان بعث الى الشيخ مبارك رسالة يطلب فيها توجيه انصاره الموجودين هناك لينضموا الى قواته .

وكان هؤلاء يتحرقون شوقاً للفرصة التي ستمكّنهم من المساهمة في تحرير أرض الوطن من نير ابن رشيد . فوصلت الى الرياض جماعة منهم مؤلفة من مائتــي مقاتل ومنهم عبد العزيز السليم وصالح المهنا ، زعيما عنيزة وبريدة .

وانتهز ابن سعود الفرصة فأستأنف عملياته الحربيـــة . وفي اوائل آذار سنة ١٩٠٤ اشتبك مع قوات حسين بن جراد في مقاطعة السرّ والحق به وبانصاره من قبيلة حرب هزيمة منكرة عند فيضات السرّ . وفي آخر الشهر دخل مدينة عنيزة ليلاً بعد ان تجنب مراكز ماجد بن حمود الامامية. فقُتل الحاكم فهيد بن صبحان نائب ابن رشيد ، وذبح عبد العزيز ابن سعود بنفسه عُبيداً شقيق ماجـد . الا انه لم يقنع بالاستيلاء على احدى المدينتين الرئيسيتين في القصيم ، فسار في نفس الليلة يبحث عن قوات العدو الرئيسية ، التي يقودها ماجد نفسه ، وسط مزارع الأخير في وادي ريما . وكان هجومه مباغتاً للعدو بحيث ادى القتال المضطرب الذي نشب في الظلام الى هزيمة ماجد والاستيلاء على معسكره ، مع جميـع ذخيرته وعتاده .

اما الناحية المدهشة في هذه القصة فهي ان ابن سعود وجد ابناء عمه الثلاثـة احفاد عمه سعود في معسكر وادي ريما في عنيزة نفسها . وكان هؤلاء قد ربطوا مصيرهم بمصير ابن رشيد املاً منهم في استعادة عرش الرياض بمساعـدته . فعفا عنهم بفضل شهامته التي اصبحت فيما بعد من خصاله التقليدية ولم يفرض عليهم شرطاً واحداً . ثم عرض عليهم البقاء معـه او الانضمام الى ابن رشيد فقبلوا (موقتاً) الصلح الذي عرضه عليهم . وقد ظل هؤلاء مصدر ازعاج له لكثرة مطالبهم وادعاءاتهم. .فأطلق الناس عليهم لقب العرايف من هذه الحادثة . وكان هذا اللقب يستعمل للجمال التي فُقدت في احـدى الغارات ثم استعيدت فيما بعد .

لقد أصبحت طريق بريدة خالية الآن . . ولم يجد ابن سعود ايـة صعوبة في احتلالها ، وان كانت الحامية الرشيدية هناك قد رفضت الاستسلام وتمركزت في القلعة العظيمة لتقاوم الحصار، على أمل ان يهب ابن رشيد الى انقاذهم في الوقت المناسب . الا ان هذا الأمل لم يتحقق . فبعد شهر من اطلاق الرصاص والقتال الغير المنظم استسلمت الحامية بشروط . فسُمح لرجالها بان يخرجوا باسلحتهم

ويلتحقوا بزعيمهم في جايل . وهكذا اصبح ابن سعود الآن سيد الجزء الغربي من القصيم . بينما بقي الجزء الشرقي مع رس العاصمة ، موالياً لابن رشيد .

وفي هذه الأثناء اثمرت جهود ابن رشيد في الحصول على مساعدة من الاتراك قوامها ثماني كتائب من الجند النظامي ، جاء جزء منها من المدينة المنورة بقيادة صدقي باشا، وانطلق الجزء الآخرمن بغداد بقيادة فيضي باشا القائد العام للحملة.

لقد استسلمت بُريدة في أوائل حزيران سنة ١٩٠٢ .. ولم تكد تمضي بضعة أسابيع حتى اخذ ابن رشيد يتحرك . فبعد ان زوده الاتراك بالسلاح والمال والذخائر استطاع ان يجند قوات كبيرة من قبائل حرب وعنيبة وقبيلته ، شمر . فسار الى القصيم على رأس هذه القوات ، والمجندين المحليين ، والكتائب التركية ، ووصل في شهر آب حتى ضواحي القراعة (قرعة) فتقبل ابن سعود التحدي وقاد جيشه الى البُصار، احدى واحات المنطقة الصغيرة المعروفة باسم الخُبوب. ومن وراء التلال الرملية التي حمته من خيالة العدو استطاع ان يرقب مناورات ابن رشيد بدون ان يقوم باي عمل ايجابي او اشتباك .

وقد ظلت المناوشات الغير المنظمة طابع الاعمال اليومية الى ان سار ابن رشيد باتجاه الغرب الى رمال الشيحيّات المتماوجة ، حيث بامكان جنوده ان يجدوا لهم مأوى أثناء النهار في بساتين غراس نخلها المتناثرة ، بينما يستطيع فرسانه ان يقوموا بعمليات حربية بكل سهولة إذا دعت الحاجة الى ذلك . وكان رد ابن سعود على هذا ان تقدم بجيشه ناحية بساتين نخيل البكيريّه حيث اقام مشاته في امان نسبي وراء سلسلة التلال الرملية العالية التي تفصله عن الأعداء . فلم يقع الهجوم المتوقع حدوثه عند الفجر .

ولازمت القوات السعودية مراكزها بين اشجار النخيل يستظلون بها من حرارة الشمس ، فهاجمهم العدو عند العصر فجأة ، واستمرت المعركة مستعرة حتى المغيب . وقد تمكنت القوات السعودية التي بوغتت بهجوم كامل قوات

العدو من تكبيد المهاجين اصابات فادحة ، مستغلة في ذلك وقاء البساتين ، غير انها لم تستطع البقاء في مواقعها بعد ان ارخى الليل سدوله . اذ قد تتعرض لهجوم الأعداء الذين يفوقونها عدداً ويدحرونها . فشقت طريقهـا بين اشجار النخيل تدريجياً الى الوهاد الرملية ، بينما عهدت الى مؤخرتها ان تحارب لتغطية خروج المقدمة والقلب فيها . وما ان تملص السعوديون حتى اخذوا يتقهقرون بلا نظام ، وبالسرعة الممكنة في الظلام الدامس .

اما جيش ابن رشيد فقد ظل سيد الميدان ينتظر مغيب الشمس كي يستفيد من عامل المباغتة . ولكن ذلك ما لم يقدّر له ان يحدث . إذ أن جيش القصيم الذي وصل متأخراً جداً للاشتراك في المعركة ـ وكان لا يعرف شيئاً عن تراجع حلفائه السعوديين ـ هاجم العدو وهو يقوم بجمع اسلاب المعركة . فدارت الدائرة على ابن رشيد وتكبدت قواته اصابات خطيرة ، عندما استدارت لتنسحب من الواحة .

ويبدو من الروايات المتضاربة التي وصلت الينا عن هذه الواقعة ، ان اشتباكاً وقع خلال اليوم او اليومين التاليين . الا ان القتال الرئيسي كان قد انتهى . وقد توقف القُصمان حين علموا بانسحاب الجيش السعودي الرئيسي ، توقفوا عن القتال وانسحبوا الى قاعدتهم ، خوفاً من وصول الامدادات الرشيدية . كما سحب ابن رشيد قواته الى معسكره في الشيحيات بعد ان ترك قوةً في البُكيرية التي وصلتها الامدادات .

وسار الجيش السعودي الى عنيزة ليعيد تنظيم نفسه، وهناك انضمّ اليه جيش القصيم . وبعد ايام قلائل اصدر ابن سعود امره بالزحف على البُكيرية ، حيث تعرض معسكر ابن رشيد لهجوم مباغت مع غياب القمر ، فاندحر . وتراجع خصم ابن سعود ولجأ الى بُكيْرية، فنشأ عندها قتال عنيف استمر بقية الليل ، والى ان توقفت قوات ابن رشيد عن القتال وفرت باتجاه خَبْرَة . ولكنها

اخفقت في الاستيلاء على تلك القرية حتى بعد عدة ايام من الحصار جلبت في غضونها بعض المدافع لقصف اسوارها .

واتجه ابن رشيد الى رس .. فوجد خيالة ابن سعود بقيادة اخيه محمد ، في انتظاره . ولما فشل في الوصول الى هدفه ، غيّر وجهة الزحف الى قرية شنانة المجاورة التي اصبحت قاعدته معظم ايام الشهر . وفي خلال هذا الشهر لم يحدث أي نشاط حربي باستثناء بعض المناوشات بين خيالة الجانبين . ونفد صبر جنود ابن رشيد الاضافيين بسبب صعوبة ايجاد مراعٍ لجمالهم ، بالنظر لغارات العدو المتكررة ، فاضطر للقيام بهجوم مبكر في شبه تراجع الى واحة صغيرة تسمى قصر ابن عقيّل ، على مسافة الى الغرب من شنانة ، فتبعه ابن سعود وهاجمه بشدة . وبعد عدة ايام من القتال المرير قرر التراجع نتيجة ضغط قواته البدوية . ونُقلت معداته على ظهور الجمال فانطلقت في سفرتها الطويلة الى حايل .

ارسل ابن سعود خيالته لتطارد قافلة ابن رشيد الهائمة على وجهها بينما اخذ جيشه الرئيسي يضغط ضغطاً شديداً على مشاة شمر والقوات التركية في مجرى الوادي . وفي هذه الاثناء وقعت قافلة ابن رشيد بما تحمله من ذخائر وكنوز ومعدات في ايدي خيالة ابن سعود . وما كاد ابن رشيد يعلم بهذا الخبر حتى قرر التراجع . غير ان الضغط المتواصل من قوات ابن سعود على قواته حوّل هذا التراجع الى هزيمة ، وتحولت الهزيمة الى نجاة كل واحد بنفسه .

ويذكر المؤرخ النجدي هذه الوقائع بايجاز فيقول :

وسار بعضهم في اثر البدو ونجوا بانفسهم . واتجه آخرون صوب الصحراء فهلكوا . بينما استسلم الباقون للامام فآواهم وأحسن معاملتهم . »

لقد شغلت معركة البكيرية معظم ايام ايلول وتشرين الاول ، وبعد تناوبٍ في الحظوظ انتهت ساحة الميدان بنصر ساحق لابن سعود . ومن الصعب ان

نصدق كيف ان قوة تركية كاملة تتألف من ثماني كتائب قد دُحرت في المعركة! ولكنه ينبغي علينا ان نذكر ان الاتراك كانوا يقاتلون في بيئة غير مألوفة لديهم وأحوال غير ملائمة لهم .. كانوا يُحاربون في صحراء جدباء وفي حمّارة القيظ.. ومع هذا فإن في وسع المؤرخ المنصف ان يقول « انهم لم يقاتلوا بصورة ممتازة . وقد عانوا الهزيمة على يدي عدوٍّ شجاع ماهر، مواردُه تقل كثيراً عن مواردهم.»

ومهما كان الحال ، فلقد تراجع ابن رشيد نفسُه الى كَهْفة، وهي قرية في اول حدود جبل شمر. ومن هناك ارسل الى السلطات في بغداد يعلمها بالكارثة ويطلب مساعدات اخرى .

وصدف في هذا الوقت بالذات ان وردت اخبار عن ثورة خطيرة قامت ضد الحكم التركي في اليمن بقيادة الامام يحيى حميد الدين، فاضطرت الحكومة العثمانية ان تقصُر عملياتها الحربية في العمل على اعادة الوضع في الجنوب . فصدر الامر لفيضي باشا بالتحرك فوراً الى اليمن لقيادة القوات المرسلة الى هناك . اما قيادة الجيوش في الجزيرة العربية فكانت بيد صدقي باشا. وقد صدرت اليه التعليمات فيما يبدو بالتفاوض مع ابن سعود لايجاد تسوية مـا ، لانقاذ جنود الحملة التركية من ورطتهم في الصحراء .

وفي هذه الاثناء ارسلت السلطات العراقية رسالة الى الامام عبد الرحمن المقيم في الرياض ، بواسطة شيخ الكويت ، تقترح عليه الدخول حالاً في مفاوضات سياسية عالية . ولقد وافق الامام على هذا الطلب ، فسار بنفسه الى الكويت كي يبحث الامور مع والي البصرة بحضور الشيخ مبارك. وقد اقترح الاتراك ان تصبح القصيم دولة حيادية ، على ان يكون فيها قوة عسكرية تركية لحمايتها وحكمها الى ان يُتوصل الى تسوية نهائية لجميع المسائل المتنازع عليها بين ابن سعود وابن رشيد. ويبدو ان الامام وافق على هذا الحلّ ، ولم يشترط الا ان يحال الامر الى اهل نجد لاقراره . ويقول المؤرخ بحبث : « لقد كان موقنا ان اهل نجد لن يوافقوا على ذلك الترتيب » .

وعاد الامام الى الرياض وعلم ان ابنه كان عائداً من القصيم، فذهب لاستقباله في الحاسي . وبعد ان بحث الوالد وابنه قضية مفاوضات الكويت ، قررا العودة معاً الى القصيم .

والواقع ان عبد الرحمن لم يذهب الى ابعد من الشقرا، حيث بقي هناك كي ينظم الاداره في المنطقة ويجند الجنود لحين الحاجة. بينما سار ابنه الى عنيزة لمقابلة صدقي باشا وفيضي باشا اللذين كانا لم يبرحا المدينة بعد . فكرر الاتراك اقتراحهم الأول بشأن : ايجاد منطقة حيادية، وتمركز القوات التركية في بريدة وعنيزة . الا ان عبد العزيز رفضه، بالرغم من موافقة صالح بن مهنا. وكان هذا قد وجد نفسه في دور الزعيم للقصيم حين يكون تحت حماية الحكومة العثمانية، مستقلاً عن حايل والرياض على السواء. وكل ما توصل اليه المتفاوضون هو اتفاقهم على ضرورة جلاء القوات التركية الى بغداد والمدينة المنوّرة بضمان من ابن سعود ضد اي اعتداء تقوم بـه القبائل على الطريق . وعلى سبيل الاحتياط من غدر الاتراك، اشترط ابن سعود ان تعبر قوات بغداد الحدود العراقية قبل ان يسمح لقوة المدينة المنورة بمغادرة القصيم. فنُفذت هذه الاتفاقية في حينها فيما يبدو ، وبدون اية موانع او عقبات.

وهكذا غادرت القوات التركية اواسط الجزيرة العربية بأمان .

كان ابن سعود الآن في وضع يمكّنه من فرض ارادته في القصيم، الا انه كان يهدف الى تسوية ودية لمصلحته . ولما كانت دسائس الاضراب المتنافسة في الاقليم قد أسخطته ، فاننا نراه يغادر القصيم فجأة الى الرياض تاركاً تلك الاحزاب تصرّف شؤونها بنفسها. ولماذا لايفعل ذلك ! لقد اطمأن الى عدم امكانية رجوع الاتراك، كما حذّر زعيم بريدة صالح بن مهنا ـ الذي اختاره لهذا المنصب ـ من ان ابن رشيد سيعود عما قريب ليصفي الحساب معه .

وكان الباعث الحقيقي لهذا السفر المفاجيء ورودُ اخبار من قطَر تفيد بان أحمد قد ثار على اخيه قاسم بن ثاني (الشيخ الحاكم) بمساندة عشيرة مرّة . وان نتيجة

النزاع كانت في مصلحته. فسارع ابن سعود بالذهاب الى مكان الاضطراب ،ولم يجد صعوبة في القضاء على الثورة واجبار احمد على الفرار الى البحرين .

وما كاد ابن سعود يغادر القصيم حتى جدد ابن رشيد نشاطه الحربي ضد الاقليم كما تنبأ ابن سعود . فارسل جيشاً قوياً يغير على رس ،فاحتلها بكل سهولة بينما فر سكانها الى شقة . فتبعهم ابن رشيد . الا ان القرويين تمكنوا من صد المهاجمين بيسر . وقام بغارة اخرى بالقرب من طرفيه حيث ذبح اربعين شخصاً من الحصادين العزل،وهاجم عشيرة حمادين الفقيرة واستولى على اغنامها وجمالها . وكانت هذه الغارات تافهة اشبه بوخزات الابر ، الا انها تركت شيئاً من الشعور بعدم الطمأنينة في الاقليم . ولما لام اهله صالحاً بن مهنا على عدم تعاونه مع ابن سعود،ارسل اخاه مهنا الى عنيزة،كما بعث رسولاً الى الشيخ مبارك في الكويت ، وكان الشيخ مبارك آنئذ على اتصال بابن رشيد يقترح عليه مفاوضة ابن سعود بشأن تسوية عامة . وكان ما قصده زعيم بريدة من ارسال الرسولين ان يصرف الانظار عن تآمره مع ابن رشيد .

اما ابن سعود فلم يتجاهل غصن الزيتون .. الا أن ردّه كان ينطوي على الحذر . وارسل اخاه محمداً ليغزو قبيلة حرب في الغرب بينما زحف بنفسه على بريدة . وهناك انضم اليه صالح المهنا وجيش بريدة،وسار الجميع الى سهل أسياح الرملي على حدود اراضي ابن رشيد . الا انه لم يكن مطمئناً لمظاهر الولاء الذي ابداه صالح ،فرأى من الحكمة ان ينسحب الى زلفي،ثم الى المجمعة تاركاً جيش بريدة في طريق العودة الى بلاده . وكان ابن رشيد في هذه الاثناء مايزال يقوم بغاراته المتفرقة في الصحراء الشرقية ، من معسكره في روضة المهنا .

وقرر ابن سعود أن يضرب .

وبعد ان وصل الى السهل بجيش قوي،انضمت اليه عشيرة مطير بقيادة زعيمها فيصل الدويش الذي كان مسلكه مبهماً حتى ذلك الحين . ثم عبر المنطقة الرملية

التي تفصله عن العدو مشياً على الاقدام تحت ستار الليل . ووقع الهجوم في الغسق في الثالث عشر من نيسان سنة ١٩٠٦ .. واستعرت المعركة بشراسة . واخذ ابن رشيد يشجع رجاله ويدير هجماتهم وبجانبه حامل العلم . وفيما هو يقوم بهذا العمل عرفه العدو فاطلقوا النار عليه وقتلوه . وكان في ذلك نهاية المعركة . اذ ما لبثت ان انـــدحرت قوات ابن رشيد وفرت ، بينما اسرع قادتها في الفرار الى حايل لا يفكرون الا في النزاع على العرش الذي خلا بموت صاحبه .

حينئذٍ استولى ابن سعود على معسكر ابن رشيد وعلى غنائم كبيرة وجدهـــا هناك ، الاّ انه لم يُضع الوقت في احصائها ، بل سرعان ما زحف وداهم بطنين من بطون قبيلة حرب في Raba وابو مُغَيْر على التوالي . ثم ظهر امام بريدة حيث القى القبض على صالح بن مهنـــا وارسله مخفوراً الى الرياض ليبقى رهن الاعتقال ، وعيّن ابن عمه محمد العبد الله ابا الخيل اميراً على المدينة .

* * *

ازال موت عبد العزيز بن رشيد كل اثر للقلق في نفس ابن سعود وطمأنه على استقرار حكمه حتى الحدود الشمالية للقصيم ولم يطمع في امتداد سيطرته الى ابعد من ذلك . كما قوّى عزُله لصالح بن مهنا من سيطرته على القصيم نفسها .

وخلف متعبُ بن عبـــد العزيز بن رشيد أباه على العرش ، وأخذ يفاوض بشأن ايجاد تسوية عامة. فوافق ابن سعود في الحال على استقلال جبل شمر بحدوده الطبيعية ، في حين تعهد متعب أن يعيد الى الرياض جميع الباقين من امراء عائلة سعود المتمردين . وكان هؤلاء قـــد لجأوا الى حايل مؤملـــين استخدام الوضع لمصلحتهم . بيـــد ان انسحاب سامي باشا الفاروقي ، القائد التركي الذي خلف صدقي باشا، لم يكن قد تم بعدُ. فرأى ابن سعود انه طالما كان الاتراك موجودين في البلاد سيظل الباب مفتوحاً لحبك المكائد والمؤامرات .

والواقع ان متعباً نفسه كان يراسل السلطات في بغداد ويتآمر معها دون نظر

الى التسوية التي عقدها مع ابن سعود . ويبدو انـــه لم يستطع ان يقنع الاتراك بوجهة نظره الخاصة،وإن كان سامي باشا قد حاول ان يرشو ابن سعود ليسمح ببقاء قواته في القصيم . فرفض عبد العزيز ذلك المطلب بسخط، وارتحلت القوات في النهاية .

وعند ذلك سار ابن سعود عائداً الى بلاده . وتوقف عند شقرا حيث وافاه وفد من المجمعة ليؤكد له ولاء المدينة واخلاصها . وفي اثناء اقامته هناك وردته اخبار فيصل الدويش زعيم مطير واتصاله بالاتراك.فسارع ابن سعود الى القضاء على المؤامرة بأن ارسل حملة تأديبية الى اراضي مطير . ومن ثمة قفل الى الرياض لاستقبال الوفد الذي ارسله السلطان عبد الحميد ليقدم له شكره على الحفاوة التي لقيها قواده وجيشه اثناء اقامتهم في الجزيرة العربية .

لم يسترح ابن سعود طويلاً على اكاليل غاره . فقد دهمته اخبار من حايل عن مقتل متعب واثنين من اشقائه الثلاثة . اما الاخ الاصغر فقد هرّبه عبدٌ مخلص من عبيده ونجا بجلده. وخلّفه في امارة حايل سلطان بن حمود ـ الذي قام بهذه المذبحة المريعة ـ لمدة سنة واحدة فقط. ففي كانون الثاني سنة ١٩٠٨ اغتيل بدوره على يد شقيقيه : سعود وفيصل . وأصبح سعودٌ الحاكم الجديد بينما غدا فيصل حاكماً في الجوف والمقاطعات الشمالية التي كان نفوذ حايل فيها يتحدى نفوذ نوري الشعلان زعيم قبائل الرولى.وكان ذلك بلا شك بتشجيع من الاتراك الذين مافتئوا يتلمسون طريقهم الى الحجاز عبر شمال الجزيرة. وقد سبق لواحة خيبر ان الفت نـير الخضوع لسلطان بن حمود الذي ادى عدم كفاءته الى تحويل قوافل الحجاج العراقية والايرانية عن طريق حايل الى تلك التي تمر بالقصيم . غير ان السلطان لم يكن ليرضى بفقدان القصيم بصورة نهائية . كان لا يزال يعتمد على قبيلة مطير وحكومة بريدة لبقاء الوضع مائعاً .

وكان فيصل الدويش زعيم مطير،هو اول من رفع علم الثورة في شهر ايارسنة

١٩٠٧ . الا انه دُحر وسحق سحقاً . واصيب هو نفسه بجرح بليغ في المجمعة . اما حكاية الاستسلام الاعتيادية والعفو فلم تحدث تغييراً دائماً في مسلكه . فها نحن نجده في الخريف معسكراً في الطرفيّة لمساعدة سلطان ومحمد ابي الخيل البُريدي ، مقابل القصيم . ولقد بادر ابن سعود بالذهاب الى مقاطعة السرّ حيث طلب الى قبائل عتيبة وقحطان وسبيع والسهول ان ينضموا اليه بكامل قواتهم . ومن ثم تقدم نحو عنيزة مغيراً على مراكز سلطان الأمامية ، الموزعة هنا وهناك ، بعد ان ارسل قوة لتقمع قبيلة مطير في الطرفية . ومن هناك زحف بنفسه ليوقع هزيمة ساحقة بفيصل ويستولي على معسكره . اما سلطان واهلُ بُريدة فحاولوا ان يباغتوا ابن سعود في مكانه هذا في العشرين من ايلول ، غير ان المعركة التالية انتهت بهزيمتهم التامة وفرارهم الى بُريدة . ومن ثمة ، عاد سلطان الى حايل تاركاً أخاه فيصلاً لمساعدة محمد ابي الخيل في حالة حدوث اضطراب . وفي هذه الاثناء ارسل ابن سعود قوة من الخيالة لمراقبة بُريدة ، ثم قام بسلسلة من الهجمات في شتى الجهات حتى البكيرية والرسّ وبلاد حرب بجوار النبهانية . وبعدئذٍ عاد الى الرياض ليستجم فترة من الزمن .

لكنه سرعان ما كرّ الى القصيم لدى سماعه اخباراً كاذبة عن ان سلطان كان يزحف على بريدة . فتقدم حتى بلغ الى كهفة في انتظار هذا الزحف ، ولما لم يجد اثراً للعدو أغار على معسكر طَوالة شمر Tawala Shammar في فيْد . ومن ثم انسحب الى البكيرية حيث بلغه خبر مقتل سلطان في كانون الثاني سنة ١٩٠٨ .

اما سعود ، الحاكم الجديد ، فانتهز الفرصه واخذ يبحث عن تسوية مع ابن سعود الذي غدا الآن حراً في ان يوجه نضاله الى بريدة للوصول الى تسوية نهائية مع اهلها . وكان البُريديون قد انهكهم الخوف الدائم الذي وجدوا انفسهم يعانونه من جراء سياسة محمد ابي الخيل الانانية ، فاتفقوا على ان يتصلوا بابن سعود سراً ليفتحوا له احد الأبواب ذات ليلة أثناء صلاة العشاء . وقد تم ذلك

بالفعل ، فاستولى الرجال المخصصون لهذا الغرض على ابراج السور الدائري بكل سهولة . وحُجبت المساحة الواسعة التي امام الحصن عن بقية المدينة بقوة قوامها ثلاثمائة رجل بينما قرأ الناس في الجوامع والامكنة العامة اعلان ابن سعود باعطاء الأمان لكل المواطنين الموالين بعد ان يسلموا ما معهم مـــن الاسلحة. وكان تأثير ذلك سريعاً ، حتى لم يبق امام ابن سعود من يقاومه سوى محمد نفسه ، وعـــدد ضئيل من رجاله الذين أغلقوا القلعة عليهم وتحصنوا فيها ليقاومـــوا الحصار .. لقد كان وضعهم يائساً .

وبعد بضعة ايام من المناوشات العقيمة طلب محمد عرض شروط التسليم. وتم الاتفاق على اساس تسليم جميع الأسلحة وضمان سلامة محمد الشخصية وعائلتـــه وخدمه الذين تُركت لهم الحرية في الرحيل مـــن بريدة الى حيث يشاؤون . فاختاروا اللجوء الى العراق ، واستقروا في سوق الشيوخ . وكان محمد ابو الخيل آخر حاكم وطني في بريدة . ولم يعد بامكان ابن سعود ان يغـــامر بترك العائلات الرئيسية تعكر السلام في مواطنها بفعل التنافس على امارة الاقليم.. كانت الحاجة ماسة الى يد حازمة تبقى روح القصيم المتوقدفي نطاق السيطرة عليها. ولهذا كان الحاكم السعودي الجديد هو ابن عم عبد العزيز ، عبدالله بن جلوي ، الجبار. فظل مسؤولاً طيلة السنوات الخمس التالية، والى ان احتيجت خدماته للقيام بمسؤوليات اخطر في مناطق اخرى .

وهكذا لم تعد القصيم بؤرة الاضطراب في الجزيرة العربية ولا مصدر القلق فيها كما كانت خلال السنوات الحرجة من سني كفاح ابن سعود للسيطرة على نجد.

لقد استسلمت بُريدة في التاسع والعشرين مـــن ايار سنة ١٩٠٨ ، فسارع سعود حاكم حايل الجـــديد الى البحث عن تسوية مـــع ابن سعود الذي كان على استعداد للاعتراف باستقلال جبل شمر على شرط ألا تكون مصـــدر تعكير لصفو بلاده بعد الآن. وارسل سكان المجمعة وفداً برئاسة زعيمهم عبـــدالله الى

العسكر al-Askar لتقديم الاعتذار عن موقفهم المبهم ، والاعلان عن ولائهم للنظام الجديد . ويبدو ان الفيضان العظيم في مكة كان خاتمة بركات السماء في هذه السنة التي شهدت انجاز اعمال باهرة . فدخلت المياه المتدفقة رحبة الجامع الكبير (الحرّم) وشكلت بحيرة عمقها عشرة اقدام حول الكعبة نفسها .

كان ابن سعود يأمل في فترة سلام الآن .. ولكن آماله قد تحطمت بانتكاس الحالة في حايل وحدوث اضطراب فيها . إذ أن الأهلين في المدينة كانوا يرغبون في اعادة الامارة الشرعية الى سعود بن عبد العزيز البالغ من العمر عشر سنوات والذي نجا بفضل احد عبيده حين اغتصب سلطان بن حمود الحكم ، وهرب الى المدينة المنورة . وكان زعيما هذه الحركة عضوين من عائلة مشهورة قدّر لها أن تلعب دوراً هاماً قيادياً في سياسة جبل شمر خلال الاثنتي عشرة سنة التي ظل فيها الجبل وحدة مستقلة.

كان حمود بن صبحان هو الذي فكر بالخدعة السياسية في شباط سنة ١٩٠٩ ، ونفذها بالتعاون مع ابن عمه زامل بن صبحان . فجمعا قوة كافية لتبرير الأمل بالنجاح بعد ان اتُفق مسبقاً بشأن التعاون في حايل . وأحضر سعود الصغير من المدينة المنورة وفتحت الابواب من قِبل الموالين له في حايل ، وقُتل سعود بن حمود في المعركة التي نشبت بعد ذلك . بينما تخلصوا من بعض اعضاء العائلة الآخرين بقتلهم . الا ان اثنين منهم وهما : ضاري وفيصل تمكنا من الهرب ، وحلا ضيفين على الرياض . وقد أعلن تعيين سعود بن عبد العزيز الرشيدي اميراً تحت وصاية حمود بن صبحان الذي كان ابنه عبد العزيز زوج اخت الأمير الرشيدي الوحيدة. وكان زامل ساعده الأيمن في حكم الدولة . وقد خلفه فعلاً في منصب الوصي على العرش لبضعة أشهر عندما توفي حمود مسموماً . ومن اجل تقوية سيطرته على امور الدولة تزوج زامل ام سعود الامير ، وكان زوجها الرابع . فقد كانت سابقاً وعلى التوالي زوجة محمد بن رشيد العظيم ، وعبد العزيز بن رشيد ، وسلطان بن حمود قاتل ابن زوجها ، متعب، وخلفه. ان احتجاب النساء

في الجزيرة العربية لم يحل قط دون ان يكن ذوات دور هـــام في تقرير الامور السياسية (في لعبة شطرنج الدولة) .

وكانت خطوة حمود الاولى محاولته تأمين رضا صاحب الرياض عبد العزيز ابن سعود . الا ان هذا ، ولسبب مجهول في كتب التاريخ التي بين يدينا ، رفض تقرّب وصيّ حايل . وبعد مدة قليلة نظم زامل غارة على قبائـــل مطير ، ورد عليه ابن سعود ، بأن هاجم قبائل شمر في في جوار شُعيبة ، بينما راح يبحث عن زامل في النفود . وكان معروفاً ان (ابن سعود) يقوم بمناوراته هذه مقدمـــة للهجوم . ثم انتقل الى مكان يسمى الاشعَلي ونصب خيامه كالمعتاد مع جميـــع عتادها وانسحب بعض المسافة ليرقب التطورات . اما زامل فسار ليـــلاً حتى واجه المعسكر وقام ببعض الاستعدادات للهجوم . فاعلمته احدى دورياته بانه كان خالياً . وكان هذا فشلاً ذريعاً لا يستأهل ما اجراه من ترتيبات ، فاتجهت القوة بكاملها صوب المعسكر ونهبوا ودمروا جميع معدات الأعداء الذين وقفوا يرقبون ما يجري منتظرين ان تحين ساعة هجوم مباغت. وحانت الساعة. فتلت ذلك المعركةُ المحتومة ثم عقبها الفرار .

وسار ابن سعود ماراً في طريقه من القُبّة والى القصيم، ثم الرياض .

وفي تلك الايام كانت اواسط الجزيرة العربية تعاني ضيقاً شديداً من جراء الجفاف العظيم الذي دام عدة سنوات وأصبح يعرف باسم السّاحوت في اخبار البلاد وتاريخها . وبالرغم من هذا الجفاف او بسببه حل عهد من السخط وعدم الاستقرار ؛ وتحملت موارد ابن سعود الضئيلة أقصى ما يمكن ان تكلّف بـــه . ففي خلال غياب ابن سعود في الشمال بلغت والدَه عبد الرحمن أخبار مزعجة عن احتكاك محلي في منطقة الحريق ، حيث قُتل أمير حزّان على يدي اثنين من أبناء عمه الصغار . فأرسل الامام قوة لوضع حـــد للاضطرابات ، القت القبض على القتلة وسلمتهم الى اشقاء ضحيتهم فذبحوهم .

وما كادت القوة تغادر المنطقة حتى وقع حادثا قتل آخران . فشخص عبد العزيز بنفسه الى المدينة ليعالج الموقف هناك . ولكن الزعماء المتمردين رفضوا طلبه بتحويل القضية الى المحكمة الشرعية ، ولجأوا الى حصنهم واستحكموا فيه ليجابهوا حصاراً استمر خمسين يوماً . وفي نهاية هذه المدة وضع ابن سعود لغما تحت الحصن وهددهم بنسفه بكل من فيه مع الاطفال والنساء . فاستسلم الزعماء ونُقلوا الى الرياض ، حيث زج بهم في سجن المِسْمك مدة سنتين . وعند انتهائهما أُطلق سراحهم على اثر وساطة قاسم آل ثاني امير قطر .

وكان في هذه الاثناء أن نشب خلاف بين مبارك شيخ الكويت ، وبين سعود باشا زعيم قبائل المنتفك العراقية . وقد زحف ابن سعود الى مقاطعة حجيرة بالقرب من الحدود العراقية تلبية لنداء تلقّاه من الشيخ مبارك ، وسار على رأس قوة قوامها سبعة آلاف مقاتل معظمهم من الكويت بقيادة جابر . وسرعان ما اشتبكت هذه مع قوات سعدون باشا التي كانت تساويها في العدد ولكنها ترجحها في القوة بفضل المدافع .

وتجاهل جابر نصيحة ابن سعود له بوجوب هجوم قواته البدوية على معسكر العدو ، وابتدأ معركة « هادية » في السادس عشر من حزيران سنة ١٩١٠ بهجوم من الخيالة . اما سعدون فكان قد احتفظ بخيالته ولم يأمرها بالاشتراك في القتال الا بعد ان توقف هجوم العدو واندحر في فوضاه . وهكذا اختفت القوات المتحالفة في الصحراء هاربة الى الكويت بينما احتلت قوات المنتفك معسكرهم ونهبته .

كانت هذه المعركة جزءاً فقط من حركة شاملة الغاية منها الحد من جهود زامل ابن ضبحان في سبيل استعادة شيء من امجاد حايل الماضية . وفي الوقت الذي كان فيه سعدون باشا حليفاً لزامل ، كان نوري الشعلان الذي انتزع الجوف ومقاطعة وادي السرحان من سلطة حايل ، قد انضم الى قبائل عمارات

وعنزة للضغط على زامل في الشمال والشمال الشرقي . بينما فعلت قوات ابن سعود والكويت نفس الشيء من الجنوب . وقد رأينا كيف ان فقرة من فقرات هــذا البرنامج لم تنفذ يوم هادية .

وفي نفس الوقت تقريباً هاجم زامل الحلفاء الشماليين فهزمهم هزيمة ساحقة. وفي تلك الايام الحرجة ثارت واحة تيماء في الغرب فاحتلها الاتراك الذين قدموا من المدينة المنورة، بناءً على دعوة من اهلها. مما اضطر زامل الى الهجوم عليهــا حيث كان النجاح حليفه مرة اخرى . فأكره الحامية التركية على التقهقر وتعرض السكان الى انتقام مريع لعدم ولائهم .

وفي نفس الوقت انتهز سعدون وزامل الجفاف الذي كان يسود البــلاد فتآمروا مع العجمان في الصحراء الشرقية لاستمرار الضغط على جناح ابن سعود. وتعقد الوضع اكثر فأكثر بسبب انضمام احفاد سعود بن فيصل الى قبيلة العجمان المعادية بعد ان غادروا الرياض إثر استيلاء ابن سعود على عنيزة سنة ١٩٠٤ ، كما ذكرنا .

كان هذا تطوراً سيئاً بسبب نتائجه الوخيمة المباشرة . فقد كانت معــاملة ابن سعود لابناء العم المنشقين كريمة بالرغم من كونهم اقل مرتبــة بين اعضاء الاسرة المالكة ، مما جعل في غير مقدوره استخدامهم في مناصب الاقليم المهمة، بدون مجازفة. ولا غرابة ان نجد اشخاصاً في ربيع العمر يغضبون للبطالــة التي فرضت عليهم في زمن يعج بالاحداث والمغامرات المثيرة .

ومع ان هذه العوامل كانت كافية لابن سعود إلا ان كأس مرارته وآلامــه لم تمتلىء بعد . صحيح ان زامل قدم عروضاً للصلح في سنة ١٩١١ ، وقُبلت على أساس محدود هو الاعتراف باستقلاله في جبل شمر فقط .. الا ان هذا الاتفاق لا يدوم الا اذا كان ملائماً للاطراف المعنية .

وفي هــذا الوقت ظهر عدو آخر في الغرب . فان الاتراك لم يتخلوا قط

عن فكرة ارساء سلطانهم وتثبيته فى اواسط الجزيرة العربية. ولما كانت اختبارانهم لابن رشيد مخيبة للآمال نراهم يتجهون الآن الى الشريف حسين ، الذي عيّنوه أميراً على مكة سنة ١٩٠٨ ، وهي السنة التي أنجز فيها مد الخط الحديدي الحجازي حتى المدينة المنورة .

وكان هذا الشريف قد قضى طفولته بين البدو قبل نفيه الطويل في الآستانة (اسطنبول)، والآن وهو في الستين من عمره كانت لديه الفرصة لاظهار ما يمكنه ان يفعله في سبيل تدعيم مركزه كعامل له خطورته في سياسة الصحراء .

وعلى العموم ، وبدون عمل ايجابي من لدنه ، واصل الشريف سياسة اسلافه في منع امتداد الخط الحديدي الى مكة . ومن ناحية اخرى أظهر حكمةً ومزايا قياديةً في اثناء الحملة التي وكلها اليه الباب العالي ضد الثائر ادريس زعيم قبائل محمد ، الذي احتل مرتفعات عسير وابها في الوقت الذي كان فيه الاتراك منهمكين في قمع ثورة الامام يحيى الخطيرة في اليمن ،فاستعاد حسين اقليم عسير لأسياده . وعاد الى مكة عن طريق واحة بيشة ورنيا وترابة ، رافعاً علم النصر . وشجع نجاحه هذا الأتراك على ان يستخدموه في توطيد نفوذهم في الصحراء .

وفي نهاية عام ١٩١١ ، واوائل السنة التالية ، زحف بقوة كبيرة الى بلاد عتيبة : فوصل القويعيّة في اللحظة التي وصل فيها سعد شقيق ابن سعود المحبوب ، ليجند المقاتلين للقيام بحملة ضد العرايف الذين خرجوا في ثورة سافرة ، وتمركزوا في مقاطعتي الحوطة والحريق . فألقي القبض على سعد ، واخذه حسين رهينة ، ثم دعا ابن سعود ان يفتديه بقبوله السيادة التركية ودفعه جزيةً سنوية اسمية عن القصيم .

ترك ابن سعود المطالبين بالعرش (العرايف) وشأنهم بصورة مؤقتة وتتبع حسين في اثناء تراجعه الى الغرب مع غنائمه الكثيرة . اذ كان حسين يحرص دائماً ان يكون بعيداً عن اي أذى قد ينشأ . وفي الواقع لم يكن لابن سعود اقل خيار

في الامر ، فقد كان مستعداً لان يذهب الى اقصى حد لانقاذ اخيه من براثن العدو . وبعد محاولات ناجحة للتفاوض بشأن امور اخرى ، اضطر ابن سعود الى التوقيع على وثيقة قدمها حسين ، الذي استمر في سيره يهلل ويرقص طرباً . بينما أطلق سراح سعد وانضم الى أخيه .

لقد كسب امير مكة نصراً عسكرياً لقضية الاتراك . الا ان خصمه لم يقصد كما يبدو ، ان ينفذ بنود الاتفاقية . فلم يدفع جزية على الاطلاق . وسرعان ما اخل بوعده الشفهي بالخضوع لسيادة السلطان ، بقيامه باجراء لم يترك مجالاً لسوء الفهم .

عاد ابن سعود مع اخيه الى الحريق ، واحتل المدينة . وكان قد فرّ منها المطالبون بالعرش ليطلبوا مساعدة اهل الحوطة لدى اقترابه منها . فرفض اهل الحوطة ان تكون لهم اية علاقة بالثورة مما اضطر الأمير سعوداً بن عبد العزيز وابناء عمه الآخرين ، الى متابعة هربهم الى اقليم الافلاج حيث تمركز اخوه فيصل مع بعض من زعماء حزّان في السيْح . اما بقية الاقليم فقد كان يسيطر عليه ابن سعود بواسطة الحاكم احمد السديري الذي ابلغه ان معظم المطالبين قد هربوا والتجأوا الى الشريف .

وحينئذٍ وقع سعود ابن عبد العزيز وجماعة Hazzan اسرى في يد صاحب الرياض في لَيلى . ولدى وصول ابن سعود استعرض الاسرى امامه ، وحكم على زعماء حزّان بالموت ، فنُفذ فيهم الحكم في نفس المكان . اما سعود قائد الثورة فمن الغريب ان خصمه اطلق سراحه وخيّره بين اللحاق بأبناء عمه في الحجاز او البقاء معه . فاختار البقاء معه ، وظل موالياً لرئيسه على الدوام .

وبعد ان تخلص ابن سعود من ابناء عم الثائرين قام بغارة على العجمان الذين آووهم فكانوا بذلك مصدراً دائماً للمتاعب . وفي اثناء وجوده في الصحراء الشرقية وصلته رسالة من الشيخ مبارك يطلب فيها مساعدته ضد قبائل المنتفك

والظافر عند التخوم العراقية. الا انه بعد ما رآه من جابر يوم هادية لم يكن ميالاً للتعاون على الاطلاق، لولا انّ ورود رسالة اخرى اكثر اهميةً من سابقتها حملته على تغيير رأيه . فسار على رأس قوة كبيرة الى حفار البطين حيث وافاه حمود بن سُويط وعقد معه الصلح . كما اعلمه في نفس الوقت ان مباركاً نفسه قد أنذره مسبقاً بالحملة لانه فيما يبدو ، كان يحاول ايجاد توازن في القوى في الصحراء . فاغار ابن سعود على قبائل المنتفك في "كبِدَة وظهر فجـأة في صفوان بالقرب مـن البصرة والزبير .

ومهما كان الدافع في هـذه التظاهرة التي قام بها ابن سعود والاتراك على احر من الجمر بسبب اشتداد الحركة العربية الوطنية في سوريا والعراق بعد ثورة ١٩٠٨ فقد بادر الى الانسحاب لدى وصول الوفد السلمي الذي يمثل والي البصرة وسكان الزبـير . ثم سار الى جهره بالقرب مـن الكويت حيث قام بغارة اخرى على العجمان في منطقة الاحساء . وذلك بعد ان اوضح له مبارك الامر معتذراً شديد الاعتذار عن مسلكه المبهم الاخير .

وكان دور الاتراك الآن ، تحت ضغط اتساع سلطـان ابن سعود في شؤون الصحراء، ان حاولوا جره الى جانبهم ليكون القوةَ المرجحة ضد الحركة الوطنية في البلدان الواقعة على الحدود . لذا ارسل سليمانُ شفيق باشا واليَ البصرة ليتأكد مـن وضع الزعيم الوهابي ، ولطلب مشورته بصدد افضل الطرق في معالجـة الوضع العام .

وكان جواب الامير الوهابي المدوّن شيّقاً بلا شك ، لانه كان اول اطروحة له في ممارسة السياسة . فبعد مقدمـة خاصة انحى فيها باللـوم المحقّ على الاتراك نفسهم ، معتـبراً اياهم السبب في المتاعب التي ضيّقت عليهم في كل جزء مـن الامبراطورية العربية، قال : لقد كانوا قانعين بان يكونوا حكاماً دون ان يعرفوا مسؤولية الحكام في التفكير بمصلحة رعاياهم . فـاذا نشدوا السلام في الجزيرة

العربية ليتفرغوا لمعالجة متاعبهم الداخلية يكون عليهم ان يتوصلوا الى تفاهم مع العرب على اسس من الحرية والرضا . كما يجب عليهم ان يجمعوا جميع زعماء العرب : صغيرهم وكبيرهم ، بدون تمييز في مؤتمر عام، وفي مكان لا يخضع للادارة العثمانية ، حتى يكون هناك مجال لحرية الكلام المطلقة .

والغاية من هذا الاجتماع ايجاد توافق وانسجام في البلاد العربية . ويجب ان يكون للزعماء الخيار : فإما ان تشكّل الدول العربية مجموعة واحدة يرأسها حاكم يختارونه بانفسهم ، أو يبقى الترتيب الحالي القائم على كيانات سياسية منفصلة تتمتع كل منها باستقلال محلي تام، وتظل الواحدة منها تحت سيادة حاكمها الذي يشبه الوالي في الاقليم التركي . واذا لزم الامر، يجري تخطيط حدود معروفة وثابتة بواسطة مساعي الاتراك الطيبة . وفي اية حالة ستبقى البلاد العربية تحت سلطة السلطان العليا الذي سيكون مسؤولاً عن تنظيم الدفاع وتطويره ايضاً ، بينما يتوجب على اهل كل وحدة حاكمة ان تتعاون مع جيرانها في حماية الصالح العام وتشجيع العمل له ، مع ضمان تعاون الجميع لدفع العدوان من اية جهة كان .

ثم انهى كلامه قائلاً :

وبهذه الطريقة فقط يمكن لمصالحكم ولمصالحنا ان تتفق وتنجح ، كما يمكن ضمان حمايتها ضد اي عدو خارجي .

ويُذكر أن متصرف البصرة قد تأثر بهذا الخطاب ، فأرسله الى الباب العالي لإمعان النظر فيه . ولا بد ان الباب العالي اعتبر هذا الجهد من جانب ابن سعود محاولةً لبسط نفوذه على كامل الجزيرة العربية بمساعدة الامبراطورية العثمانية وعلى حسابها . ومع ذلك كان الاجدى بالباب العالي ان يختار فترة الهدوء النسبي هذه ، لتعد الدولة العثمانية شراعها للعاصفة القادمة .

اما ابن سعود ، فبعد ان ثبت لديه ان مقترحاته لم تلقَ اذناً صاغية ، لم يجد

بدلاً من ان يحمي نفسه بترتيبات اخرى . و كان قد حاول، عبثاً ، طوال السنوات الاثني عشرة السابقة ان يثير اهتمام الحكومة البريطانية، بصفتها الدولة الوحيدة ذات المصالح الحيوية والقوة الكافية في الخليج الفارسي، لضمان مركزه في الجزيرة العربية ضد اي اعتداء من اية ناحية . الا ان بريطانيا لم تكن ميالة لزج نفسها في مغامرات في الصحراء . بـل كانت مهتمة اشد الاهتمام بارضاء تركيا سياسياً ، ترضية تتلاءم وحماية مصالحها في الخليج الفارسي .

وهكذا وبسيطرة الاتراك على اقليم الاحساء سنة ١٨٧١ واستيلاء بريطانيا على جميع منافذ ساحل الجزيرة العربية من الكويت حتى مسقط ، وجد ابن سعود نفسه سجيناً في الصحراء ، ومكشوفا من الشمال والغرب لهجمات اعداء يتمتعون بمساعدة الاتراك وتشجيعهم، بينما كان هو يعتمد على ولاء القبائل، ومدن بلاده، الغير المضمون .

كان هذا مصدراً لضعف خطير . ولا بد ان ابن سعود امضى ساعات وساعات خلال سنوات الكفاح السابقة وهو يفكر في الوسائل الكفيلة بمجابهة اهواء القدر وتقلباته ، هذا القدر الذي أذل اسلافه بين الحين والآخر خـلال تاريخ الحركة الوهابية التي بوأت البيت السعودي مكان السيادة في الجزيرة العربية . وقد شاهد هو بنفسه انهيار دولة محمد بن رشيد (ولعب دوراً بارزاً في هذا السبيل) حالما توفي صاحب اليد القوية وزالت قبضته عن دفة السفينة . وحتى الامبراطورية العربية في ايام الاسلام الاولى تبددت بفعل القيادة الضعيفة والانحطاط الذي ولدته ثروة الاقاليم التي فتحها المسلمون .

ويبدو ان هنالك ضعفاً في جوهر المجتمع الصحراوي . فانه وان كان اهلاً للاعمال البطولية بدافع قضية كبرى او تحت تأثـير شخصية عظمى ، فهو فطرياً يعجز عن الحفاظ لأمد غير محدود ، على النظم الضرورية لتطوير ثمـار النصر للصالح العام . فالقبائل الصحراوية والدول المدينيـة كانت على السواء واقعت

تحت تأثير شعور من الولاء المحلي او القبلي الذي تغلب على شعور الوطنية، والمشاعر العامة الضرورية لاقامة دولة يسودها النظام .

هذا هو الضعف الذي وجد ابن سعود نفسه مضطراً لايجاد علاج له . فتاريخ اسرته جعل من الدين العنصر الأساسي لهذه الدولة . ولا شك بانه واباه كانا وهابيّين صادقين مخلصين الا انه في اوار القتال الضاري الذي دار في تلك السنين الخوالي يعوزنا اي تاريخ مسطور يدل على الناحية الدينية في عملياتها الحربية .

ومع ذلك، يمكن الافتراض ان فكرة نهضة وهابية اخرى كانت تختمر في رأس ابن سعود كعامل سياسي يستفيد منه ..

لقد تأثر بفكرة جديدة من النوع العادي لهذه النهضات ، وقد ركز جهود دعاته وحاملي رسالته بين البدو، تلك الجهود التي بدأت ثمارها في الظهور سنة ١٩١٢ . ففي تلك السنة اجتمعت جماعة مختلفة من قبائل حرب ومطير في حرما بالقرب من المجمعة متأثرة بتحذيرات الدعاة من العقاب الابدي ، واخذت تبحث عن معلومات اوفى حول هذا الموضوع ومن مصادر اوثق. وقد ساعدهم في هذا الامر المتحمسون من السكان المحليين . إلا أن تعصبهم وشدة تمسكهم وتزمتهم لمظاهر التقوى الشخصية سرعان ما أسخطت عليهم السكان الآخرين .

وقد قررت هذه الجماعة التي عرفت باسم الاخوان ، البالغ عددها خمسون شخصاً وعائلاتهم، الهجرة الى بيئة يكونون فيها اقل تعرضاً للخطر . فوقع اختيارهم على آبار أرطاوية الواقعة على طريق القوافل بين الكويت والقصيم ، لتكون بمثابة مستعمرة نسّاك، وسرعان ما اصبح هذا المهجر نموذجاً للتجمعات العسكرية الدينية التي ظهرت تباعاً بسرعة مدهشة في جميع انحاء البلاد التي تتوفر فيها الاحوال الملائمة للحياة الاجتماعية في هذه المهاجر التعاونية .

اما ابن سعود الذي بدأ عملية التجديد بين البدو بواسطة دعاته ومرشديه ،

فقد وضع جميع التسهيلات الضرورية تحت تصرفهم : المال والحبوب والادوات الزراعية وعلماء الدين ، وكل ما هو ضروري لبناء الجوامع والمدارس والمساكن. واخيراً زودها بالذخـيرة والسلاح اللازم للدفاع عن مذهب كان اهم مبادئـه الاساسية نبْذ جميع العادات الوثنية والتقاليد القبلية الموروثة . فالاخوّةُ القائمةُ بين جميع الناس الذين اعتنقوا المذهب الجديـد، بغضّ النظر عن انسابهم القبلية ومراكزهم الاجتماعية، وجهّت شوقَ العرب للحرب، الى خدمة الله ووكيله على الارض . واصبحت الغارات المتبادلة والسرقة على قارعة الطريق ، والتدخـين وترف الحيـاة وطراوتها ـ محرمة . وتركز جلّ الاهتمام في هذه التعاونيـات (المستعمرات) في التفكير والعمل لحياةٍ اخرى .

اما نشاط الخمسين رجلاً من الاخوان واعمالهم ، فقد كانت مدار بحث واسع في القبائل التي هجروها ،فوفد المتطوعون من كل ناحية لينضموا اليهم . وسرعان مااصبحت أرطاوية مدينة مزدهرة تضم عشرة آلاف من السكان. وتبعتها غطغط في مقاطعة ضُرما فتأسست فيها نواة من عتيبة ،اعتنقوا المذهب الجديد. ومع مرور الزمن اصبحت في المرتبة الثانية بعد ارطاوية في حماسها واهميتها. ثم أُنشئت القرى في كل مركز ملائم بسرعة مدهشة، فنالت كل منها جزاءَها في الدنيا والآخرة .

وقبل ان يقارب العام على الانتهاء ، وجد ابن سعود نفسه على رأس جيش محلي من المتطوعين ، مؤلف من البدو الذين تحضّروا ، وفي مكْنته ان يعتمد على ولائهم حتى الموت ، الا ان شجاعتهم التي لاتخضع لنظام ظلت بحاجة الى الدعم بجيوش نظامية من ابناء المدن والقرى .

هذا مع العلم ان حماسهم البالغ مبلغ التعصب في القضاءعلى الوثنيين المشركين (كلمة ضمّنوها غير المسلمين ، والمسلمين الذين لم يعتنقوا مذهبهم في الدين القويم) كان يستلزم الضبط والتقييد في ساعة النصر والسلم على السواء . ولهذا كان جيش ابن سعود يضم ايضاً قوة من الاخوان ، يسيرون تحت اعلامهم الخاصة يرافقهم

البدو الذين لم يعتنقوا المذهب بعدُ ، والحضرُ من الجيش الوطني القديم . فكل فصيلة لها مهمتها الخاصة التي تقوم بها في العمليات الحربية الآنيّة. وكان الاخوان هم خميرة المجموعة كلها بحكم شراستهم واندفاعهم العظيم الذي كثيراً ما أفاد ابن سعود في التغلب على اعدائه .

وفي السنوات التالية ازداد عدد هجرَ الاخوان مع انتشار الحركة في اقصى نواحي ديار البدو . غير أن المنزلة الرفيعة في سجل الشرف يجب ان تكون من حظ الهجر الاولى التي اُتخذت نموذجاً للاخرى . فمعتنقو المذهب من قبيلة مطير استقروا في ارطاوية ، عاصمة المذهب الجديد ، وامتدت فروعهم الى مبيّض وُبوضا وفُريّتان Furaithan ومليح والقريّتان The two Quariyas . اما بطن بَرْقة Barqa من قبيلة عتيبة فكان صاحب غطغط ذات الصيت البعيد ، والروضة وأروى وسنام . بينما . اسس بطن رُقة هجراً له في داهنة وسُوح والعرْجا وساجر وعسيلة وكبشان ونيفي. اما هجر حرب فكانت دُخنة وشبيكة والدايميّة وقُرين وساقية وحُليفا ، وحُنيظل ،وبارود وخصيبا وقبا وفواره. ونزل المهتدون من شمر في بنوان وفطيم وقصير وحفيرة وبلازية وخبّة والتيم والأجفر وكهفا وغيضة وبيضة نائل . امـا عناصر عنيزة فاستوطنت في شعبية والقلبان وشقيق . بينما قصدت قبيلة هتيم المتواضعة الى خريفات والمسعى ومرير . واما قحطان فهي صاحبة هيائم وجفر وحصاة al Hasat (حفيرية) في حين ان اهل وادي الدواسر استوطنوا مشيرفة ووسيطة من جملة اماكن اخرى. وسكن العجمان في صرار Sarar وحنينا Hanina وصحاف Sahaf والعقير وعريره ونطاع Nata .اما العوازم فاستوطنوا الحاسي وثج والحنّات وعتيق . وكان هناك مستعمرات مختلطة في شباك وأبيرق وعين دار : امـا الاخوان من سبيع والسهول فاستوطنوا ظبيع وبدع ، ومنيسف واخضر وطسم والرويضة .

وهكذا كانت القبائل ومهاجرها .. وهي التي كونت الناموس الجديد . وسرعان ما وضعها ابن سعود موضع العمل في حملات المرحلة الثانية من مراحل

زحفة لقيادة الجزيرة العربية وسيادتها. وقد بدا ان حملات تلك المرحلة قد تعدّت بصورةٍ ما، نوعية الحروب الضيقة المحدودة الى مستوى اعلى في الصراع الدولي، لتواجه مجازفات خطيرة اعظم من اي مجازفة واجهتها من قبل.

وقد نجح ابن سعود في حروبه هذه. وكان مديناً بهذا النجاح الى قوات الاخوان على الخصوص. غير أنهم ما لبثوا ان وضعوا سياسته في مأزق حرج، عندما اصبحت مسؤولياته الدولية تصطدم مع المعتقدات الدينية لرعاياه. فالمؤرخ النجدي ـ الذي كتب بعد الحادثة ـ يوضح كيف ان ابن سعود الكريم احتضن المستعمرات ومكنها من الوقوف على اقدامها، فعيّن اميراً وكّل اليه تطبيق العدالة بين الضعيف والقوي من أبنائها. كما زود كل واحدة منها بفقيه يعرف أهلهـا بحدود الشرع ويهديهم الى ما فيه منجاتهم في الدنيا والآخرة.

هذا علاوة على انه وفر للمهاجر الطعام بسخاء، ويسّر لهم الآلات الزراعية والسلاح والذخيرة.

ويقول المؤرخ: ظلت هذه الهجَر ثابتة الايمان مدة خمسة عشر عامـاً حتى ملأتهم الثروة والرخاء بالكبرياء، وجعلتهم يفاخرون بقولهم ان انتصارات ابن سعود كانت ثمرة بسالتهم وشيَمهم الكريمة.

ويضيف قائلاً: هذا ما كانوا يعتقدونه. وسافصّل فيما بعـد ما ترتب على مسلكهم هذا من نتائج.

الفصل العاشر

التثبيت والاستقرار



في نهاية عام ١٩١٢ تأصلت حركة الاخوان بصورة حاسمة، وضُمنت سرعة تعبئة هذه القوة الضاربة المستوحاة من المثل المتعصبة ، وأصبح ابن سعود السيد المعترف به في أواسط الجزيرة العربية ونجد ، من اقليم وادي الدواسر جنوباً الى حدود جبل شمر شمالاً ، ومن الحدود الغربية للاحساء الواقعة تحت الحكم التركي الى الحدود الشرقية للحجاز الذي كان ايضاً جزءاً من الامبراطورية التركيـة . وكان هذان الاقليمان متصلين بعضهما ببعض بواسطة قوس يحوش العراق وسوريا.

اما جبل شمر الذي كان يعترف بالسيادة العثمانية ، فشكّل دولة مستقلة تمثـل مقاطعة داخلية من العراق وسوريا ، والقسمَ الشمالي من الحجاز ، مـا فوق خط عرض ٢٧ . كانت الدولة الوهابية لم تبلغ اية نقطة على البحر ، بينما تحيطها من كل ناحية مراكز امامية توسعية لدولة عدوة تقليدية تقوّي مركزها باحتلالهـا اليمن وعسير .

هذا فيما عدا الجنوب ، حيث صحراء الربع الخالي الواسعة التي ظلت تشكل خطاً دفاعياً طبيعياً ضد المناطق الواقعة على ساحل المحيط الهنـدي . ففي الطرف الجنوبي من اليمن كانت محمية عدن ، المستعمرة البريطانية . واراضي الكويت

التي تعتبر عنصراً فعالاً في انشوطة الممتلكات التركية الشاسعة التي تحد الدولة الوهابية من ثلاث جهات، كانت قد التجأت الى الحماية البريطانية . أما البحرين، والساحل المهادن ، وطرف عمان الساحلي ، ومداخل حضرموت فهي خاضعة للسلطة البريطانية بصورة او اخرى .

ومما زاد في متاعب ابن سعود ان جميع البلاد التي كان يحكمها محرومة تماماً من اية موارد طبيعية مهما كان نوعها . فمحصول التمر في دولته لا يكاد يكفي حاجات سكان البلاد ، لا بدوهم ولا حضرهم .

واما محصول القمح فقليل يحتاج الى امدادات من الحبوب تُستورد من الخارج مثل الارز . وكان ابن سعود اول من عمم استعماله كطعام رئيسي للطبقات الثرية ... وكان السكان الحضر يعتمدون كلية على مصادر ما وراء البحار في لباسهم ، بينما اكتفى البدو بما يحيكونه محلياً من ادثرة . وكانت اللحوم والحليب والسمن وافرةً في سنوات الخير. ولكن أكل اللحوم كان يُعتبر نوعاً من الرفاهية بين البدو على الرغم من انهم يربون الاغنام . اما بيع الحليب فهو في نظرهم عار وسبّة ، فهم يمخضونه ليعرضون السمن وحده للبيع في السوق . وكانت تربية الجمال مهنة البدو الوحيدة ، يبيعونها او يؤجرونها للركوب وحمل الأثقال او يبيعونها للجزار .

هذا في البادية . اما في المناطق الحضرية فقد اقتصر الاهلون على ممارسة الزراعة ووجهوا انظارهم اليها . اما النشاط المعماري، ولنقل مهنة بناء الاكواخ ، فكانت مهملةً جلّ امكانياتها موجهةٌ الى تزويد السكان الفقراء بما يأوون اليه .

وهكذا ... كان الوضع الاقتصادي متأزماً حالكاً للغاية .

اما الوضع السياسي فلم يكن مشجعاً ابداً . فماذا يفعل عبد العزيز ؟ لقد بلغ اوّجه . ولكنه كان يدرك جسامة ما يواجهه من مشاكل حتى بعد ان أتم ما

استطاع من انجازات باهرة . ولا ريب انـه كان يلجأ الى العزاء والتشجيع في النص الكريم الذي اتخذه ، فيا بعد ، دستوره . ومعناه : « ان الله لا يغير مـا بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

وعلى كل حال ، سرعان ما أصبح ابن سعود على استعداد لتنفيذ الفصـل الاول من مخططه للمستقبل . وقـد يظن البعض ، لاول وهلة ان مثل هذه الظروف ستضطره الى الاتجاه نحو ضمان الاستقرار لحكمه في الصحراء العربيـة بالقضاء على بيت آل رشيد في حايل . الا ان عبد العزيز لم يكن يرى هذا الرأي . ولربما فطن الى ان ضمـه جبل شمر الى دولته سيزيد من أعبائه الاقتصادية .

ومهما يكن من امر فقد أصدر ابن سعود امره في شباط سنة ١٩١٣ ، لاحتشاد قواته كلها . ثم غادر الرياض متجهاً الى برك الخفس في الطرف الغربي من هضبة عرمة ، حيث كانت تتوفر المراعي لحيوانات القوات المحلية التي يتألف منهـا جيشه . وبينما هو ينتظر تكامل تعبئة جيوشه هناك ، ارسل فصيلة للاغـارة على قبيله مرّة . فنهبوها . وكان هذا تغطية لخططه الحقيقية ولصرف الانظار عنها . اذ أنه بعد مسيرة قصيرة وصل الى مشارف الهفوف ، عاصمة الاحساء . وهي المدينة التي زارهـا السائح الانكليزي الكابتن ج . ليشمان في اواخر سياحته الصحراوية التي بدأها في بغداد ، وانتهى منها الى الرياض ماراً ببريدة بعـد مغامرات عديده وقعت له في الاحساء .

وقد وجد الرحالة الانكليزي القوات التركية متذمرة في منفاها القصي ، وغير راضية بتمضية بقية ايامها في تلك البراري ... كانت ما اكثر أحلامهـا بالخلاص من الخدمة العسكرية في الجزيرة العربية . وها هي في أقل مـن خمسة اشهر بعد زيارة السائح الانكليزي تغادر البلاد الى الأبد .

كان عدد الحامية التركية في الهفوف ١٢٠٠ جنـدي . وكان في القطيف

فصيلة صغيرة تساندها ربايا متفرقة موزعة في عرض الاقليم . فماذا كان ينتظرها جميعاً ؟

قضى ابن سعود مساء الثامن من أيار في الاستعداد للهجوم على المدينة والاستيلاء على حصنها العظيم ، مصدراً تعلياته الموجزة بصدد كيفية تنفيذ خطته. وكانت فصائل من جيشه قد قامت بقطع بعض اشجار النخيل في واحة صغيرة قريبة ، واخذوا يصنعون منها ما يشبه السلالم للتسلق. بينما وزعت حبال الآبار ، التي كان يحملها جميع المسافرين في الجزيرة العربية ، على افراد فرقة المتسلقين كي يدلّوها من أعلى الأسوار ، حين يبلغون اول هدف من اهدافهم .

وبدأ الزحف مشياً على الاقدام في منتصف الليل .. فلم يبزغ الفجر حتى كانت الحبال على الاسوار . فقد تمكن المتسللون من اخراس بعض الحرس النيام الى الأبد . وقبل ان تتمالك الحامية نفسها من الذهول الذي أصابها في الظلام كانت قلعة الكوت الكبيرة فى ايدي الوهابيين . فانسحب الاتراك الى جامع ابراهيم باشا بسرعة، وتحصنوا هناك في انتظار ما يجد من تطورات.

وفي هذه الاثناء استولى الوهابيون على احدى بوابات المدينة فتدفقت قوات ابن سعود للداخل ، يطلقون الرصاص ويردّدون هتافاتهم الحربية لتزيد من قدر الذعر الذي تملّك السكان ، وتحمل العدو على الاعتقاد بان لا أمل له في النجاة .

ثم ان السعوديين أسروا تركياً ، فأرسلوه الى قائده ليطلب منه الاستسلام ، ويبلّغه ان ابن سعود يضمن سلامة ارواح الحامية التي ستُنقل بأمان الى البحرين . واعدوا العدة لوضع لغم تحت البنايات التي لجأت اليها قوات العدو الرئيسية ، ووجهوا للمحاصرين تحذيراً بتفجير اللغم اذا تأخر استسلامهم عن موعد مقرر .

وحينئذ أعمل القائد التركي فكره .. فلم يجد بدآً من الاستسلام . وقد وافق على القاء سلاحه بالشروط التي عرضها ابن سعود .

وفي الوقت المعين خرجت الحامية كلها من الهفوف ، تحت الحراسة الوهابية وقيادة احمد بن ثُنيّان ، وهو ابن عم بعيد للقائد الوهابي . ومن هناك سافروا في المراكب التي وجدوها الى البحرين ، حيث شرع القائد التركي يحاول جاهداً اعادة الوضع السابق . فقام بارسال قوات جديدة الى عقير الا ان بعضها أسر حال نزوله الى اليابسة بينما عاد البقية الى البحرين على متون سفنهم .

وسار ابن سعود بنفسه الى عقير فأطلق سراح الاسرى واعادهم الى سفنهم . ومن ثم توجه الى القطيف فاخضعها بلا صعوبة وخرج السكان زرافات ووحداناً لتحية حاكمهم الجديد . ومن هنا ومن مدن الاحساء وقراها استطاع ابن سعود ان يسد النقص في مخازن مؤونته الفارغة ويملأ خزائن ماله، كما احبط محاولة تركية لاستعادة القطيف . وبعدئذٍ عاد ابن سعود فرحاً الى عاصمته راضياً عما انجزه من اعمال خلال شهر واحد. وكان قد وضع الترتيبات اللازمة لادارة اقليمه الجديد . ووجه انتباهاً عظيماً لتعليم السكان الشيعيين المبادىء الجديدة التي ستسود من الآن فصاعداً. فوضعت تصاميم بناء مدارس وجوامع ، وعُيّن موظفون اكفاء في الوظائف الخاصة بالجباية والانفاق ، وادخل الاصلاح الى المحاكم كي تعمل وفق أمر الشريعة .

وأخيراً وليس آخراً ، عيّن ابن سعود حاكماً جديداً بقي في منصبه حتى وافاه الأجل بعد ربع قرن ، فأصبح اسطورة في حياته ، وهو عبدالله بن جلوي الذي رافق ابن عمه سنة ١٩٠٢ في الهجوم الجريء الذي استعاد به الرياض . كما ظل الحاكمَ العامّ في القصيم منذ احتلها الوهابيون مرة اخرى . ولا شك ان ابن سعود استشاره في خطة الهجوم على الاحساء فغادر بُريدة معه ليشترك في تلك الحملة قبل مجيء ليشمان الى المدينة في كانون الاول سنة ١٩١٢ . وكان الحاكم آنذاك فُهيد بن معمر . ثم عين ابن سعود صديقه عبد الرحمن بن سويلم الذي قاد القوة المرسلة لاحتلال القطيف اميراً على الميناء تحت اشراف ابن جلوي . بينما جعل عقير تابعة لادارة عبد الرحمن بن خير الله الذي قدّر له ان يبقى هناك ما بقي رئيسه في الهفوف .

وهكذا وبقليل من الجهد ، وصل ابن سعود الى ساحل الخليج الفارسي وكسب جبهة واسعة ، تمتد من اراضي الكويت في الشمال الى شبه جزيرة قطر في الجنوب .

وفي قطر هذه توفي صديق ابن سعود وحليفه، قاسم بن ثاني، الذي بادر لنجدته سنة ١٩٠٥ اي نفس السنة التي انتصر فيها في الاحساء. وكان قاسم قد شاخ وبلغ عمره ١١١ سنة . وكان هذا الرجل ذا سمعة اسطورية فاحتفظ بقدرته العقلية والجسمانية حتى النهاية. وكثيراً ما كان يُشاهد وهو يمتطي جواده مع فرقة من الخيالة ، كلّها من ابنائه واحفاده . وقد خلفه ابنه عبدالله ، فظل يحافظ على العلاقات الودية مع جاره العظيم الذي كان حكيماً فلم يتدخل قط في استقلال شبه الجزيرة .

اما رد الفعل الذي احدثه فقدان الامبراطورية العثمانية للاحساء فكان غير طبيعي . فبدأت المفاوضات مع ابن سعود بواسطة سيد طالب النقيب من البصرة ، بينما أرسل والي البصرة ، سليمان شفيق كمالي باشا . للبحث مع زامل الصبحان ، الممثل لحاكم حايل (واسمه سعود بن رشيد) في خطة لتزويده بالمال والسلاح اللذين يستخدمهما ضد ابن سعود . وبلغ الأمر ابن سعود فاحتج على زامل لاخلاله بنصوص اتفاقية الهدنة السارية المفعول بين الدولتين ، حين قبل اثنتي عشر الف بندقية ، وكميات مماثلة من الذخيرة والمال للانقضاض عليه .

وحينئذ أعلن زامل صراحة انه في جانب الاتراك ، بصفتهم الدولة ذات السيادة . وأبدى انه سيعمل لمصلحتهم فيما اذا اصطدمت رغباتهم بعلاقاته مع الرياض . فقبل ابن سعود ذلك التحدي الضمني وانتهت بذلك الهدنة .

ولمّا كان ابن سعود يدرك حرج مركزه ، نراه التزم جانب السلام اثناء مباحثاته مع سيد طالب في الصبيحية القريبة من الكويت . فانتهت باعطاء وعد شفهي بالاعتراف بسلطة السلطان في الاحساء مقابل الاسلحة التركية والمال الكافيين

لتأمين سلامة الاقليم . فعلّ ذلك ابنُ سعود وهو يعلم ان الاحساء اثمن جوهرة في تاجه لما تنتجه من محاصيل زراعية وفيرة وتدرّه جماركها من واردات كثيرة. ولم يحدث ان اضيف شيء جديد الى هذه الاتفاقية . الا ان الحرب التي نشبت بين بريطانيا وتركيا سنة ١٩١٤ قضت على آمال الاتراك في استعادة الاقليم الى الأبد.

وعلى ضوء هذا التطور الجديد ، قام ابن سعود في الوقت المناسب بتوطيد مركزه في الاحساء خشية ان تقع في يد قوات الحملة البريطانية المحتشدة في البحرين. وقد عمل جهده لتأمين عطف البريطانيين ومساعدتهم له في الاستقرار ، بالنظر لانضمام تركيا الى جانب المانيا حينذاك .

لكن السياسة البريطانية كانت لا تزال تحاول ان تمنع مثل هذا التطور . فعند ما قام المندوب السامي البريطاني في البحرين بزيارة مجاملة لابن سعود في عقير بُعيد سقوط الاحساء ، لم يكن يحمل عزاءً ملموساً يقدمه للامير الوهابي. وحين مرّ الكابتن و.هنري شكسبير ، الذي كان قد زار ابن سعود من قبلُ في احدى مخيماته في الرياض (أثناء رحلته العظيمة عبر الجزيرة العربية من الكويت الى السويس) لم يبحث معه اكثر من المشاكل العامة الناجمة عن الوضع الجديد. ولم يستطع ان يسرّ إليه ببعض المعلومات التي لديه . وقد تعمّد تلك التعمية فعلاً . ثم ظل الامر كذلك طيلة سبعة عشر عاماً .

اما في سنة ١٩٣٠ فقد فاجأت بريطانيا الناس حين ابرزت مستنداتها كوارثة لبقية تركة الامبراطورية العثمانية في اراضٍ لم تملكها هذه قط ، ولم يجرؤ تركي واحد أن يغامر بالوصول اليها . وقد اصبح هذا الادعاء السخيف معترفاً به دولياً الآن . وقد لاحقت الحكومة البريطانية مطالبها الجدية لعدة سنوات بعد كشفها ولا تزال اصداؤها تدوي منذرةً بالسوء في بعض اجزاء الصحراء الشرقية.

كانت المعلومات التي لم يشأ شكسبير ان يميط عنها اللثام تشير الى ان السير ادوار جراي ، وزير الخارجية البريطانية، قد عقد معاهدة مع ابراهيم حقي باشا،

ممثل الحكومة التركية ، في ٢٩ حزيران ، اي قبل استيلاء ابن سعود على الاحساء بمدة شهرين . وأن هذه المعاهدة تتعلق بوضع مصالح بلديهما في بعض الممتلكات الواقعة على الخليج الفارسي : كالكويت والبحرين والإمارات الساحلية .

تقع جميع هذه الاماكن على حدود الاحساء بشكل من الأشكال ، الأمر الذي لم يذكر في المعاهدة .. وان ساد المفهوم بانها تعتبر جزءاً من الامبراطورية العثمانية . وقد نُص على ضرورة المصادقة على هذه الاتفاقية في خلال ثلاثة اشهر ، غيرأنه لسبب ما أُجل التصديق عليها الى الحادي والثلاثين من تشرين الاول سنة ١٩١٤ ، اليومَ الذي اعلنت فيه الحرب على الامبراطورية العثمانية .ثم تبع ذلك ما هو أسوأ . فلا بد ان المفاوضات الخاصة بهذا الشأن قد تقدمت على الزمن الذي كان فيه شكسبير يتبادل المشاعر الودية مع ابن سعود اثناء زيارته له في الرياض.

وعلى كل حال ، فما كاد شكسبير يصل الى السويس حتى كان المفاوضان نفسها يوقعان في لندن معاهدة اخرى في التاسع من آذار سنة ١٩١٤ ، صدّقا عليها حسب الاصول في الثالث من حزيران . وسواءً كان الاتراك يؤملون في استعادة الاحساء بمساندة البريطانيين وموافقتهم ، ام انهم فعلوا ذلك بدافع الحقد على ابن سعود ، او ان السفير البريطاني قام بهذا مدفوعاً بقصد دنيء في نفسه فلا يمكننا ان نعرف ذلك الآن .

اما بنود المعاهدة فكانت تنص على تقسيم شبه الجزيرة العربية باكملها بين الحكومتين، على ان يتم ذلك حسب خط مستقيم يمر من اسفل شبه جزيرة قطر عبر الصحراء ويلتقي بالطرف الشرقي للحدود المعينة سنة١٩٠٢ لتفصل بين اليمن وبين محمية عدن . وكان من أثر ذلك ان غدا كل ما هو شمالي هذا الخط ملكاً للاتراك بما في ذلك نجد نفسها . بخلاف ما يقع جنوب هذا الخط فهو من املاك بريطانيا . ولهذا فانه لا غرابة في أن الحكومة البريطانية كانت حريصة على الا يعلم ابن سعود بدسائسها مع اقوى اعدائه .

والانكى من هذا ان تأخير افشاء هذه المكائد اوجدَ شعوراً مــا زال سائداً حتى الآن ، بان الحكومة البريطانية قد اخذت على نفسها دور تركيا ، كألدّ اعداء الحكومة الوهابية . وانه ليمكن القول بان هناك عوامل اخرى نشأت في غضون الحرب العالمية الاولى ثم بعدها ، اخذت تثبت صحة هذا الشعور وتقوّيه .

عندما نشبت الحرب في تشرين الاول سنة ١٩١٤ ، استُدعي شكسبير مــن اجازته وارسله السير برسي كوكس،الضابط السياسي الأعــلى في قوات الحملة في العراق ، لتمثيل مصالح بريطانيا في الرياض . وكان الرجل سفيراً مثاليــاً ، ذا ثقافة عسكرية وادراك وبداهة سياسية في تعامله مع العرب ، كما كان مبعوثــاً الهياً لابن سعود. وربما كان خطأه الوحيد أنه لم يتنازل أن يرتدي الملابس العربية اثناء وجوده بين ظهراني البدو في الجزيرة . وقد تطور ذلك مــع الزمن الى شعور بالكراهية الاجانب ، أثاره التعصب الديني. وعنــد وصوله كانت الحرب المتوقعة بين حايل والرياض قد بدأها ابن رشيد بوحي مــن اصدقائه الاتراك . فقد وصل في اواخر شهر كانون الثاني الى الحدود السعودية. فاتخذ ابن سعود الترتيبات واعدّ الخطط لمقاومة هجومه ، وقد رافق شكسبير مضيفه في هذه الحملة واشترك الى جانبه في المعركة التي نشبت في موقع قريب من زلفي . وكان النصر حليف المشاة الوهابيين في احــد الجناحين بينما كانت الغلبة لخيّالة جبل شمر في جنــاح آخر . اما شكسبير الذي كان يشرف على مدفعية الوهابيين فقد قتل . وانسحبت القوات المتحاربة، وكل منها يدّعي النصر لنفسه في حرب اشبه بالمعابثة والمزاح .

وكان موت شكسبير في كانون الثاني سنة ١٩١٥ كارثة لبلاده كما هو لابن سعود، فظل الأخير متجهماً في خيامه لايؤثر في التطورات الجارية في الانحاء الاخرى من الجزيرة العربية ، والتي جعلته الآن في مركز ثانوي في السياسة العربية. هذا علاوة على أنها زادت اعداءه وضخّمت قوتهم . ونخص بالذكر من هؤلاء امير حايـل ابن رشيد ، الذي انحاز الى الاتراك ، وكان اهم من غــيره اذا قورن بالشريف حسين في الحجاز او بالزعماء الاخرين من حلفاء الانكليز .

وزاد الامر سوءاً ان السير برسي كوكس لم يكن مستعداً باي حال من الاحوال ان يجازف بحياة احد من موظفيه في مهالك الصحراء ، مع أنها آنئذٍ كانت في الواقع اعظم الاماكن أمناً في العالم . غير انه هو نفسه اخذ يهتم بامر ابن سعود ، فقد كانت بينهما اتصالات وعلاقات رفيعة أحسن حبكها عبد اللطيف بن قنديل ممثل ابن سعود في البصرة .

وفي هذه الاثناء فوضته الحكومة البريطانية ان يسير في الخط الذى اقترحه شكسبير بعد مباحثاته مع ابن سعود . فأرسلت مسودة معاهدة صداقة الى ابن سعود لدراستها وتوقيعها ، واعيدت اليه موقعة حسب الاصول مع بعض التعديلات . وقد اقتضت هذه التعديلات دراستها من جديد . ولم يتمكن السير برسي كوكس من مقابلة ابن سعود في القطيف الا في نهاية سنة ١٩١٥ . وهناك وقعا على معاهدة نصت على الاعتراف باستقلال ابن سعود وضمان بلاده ضد اي اعتداء خارجي عليها ، شريطة ان تكون حدودها حسب ما تتمخض عنه الحرب . وذلك مقابل تعهّد ابن سعود ألا يهاجم المحميات البريطانية في الخليج الفارسي . ونصت المعاهدة كذلك كالمعتاد على عدم نقل ملكية الاراضي الى اية دولة اجنبية ، وعلى ادارة العلاقات السياسية مع اية دولة مثل هذه .

اما اظهار المشاعر الطيبة نحو ابن سعود فقد تم سلماً في الصيف الفائت ، اذ قدمت له السلطات البريطانية الف بندقية وعشرين الف جنيه انكليزي . كما سهّل له وكيلها السياسي استيراد الذخيرة لحسابه الخاص من البحرين . وكان هذا يفي بحاجات الحملة التي سيّرها في ذلك الحين ضد العجمان فدحرهم في شهر ايلول وألجأهم الى الكويت .

ومن الجدير بالذكر ان السير برسي كوكس ظل اثناء هذه المفاوضات متحفظاً فلم يذكر امراً بالغ الاهمية كان يمكن ان يثير اهتمام ابن سعود ان لم يثر قلقه . انه لم يُشِرْ الى المفاوضات الجارية بين السير هنري مكماهون والشريف حسين شريف

مكة ، للقيام بالثورة العربيـــة في حزيران سنة ١٩١٦ .ولم يورد اي ذكر للحدود الغربية لمملكة ابن سعود في المعاهدة،الامر الذي كان مصدر متاعب كثيرة فيما بعد.

وقامت ثورة الحجاز .. وبلغ الخبر ابنَ سعود، فاختط لنفسه مسلكاً سلبياً، وان كان لم يخفِ قلقهُ من ان مطامع الشريف حسين (الملك) قـــد تتصادم مع مصالحه. اماالحكومة البريطانية التي قررت ان تدعم الثورة العربية باي ثمن آنذاك فقد ألقت على عاتق السير برسي كوكس ان يلعب دور المعزّي لصديقه في محنته. غير ان تأكيداته لابن سعود لم تقتلع غضبه او تحدّ من قلقه .

وفي نهاية عام ١٩١٥ توفي الشيخ مبارك ، شيخ الكويت ، الذي أخـــذ منه الحسد مأخذه،فبدأ يساوره القلق في شيخوخته من طموح رجل درّبه في شؤون السياسة على يده . وذلك نقيض ابنه وخليفته جابر ،فقد كان هذا يكنُّ الصداقةَ لابن سعود .الا ان حكمه جاء قصيراً فلم يؤدِ الى نتائج ملموسة فيما يتعلق بالخطر على امن ابن سعود،وهو الخطر المتأتي عن وجود اللاجئين من العجمان في الكويت. وما ان خلفه اخوه سالم سنة ١٩١٦، وكان هذا معادياً لابن سعود بشكل سافر، حتى اتجه ببلاده نحو خصوم الرياض .

والحق ، ان ابن سعود كان في وضع لايحسد عليه ، بسبب النزاع القائم فعلاً او المتوقّع سريعاً، بينه وبين كل من الحجاز وشمر والكويت، بالاضافة الى البرود المتزايد في علاقاته مع الانكليز. ولهذا نراه الان يلح في طلب اجتماع ثانٍ بينه وبين السير برسي كوكس . فتم الاجتماع في عقير . وكان في الظاهر من اجل البحث في الوسائل التي ستمكّن ابن سعود من السير قدماً في حملته ضد ابن رشيد، الا انه في الواقع ، ومن وجهة نظر ابن سعود(على الاقل) كان نوعاً من محاولة جلاء موقف بريطانيا فيما يتعلق بالتدابير التي اتخذتها مع الشريف حسين. خصوصاً وان الشريف كان قد اعلن ان الانجليز اعترفوا به ملكاً على العرب .

وقد اكّد السير برسي كوكس لابن سعود ان استقلاله لن يُمسّ بشكل من

الاشكال، ودعاه للاشتراك في مؤتمر لزعماء العرب في العشرين من تشرين الثاني سنة ١٩١٦ ، يتم عقده لتقديم النياشين والأوسمة له ولجابر . وفي الاجتماع تبادلا المشاعر المهذبة وتمكن السير برسي كوكس من تهنئة جميع الحاضرين على علائم الوحدة العربية التي اخذت تظهر في ذلك الحين . ولم يطل عمر جابر بعد الوسام الذي ناله .. بينما قبل ابن سعود دعوة السير برسي لزيارة البصرة ضيفاً عليه وعلى القائد العام. وكانت هذه اول مرة يسافر فيها الى بلد اجنبي. وقد تأثر لدى رؤيته ذلك العدد الوافر من المعدات الحربية الحديثة ، وربما استخف بواقع ان أعظم مضيفيه مكانة كانت مجرد امرأة تدعى جرترود بل .

وعلى كل حال فان النتيجة العملية لتلك الاتصالات كانت التوصل ، الى اتفاقية سيتقاضى ابن سعود بموجبها منحة شهرية مقدارها خمسة آلاف جنيه ، بالاضافة الى اربعة رشاشات وثلاثة آلاف بندقية ، وكمية كافية من الذخيرة . كل ذلك من أجل الاحتفاظ بقوة قوامها اربعة آلاف رجل في الميدان تظل جاهزة لشل يد ابن رشيد بصورة دائمة ومهاجمة عاصمته. الا ان التفاؤل البريطاني الرسمي بشأن مدى اتحاد العرب في دعم قضية الحلفاء قد اسيء فهمه بصورة تبعث على الأسى . ففي خلال اثني عشر شهراً بدأ التشكك والحسد يذران قرنهما في السياسة العربية . وكانت اولى الرصاصات التي اطلقت في الحرب ستؤدي الى سقوط الحسين وضم الحجاز ومدنها المقدسة الى الدولة الوهابية.

كان هم السير برسي كوكس الوحيد منذ مطلع عام ١٩١٧ وما بعدها حصار المراكز التركية الواقعة وراء العراق المحتل ، بقطع النظر عن الحاجة الى صرف انتباهه عن عمليات الحلفاء في الحجاز بتشجيع على اتخاذ اجراء ضد ابن رشيد ومهاجمته . ان ندرة المؤن واختفائها في سورية وارتفاع مستوى اسعار المواد الغذائية والسلع ، اوجد سوقاً رائجة للمهربين. فقد كان الحمالون يجلبون البضائع الممنوعة ، عبر الصحراء العربية الى دمشق من العراق نفسها ومن موانىء الخليج الفارسي . وقد كان الشيخ سالم شيخ البحرين يغض الطرف عن هذه العمليات التي

كانت تجرى في بلاده وكان يتقاضى ضريبة على الارباح مقدماً فيا كان تجار القصيم والاجزاء الاخرى من البلاد السعودية ينقلون بضائعهم الى حايل، ومن هناك كانت تُنقَل الى الاتراك.

كان المنتظر من ابن سعود ان يوقف هذه الحركة باعتبار انها جزء مهم من حملته على ابن رشيد ، وكان هناك ولا ريب بعض القوافل التي استطاعت ان تمر. وكان الحاكم المدني في بغداد مهتما بالعلاقات الغير الودية القائمة بين الكويت والرياض ، وذلك اما لانها أوجدت قلقاً في البلاد الداخلة ضمن نطاق العمليات الحربية في العراق بشكل جزئي ، او لأنها اوجدت تسهيلات كبيرة في عمليات التهريب . وقد وعد ايضاً بأن يتخذ اجراءً يرضي ابن سعود بشأن قبائل العجمان الموجودين في الأراضي الكويتية ، التي كانوا يستخدمونها (دون خوف من عقاب) في الاغارة على قبائل نجد .

وكان هناك ايضاً امور اقل شأناً مما مضى: مثل نسبة الرسوم الجمركية التي تحصّل في الكويت والبحرين على البضائع المصدرة الى نجد ، وامكانية ايجاد عملة نقدية تفي بحاجات البلاد اليومية . وقد بلغت هذه الامور ذروتها في خريف عام ١٩١٧ ، حين طفق السير ريجنالد وينجيت المندوب السامي البريطاني في مصر ، يطلب الالحاح على ابن سعود لحمله على الضغط على حايل في الوقت الذي فقدت فيه الثورة العربية زخمها واصبحت مهددة بالتوقف التام . فأرسل الكولونيل لورنس الى جدّة ليبعث الحياة في هذه الحركة ، بينما بُعث المستر ستورز وهو ممثل آخر للسير ريجنالد وينجيت (فيا بعد سير) الى بغداد للبحث في الوضع العام مع السير برسي كوكس . فاقترح الأخير أن يذهب ستورز الى ابن سعود ممثلاً شخصياً له لتقديم اقتراحات مدروسة لازالة أسباب الجفاء القائمة بين الصديقين العربيين الرئيسيين لبريطانيا .

وكان لسوء الحظ ان لم ينجح هذا المشروع،لأن ستورز اصيب بضربة شمس

في الطريق ، فبادر الى مغادرة الجزيرة العربية بسرعة . اما السير برسي كوكس فلم يفقد الأمل في القدرة على حل المشكلة المعقدة ، وان كان قد شعر باليأس ، متذكراً اختباراته اثناء بعثته الثانية الى ابن سعود .

وبعد مشاورات طويلة بين بغداد والقاهرة تقرر ان تُرسل بعثةٌ صغيرةٌ الى الرياض ، وينضم اليها ستورز هناك عن طريق الحجاز .

أما الجزء الأخير من الاتفاقية فقد حال دونه الملك حسين منذ البداية . فلم يقبل ان يتحمل مسؤولية سلامة ستورز ، بسبب الحالة المضطربة التي كانت تسود الصحراء . وفي تشرين الثاني عام ١٩١٧ وصـــل ممثلو السير برسي كوكس الى عقير . وساروا عن طريق واحة الاحساء حيث امضوا بضعة ايام في ضيافة عبدالله ابن جلوي المشهور ، فوصلوا الرياض في نهاية الشهر للبحث مـــع ابن سعود في الوضع كله . وبعد ان اتموا هذا ، وأرسلوا بتقريرهم الى بغداد ، سارت البعثة الى الحجاز بعد ان شملها ابن سعود ببركته ، فوصلت الطايف يوم عيد الميلاد دون اي حادث يذكر ، الأمر الذي ادهش الملك حسين واغضبه ، اذ اضطر لوضع الترتيبات اللازمة من أجل استمرار سفرها الى جدة .

كان من المؤمل انضمام ستورز الى البعثة ، غير ان القدس سقطت في ايـــدي جيش الجنرال اللنبي البريطاني ، فاصبح ستورز اول حاكم لها . ووصل الى جدة الكوماندر د.ج. هوجارث بدلاً عنه ،وحضر الملك حسين مـــن مكة في الوقت المعين لاستقبال ضيوفه من الغرب والشرق . وكانت المباحثات التي تلت ذلك عقيمـــة ، رفض الملك حسين الاعتماد كلية على ابن سعود ، وعلى الأخص في قضية ملكية خُرما التي هاجمتها حملة من مكة في شهر كانون الاول، فلجأت الى ابن سعود ليقوم بواجب الدفاع عن رعاياه .

ولقد عادت البعثة الى ابن سعود عن طريق البصرة . اما السير برسي كوكس فغادر العراق الى طهران ليصبح سفيراً لبريطانيا فيها . بينما عيَّن ارنولد ولسن

مبعوثاً سياسياً مكانـــه . ولم يكن ابن سعود ليتحمل استفزازات الملك حسين بشأن ُخرما التي اصبحت الآن محك اخلاص بريطانيا وصداقتها . هذا مع العلم بان مكة هاجمت الواحة مرتين خلال فصل الصيف ولم يحرك هو ما كنا اكثر من إعلانه أنه سيزحف على الشريف في حالة وقوع اي اعتداء آخر .

وفي هذه الاثناء وجهت البعثة جهودها كلها الى الالحـاح عليه بضرورة مهاجمة حايل اذا رغب في استمرار العون البريطاني .

فوعد ببدء الحملة في آب . وقد صدق في وعده : فتغلغل الى قلب جبل شمر ودمر بعض مراكز ابن رشيد البدوية الامامية . ثم ظهر امـــام حايل نفسها ، وكانت على درجة من القوة تجعل القيام بالهجوم عليها دون مدفعية مستحيلاً . وعاد ابن سعود الى بريدة حيث أعلمته البعثة ان بريطانيا لم يعد يهمها مصير ابن رشيد ــ لأن تركيا خرجت آنذاك من الحرب . ولم تكن هذه اخباراً سارة لابن سعود الذي اصبح الآن حراً في ان يتبع أساليبه الخاصة ، اثناء ما كان الحلفـــاء المنتصرون منهمكين جداً في تخاطف الانتدابات والامتيازات الاخرى ، فـلم يأبهوا للتوتر الذي كان يسود العالم العربي آنذاك .

الا أن ابن سعود استطاع بعد مرور اشهر معدودة ان يحملهم (او يحمل بريطانيا على الأقل) على ان يفهموا واقع الجزيرة العربيـــة : هذه الاشهر التي كانت مأساة بالنسبة اليه ، فقد قضى وباء الانفلونزا الاسبانية في اواخر فصـــل شتاء ١٩١٨ ــ ١٩١٩ على ولده البكر تركي ، وعلى ولدين آخـــرين ، وعلى زوجته الاولى جوهرة .

اما الملك حسين فهو الذي اخذ يجرجر ذيله مزهواً امـــام الامير الوهابي الساخط . . فقد ارسل ابنه الثاني عبدالله على رأس حملة قوية ، مصدراً اليه التعليات باحتلال ُخرما باي ثمن . فوصل عبدالله الى ترابـــة حيث مكث فترة في معسكر

محصن تحصيناً قوياً، واخذ يعاقب بعض اهالي الواحة المشكوك في ولائهم، قبل ان يسير الى هدفه الرئيسي من هذه الحملة .

وفي هذه الاثناء وصلت قوة وهابية كبيرة الى خرما ، وفاءً من ابن سعود لوعده في الدفاع عن الواحة عند قيام الشريف بهجومه الرابع عليها . فبادر بعض المواطنين الساخطين واعلموا خالداً بن لؤي أمير خرما عن مواقع معسكر عبد الله . وفي جنح الظلام قام الأخوان المتعصبون بمهاجمة المعسكر من جميع الجهات ، واخذوا يذبحون المدافعين الضعفاء ، بينما نجا عبدالله واركان قيادته بفرارهم على ظهور الخيل عند اول انذار بالخطر . وكذلك نجا بعض المجنّدين من البدو الذين رافقوا قواته وخيموا خارج محيط مخيمه .

وكانت الهزيمة ساحقةً ، اذ استولى الوهابيون على مدافع الحملة وبنادقها وذخيرتها وعلى جميع معداتها ومخازن مؤونتها . ووصل ابن سعود الى مكان المعركة بعد يوم او يومين فتوج النصر الساحق بضم الواحة الى ملكه .

ومن العدل بالنسبة للملك حسين ان نذكر بانه كان في اوائل السنة قد قام باعلام الحكومة البريطانية عن عزمه على احتلال خرما وطلب منها ان تبارك مشروعه .

وفي منتصف شهر آذار عقد اللورد كيرزن مؤتمراً مع موظفيه للبحث في الموضوع، وتوصل المؤتمر الى قرار اجماعي تقريباً ، فحواه أنه : بالنظر لتأكدهم من ان قوات الشريف المدربة تدريباً جيداً والمجهزة تجهيزاً كاملاً تستطيع ان تلحق الهزيمة بالجيش الوهابي ، وبالنظر للسياسة البريطانية الراسخة في مساعدة قضية الشريف ، اذا تم ذلك بدون المجازفة بزج الحكومة البريطانية في اية مغامرات في الصحراء ــ لذلك يقرر المؤتمرون أن خرما جزء من المملكة الحجازية، وانه يجب ان يُسمح للشريف باتخاذ الخطوات التي يراها كفيلة باثبات حقوقه فيها .

وفي نفس الوقت استقر الرأي على ابلاغ هذا القرار الى ابن سعود مع

التحذير المناسب من مغبة التدخل في الامر خشية ان يخسر ثقة الحكومة البريطانية ومنحة الخمسة آلاف جنيه الشهرية .

ولقد تجاهل ابن سعود الانذار وتصرف كما راينا ، وحشد قوات الاخوان وانطلق الى خرما . وما كاد يصل الى آبار سخا ،حتى هاجمت طليعةُ جيشه جيشَ عبدالله وابادته .

لقد وقع الشحم في النار .. ومرة اخرى عقد اللورد كيرزن لجنته الادارية للبحث في نتائج القرار الاول . وفي هذه الأثناء أُبلغت اوامر توقيف الدفعات الشهرية برقياً وبشكل انوماتيكي الى ارنولد ولسن من قِبل موظف متحمس . ولحسن الحظ انها سُلمت اليه شخصياً من قبل ساعي بريد ، وهو في طريقه لنزهة في سيارته . ولدى اطلاعه على محتوياتها ، وضع الرسالة في جيبه ونسي كل شيء عنها .

اما من جهة لجنة اللورد كيرزن فاجتمعت مطمئنة الى ان افرادها قد قاموا بشيء مالاثبات وجود السلطة البريطانية، ولان يُفهموا ابن سعود انه لا يستطيع ان يتجاهل رغبات وانذارات حكومة صاحب الجلالة . الا ان الهيئة المذكورة دعيت للبحث في امور اكثر خطورةً . فقد ابلغتهم السلطات البريطانية في جدة ، بان مكة وجدة في حالة فزع من وصول الوهابيين . وأن أحد عشر ألفاً من الحجاج قد لجأوا الى الميناء ، ومعظمهم من الرعايا البريطانيين الذين لا يمكن تركهم يلاقون مصيرهم بدون الحاق الأذى بسمعة بريطانيا وشرفها .وبسبب الحاجة الماسة الى وسائل النقل في تلك الأيام ، صدرت التعليمات الى مندوب الأميرالية بابلاغ تلك الهيئة أنه لا يمكن ارسال اية سفينة لهذا الغرض . كما ابلغهم مندوب وزارة الحربية أنه لا يوجد لديه جيش للدفاع عن اللاجئين !

أما الرأي القائل بان ابن سعود لن يزحف على أي من جدة او مكة ، فقد لاقى الازدراء لسخافته ، ولم يؤكده المراقبون المطلعون على خفايا الأمور .

وبدا انه لا علاج للوضع .. الا أن مندوباً أرسل في طـائرة ليسترضي ابن سعود وليصرفه ، ان امكن ، عن احتلال الحجاز . كما أرسلت ست طائرات الى جدة لضرب الوهابيين من الجو اذا دعت الحاجة لذلك . الا انها لم تستخرج من صناديقها مطلقاً . وعندما وصل المندوب الى مقر قيادة الجنرال اللنبي الذي كان آنذاك مندوباً سامياً في مصر ، أعلم بان ابن سعود قد سحب جيوشه المنتصرة من ترابه ، الى الرياض .. لقد ضم ترابة فقط الى ملكه . فتغاضت الحكـومة البريطانيه عن ذلك ووافقت عليه .

ودعت بريطانيا ابن سعود لارسال ممثل عنه الى لندن لبحث الوضع كله . وتمت الزيارة خلال أشهر الشتاء سنة ١٩١٩ حين وصل الأمير فيصل ، آنذاك وعمره اربعة عشر عاماً ، مسؤولاً عن البعثة الوهابيـة التي تركت أثراً حسناً في لندن . فقد اعتبر البريطانيون ان مشكلة خرما قد انتهت حسبما تشير الأوضاع الراهنة . وقد اعتبرت الحكومة البريطانية كذلك بان منحة ابن سعود قد توقفت منذ ايار الماضي ، وانه لا مجال لاعادتها بدون مقابل . الا ان القدر كان يطوي مفاجأة مؤسفة للهيئة الادارية، فلقد اعترض فيها على الادعاء القائل بان المنحة المالية قد اوقفت. ولكن ، بما ان قابضي المنحة البريطانية كانوا فعلاً في لنـدن ، فلم يكن من الصعب التثبت من الأمر . انهم كانوا يتقاضون رواتبهم حتى ذلك التاريخ . ولقد اوجد هذا شعوراً حسناً ، فلا مجال للتفكير في قطع المنحة .

وفي هذه الاثناء اخذ الوضع في العراق يصبح دقيقاً . فقد اصبح الشريف فيصل ملكاً على سوريا وأخذ يعمل سراً وجهراً على تقويض تدابـير الامبراطوريـة البريطانية التي كان السير ارنولد ولسن يسعى لترسيخها في العراق . وفي اوائل عام ١٩٢٠ نشبت الثورة ، وأصبحت الاحوال السياسيـة في تلك المنطقـة تستدعي استعراضاً محرجاً . فقررت الحكومة البريطانية أن تستدعي السير برسي كوكس من طهران ، للتداول معـه في سياسة اكثر تساهلاً في العراق يضعها هو بصفته مندوباً سامياً .

وقد منحته الرحلة البحرية الى البصرة فرصة لتجديـد الاتصال بابن سعود فجاء لمقابلته في عقير . وكان جل اهتمام ابن سعود آنئذ منصرفاً الى ما كان يشاع عن عزم الحكومة البريطانية تقديم تاج العراق الى الشريف فيصل بعـد أن فقد عرشه في سورية يوم ميسلون في تموز عام ١٩٢٠ . واستطاع كوكس ان يهدىء من قلق الوهابيين من هذه الجهة لانه قرر نهائياً ألا يتخذ إجراء حاسماً في العراق الا بعد دراسة الوضع دراسة دقيقة شاملة ، ولم يكن السير برسي راضياً باي شكل من الاشكال،عن فكرة جعل مرشح لورنس حاكماً للبلاد، لمجرد انه ساهم في الثورة. وحين بحثت قضية ابن رشيد بصورة عامـة كان من الواضح ان كوكس يعتبره عاملاً مفيداً في المحافظة على توازن القوى في الصحراء . ولقد استنتج ابن سعود بلا شك ، ان مركزه سيصبح حرجـاً بسبب تحدي حاكم شمر ، منافسه القديم ، بتشجيع مـن الانكليز .. لان مبعوث ابن رشيد كان فعلاً في بغداد يتفاوض مع جرترود بل آنذاك .

ويبدو انه قرر الدفاع عن نفسه ضد اعدائـه الفعليين الاقوياء الذين شكلوا حلقة حول حدود بلاده الشمالية . ومع ذلك كانت خطوته الاولى ارسال الامير فيصل الشاب على رأس جيش قوي لاحتلال مرتفعات عسير والواحـات التي تحدها من جهة الصحراء . وكان الهدف من هذه الحركة ان يدعم الفوائـد التي جناها في خرما وتربة . وهكذا اصبح خط دفاعه الغربي يمتد الى خميس مشيط ماراً بـ « بيشة » ، وغدا في وضع يتمكن معه من السيطرة على قبائل المرتفعات حتى حدود الطائف .

ودفعته حركته الثانية الى الدرجة التي لابد منها كي يصل الى مطامعه الكبري بصورة حاسمة .

وكان سعود ابن رشيد قد قتله ابن عمـه عبد الله بن طلال اثناء نزهة لهما عام ١٩٢٠ ، غير ان القاتل قتل في الحال على يد عبيد المغدور ، كما سجن عبد الله بن

متعب الذي تسنم العرش ، اخاه محمداً بن طلال ، وهو حفيد عبد العزيز بن متعب ابن رشيد، عدو ابن سعود القديم. وقد ظهر ضعف عبدالله كحاكم ، في ضعف الدولة العام ، التي اصبحت العناصر الشريفية تتودد اليها بشدة عندما بدأ القدر يشير الى الشريف فيصل على انه الملك المقبل للعراق .

اما ابن سعود فلم يكن باستطاعته ان يتمهل في مسألة حايل ، فالسيطرة عليها ستمكّنه من السيادة على الصحراء كلها ، بينما يغدو مركزه في الجزيرة العربية في منتهى الحرج والخطورة اذا سيطرت عليها اية عناصر شريفية. ولهذا ارسل اخاه محمداً الى الشمال على رأس قوة من الوهابيين كان يساعـدها فيصل الدويش في الشرق ونوري الشعلان زعيم عشائر الرولى السوريـة ، بالضغط على واحات الجوف . وكانت هذه العمليات مجرد جس نبض واختبار، أثنـاء ما كان ونستون تشرشل يعقد مؤتمراً في القاهرة لوضع مخطط عام لمستقبل الشرق الاوسط .

وجاء القرار الرئيسي للمؤتمر تنصيب فيصل ملكاً على العراق . الا أن بطل معركة ترابة، الشريف عبد الله ، اربك المؤتمرين بحضوره الى عمـان على رأس جيش كبير لمهاجمة الفرنسيين في سوريا . وقد تمكنوا من حمله على التخلي عن هذا المشروع بأن عرضوا عليه امارة شرق الاردن .

وكان هذا الامر بالاضافة الى ثبوت تولي فيصل الحكم في العراق ، حافزاً لابن سعود على العمل . انه لم يعد بامكانه التريث عن ان يفكر جدياً بالحملة على حايل، فتولى قيادة الجيش بنفسه وظهر امام حايل في طريف، بعد تتويج فيصل في بغداد بمدة يسيرة. وهناك طلب ان تتنازل اسرة ابن رشيد، وان يضع اعضاؤها البارزون انفسهم تحت تصرفه . الا ان وفداً من الاهلـين قابله في معسكره وابلغه رفض طلبه . وكذلك فعل عبد الله بن متعب . غير ان عبد الله بن متعب هذا كان على وشك ان يقع في عقاله. ولمواجهة الوضع البائس في الشمال، حيث كان الجوف في خطر الاحتلال من قبل نوري الشعلان، اطلق ابن متعب محمداً بن طلال من السجن ليقود

جيشاً لانقاذها . ولدى عودة محمد بن طلال الى حايل ، دبر ثورة على ابن عمه الضعيف المتقلب،ففر هذا، والتجأ الى ابن سعود حيث عاش ضيفاً مكرماً الى ان وافته المنية سنة ١٩٤٧ .

ويبدو ان ابن سعود عاد الى عاصمته قبل حدوث هذه التطورات .

الا ان تسيير الامير محمد بن طلال لدفة العمليات الحربية بعنف وشدة ،واتخاذ موقف الهجوم على قطعات جيش الوهابيين التي كانت تطوّق حايل على مسافة قريبة ، اضطرت ابن سعود لاستئناف أخذ زمام المبادرة.فوصل الى البقعة شرقي حايل،في الثامن من ايلول..اي بعد ان احبط فيصل الدويش وجنده من الاخوان هجوماً قوياً قام به محمد الذي احتفظ بقواته الرئيسية هناك . وقام ابن سعود بهجوم شديد على مراكز محمد في البقعة ، وسقطت الحصون الواحد تلو الآخر ففر محمد الى حايل عن طريق جبل أجا . ويبدو انه ادرك بان وضعه اصبح باعثاً على اليأس ، فعرض على ابن سعود الاستسلام شريطة ان يبقى اميراً على جبل شمر ، تحت سيادته . الا ان ابن سعود رفض العرض ، وأعد العدة للتشديد في الحصار ، وهيأ مدافعه لقصف المدينة . ولكنه بناء على طلب بعض عقلاء المواطنين البارزين الذين طلبوا اليه وقف القصف ريثما يضعون الترتيبات لاستسلام المدينة ، توقف . وكان محمد قد بعث طلباً الى السلطات البريطانية والملك فيصل لمساعدته . وبعد صبر دام بضعة أسابيع ، ارسل ابن سعود انذاراً اخيراً الى اصدقائه في المدينة يطلب اليهم التسليم في غضون ثلاثة ايام ، والا فانه سيعمد الى قصفها بالمدفعية . وكان هذا انذاراً كافياً لهم جميعاً سوى محمد.فقد تحصن في القلعة ليحارب حتى النهاية ، بينما فتحت ابواب المدينة فدخلتها قوات ابن سعود في الثاني من تشرين الثاني سنة ١٩٢١ . وسرعان ما اقنعوا محمداً بالاستسلام ففعل ، وسار الى الرياض حيث عاش فيها مكرماً حتى اصبح فيما بعد حمي الملك العظيم. وكان هو آخر الاسرة التي حكمت حايل مدة تزيد عن التسعين عاماً . وقد قتله أحد عبيده في الرياض عام ١٩٥٤ .

* * *

قبل حملة حايل . كان ابن سعود قد عقد في الرياض مؤتمراً ضم زعماء القبائل والممثلين البارزين من علماء الدين والفقهاء لبحث وضع البلاد . ووافق المؤتمر على اقتراحه الرامي الى اعلان نفسه سلطاناً على نجد وما يتبعها لاعطائها كياناً دولياً كما هي الحال بالنسبة لجارتها . وأرسل نص هذا القرار الى المندوب السامي البريطاني في بغداد ، فأيدته الحكومة البريطانية في حينه. ثم جاء احتلال حايل مؤيداً لكيانه الجديد ومجنِّباً اي تدخل في شؤون نجد من قبل العناصر الشريفية المتاخمة له، سواء كان ذلك بتشجيع من البريطانيين او بدونه .

وهكذا اصبح ابن سعود الآن في وضع يستطيع معه ان يسير قدُماً في الخطوة التالية من برنامجه الهادف الى توسيع حدوده الفعلية حتى أطراف الصحراء .

وانطلاقاً من ذلك، دفع سلطان نجد عام ١٩٢٢ بجيش الاخوان الى مقاطعتي الجوف ووادي سرحان ، اللتين ظلّتا متمماً لامارة جبل شمر حتى عام ١٩٢٠ . وكان مقتل سعود بن رشيد وما نتج عنه من انهيار سلطان آل رشيد هو الذي أغرى نوري الشعلان زعيم الرولى ، بتشجيع من الشريف عبد الله في الاردن ، وموافقة السلطات البريطانية (التي كانت مهتمة في ذلك الوقت بفكرة مدّ خط حديدي استراتيجي يربط العقبة ببغداد) ، وحمله على احتلالها .غير ان الاخون لم يجدوا اية صعوبة في تثبيت اقدامهم في مقاطعة سكاكة بفضل حمد بن مُوَيْشر والاعيان المحليين الآخرين ، الذين كانوا قد اعتنقوا المذهب الوهابي . وأرسلت حملة لجسّ النبض الى شرق الاردن نفسهـا ، فوصلت حتى الخط الحديدي وقتلتْ بعض الاهلين قرب زيزا ، الا ان قوة الطيران البريطانية ومصفحاتها قامت من عمّان فهاجمتهم وطردتهم من البلاد بعد ان كبدتهم خسائر فادحة .

وكان هذا في آب .. فعاد الاخوان في الخريف وهاجمـوا الرولى في منوى بمنطقة قريات الملح وحول كاف. فاستسلم سكانها بدون جلبة، وتبرأوا من إخلاصهم

لنوري الشعلان . وبالطبع حذت قرى وادي سرحان حذوهـا فقبلت بهـذا (المذهب الجديد) .

وفي هـذه الاثناء احتلت القوات الوهابية واحتي خيبر وتـيماء بالقرب من الحدود الحجازية، وكانتا من قبل خاضعتين لسلطة حايل منذ عهد محمد بن رشيد. وهكذا اصبح ابن سعود عام ١٩٢٢ يسيطر سيطرة فعلية على جميع الواحات الصحراوية في شبه الجزيرة العربية : من تخوم الهلال الخصيب حتى الربع الخالي ـ مع وجود طوق من الدول الشريفية حول الجزء الشمالي .

وقد ساعد على انفجار الوضع تحدّي الملك حسين السافر ، وما كان يكنه ولداه في العراق وشرق الاردن الواقعتين تحت الانتداب البريطاني، مـن عداوة عميقة . هذا بغض النظر عن مطامح ابن سعود الظاهرة، الامر الذي لم يعد بوسع الحكومة البريطانية ان تتجاهله. ففي نهاية عام ١٩٢١ قام السير برسي كوكس الذي لم يكن يضمر لابن سعود مشاعر عدائية ، وان كان مهتماً بصورة رئيسية بأمن العراق ورخائه، وأخذ يحث ابن سعود على إرسال بعثـة الى بغداد للبحث في قضية الحدود . اما قضية الكويت فحُلّت بسهولة وتم تخطيط حدودها مع نجد ، بالاضافة الى تعيين منطقة حيادية بينها للحيلولة دون حدوث المنازعات الطارئة . وبعد جدل حامي الوطيس ، تمكن الجانب العراقي من حمل البعثة الوهابيـة على توقيع معاهدة « المحمّرة» التي أوضحت فيها الحدود الفاصلة بين نجد والعراق.

غير ان ابن سعود ابطل توقيع ممثليه، بحجة انهم تجاوزوا التعليمات التي صدرت اليهم، واعلن انه لن يقبل بالحدود المقترحة ، اذ انهـا لم تتضمن حقوق الرعي ـ المكتسبة من عهد بعيد ـ للقبائل النجدية النازلة في المنطقة التي ألحقت بالعراق. ولذا اقترح اعادة النظر في القضية برمّتها اثناء مباحثات شخصية دارت بينه وبين السير برسي كوكس ، الذي دعاه الى عقير في خـلال شتاء ١٩٢٢ ـ ١٩٢٣ . فقُبلت الدعوة . وفي الزمن الذي عُقد فيه الاجتماع ، كان ابن سعود في اوج قوته

وسلطته كحاكم لكل شبه الجزيرة العربية الصحراوية .ولم يكن مقتنعاً بمثالية السير برسي كوكس عن الحدود الثابتة.. بسبب وضع البدو التقليدي في المنطقة المعنيّة . لكن السير برسي قطع في النهاية شوطاً بعيداً باصداره بياناً فيه تنازلٌ جوهري في القضية. فتم الاتفاق في «بروتوكول عقير»، على ان يضم هذ الي معاهدة المحمّرة.

وينص هذا البيان على عدم اقامة حصون أو أبنية ثابتة من قبل اي من الطرفين المتنافسين ضمن مساحة معينة من الحدود أو في المنطقة المحايدة،وذلك بغيه تسهيل الوصول الى الآبار ومناطق الرعي وجعلها مرافق عامة للفريقين .

امـا الخط الفاصل الثابت الذي يحمي العراق والكويت مـن اعتداءات الوهابيين ، وضمان سلامة دول الخليج الفارسي الاخرى ضد اي تدخل من جانب ابن سعود ، بموجب نصوص المعاهدة، فقد كان نصراً لمهارة السير برسي كوكس السياسية.الا ان ذلك ترك شعوراً مريراً في نفس ابن سعود..لأن مصالحه في الغرب والشمال لم تؤخذ بعين الاعتبار ، حيث كان له اوضاع اقليمية هامة ومطالب بحاجة الى التثبيت والاستقرار .

وكان من نتائج الحد من مطامع ابن سعود في الشرق ان وجه الرجل انتباهه الى جهات اخرى . فاضطرت الحكومة البريطانية عام ١٩٢٣ ان تأخذ بعين الاعتبار مختلف المخاطر المتوقّعة التي تكمن في هذه الاوضاع.وعلى الاخص فيما يتعلق بشرق الاردن حيث كثرتْ الحوادث لعدم وجود حدود ثابتة بين البلدين . وكانت الحكومة البريطانية مسؤولة ادبياً عن الحجاز ؛ الا ان اهتمامها بالملك حسين وبمطامعه التي لاحد لها ، بدأ يضؤل . وذلك عندما ادار اذناً صمـاء الى جهود لورنس الذي حاول اقناعـه باقرار السياسة البريطانية في فلسطين عام ١٩٢١ . فالحكومـة البريطانية لم تقبل ان تقر بأية مطالب اقليمية في الاماكن الاسلاميـة المقدسة في الحجاز . وكان من المشكوك فيه فيما اذا كان بمقدورها ان تخلق وضعاً سياسياً ذا اثر فعال لمجابهة مسلك الملك حسين المتطرف . الا انها كانت قد حصلت على مـا تريد في بلدان الهلال الخصيب من ابناء الملك المسرفين .

ولقد كان للمنح التي تدفعها الحكومة البريطانية الى الدول العربية المختلفة اثرها في صد جماح اعتداءات اي منها ومنعها. ومع ذلك فلم يكن البريطانيون يتوقعون استمرار دفع هذه المنح الى الابد . وكان من الاهمية بمكان ايجاد تسوية سياسية لجميع مشاكل شبه الجزيرة العربية في اقصر وقت ممكن، وبدون تأجيل .

وعلى ضوء هذه الظروف اقترحت الحكومة البريطانية عقد مؤتمر في الكويت في تشرين الثاني عـــام ١٩٢٣ برئاسة موظف بريطاني كبير ذي خبرة قضائيـــة واسعة ، (كان الموظف المنتخب هو الكولونيل س.ج نوكس الذي كان موظفاً سابقاً في الكويت ومسقط والعراق) بينما يجري تمثيل الاطراف المعنيّة بمندوبـــين موظفين . فوافق العراق وابن سعود دون تردد او شروط مسبقة .

ويجدر بنا ان نذكر بهذه المناسبة ان ابن سعود في بداية ذلك العام ، بناءً على اقتراح من السير برسي كوكس ، منح امتيازاً للتنقيب عن البترول في كل الجزء الشرقي من الجزيرة العربية الى شركة بريطانية تسمى « ايسترن جنرال سنديكات» بأجرة اسمية مقدارها الفا جنيه في السنة .

اما الملك حسين فعارض فكرة المؤتمر المذكور، على اعتبار انه غير ضروري على الاطلاق ، لان الامور التي ستبحث فيـــه واضحة لكل شخص عاقل . كما رفض الامير عبد الله ارسال اي مندوبين عنه ما لم يرسل والده . وبعد نقاش طويل اتخذ المؤتمر طابعاً دراماتيكيا ، واعلنت الحكومة البريطانية مقدماً ان جميع المنح الماليـــة التي كانت تدفعها الى الدول العربية ستقطع اعتباراً مـــن الحادي والثلاثين من آذار سنة ١٩٢٤ ، بينما تدفع سلفاً جميع المبالغ المستحقة حتى ذلك التاريخ . وبعد ان تم هذا اجتمع مندوبو الدول العربية يخامرهم شعور الارتياح بأنهم لن يخسروا سلفاً .

وكانت الحكومة البريطانية هي التي اضاعت الفرصة التي سنحت في المؤتمر قبل ابتداء اللعب. فقـــد لخّصت للرئيس البريطاني تفاصيل النتائج التي توقعها

رؤساؤه من ابحاث المندوبين. وكانت احدى هذه النتائج التي توقعها كافية لتؤكد انه لن يكون هنالك نتائج ما . فقد طلبت الحكومة البريطانية من ابن سعود ان يتخلى عن خرما وترابة للملك حسين ، مقابل وادي سرحان وقريّات الملح التى كان يسيطر عليها فعلاً منذ احتلاله الجوف ، كما يمكنه احتلالها متى اراد .

وبعد ان أمضى المؤتمر ستة اشهر في أبحاث واعمال عقيمة، قرر الملك حسين ان يظهر سلطته على ابنائه، فقدم الى شرق الاردن في موكب رسمي سنة ١٩٢٤ وتظاهر بتسلّم زمام الامور بوجود أبنائه الثلاثة، الامر الذي اذهل السير هربرت صموئيل المندوب السامي لفلسطين والأردن وأغضبه . اما الشريف علي ابن الملك البكر فتسلم ادارة الخط الحديدي الحجازي ، واصدر اليه والده تعليمات باعادة انشاء الاتصال التام بالمدينة المنورة . وكان الوالد يفكر جدياً باستبدال عبد الله بعلي، أميراً على الاردن.

الا انه وقع آنذاك حادث غيّر مجرى التاريخ العربي.. لقد قرر مصطفى كمال باشا في انقرة أن الوقت قد حان لالغاء منصب الخلافة التاريخي ، وخلع السلطان عبد المجيد خان وخلافته . هذا رغم انه كان قد سمح لعبد المجيد ان يحتفظ بمركزه الديني عندما الغى منصب السلطنة العثمانية. فسارع الملك حسين الذي كان يتمنى انتزاع هذا اللقب منه ، واعلن نفسه خليفة باحتفال رسمي مناسب . وبقي ينتظر خضوع الاردن والعراق والعناصر الاخرى ، التى تكوّن الهلال الخصيب ـ هذه العناصر التى كان مظهرها شريفياً منذالحرب العالمية الاولى ـ ثم سارع بالاستعداد للرجوع الى مكة . اما قضية عبد الله وشرق الاردن فأجّل موضوع تنفيذهـــا . وأنهت الحكومة البريطانية اعمال مؤتمر الكويت الذي شارف على الاحتضار .

وهكذا الاح في الأفق ان المسوح قد أعد للمأساة القادمة . . ففي غضون اقل من ستة أشهر بعد توقف محادثات الكويت ، ازيح الستار في الثالث مـــن ايلول على مذبحة الطايف . لقد امضى ابن سعود الصيف كله في اعداد تسوية نهائية مع

ملك الحجاز ، الا ان الأخير، باغتصابه الخلافة، برّر الحرب المقدسة التي حشد لها عدوّه كل ما لديه من قوات . وارسل ابن سعود فرقة استطلاعية لم يقصد منها غير اظهار القوة، علّه يمنع الملك فيصل من القيام بأي عمل من جانبه . فتمركزت هذه على طول التخوم العراقية ، إلا انه لم يقع أي حادث ، ولم يغيّر الوهابيون الحدود . هذا ، كما أرسلت الى الشمال قوة قوامها الف مقاتل من الاخوان ، فتغلغلت مسافةً بعيدةً في شرق الاردن وذبحت سكان قرية صغيرة قرب الخط الحديدي ، الا ان الطيران البريطاني قام بطردها وكبدها خسائر فادحة . وما كاد العالم يبدأ التفكير بهذه الامور المعقدة حتى حملت الاخبار نبأً آخر مرعباً . وهو سقوط الطايف بعد مذبحة شاملة . اما هذه الانباء التي كان مصدرها شريفياً فقد بولغ فيها عن قصد ، الا انها كانت تستند الى شيء من الواقع .

لقد سار سلطان بن بجاد زعيم غطغط Ghatghat الشرس، على رأس جيشه المؤلف من الاخوان وحدهم ، عبر الصحراء وهاجم القوات الحجازية ، فلم يلق الجيش مُقاومة تذكر هرب عليّ وجيشه الى هدا Hada القائمة على المنحدر المشرف على تلال مكة وسهلها . وقد فر معهم الآلاف من سكان الطايف او المصيّفين مما اربكهم . و كان هؤلاء الفارون لا يرغبون في رؤية الوهابيين . وطارد بعض الوهابيين القوات المتقهقرة واللاجئين الآخرين فقتلوا جميع الشاردين منهم ، واشتبكوا مع قوات علي في هدا Hada. ومن هناك فرّ جُند ابن الشريف في حالة من الفوضى والاضطراب عبر المنحدر الجبلي العميق . وقد سار علي الى جدة ، مخلفاً مكة وراءه معتبراً الحكمة فوق شجاعة الشجعان . وذلك ليتجنب رؤية والده الغاضب .

اما سلطان بن بجاد مع بقية جيشه، فقد اعمل السيف في سكان الطايف واخضعهم لحكم ارهابي ، قاتلاً المشركين . ونَهَبَ جيشه كل بيت وانسان .

والواقع ان عدد القتلى لم يتجاوز الثلاثمائة، بما في ذلك الذين قتلوا اثناء فرارهم

في معركة هدا ، ولكن هذا كان كافياً لبث الرعب والذعر في مكة البعيدة ، وفي جدة. الا ان ابن سعود ارجأ الهجوم على هـاتين المدينتين بموجب أوامر مشددة اصدرها الى قائده المتحمس . لقد اصدر اليه تعلياته بتجنّب الاعمال الحربية في المنطقة المقدسة ، وان ينتظر قدومه قبل احتلال مكة ، حيث اعلن الملك حسين عن عزمه البقاء فيها مستهينا بالاخطار التي قد تحدث له . الا انه فقـد السيطرة على الوضع . وما كان من أهل جدة ، الذين كانوا يواجهون خطراً اشد مـن غضب الملك ، الا ان استأسدوا وتشجعوا ، فطلبوا منه التنازل عن العرش لابنه علي الذي قد يسعده الحظ بالوصول الى اتفاق مع الوهابيين او مع ابن سعود .

وهكذا غادر الملك حسين مكة بعد حكم دام ستة عشر عامـاً ، قضى الشطر الاخير منه ملكاً مستقلاً فعلاً . فأبحر من جدّة الى العقبة ، مصطحباً معه نساءه وكنوزه ، ومن ثم اخبرته السلطات البريطانية بضرورة مغادرته العقبة الى قبرص لئلا يغري وجوده بالعقبة الوهابيين فيندفعون الى الشمال قبل ان تتمكن بريطانيا من التمركز في العقبة ، ذلك التمركز الذي تم فيما بعد في صيف عام١٩٢٥ .

خلف الشريف علي والده ملكاً على الحجاز. فلم يطالب بمناطق اوسع مما طالب بها الاخير ولا بالخلافة التي انتهى بحثها او المطالبة فيها من جديد ، والى الأبد . اما ابن سعود فلم يتعجل تطوير الوضع، ولم يصل الى مكة الا في اوائل شهر كانون الاول . وقد دخلها في لباس الحج ، لان سعداً آخر افراد اسرته والممثل الوحيد لها والذي زار مكة للمرة التاسعة والاخيرة في عام ١٨١٢ ، فعل مثل ذلك .

وقد استولى سلطان بن بجاد على المدينة المنورة كلها بدون مقاومة ، بعـد هرب حسين. وهدّأ من روع سكانها الخائفين وآمنهم على ارواحهم واملاكهم مع ان قصور الملك تعرضت للنهب والسلب . ودُمّرت جميع مقامات واضرحة ائمة الاسلام الاولين في مقبرة معلّى والاماكن الاخرى ، كما دُمرت من قبلُ ، على يد سعود الثاني .

اما ابن سعود فقد كان مشغولاً جداً باتخاذ التدابير لاحتلال ما تبقى من الحجاز ، وقد اخذ يلقن قبائلهـا المتمردة بعض الدروس القاسية لاقناع عقولهم الملحدة المتشككة بان السلام الوهابي لايمكن مقارنتـه بحالة الفوضى التي كانت سائدة ايام الشريف . وكان هنالك مشكلتا المدينة المنورة وجدة،البارزتان اللتان يتوجب عليه معالجتهما : مشكلتان تتطلبان مزيجاً من الحكمة والحزم مع القوة،حتى لايثير العنف الجامح مع ما يصاحبه من استفزازات،المتاعب مع الدول الاجنبية، او يجرح مشاعر بعض الطوائف الاسلامية.وفي هذه الاثناء اخذ علي ومستشاروه يبنون سياجاً من الاسلاك الشائكة الضعيفة حول المدينة . وقد عززوهـا بحقول الالغام ، المشكوك في جدواها ، والتي زرعوها على ابعاد متفاوتة .

* * *

حشد ابن سعود قواتـه ومدافعه ضد هـذه المراكز في ثنايا التلال الساحلية البعيدة عن المدينة مسافة عشرة اميال . ثم بدأ القصف الوهابي في الثالث مـن كانون الثاني عام ١٩٢٥ ، واستمر بشكل منقطع حتى نهاية آذار . وبعدها سحب ابن سعود جيشه الى مكة ليقضي العطلة الصيفية التي شملت صيام رمضان في نيسان من تلك السنة ، وابتداء الحج في تموز.وكان هذا هو الحج الاول الذي يحتفل فيه بحماية الوهابيين منذ اكثر من قرن من الزمن.وقد حضرته جماهير غفيرة من سكان نجـد والعناصر الاجنبية التي استطاعت ان تسافر عـن طريق مينائي ليث ورابغ اللذين كان ابن سعود احتلها واستخدمهما من اجل هذه الغاية . وقد قام بتأدية الحج ألدن رتر Eldon Rutter ،وهو انجليزي مسلم كتب فيا بعد وصفاً شيقاً عن مشاهداته في الحجاز في اول سنة من سني الاحتلال الوهابي .

وفي خلال الصيف بدأت الاستعدادات من اجل استئناف الاعمال العدوانية في الخريف،وعندها قدم الامير فيصل من نجد على رأس جيش كبير مجهز جيداً، فاتجه قسم منه الى المدينة المنورة بقيادة شاب آخر من ابناء السلطان اسمه محمد.وقد اصبح الوضع في كلتا المدينتين يائساً لا أمل فيه . فالطعام والماء لم يكونا كافيين

لطوائف ازداد عددها الى حد كبير، بالعديد من اللاجئين الذين جاءوا من المناطق المجاورة حيث كان الوهابيون يعملون بحرية تامة . وفي كلتا الحالتين منع ابن سعود بشدة القيام باي هجوم على المراكز الدفاعيـــة الضعيفة . بينما امضى جزءاً من الخريف في اجتماع عقد مع السير جلبرت كلايتون G. Clayton في واديفاطمة للمفاوضة بشأن معاهدتي هدا وبحره Hadda , Bahra لتسوية المشاكل بين السلطنة الوهابية والعراق والاردن الخاضعتين للانتداب البريطاني .وتشمل حدود الاردن نقطة لم يتوصل الى اتفاق بشأنها بسبب رفض ابن سعود بعناد، الاعتراف باحتلال الانكليز لمينـــاء العقبة ومقاطعتها خـــلال الصيف .وما زال الخلاف بشأن العقبة قائماً لم يحل حتى يومنا هذا ، مـــع ان هنالك خطاً فاصلاً إحترمه كلا الجانبين ، بموجب الامر الواقع .

واستمر حصار جده والمدينة المنورة جنباً الى جنب مع هذه المفاوضات بشكل غير منظم . اما المدينة المنورة فرفضت الاستسلام للجيش الوهـــابي الذي يقوده ابراهيم تشمي ويسنده فيصل الدويش مـــع قوات الاخوان ، وطلب اهلها الى ابن سعود ان يرسل ممثلاً عنه ليقبل خضوعهم ويضمن سلامتهم من أجراءات الاخوان .

وما كاد محمد يظهر امام المدينة حتى استسلمت في الخامس من كانون الاول، بينما أرسل فيصل الدويش وقواته المتعصبة الى شمال الحجاز للقيام بعمليات التصفية . واما الملك علي فخضع لحكم القدر ، واستسلم ، بنـــاء على مشورة كبار موظفيه ، بعد ان لم يبق في يده الا جزء بسيط من الاراضي . وطلب الى الوكالة البريطانية ان تستخدم وساطتها لتأمين رحيله وسلامته، واحتلال المدينـــة المنورة احتلالاً سلمياً منظماً . وقد تمت هذه الاجراءات بكل سهولة ، ودخل ابن سعود جدة في ٢٣ كانون الاول، بعد ان رحل الشريف علي بحراً الى العراق .

والآن، وجد ابن سعود نفسه لاول مرة يحتك بعدد من الدول الكبيرة والصغيرة ، ويواجه مجموعة من المشاكل المربكة التي آلت اليه من نظام تسوده الامتيازات ،

وبصفته وارث الديار المقدسة . فقد كانت هذه الامتيازات تهدف في الاصل الى حماية الذميّين في البلاد الاسلامية ، غير انها اصبحت تدريجياً مبررات للتدخل في شؤون البلاد الاسلامية . اما ابن سعود فقد اوضح منذ البداية انه لن يتحمل نقداً يوجّه اليه ، او تدخلاً بشريعة الله على الأرض . وكان عليه كذلك ان يتعرف الى الرأي العام للدول الاسلامية بخصوص طريقة ادارة الاراضي المقدسة، الا انه لم يجد صعوبة في التخلص من البعثات التي جاءت بمحض اختيارها ، او انبثقت عنها ، بأن وعدها بأن يهيء في الحج القادم فرصاً ملائمة لبحث جميع الأمور التي تهم الشعوب الاسلامية عند التقائه بممثليها في مؤتمر يعقد لهذه الغاية.

وبعد ان اوضح ابن سعود عزمه أن يجعل مصلحة الديار المقدسة في رأس الامور السياسية التي سيعالجها ، واستعداده لتقبل اي نصيحة توجه اليه من أية جهة من أجل هذه الغاية ، قام باجراء حكومي افزع حمائم الغرب وأحدث أثراً سيئاً في بعض البلدان الاسلامية التي اعتادت منذ عهد طويل ، حكم الدول الاجنبية، وتقبلت ثقافتها مع الاحتفاظ باخلاصها هي للمبادىء الاسلامية التي كان زعماء تلك البلدان يفسرونها وفق مشيئتهم . ذلك انه في يوم الجمعة الثامن من كانون الثاني سنة ١٩٢٦ اعلن الملك سعود نفسه ملكاً على الحجاز بعد صلاة الجمعة في جامع مكة الكبير ، وبالاحتفال التقليدي الذي نصت عليه التقاليد الاسلامية . وكان هذا عملاً دينياً وتحدياً للعالم في نفس الوقت . غير انه اصبح ، في حينه ، خيراً يحول دون الانحراف عن المبدأ الذي قام عليه ابن سعود لمجد الله ، الذي ما فتىء يعترف بمساعدته له في جميع الاحوال : تلك الاحوال التي قادت شعب الجزيرة فيما بعد بفضل ارشادات ملكه الجديد — من التيه الى أرض (الميعاد) التي تفيض لبناً وعسلاً . فلقد انتهى القتال الذي استمر زهاء الاربعة والعشرين عاماً كأنها يوم واحد . وكان أمام المنتصر فترة اربع سنوات تقريباً ليجعل ثمار نصره خيراً على الأجيال المقبلة . هذه الاجيال التي لم تعرف يوسف الصدّيق، ولا صيحة الاخوان الجريئة

الفصل الحادي عشر

بلاد العرب السعيدة



انتهت الحرب ، وبلغ ابن سعود أوجَه .. وأصبحت الجزيرة العربية ، التي قدّر له ان يحكمها قرابة الثلاثين عاماً ، متحدة كما لم تكن من قبل ، وضمن اقصى الحدود العملية في الظروف الدولية السائدة آنذاك . انها تزيد على اي رقعة سيطر عليها أسلافه سيطرة فعالة .

ضمن هذه الحدود الجديدة لن يتحداه أحد مرة اخرى . فالدولة التي انشأها وشق حدودها بسيفه وايمانه ستؤول الى خلفه في حالة سليمة . وكان العامل الحيوي في تلك الآونة ، اشتهاره بالعدل والحزم والتصميم التي لم توضع موضع الاختبار الا وتتحقق ، كلما دعت الضرورة الى ذلك .

ولأول مرة في التاريخ يحكم الجزيرة العربية حاكم فرد جدير بما ابدى له الكل من احترام .

ولما بلغ عبد العزيز الخامسة والاربعين من عمره كان في اوج رجولته ، مخلّفاً وراءه في حياته سجلاً حافلاً بجلائل الأعمال . غير ان النصر انعشه وأعاده مارداً مستعداً للكفاح مرة اخرى . ومرة اخرى كان ينصب عليه وحده الانتقاد

مع وجود العديد من المتفرجين،وفي ظروف مختلفة . لقد كان الرجل ارستقراطياً، قلباً وقالباً وتربيةً،ومؤمناً الإيمان الكامل بحق الملوك الآلهي،وبالواجب الملقى عليهم في ان يحكموا رعاياهم ، غير انه كان بطبعه ديمقراطياً ، ألف الشورى في أعماله ، تلك الشورى التي كانت جزءاً لا يتجزأ من حياة العرب .

وربما كان الفضل على شخصيته التي وفّقت بين هاتين السجيّتين الى خلُقه . فقد مكنه هذا من سهولة تقلُّد المركز القيادي : هذه الزعامة التي اعتـــاد تفسير مهمتها الحقة باستشهاده بالآية القرآنيـــة « وشاورهم في الأمر ، ثم .. اذا استخرت فتوكل على الله ، ان الله يحب المتوكلين .

لقد كان هذا المنهاج يقوّمـــه في مواقف كانت آنذاك تتطلب استخدام الحذق الغريزي الذي هو من مزايا الخبراء . الا ان مكانتـــه الجديدة كشخصية عالمية كانت تجابهه بمشاكل من نوع لم يألفه ، ولم تُفده خبرته الماضية في معالجتها. وكان الحمل الذي ألقي على عاتقه ثقيلاً ، حتى انه لم يكن بمقـــدوره حمله دون مساعدة من احد ، وعلى الأخص فيما يتعلق بالامور الفنيّة : كالاقتصاد والمالية . كان يشعر بقصور خبرته في مثل هذه المجالات،الا أنه لم يتردد قط في تحمل مسؤولياته. أما عظمته المعروفة ، واعتماده الكبير على نفسه فكانا من العوائق التي حالت بينه وبين تجنيد نفر من الإكفاء لتسيير شؤون الدولة السياسية والادارية . وبمساعدة ستة من الشخصيات المعروفة بمزاياها وقدُراتها ، كان بامكان المملكة العربيـــة السعودية ، المؤلفة من نجد والحجاز،ان تصبح مثلاً رائعاً وفذاً في السياسة العالمية. فقد جمعت بين الحكم الروحي والزمني القائمين على اسس راسخة مـــن الايمان والعداله ، اللذين كان الملك يهدف الى ارسائهما في ربوع بلده مهما عز الثمن .

وفي سبيل تحقيق هذا، كانت ارادة الشعب ضرورية مثلما كانت ارادة السلطان. ولسوء الحظ،لم تجتمع هاتان الصفتان اللازمتان في نفوس الرجـــال الذين انتُدبوا لمساعدته في مهمته العلوية تقريباً.هذا من ناحية أما من ناحية اخرى فقد كان هنالك

العديد من هؤلاء ، بين صفوف النجديين ، الذين جازفوا بحياتهم لخلق مثالية روحية . وكانوا يتوقون ، بكل اخلاص ، الى ان يطبقوها في البلدان الفاسدة التي فتحوها . الا انه اسوء الحظ كان القلائل منهم هم الذين يتحلون بالمعرفة الادارية والخبرة الضرورية لتطوير الاوضاع الجديدة التي وجدوا انفسهم يجابهونها .

ومن حيث الكفاءة والمقدرة فانهما لم تعوزا أهلَ الحجاز ، الا ان هؤلاء كانوا قد فقدوا الفضيلة إبان الجو الفاسد الموبوء الذي عاشوه تحت الحكم التركي الطويل . ففي اثناء خدمة الاتراك، أتقن الأهلون الاساليب الملتوية في جمع الثروات والتوصل الى ارفع الوظائف الحكومية .

وعلى كل حال ، كان ابن سعود حذراً للغاية في استخدام هذه الفئة من الموظفين المدنيين المتوفرين آنذاك، والمشكوك في اخلاصهم وولائهم له . فاضطر تحت وطأة هذه الظروف ، الى ان يرجع الى مصدر القوى الآخر المتوفر لديه . وكان هذا في البداية على نطاق محدود جداً ، غير انه فيما بعد اصبح على نطاق واسع جداً ، فاستحالت السيطرة عليه .

ولقد كان ابن سعود محقاً منذ البداية في عدم قبوله استخدام غير المسلمين في اية وظيفة عنده، لئلا يتكرر في بلاده ما حدث في البلدان الاسلامية الاخرى . وعلى كل فقد اوضح بنفسه ان الحجاز على الاقل ستبقى وديعةً لكل المسلمين في العالم، وانها ترحب بجميع المسلمين ، سواء جاؤوها حجاجاً او طالبي معاش، على شرط ان يقبلوا الشريعة الاسلامية نبراساً لحياتهم ومعاملاتهم المشروعة في كل شيء . وعلى هذا الاساس اضطر لان يطلب الموظفين اللازمين لادارة البلاد من العرب غير السعوديين، والمواطنين المسلمين الآخرين . وقد قُسّم هؤلاء الى فئتين منفصلتين في بداية الامر : لان نجداً والحجاز رُبطتا برباط الملكية فقط . فلم يعهد ابن سعود بسلطته الى اي شخص آخر غيره .

هكذا كان الوضع المحلي الذي وجد ابن سعود نفسه فيه أيام بداية حكمه في

الحجاز . والطريقة التي بادر بها الرجل الى معالجة المشكلة في ايجاد كادر اداري اساسي ، تتمثل افضل ما تتمثل في حقيقة ان جميع الرجال الذين جمعهم حوله خلال السنتين او الثلاث سنوات الاولى بعد احتلال الحجاز، للقيام بفعاليات مختلف الادارات نيابة عنه ـ لم يظلوا جميعهم في خدمته فحسب ، بل ظلوا يقومون بنفس الوظائف وفي نفس الدوائر تقريباً منذ ذلك العهد حتى نهاية حياته .

واذا لم تُثبت هذه الحقيقة صدى حدسه الذي لا يخطىء في اختيار الرجال الصالحين الاكفاء لمختلف وظائف الدولة ـ فانها على الاقل ، توضح لنا ان من مزاياه الخلقية نوعٌ رقيق من الكراهية للاجانب : كراهية كان من اعراضها وعلائمها عدم اظهار الحماس للمجتمع الغريب ، الا انه يخفيها بسهولة عن طريق الكرم الزائد ، واظهار المودة ، وتفضيله الاجنبيَّ في ان يكون حوله في جميع الاوقات : ليلاً ونهاراً، وسنة بعد سنة، ونفس الاشخاص دائماً، سواء أكانوا من افراد عائلته أو الموظفين او الرفاق الفكهين او الحشم والخدم. ففي وجود هؤلاء فقط كان يجد الراحة بلا تحفظ ، ويظهر روح الكياسة واللطف والنفس الطيبة التي جعلته يصمد ابداً تحت عبء التاج الثقيل .. كان ابن سعود يثق بهؤلاء الناس لأنه كان يعرفهم معرفةً صحيحةً ، يعرف فضائلهم واخطاءهم فقد شد وثاقهم الى نفسه وخدمته بسخائه الذي لا حد له ، والذي كان يزداد بازدياد موارده .

وهنالك مثال نادر شاذ في طول الخدمة تجلى في شخص خدمه اكثر من غيره: وهو عبدالله الدملوجي العراقي الاصل والموصلي المولد . التحق هذا الرجل بخدمة ابن سعود سنة ١٩١٥ كمستشار صحي . وقد رفعته معرفته باللغة الفرنسية الى تحمل مسؤليات سياسية تجاه الزوار الاجانب في بلاط الرياض. وبعد احتلال الحجاز عُيّن ممثلاً خاصاً للملك في جدة ؛ ثم اصبح بعد ذلك نائب رئيس الخارجية، عندما عُيّنُ الامير فيصل، الابن الثاني للملك ، في هذا المنصب . وبعد بضع سنوات من التجربة والاختبار في هذا المنصب تخلص منه ابن سعود باسلوب

لبق : باعطائه اجازةً غير محدودة سنة ١٩٤٠ والسماح له بالاستقالة . اما خلفه فؤاد حمزة ، فكان قد وصل الى السعودية كلاجىء من فلسطين سنة ١٩٢٨ ، واثبت جدارة في وزارة الخارجية السعودية الى ان توفي وهو على رأس عمله سنة ١٩٥١ . وقد كانت وفاته خسارة كبرى لوطنه الثاني . وفي خلال الحرب كان سفيراً للعربية السعودية في فيشي ، ومن ثم في انقرة ، حيث خلفه في هذا المنصب أخوه توفيق .

اما العضو البارز في سرب موظفيه ومستخدميه فقد كان بلا شك ، عبدالله سليمان ، الذي عُين وزيراً للمالية سنة ١٩٢٩ ، بعد تجربة السيد شرف رضا في هذا المركز ، وهو شريف لم يكن لديه من الاسباب ما يدفعه ليكون موالياً لاسرة الاشراف. وكان عبدالله سليمان هذا يمتاز على زملائه بكونه ولد في نجد وتمرّس في مهنة المحاسبة . وقد سبق ان كان اخوه الاكبر هو السكرتير الخاص الاول لابن سعود لعدة سنوات قبل وفاته . وكان عبدالله نفسه قد رافق سيده في هذه الوظيفة تقريباً خلال حملة الحجاز . وقد وضح أنه اختير ليشغل وظائف مهمة . وكان نحيف البنية واسع الاطلاع والحكمة الا انه انهك جسمه في اداء مهمة اغتصاب قدْرةَ الارملة بيده، لمواجهة جميع المطالب التي كانت تنصبّ عليه والتي كان معينها لا ينضب . وكانت شجاعته لا يعتريها التّصَب في معالجة مشاريع الاعمار والتطوير المتعددة . لقد سار بعضها في طريق منحرف الا ان معظمها ادت الى نتائج ثابتة افادت البلاد فائدة قيّمة . فقد ادار مرافق ثروتها النامية بدهاء البرامكة وذكائهم في خدمات مدنية خاصة به ، مع تعيين فراد من عائلته في المناصب المهمة الاساسية فيها . ومع انه كان يتمتع في جميع الاوقات بثقة مليكه التامة، الا انه كان الوحيد بين اعضاء السلك الاداري الذي يعمل عادةً ، حسب مشيئته الخاصة وسلطته ، مبرراً ذلك باعتقاده أن اعماله سوف تحظى بتأييد جلالة الملك وموافقته .

وبين الموظفين الاداريين الذين شغلوا مراكز ادارية منذ تلك الايام حتى

يومنا هذا : حافظ وهبة ويوسف ياسين. اما حافظ وهبة فكان مصريا قد اعتقل في مالطة لعلاقته بالاضطرابات التي حدثت في الاسكندرية في حادثة سعد زغلول سنة ١٩١٩ ، الا انه بعد ان شغل منصب مدير المعارف اصبح فيما بعد ممثلاً لابن سعود في البلاط البريطاني «كوزير مفوض» سنة ١٩٣٠ . ومنذ عهد قريب عُيّن سفيراً . وهو ما زال يشغل منصبه هذا بعد ربع قرن قضاه في في الوظائف السياسية . ونتيجة لذلك كان اشهر ممثلي العربية السعودية السياسيين واكثرهم عملاً وارهاقاً .فقد كان ابن سعود يستدعيه مراراً وتكراراً للتشاور معه ومع يوسف ياسين ، سكرتير جلالته الخاص . ومن ثم رقي حافظ الى منصب وزير دولة .

وكان يوسف ياسين في خلال تلك السنين حلقة الاتصال بين سيّده وشبكة المراكز السياسية الواسعة المنتشرة من الصين حتى بيرو . ويوسف ياسين سوري الاصل من اللاذقية ، اشترك في شبابه في حوادث الاضطرابات التي جرت ايام الانتداب في بلاده . ووصل الى الجزيرة العربية حوالي عام ١٩٢٣ حيث ربط مصيره بمصير الوهابيين. وسرعان ما فاز بثقة ابن سعود فرافقه في حملةالحجاز، وبعدها اصبح محرراً في الجريدة الاسبوعية الرسمية «ام القرى» ، وكان يشرف على محتوياتها كجزء من المهام الملقاة على عاتقه كسكرتير سياسي . (وبدون اجر) . ولا شك انه كان من ابرز موظفي ابن سعود في اكثر من ناحية من نواحي نشاطه . وكان عملة يتضمن القيام بسفرات الى الخارج لغاية او اخرى .

ويجيء في المرتبة الثانية ، مساعده رشدي ملحس . وهو لاجيء من فلسطين حالت واجباته الرسمية دون تطويره ذوقه الادبي والعلمي ، وهو المجال الذي كان يمكن ان يختاره لا ريب ؛ لو كانت الاحوال عادية .

وبين الاشخاص الذين اسهموا الى حد كبير في تطوير حكم ابن سعود يجدر بنا ان نأتي على ذكر خالد الكركني ، الذي هجر وطنه في ليبيا ، بعد ان احتله

الايطاليون ، وجاء الى جدة في اوائل الحكم الجديد في الحجاز ، وفي نيتّـه ان يمارس الاعمال التجارية هناك . الا انه سرعان ما اجتذبته وظائف الملك الخاصة فعيُّن في وظيفة استشارية مع الاحتفاظ بجنسيته التركية . ولم يكن بشكل من الاشكال اقل افرّاد حاشية الملك السياسيين والاداريين تأثيراً .. ففي اواخر ايام حياته ، التي فقد فيها شيئاً من نشاطه لتقدمه في السن ، حظي بمركز قيادي مرموق وكان موضع ثقة وتقدير .

ولنكتف بما قدمناه عن الجانب الوظيفي للصورة . ويجب أن نذكر أن ابن سعود في اول مراحل حكمه ، رفض بشكل قاطع ، تدّخل ابنائه أو أي فرد من افراد عائلته في الشؤون الادارية للدولة . صحيح انه عيّن ولديه سعوداً وفيصلاً نائبين له في نجد والحجاز ، ثم عين فيصلاً وزيراً للخارجية بالنظر لخبرته الواسعة التي ا كسبته اياها سفراته الى الخارج واتصاله بالحكومات الاوروبية المتعددة ، الا ان مثل هذه التعيينات طبيعية ومناسبة ، بالنظر للمسؤوليات التي ستلقى على عاتقهما في حينها . وكان مفهوماً لديهما انهما سيمارسان مهام منصبيهما في جميع الامور الهامة تحت اشراف والدهما، وبموافقته . وعلى الاخص حين يكون موجوداً في احد هذين الاقليمين المعنيين .

ومن ناحية اخرى ، كان ابن سعود يحذّر تعريض العائلة المالكة للنقد أو اللوم بسبب اختياره بعض افرادها لتحمُّل مسؤوليات ليسوا اكفاء لتحملها ، لا من ناحية الخبرة ولا التدريب . وقد اعتاد كلما ازدادت ثروته وكثرت ذريته ان يحذر الناس في مجالسه ويحذر نفسه ضمناً مستشهداً بالآية القرآنية : « ان من اموالكم وأولادكم عدو لكم ... » . وحسب تجاربه كثيراً ما نجد ان هذا الخطر لا يقاوَم .

وعندما شكّل ابن سعود مجلس وزراء (في وقت متأخر جداً) ليتخمل عنه اعباء الحكم الذي اثقل كاهله القوي ، وان كان الآن قد حناه السن والجهد المتواصل، نال

الامراء نصيباً من المناصب الوزارية لم يسبق له مثيل في أي عصر أو اقليم منذ خليقة العالم . ومن المزايا الشيقة الجذابة في العائلة المالكة السعودية نظام الاولوية المرعي بين اعضائها . هذا النظام الذي لا ينص عليه اي تشريع . الا انه اصبح مفهوماً ، ويجري تطبيقه بكل حكمة من قبل الجميع . فالعامل الاول في نظام الاسبقية هو السن . فالأبناء والاحفاد واولاد الاحفاد لا يتقدمون على اعمامهم وابناء عمهم الاكبر منهم ، الا حين يكونون قد ولدوا قبلهم . ويبدو انه لم يكن هنالك اي استثناء لهذه القاعدة . وحتى سعود نفسه حين أعلن ولياً للعهد سنة ١٩٣٣ استمر في التقدم في البلاط على غيره بعامل السن فقط . وكان هذاالترتيب مربكاً للاجانب حين يجدون افراداً من العائلة متقدمين في السن لا يعرفونهم . وفي الواقع كان الابناء وابناء الاخوة في أيام الحجاز الاولى يجلسون في المقاعد الخلفية في الجلسة التي يحضرها الملك . الا ان هذا النظام اخذ في الزوال لعدم ملائمته الواضحة،بسبب بلوغ عدد كبير من الامراء سن الرشد . وربما كانت نسبة هؤلاء واحد لكل خمسة آلاف من مجموع السكان في العربية السعودية .

غير ان الامتياز الوحيد الذي كان يتمتع به سعود ، كولي للعهد او نائب للملك او وارث للعرش ، هو الحرس العسكري والحاشية المسلحة التي ترافق سيارته . ومع مرور الاعوام منح الامتياز الملكي في ترأس الحفلات الملكية والاجتماعات الرسمية الاخرى : هذه المهمة التي كان ابن سعود يقوم بها بدقة ولكن بدون لذة . وربما كان هذا بسبب كون الاطعمة اللذيذة وعادات المائدة البسيطة في العهدالقديم ،قد زالت: تلك العادات التي اخذت تحتل مكانها تدريجياً وبلا هوادة عادات المطبخ والمائدة في العالم الجديد مع مرور الزمن. ففي عشق الماضي الذي بعثت حضارته العظيمة وسط جميع الشدائد والضيق ، وعبر آلاف السنين حتى يومنا الحاضر ، لا بد للمرء ان يجد العذر للاجيال المتأخرة التي لم تعرف المشقة والضنك التي رافقت تطورها ، هذه الاجيال التي لها ملء الحق في سلوك اسهل السبل والتمتع بأوفر الحظوظ والملذات التي يوفرها لها نظام آخر مختلف ، سيظل ميراثا للاجيال القادمة من بعدهم .

ولكن، لقد وقع الاختيار فلا يمكن النكوص .. اذ لا يمكن العودة الى الاشياء التي مضت وانقضت . هذه الاشياء التي اخذ بطلها العظيم المرحوم يتخلى عنهـا ليرتاح من اعبائه .

* * *

قد يعزي المرءَ ان يتنبأ عن الاتجاه المحتمل لمستقبل الجزيرة العربية الغارقـة في يانع يقظتها ، لو لم يكن ذلك حقاً من المرء ان يتنبأ عن مشيئة العناية الالهية ، كما يعترف بذلك حالم اليقظة في Eothen . فهل يسع المرء الا ان يقف اليوم كما فعل قبل اكثر من قرن مضى على ذروة جبال لبنان الشاهقة ويقول : لقد علقت عيناي بشاطىء البحر الداكن الذي لا يتغير ، لقد اعتدت منذ حين على السكان وعلى المشاهد المقفرة في آسيا . اجل لقد تعودت رؤية المقابر والخرائب والمدن الصامتة والسهول المهجورة . لقد اعتادت عيناي رؤية الرجال الصامتين والنساء المحجبات التاعسات . وما ان ابصرت شاطىء البحر حتى قفزت بكل سهولة الى شواطئه البعيدة ، فرأيت جميع ممالك الغرب في الطريق الجميل الذي سيبعدني عن هذه الاراضي الصامتة . لقد خلفت ورائي عالماً قديماً هرمـاً ... ديانات ميتة واخرى على وشك ان تموت ، طغياناً هادئاً يلفظ أنفاسه في صمت وسكون ، اين هي الممالك الغربية الآن ؟ اني اشاهد الممالك الشرقية في صفوف متراصة تسير يداً بيد مع الجمهوريات الجديدة النشيطة . وكذلك المدن الكبرى التي نشأت قديماً في الصحراء وطبقت شهرتها الآفاق في العصور الخوالي تعود اليوم فتولد من جديد لتصبح شهيرة كما في الماضي » . انها لتكاد تكون الصورة التي توقـع كنجليك Kinglake ان يشاهدها خلفه اليوم . فاذا كان قد اصاب نجاحاً في التنبؤ عـن امتداد نشاط الاستعماريـين البريطانيين ألى مصر فانه يستطيع ان يتنبأ كذلك عن انحلال الامبراطورية نفسها في خلال قرن بعد صدور كتابه . ومن ذا الذي يستطيع ان يخبرنا عما يمكن ان يحمله في طياته قرن آخر للعالم العربي، او للعـالم

باجمعه ؟ فقد نشهد نهاية المدنية ، وربما عادت الى حمى البلدان الشرقية كما كان الامر في الماضي ، حيث نشأت وترعرعت في العصور الخوالي .

* * *

ولنعد الآن ، بعد هذا البحث الشامل في العوامل التي كان لها الاثر في ايجاد الاطار الذى يمكن ان تقام عليه نماذج المستقبل ، الى اعلان ابن سعود نفسه ملكاً على الحجاز : ان رد الفعل العالمي على هذا التطور الغير المتوقع كان اعظم في البلاد الاسلامية منه في الغرب ، الذي لم يظهر تحمساً للامر . وكان اول العازفين هي الحكومة الروسية التي كانت لا تزال مخلصة للمبادىء المناوئة للسياسة الاستعمارية : تلك المبادىء المتمثلة في الثورة البلشفية. فقد سارعت الى الاعتراف قانونياً بالنظام الجديد في البلاد الاسلامية المقدسة . واعترفت بريطانيا وهولندا تباعاً . ثم جاء بعدها دور تركيا وبلجيكا وسويسرا ، وفي سنة ١٩٢٩ انضمت المانيا الى الدول المعترفة .

وفي عام ١٩٢٩ قامت ايران التي تأخر اعترافها بسبب تدمير مقامات الاولياء في المدينة المنورة ومكة ، واضرحتهم، فبادرت الى فتح المفاوضات التي دت الى اعترافها هي الاخرى . غير ان مصر لم تعترف بحكم ابن سعود ، بسبب خلاف خطير نشب بين الحجاج المصريين والوهابيين خلال الحج الذي حدث في سنة ١٩٢٦ . وقد سُحب المحمل من جدة في السنة التالية بسبب رفض ابن سعود السماح له بالذهاب الى مكة وعرفات ، خشية ان يؤدي الى فتنة ونزاع .

ولم تعد العلاقات السياسية بين البلدين الا في سنة ١٩٣٦ ، بسعي من مصطفى النحاس باشا رئيس وزراء مصر أنذاك ، وبعد موت الملك فؤاد الذي وضعت وفاته حداً لمطالبه التي لا تستند الى اساس بالخلافة . ومنذ ذلك الحين اصبحت العلاقات بين البلدين ودية ومتينة . وكان في ذلك فائدة للمملكة السعودية التي استفادت طويلاً من الخبرة الفنية التي كانت لجارتها المتقدمة عليها في هذا المضمار
Amantium irae A moris integratio est.

لم تكن امريكا بالطبع مهتمة بشؤون الجزيرة العربية آنذاك . ويفسّر اختفاء اسم ايطاليا من بين الدول المعترفة ،بكل بساطة ، باهتمامها الافلاطوني باليمن . تلك البلاد التي حددها السنيور موسوليني على اعتبار انها ارض ملائمة للاستعمار الايطالي . اما اخفاق السير جلبرت كلايتون في ان يتابع المفاوضات المُرْضية ، بشأن معاهدتي جدة وبحرة ، ومعاهدة ابن سعود نفسه سنة ١٩٢٥ ، لتسوية جميع القضايا البارزة بين بريطانيا والامام يحيى في الربيع التالي عند زيارته صنعاء ـ فكان من نتائجه ان القى الامام نفسه في أحضان ايطاليا.

وفي نهاية عام ١٩٢٦ تقريباً ، عقد السنيور جاسبزيني Gasparini حاكم اريتريا الايطالية . معاهدة صداقة وتجارة مع اليمن . وقد اعترفت ايطاليا فيها بالامام يحيى ملكاً على دولة اليمن المستقلة ضمن حدودها الحالية . وكانت هذه العبارة تتضمن اعتراف ايطاليا بمطالب اليمن الاقليمية التي كانت مدار نزاع بين الامام من جهة ، وبين بريطانيا والمملكة السعودية من ناحية اخرى .

ولقد شهدت جدة في الاشهر الثلاثة قبل سقوطها ، زيارة ما لا يقل عن ثلاث بعثات أجنبية تهدف الى بحث امور ذات اهمية خاصة ، بالنسبة للدول التي ارسلتها . أما بعثة السير جلبرت كلايتون فقد بحثناها سابقاً . . وسُمح لبعثة رسمية ايرانية أن تمر من الخطوط الدفاعية الشريفية الى مكة ، حيث وضع ابن سعود تحت تصرفها جميع التسهيلات اللازمة لتقدير الخسائر التي لحقت بالقبور من جراء الاعتداءات . ثم انها لحقت بجيش الامير محمد الى المدينة المنورة لنفس الغاية . ذلك ان ابن سعود قد تعهد بان يعيد ، وفقاً للشعائر الدينية ، بناء اي ضريح يستحق العناية . وقد ذكرنا نتيجة هذه الزيارة آنفاً .

وكانت اكثر هذه البعثات الثلاث ارباكاً وازعاجاً البعثة الهندية الغير الرسمية ، الممثلة لهيئة الخلافة . اذ وصلت هذه الى جدة ، عازمة على ان تندد باعمال الوهابيين ، متذرعة بهذا السبب وباسباب غيرها ، كي تضغط على الحكومة الوهابية لتسليم ادارة الديار المقدسة الى لجنة ديمقراطية تمثل جميع البلاد

الاسلامية . وقد ظل ابن سعود صابراً الى ان اصبح مسلكها لا يطاق ، فنفد صبره ولم يأمرها بمغادرة البلاد فحسب ، بل عمد الى اجراء الترتيبات لتسفيرها بحراً الى الهند ، وتحت الحراسة العسكرية .

وفي هذه الاثناء واجه ابن سعود الانتقادات التي وردته من شتى البلدان بالاعلان التالي :

اولاً : انه لا يستطيع ان يتخلى عن مسؤولية المحافظة على الامن والسلام في الديار المقدسة التي تشكل القبائل البدوية الجزء الاكبر من سكانها ، هذه القبائل التي تحدت ، منذ امد طويل ، الاتراك والحكومة الشريفية ، فأضرت بالحج ضرراً بالغاً .

وثانياً : ان يقترح عقد مؤتمر من جميع الاطراف والعناصر المعنية بمستقبل الحجاز ، في مكة ، بعد الحج القادم . . أي في اوائل سنة ١٩٢٦ . ذلك لأن عدد الحجاج القادمين من وراء البحار القادمين كان في حد ذاته كافياً ليثبت بان الثقة بسلامة الحج قد اعيدت الى النفوس تحت حمايته . ومتى تم عقدُ المؤتمر فسيُسمح له ببحث الامور المتعلقة وغير المتعلقة بالموضوع على اوسع نطاق ، وباصدار قرارات دينية تتسم جميعاً بصحة المعتقد واستقامة الرأي .

وبالنسبة للمسألة السياسية الرئيسية التي لم تكن قط على الهامش ، بل في رأس قائمة القضايا التي جرى بحثها ، فلم يكن لها الا جواب واحد فيما يبدو . . لقد عزم ابن سعود على ان يستمر في حكم الحجاز لمنفعة المسلمين عامة ، وهو على استعداد لأن يأخذ على عاتقه المسؤولية الكاملة للقيام بالحكم على اكمل وجه .

ولقد انفرط عقد المؤتمر على هذه الاسس الواضحة ، فاصيب الكثيرون ممن حضروا المؤتمر بخيبة الأمل .

واقل ما يقال ان الحجاج الذين زاروا الحجاز آنذاك ، وفيما بعدُ ،

خلال السنوات القليلة التي سبقت التدهور الاقتصادي المريع في اوائل سنة الثلاثين، لم يجدوا أي سبب يدعوهم للشكوى او التذمر من الاخطار، أو عدم تأمين سلامتهم.

هذا، علاوة على ان الاجراءات التي اتخذت تحت اشراف ابن سعود شخصياً في المحافظة على صحة الحجاج، جديرة بالتقدير. خصوصاً اذا عرفنا أنه خلال السبعة والعشرين حجاً التي احتفل بها في عهده لم تقع اية حادثة كبيرة على الاطلاق. وبالاضافة الى هذا فان قرار ابن سعود أن يمنح الحجاج مختلف التسهيلات التي كانت ممنوعة عليهم، قد زادت في راحتهم الى حد كبير جداً. فتشجيعه استعمال وسائل النقل الآلية، قد قلب الاحوال رأساً على عقب، هذه الاحوال التي يواجهها الآف الحجاج الوافدين من الخارج. فاليوم وبعد ان استعملت الطائرات كوسيلة جديدة من وسائل نقل الحجاج، لم يعد الحج بالعملية المتعبة على الاطلاق.

وحتى هذا التحول المدهش لم يكن كل ما تميزت بها ادارة ابن سعود، واستحقته من تقدير في الحرص على راحة الحجاج ومصلحتهم، بعد ان كانوا يجأرون بالشكوى بسبب الرسوم الكبيرة التي كانت تجمعها الحكومة منهم. مع العلم ان الاحتياطات المتخذة لتأمين سلامتهم وراحتهم تكلف الدولة كثيرا من المال.

كان الرسم الذي يدفعه كل حاج خمسة جنيهات انكليزية.. وكان هذا في الزمن الذي كان فيه الجنيه الاسترليني والجنيه الذهب من نفس القيمة. وليس الذنب ذنب الحكومة السعودية في انهما لم يعودا متساويين في القيمة.

اما الاستمرار بدفع الخمسة جنيهات الذهبية او قيمتها في الاسواق العالمية فكان يبدو عبئاً ثقيلا على عاتق الحجاج من وجهة نظرهم. الا ان هذا جرى في جميع انحاء العالم. ومهما يكن من امر، فليس للحجاج اليوم ما يشكون منه. فقد ألغيت رسوم الحج بامر من الملك، حالما ازدادت عائدات الحكومة من البترول والموارد الاخري التي جعلت بالامكان منح الامتيازات: تلك الامتيازات التي

مكّنت الحكومة من تحمّل كافة تكاليف التسهيلات المتزايدة التي خصصت لمنفعة جميع قاصدي الحج ، (كطرق لسيارات الشحن الكبيرة التي تسير على المازوت ، وعلى شبكة من الخطوط ، كتلك التي بين مكة وعرفات) .

وبعد ان تخلص ابن سعود من المؤتمر الاسلامي ، ارسل ابنه فيصلاً على رأس بعثة صغيرة ، الى كل من حكومات بريطانيا ، وفرنسا ، وهولندا ، لشكرها على اعترافها بكيان حكومته الجديد . وقد بحثت البعثة جميع الامور المتعلقة بالمصالح المتبادلة للدول الثلاث التي زارتها . الا انه لم يكن لدى هـذه البعثة اي هدف تسعى الى تحقيقه . ولدى عودتها الى الجزيرة العربيـة ، فُوّض المستر س . ر . جوردن الممثل والقنصل الانجليزي في جدة ، ان يبدأ المفاوضات مع ابن سعود . وكان هذا آنذاك في المدينة المنورة . وكان الهـدف المنشود من المفاوضات هو تسوية شاملة للامور الهامة المعلقة بين البلدين .

ولقد كان واضحاً للجميع بان معاهدة القطيف القديمة المعقودة سنة ١٩١٥ ، لم تعدْ تعبر عن العلاقات الحقيقية القائمة بين بريطانيا العظمى والمملكة السعودية ، وان الحاجة ماسة الى معاهدة جديدة تتضمن اعتراف بريطانيا باستقلال ابن سعود وسيادته ، وأن له ملء الحرية في إقامة علاقات مع الدول الاخرى ، والحق في تزويد بلاده بالاسلحة والذخيرة من اي مصدر كان ، دون اية قيود. بينما لم يكن هنالك مجال للاعتراف بنظام الامتيازات التي نشأت تحت الحكم التركي واستمرت بشيء من التعديل خلال الحكم الشريفي الذي لم يدم طويلاً .

اما الحكومة البريطانية فقد تمسكت ، بشدة ، بحقهـا القديم في حماية العبيد الهاربين الذين يلجأون الى قنصليتها . واما ابن سعود فلم يشأ ان يسجل ، رسمياً ، اعترافه بانتداب الحكومة البريطانية على العراق وفلسطين وشرق الاردن مـا لم تُعدْ إليه منطقة معان ـ العقبة ، الحجازية . وقد اهتم الطرفان جل الاهتمام في اعادة تسيير الخط الحجازي الذي حاولت الحكومة البريطانية جاهدةً ان تدمره

خلال الحرب. ان هذه المشكلة ما زالت حتى يومنا هذا موضع اخذ ورد ومباحثات شتى.. دون اي احتمال لايجاد وسيلة عملية، طالما ان الجزء الخارب المعني يقع ضمن الحدود السعودية. وقد رفضت الدول المنتدَبة في بادىء الامر ان توزع القاطرات الموجودة والعربات وما الى ذلك حسب عدد الكيلو مترات او اي اسس اخرى معقولة، بينما لم تتوصل حكومات سوريا والاردن، دون حكومة فلسطين وحكومة السعودية، الى اتفاقية مرضية بهذا الشأن الذي اصبح الآن موضع البحث مرة اخرى.

كانت المباحثات بين ابن سعود والمبعوث البريطاني غير مجدية. فتوقف ابن سعود عن القيام باية مباحثات اخرى الى ان يقوم بزيارة الرياض، عاصمته التي كان غائباً عنها طوال سنتين. فقد حان الوقت لتجديد الاتصال بشعبه وشيوخ القبائل والعلماء بشكل خاص. وكانت الشائعات عما يجري في الحجاز تصلهم، فكانوا، على ما يبدو، قلقي الافكار خشية ان يعود الحجازيون بدورهم فيأسروا الفاتحين.

والحق انه كان لهم العذر في هذه الشكوك. فالواقع ان لجنة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر، قد انشأت تعمل منذ البداية على تطهـــير اسطبلات الحجاز (التي طهرها هرقل بنهر الفيس!)، فقد امحَّت الدعارة وكل ما يمت اليها بصلة، أو اصبحت تمارس سراً على الاقل. وكذلك اعتُبرت معاقرة الخمر والتدخين من المخالفات التي تُقترف، تحت وطأة العقوبات الشديدة، بامر من اللجنة. وكانت يهمها، بالطبع، ان تتأكد من ان كل فردٍ مواظبٌ على تأدية الصلوات المفروضة في الجوامع.

ولم يكن هنالك تساهل او حلٌ وسط في ذلك الزمن، وتحت تلك الظروف. اما في قضية التدخين، فان انسانية ابن سعود قـــد تبدت في الامر الذي اصدره طالباً بموجبه مصادرةَ كل المخزون من الدخان في الحجاز، ثم حرقه. وقد عرف التجار ان لا سبيل للاعتراض على هذا الامر، غير انهم قرروا الارتماء على اقدام

الملك يطلبون منه الرحمة ، وادعوا بانه ، اذا وضع الامر موضع التنفيذ فسيؤدي ذلك الى خراب بيوتهم .

وقد اهتز ابن سعود وُصدم عندما علم أن قيمة المخزون من هذه النبتة الشريرة يقدّر بمائة الف جنيه . ولم يرض بان يصاب هؤلاء المدّعون التعساء بمثل تلك الخسارة الفادحة . فامهلهم مدة كافية ليتخلصوا من بضاعتهم هذه،بحسن تقدير وحكمة وبدون اخلال بالقانون ، على ان يعلموا أنه لن يُسمح لهم باستيراد التبغ فيما بعد .

ان تأخير تنفيذ الحكم كان كافياً للأخذ بالاعتبارات الاخرى . فالواردات الهائلة من رسوم التبغ ادت الى النتيجة الراسخة بان الدخان ليس محرماً في نظر الشريعة . ومع ان عادة التدخين مكروهة، فانه لا يمكن اعتباره احدى الكبائر . ذلك لان التبغ لم يكن معروفاً الا بعد الشريعة بزمن طويل . ومنذ ذلك الحين اخذت رسوم التبغ تشكلّ أهم موارد الدولة الوهابية .

وكان هناك نقاط اخرى اخذ الوهابي الحنيف يتحدى بها الوضع الجديد . فقد كان سابقوه ينظرون الى السيارة شزراً باعتبار انها من اختراعات الكفار ، ان لم تكن من عمل الشيطان . هذا بالرغم من فوائدها الظاهرة . وحين اثبتت السيارة انها افضل من الجمل،كوسيلة من وسائل النقل التجاري،بوشر باستخدامها على نطاق واسع . وقد أحرقت علناً وفي السوق العام، أولُ سيارة دخلت مدينة الحوطة المتعصبة ، وكاد سائقها يلقي مصيرها ذاته .

اما فيما يتعلق بالطائرات ، وقد بدىء في استعمالها بعد ذلك بكثير ، فكان الوهابيون المستقيمو الرأي يعتبرون ركابها اناساً يطيرون متحدّين الههم. الا أنهم سرعان ما ادركوا الأمر على حقيقته . وحينئذٍ وجدوا فيها اسرع واسطة مناسبة للسفر من الرياض الى مكة ، وحتى الى سوريا ومصر .

ومن هذا القبيل نذكر ان أحدالفقهاء البارزين ألحّ على الحكومة المصرية بان

تعفيه من وضع صورته على جواز سفره وذلك عند اجراء الترتيبات الخاصة بزيارته للقاهرة جواً .

غيران جل اهتمام الوهابيين السلفيّين والذين سارعوا للترحيب بمليكهم لدى وصوله من المدينة المنورة ، كان بالتلفون .. هذه الآلة التي سمعوا عنها الكثيرممن زاروا مكة بعد الاحتلال . لقد كان الجواب على اعتراضهم أن دُعوا لتجربة هذه الآلة بانفسهم . وشدّ ما دَهشوا حين سمعوا صديقاً معروفاً لديهم يتلو بصوته آيات قرآنية كريمة .

ومن الغرابة بمكان ان يصدم هؤلاء الناس بفكرة استعمال التلفون للمكالمة عن بعد ، وهم الذين تعودوا طيلة حياتهم استعمال المنظار الاجنبي في رؤية الاشياء البعيدة .

اما الفونوغراف والسينما فبقيت ممنوعة . وكان استيرادها للبلاد غير مشروع. غير ان الزمن اخذ يخفف حدّة كثير من هذه الصعوبات ، فكثر عدد الصناديق (الجرامافونات) والكشافات (البرجكتور) التي يملكها الافراد . ومن الغريب ان يظهر الراديو فيطغى على الحجج التي سبق ان اخلت بها البدع الاخرى . اما ابن سعود الذي كان شديد الشوق لسماع آخر الاخبار من اقصى بلاد العالم فاصبح من اعظم انصار الراديو . وفي سنة ١٩٣١ اخذ يقيم شبكة محطات لاسلكية في البلاد لاعطائه اخر التطورات والاخبار مهما كان نوعها : فقد تكون سقوط المطر هنا ، او حادثة قتل هناك ، او موت رجل مشهور ، او حتى مولد حفيد له .

أما محبته في الرياض فلم تكن شديدة .. فاذا سمع بالانتقادات الصريحة تُوجّه الى البدع الموروثة من الحجاز والاجنبي المقيم فيها ، كانت مهارته تتجلى في مخاطبته الحضور بفصاحته ، التي لم تترك مجالاً للشك في ان سياسته ستلقى الموافقة عند المستمعين النواقين الى حديثه (فقد كان يخطب بفصاحة كلما دعت الضرورة الى ذلك) . وكانت النتيجة الرئيسية لزيارته للرياض ، أن طُلب اليه ، كما طُلب

الى ابيه من قبل ، أن يعلن نفسه ملكاً على نجد ، كي يرفع بلده الى نفس مستوى الحجاز المحتلة . فوافق على الطلب بلطف ، وعاد الى الحجاز مهللاً ، ليعلن نفسه ملكاً عليها وعلى نجد وتوابعها .

وتقدمت بريطانيا وعرضت على ابن سعود تسوية المشاكل البارزة ، وعيّنت مرة اخرى ، السير جلبرت كلايتون للقيام بالمفاوضات . وسارت المفاوضات رخيّة بهدوء . فوُقّعت معاهدة جدة في العشرين من أيار عام ١٩٢٧ .وتبودلت الوثائق المصدّقة في السابع عشر من ايلول . وقد ألغت هذه المعاهدة ، التي كتب لها ان تدوم سبع سنوات ، اتفاقية سنة ١٩٠٥ بكاملها . كما اعترفت بالاستقلال الكامل لبلاد الملِك ، الذي تعهد ان يسهّل الحج لرعايا الحكومة البريطانية المسلمين. ونصّت على احترام كافة المعاهدات المعقودة مع أمارات الخليج الفارسي وعلى التعاون مع بريطانيا في سبيل منع تجارة الرقيق .

كان هذا التطور مُرضياً لجميع الاطراف المعنيّة . غير انه ما كاد الطرفان يتبادلان الوثائق المصدّقة ، حتى وقعت حادثة عند الحدود العراقية القصيّة ، حادثة كان من نتيجتها ان تعكرت العلاقات بين البلدين لعدة سنوات قادمة .

لقد كان من النتائج العامة لمعاهدة المحمّرة المعقودة سنة ١٩٢١ مع بروتوكول العقير في السنة التالية ، ان قرنت تحديد الخط الفاصل بين العراق والدولة الوهابية بشرط ان لا تُقام حصون أو آية منشئات عسكرية في الاراضي المتاخمة للحدود. ومع ذلك ففي الوقت الذي كانت تدور فيه المفاوضات من أجل معاهدة جدة ، قام السير هنري دُبْس SirHenryDobbs المندوب السامي البريطاني فيالعراق، بالموافقة على اقامة سلسلة من الحصون على طول الحدود العراقية النجدية . فخرجت جماعة من العمال الى آبار بُسيّةBusaiya للمباشرة في بناء حصن بالقرب منها . وهناك ظهرت جماعة من قبيلة مطير في ذلك المكان ، فذبحت الذين كانوا يقومون بالمشروع . وكان ابن سعود قد اكد للقبائل النجدية ، وقت عقد

المعاهدات ، ان حقوقهم في الرعي على الجانبين من الحدود مكفولة تماماً . كما اعلمهم عن منع الطرفين المتعاقدين من اقامة أية أبنية على الحدود او بالقرب منها . ان البدو اخطأوا عندما أخلّوا بالقانون بهذا الشكل المريع . فقامت طائرات السلاح الجوي الملكي البريطاني بمطاردة القبيلة البدوية عبر الحدود والقت القنابل على تحشداتهم ومخيماتهم اينما وجدتها ، متجاوزة بذلك على حقوق الطرف الذي لحقه الاذى .

واشتعلت النار على الحدود .. وتشب القتال واستمر قرابة الشهرين . وكان قتالاً بالفعل لا بالاسم ، بين الدولتين الموقعتين على معاهدة صداقة مدتها سبع سنوات ، مع أنه قد صودق عليها منذ عهد قريب .

وقد ردّت القبائل النجدية على القصف الجوي البريطاني بالاغارة على الاراضي العراقية والكويتية : يقتلون وينهبون أثناء زحفهم .

وحين وُجِّهت الاسئلة في مجلس العموم البريطاني عن الاسباب التي دعت الى قصف الطائرات للاراضي السعودية ، ذلك القصف الذي لا مبرر له على الاطلاق ، كان رد وزير المستعمرات غير صحيح . لقد ادعى ان ابن سعود اعلن بانه لم يعد يسيطر على رعاياه . والواقع ان كل ما قاله ابن سعود لا يعدو أنه : اذا اصرت الحكومة البريطانية على اعتدائها على أرضه ، فإنه لن يكون مسؤولاً عن العواقب التي قد تترتب على ذلك .

وفي هذا الوقت عاد الملك الى الرياض ليكون على صلة قريبة بتطورات الوضع . وكان هو الذي اقترح على الحكومة البريطانية ايقاف جميع العمليات العسكرية على الجانبين ، وتحويل الامر الى مجلس استشاري .. فاُتفق على هذا الطلب . وعاد السير جلبرت كلايتون مرة اخرى فزار جدة للتشاور مع ابن سعود .

وصادف وصوله اخلال البريطانيين باتفاقية الهدنة وقيام بعض طائراتهم

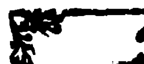
بغارة جوية على البدو النازلين عند آبار الهازل Hazil ، فاضطرت احـداها الى الهبوط و ُحرقت ، بعد أن أنقذت طائرةٌ اخرى ملاحيها .

وكان كلايتون مفوَّضاً البحثَ الشامل في جميع القضايا التي تمس عـلاقات المملكة العربية السعودية مع جارتيها : العراق والاردن . وكان يرافقه في هـذه المرة الكولونيل ك . كرانواليس والميجر ج . ب . جلـوب ، والسيد جورج انطونيوس . غير ان موسم الحج الذي كان قريباً لم يترك له وقتاً كافيـاً لاتمام مهمته .

وبعد ان اصبح الاتفاق على جميع القضايا المتعددة الصغيرة المختلف عليها سهلاً ، بان من الواضح ان تسوية النزاع حول حصن البُسَيّة Busaiya ، بشكل يرضي ابن سعود شرطٌ لا بد منه في اية اتفاقية . وبالنظر لعدم احراز اي تقدم في هذه النقطة في ذلك الحين ، اُتفق على تأجيل المحادثات الى ما بعد الحج ، ليتمكن كلايتون من العودة الى لندن واجراء مشاورات كافية مع حكومته .

وقد عاد كلايتون الى جدة في آب وعقد اجتماعاً فاشلاً مع الملك الذي رفض الموافقة على اية اتفاقية بهذا الشأن ، راداً بذلك على رفض الجانب البريطاني تدميرَ الحصون التي أقاموها بصورة مخلّة بالاتفاقيات المعقودة. فرجع كلايتون لى بلاده ليبلغ حكومته فشل مهمته . وعاد ابن سعود الى نجد في عدد مـن السيارات السريعة ليعالج هذا الوضع المستهجَن والباعث على اليأس .

لقد كان ابن سعود على اتم اتفاق مع رعاياه في التنديد بمسلك الحكومة البريطانية . اما رعاياه الذين زاد في استعار تعصّبهم ما وجّهه اليهم الكفارُ مـن الاهانات والاضرار ، فكانوا على استعداد للقتال حتى الموت . غير ان ابن سعود كان يعلم اكثر منهم، بان الدخول في حرب مع العراق في تلك الظروف معناه الكارثـة. ولقد قرر بالا تكون مثل هذه الحرب مهما كان الثمن. فقد كان يعلم ان الصحراء



تتمخض عن ثورة تتحدّى سياسة التسوية التي اتبعها مع الكفار ، ولتأكيد حقها في الدفاع عن عقيدتها ضد اعدائها . اما قادة هذة الحركة التي قام بها الاخوان فكانوا فيصل الدويش زعيم قبائل مطير ، وسلطان بن بجاد زعيم عتيبة ، وزعماء ارطاوية وغطغط على التوالي ، الذين كانوا يعتمدون على مساعدة قبائل العجمان وزعيمها ضيدان بن هذلين Dhaidan ، كما يعتمدون على الاخوان من قبائل رولة بزعامة فرحان بن مشهور .

ومن اجل ان يعالج القضية ، وفقاً لطريقة الشورى التقليدية ، عقد ابن سعود مؤتمراً في الرياض . ولم يحضره زعماء الثورة بانفسهم ، وان كانوا قد ارسلوا ابناءَهم أو أقرباءَهم ليمثّلوهم فيه . وبحثوا كثيراً من البدع التي كان الوهابيون يزدرونها وينظرون اليها شزراً. فساند الزعماءُ مليكَهم في جميع القضايا الرئيسية التي اثيرت في المؤتمر . ذلك انهم كانوا يدركون مسؤولياتهم نحو الله ونحوه . وقد عضدوه ودافعوا عن سياسته السلميَّة مع جميع جيرانه. وكان في مقدوره الآن ان يعمل وضميره مرتاح ، على أساس القرارات التي توصلوا اليهـــا بالطرق الديمقراطية الصحراوية في المؤتمر .

اما زعماء المعارضة فقد ثاروا الآن علانيةً على مليكهم ، فما كان منه الا ان حشد قواته لمواجهة تحديهم، وسارت العمليات الحربية سيرها المعتاد في الحروب البدوية الغير المنظمة ، فكان يتخللها مداولات بين الطرفين . ولقـــد استمرت مدة اربعة اشهر (ربيع عام ١٩٢٩) ، وكلفت خزانة الدولة اربعين ألفاً مـــن الجنيهات . أما زعماء الثورة فرفضوا طلب الملك اليهم الاستسلامَ دون قيـــد أو شرط كي يُحاكَموا أمام محكمة الشرع ، التي يمكن أن تدينهم بالخيانة العظمى وتصدر حكمها عليهم بالاعدام . وإن كانوا في هذه الحالة يستطيعون أن يطلبوا رأفة المليك الذي سيمنحهم إياها بكل تأكيد .

وربما كان هؤلاء الزعماء يدركون أنهم أمعنوا في ثورتهم الى درجـــة لا

يستطيعون معها المغامرة .. فاستمر القتال بكل قوة .وتمركزت القوات الثائرة في مراكز محصنة في سهل سبيلة Sibila بين زلفي وارطاوية Artawiya . وكانت الجيوش الملكية مقسمة الى عدة فرق،يقود كلا منها احد ابناء الملك او اشقاؤه. وكانت هذه الفرق تتقارب ببطىء وقوة ونظام . ولقد أصـدر ابن سعود أمره بالهجوم بعد ان رفض الثوار طلبـاً اخيراً للاستسلام . ولم يرد الثوار على النار بالمثل ، الا بعد ان اصبح الجيش على مقربة منهم فكانت النهاية السريعة الفاصلة. فقد كان الجيش الملكي يتفوق عددياً على الثوار في المعركة التي نشبت وجهاً لوجه، فقتل منهم المئات .

وكان ابن فيصل بين القتلى بينما نُقل فيصل الدويش نفسه الى ارطاوية مصاباً بجرح مميت . اما سلطان بن بجاد ففر من ميدان المعركة، الا أنه استسلم ولاقى حتفه بعد مدة قصيرة في زنزانته في احد سجون الرياض من شدة الوهن والضعف .

ودمر عبد الله شقيقُ الملك الاصغر،مدينة غطغط تدميراً تاماً تشهد به خرائبها حتى اليوم . وسار الملك الى أرطاوية ليطلب الى فيصل الدويش ان يستسلم ،بعد ان رفض الملك طلب نساء فيصـل ان يسمح له ان يمـوت بسلام . وجيء به امام الملك على نقّالة فنال عفو ابن سعود الذي خدمه فيصل طويلاً ، وبقوة ، في سبيل دين الله ثم خان في النهايـة . وكان بامكانـه اذ ذاك ان يعيش ويموت في سلام بين أهله .

وقعت معركة سبيلة في آذار عام ١٩٢٩ .

وبعد ذلك سارع ابن سعود في العودة الى الحجاز ليقوم بتأدية فريضة الحج مرة اخرى وهناك أخذ يهتم شخصياً بالقضايا الادارية العديدة.الا أنه قطع اقامته في مكة بسبب حدوث تطور غير متوقع . ذلك ان فيصل الدويش لم يمت ، بل انه ما كادت جراحه تلتئم حتى شرع يضع الخطة للهجوم على الحدود العراقيـة كرّة أخرى . ولما كانت قضية الحصون لم تُحل بعدُ ، مع ان ابن سعود اقترح بان

تحال الى التحكيم، فقد اضطرته اخبار نشاط فيصل الى ان يعود الى نجد . وهكذا انقلب ابن سعود الى الرياض في تموز في رتل من السيارات يبلغ عددها المائتين .

وكان في اثناء اقامته القصيرة في الحجاز قد تعاقد على شراء اربع طائرات من د . هـ ٩٠ بطياريها البريطانيين . وفي هذه الاثناء ايضاً تم تصميم مشروع اقامة شبكة من المحطات اللاسلكية لربط المراكز الرئيسية في بلاده الواسعة القليلة السكان بمركز قيادته حيثما كانت . الا ان العقد الخاص بهذا المشروع لم يتحقق فعلاً الا سنة ١٩٣٠ ، اذ اوكل امر إنجازه الى شركة ماركوني . اما الطائرات فقد كانت تصل في اوقاتها المعيّنة الى ساحل الاحساء قبل نهاية عام ١٩٢٩، مع ان الحاجة لم تكن ماسة لها لاستخدامها ضد الثوار .

وفي الوقت الذي وصل فيه الملك الى عاصمته ، انتقل ثقل الثورة الى الاحساء حيث قامت عشيرة العجمان بازعاج حاكمها عبد الله بن جلوي ، بينما كان فيصل الدويش يقوم بحشد عشائره للقيام بهجوم على الحدود العراقية . بيدَ ان فهداً ابن الحاكم أخذ يراقب قبيلة العجمان مراقبة تامة ، وكان لديه قوة صغيرة يستخدمها في منع الغارات على الكويت او الحدود العراقية .

وقام زعيم العجمان ، ضيدان بن هذلين بزيارة لفهد ليؤكد له حسن نواياه ، فاعتقله فهد بصورة موقتة، على سبيل الاحتياط ، وارسل في الوقت نفسه رسولاً يبلغ جماعته بان كل شيء على ما يرام . وكان من سوء الحظ ان ضلّ الرسول الطريق . وحينئذ ساور رجال القبائل الشكُّ في تأخر زعيمهم ، لذا ساروا الى معسكر فهد للوقوف على جليّة الامر . وارتاع فهد لدى رؤيته القوات الزاحفة عليه فقتل ضيفه في الحال. وكان من نتائج هذا العمل البالغ الحمق ، ان أسخط فهدٌ العناصر الموالية له في القبيلة التي كانت في خدمته، فما كان منها الا ان انضمت الى عشيرتها ، واطلقوا النار على المعسكر ، فقُتل فهد برصاصة طائشة . وهكذا حلّت النقمة على مرتكب الجريمة .

كان بالامكان في الاحوال العادية اسدال الستار على هـــذه الحادثة . الا ان طباع الصحراء اهتاجت وأثيرت بمعركة سبيلة. فلم يجد نايف بن هذلـــين ، ابنُ المقتول وخليفتُه ، صغوبة في اقناع عشيرتـــه بان يربطوا مصيرهم بمصير فيصل الدويش في المرحلة الثانية من ثورته. اما عبد الله بن جلوي فقد تأثر بالغ الاثر لمقتل ابنه البكر ، فاضطر ابنُ سعود لان يرسل ابنه ووريثه الاميرَ سعوداً ليتسلم زمام السلطة الموقتة في الاقليم ، بصفته قائد الحملة التأديبية المرسلة لمعاقبة العجمان .

وأخذ المتحالفون الثائرون يغيرون على حـــدود العراق والكويت . وكان يساعـــدهم في ذلك ويشجعهم عليه أفرادُ العناصر المستاءة من ابن سعود ، تلك العناصر التي كانت تتطلع بلهفة الى ازعاجه باي شكل من الاشكال .

اما ابن سعود فـلم يواجه ابداً ثورة منظمة مثل تلك التي واجهها في اوائل السنة . فمـــع ان عمليات الثوار لم تستهدف بـــلاده ولا رعاياه ، الا انه كان مضطراً بصورة دائمة لان يراقب حركاتهم ويتوقع هجومهم على جيرانه، بل على اعدائه في الواقع . غير انه كان رجل الساعة .. فقـــد جعل يضيِّق الخناقَ على الصحراء ويكيل الضربات القاصمة لكل من يلقاه في طريقه .

وكان اعظمُ هذه العمليات اشتباكَه مع عبد العزيز ابن فيصل الدويش البكر وجيشه المغير المؤلف من سبعمائة رجل، وكانوا عائدين بما غنموه من معسكر بدوي اغاروا عليه بالقرب من آبار هازِل : فقُتل عبد العزيز نفسُه ، وكل جماعته في كمين بارع نصبه لهم ابن سعود . اما فيصل الذي فقد ولدين من اولاده فقد تأثر كثيراً ،غير انه لم يساوره التردد في المضيّ في ثورته اليائسة. فنشبت معركة شديدة عند آبار َوفره ، انكسر فيها فيصل وجيشه المؤلف من قبائل مطير والعجمان شر كسرة ، وفر الى الحدود ، مصمماً ان يلجأ الى الكفار ولا ينحني لابن سعود .

وعند ذلك سار الملك بنفسه الى الميدان للحيلولة دون هذه النتيجة . وطلب الى السلطات البريطانية ان لا تمنح حق اللجوء للثوار، الذين كانوا يحصلون على الذخائر من

الكويت لمتابعة حركتهم . وكان التعهد بعدم تلبية طلبهم في طريقة اليه. . واصبح مركز الدويش واصدقائه يائساً . فهاجم ابن سعود آخر حشودهم في شعيب العوجا بالقرب من رِ رَقي Riqai في وادي الباطن حيث تلتقي حدود نجـد والعراق والكويت .

ومرة اخرى هزمهم هزيمـة نكراء . الا ان البريطانيين اخلوا بالتعهد السابق الذكر . ففر فيصل الدويش ونايف بن هذلين ، وابن لامي زعيم مطـير ، وابن مشهور زعيم رولى الى العراق حيث جردوا من سلاحهم واعتقلوا من قبل السلطات البريطانية الى ان يُبحث مصيرهم . وكان ذلك نتيجةً للاحتجاج الشديد الذي قدمه ابن سعود بشأن تسليمهم .

ولم يكن في نية الملك فيصل ، ملك العراق تسليم اللاجئين الذين كان لهم حق الضيافة والحماية وفقاً للتقاليد العربية . الا ان السلطات البريطانية كانت في مأزق حرج من جرّاء اخلالها بالعهد الذي قطعته لابن سعود . وكان الوضع فيما يبدو خطيراً لبضعة اسابيع . الا انه تم الاتفاق في النهاية . وكان يقضي بتسليم زعماء الثورة انفسهم الى ابن سعود على ان لا يُنزل بهم عقاباً شديـداً على خيـانتهم العظمى . ولذا نقل فيصل الدويش ورفاقه في الطائرة الى صحراء دِبدبة ليُسلموا الى ملكهم ، فزجّ بهم في سجن الرياض حيث توفي فيصل بعـد بضعة أشهر .

وفي نهاية كانون الثاني سنة ١٩٣٠ انتهى الاضطراب .

وقد احتُفل بهذه المناسبة بعقد اجتماع بين الملكين اللذين كانا على وشك ان يعلنا الحرب . ولقـد اجتمع ابن سعود وفيصل لأول مرة في حياتهما على ظهر مركب صغير في ميـاه الخليج الفارسي الحيادية ، ضيفـين على السير فرانسيس همفريز المندوب السامي في العراق : وكان هذا قد خلَف، قبل مـدة وجيزة ، السير جلبرت كلايتون في هذا المنصب بعد موت كلايتون الفجائي بعد ان خلف السير هنري دبز Henry Dobbs ببضعة اشهر في بغداد .

لقد كان من نتائج ثورة الدويش الغير المباشرة ، ان تصالحت الاسرتان المتنافستان في الجزيرة العربية ، ولو في الظاهر فقط . ومنذ ذلك الحين احترم كل من رئيسيهما بلاد الآخر ، وتوصلا الى تسوية جميع حوادث الحدود بالمفاوضات بدلاً من فضّ منازعاتهما بالسلاح .

ولكن من العبث ان نفترض أن قادة الاشراف في ذلك العصر، كانوا راضين عن خسارة مواطنهم في مكة . فبعد وفاة الملك فيصل ، ملك العراق ، اخذ ملك الاردن فيما بعد، على عاتقه الدفاعَ عن حق أسرته. وكان من نتائج موت الملك عبد الله الذي اغتيل عام ١٩٥١ ان زالت آخر عقبة في سبيل تأسيس العلاقات العادية بين البلدان المعنيّة .

اما في الحجاز فقد نشأ جيل لم يكن يعرف شيئاً عن ُيوسف (١) عائلة الاشراف المغترب ، وكان هذا الجيل مشغولاً بالاستفادة من بحبوحة الثراء السعودي فلم يعد يفكر في السنوات العجاف التي عرفها اباؤهم .

لقد اوجدت المحادثات الودية ذات الطابع الرسمي التي جرت بين الملكين على ظهر سفينة صاحب الجلالة ، واسمها لوبن Lupin ، الاساسَ لمعاهدة صداقة وحسن جوار بين بلديهما . ووقعها بالاحرف الاولى ممثلو الملكين في العاشر من آذار سنة ١٩٣٠. وفي هذه السنة عاد ابن سعود الى الحجاز ليؤدي فريضة الحج. وبعد ذلك التاريخ كان حراً في ان يكرس وقته وجهده للمشاكل المحلية والدولية التي تركها جانباً ، يوم كان يقوم بمعالجة القضية الضرورية الملحة ، الا وهي قضية الامن الداخلي . لقد أخذ على عاتقه مهمة اخضاع شعبه . . هذه القضية التي كانت كريهة الى نفسه . ومع ذلك فقد كان اسلوبه في معالجتها مؤيّداً لما كان ابن سعود معروفاً به من دهاء صحراوي وطول باع في السياسة .

---

* اشارة الى اغتراب النبي يوسف في مصر .. كما في « سورة يوسف » ـ القرآن الكريم

كان قد قضى ثلاثين عاماً في الميدان ، يقارع أعداءه الذين تمكن من اخضاعهم الواحد تلو الآخر . والآن هو في ذروة النصر . ومن الغريب انه اضطر الى ان يخوض آخر معاركه ضد أصدقائه.. ولغرض واحد فقط: وهو ان يبيّن لهؤلاء الاصدقاء والعالم جميعه ، انه كان سيداً على بيته، وهو مصمم على ان يظل السيد المطاع فيه . ولم يذهب بعد ذلك الى الميدان بنفسه ، لا لعدم الحاجة الى معارك، (فهذه يمكن تركها للجيل الصاعد الذي تمرس في العمليات العسكرية في العشر سنوات الماضية) بل لأن انتصارات السلام أخذت تشير اليه من عالم جديد غير مألوف لديه .

لقد كانت معركة سبيلة نهاية عهد أو حقبة من الزمن . فالعربية السعودية (لم يطلق عليها هذا الاسم الا عام ١٩٣٤) قد وصلت الى شكل من الاستقرار النهائي نتيجة للحروب المستمرة ضد المشركين. ومن ثم اصبح المشركون الآن حلفاء لهم قيمتهم في قضايا التطور العامة . لقد كان قتل المشركين والكفار في سبيل الله من قبل ، يعتبر فضيلةً سامية . الا ان فيصل الدويش لقّن في معركة سبيله أنّ عليه ألا يمارس هذه الفضيلة دون موافقة السلطة العليا . ولذا أصبحت ممارستها ممنوعة منعاً باتاً . لقد انتُزعت الشوكة من حركة الاخوان، الذين لعبوا دوراً بارزاً في خلق النظام الجديد ، ولم يعد بامكانهم تأدية أية خدمة نافعة أخرى . لقد أخذ الناس يتناسون هذه الحركة شيئاً فشيئاً حتى هوت أخيراً في مجاهل النسيان التام . أما هذه التحوّلات فقد جبلت تلك العناصر الغير المتجانسة في الدولة الوهابيّة وحولتها الى مجتمع يستند على الدين الاسلامي والحضارة الاسلامية ، الا ان هذا المجتمع كان أقل ادراكاً من ذي قبل، لاهتمام الله العلي القدير بأعمال مخلوقاته اليومية . لقد كان خلق ابن سعود لحركة الاخوان في سنة ١٩١٢ ضربة معلم عبقري ، لا يوازيها غير تصفيته لهذه الحركة بعد ثمانية عشر عاماً ، حينما ثبت لديه انها لم تعد الا عقبةً كأداء في سبيل استقرار الاوضاع التي بناها

بطول صبره وجهده . فقد كان يمكن لهذه الحركة التي اوجدها ابن سعود من العدم ، أن تدمره وتهلكه ، لو لم يبادر هو الى تدميرها بنفسه .

* * *

وفي عام ١٩٢٩ كانت الحكومة الروسية مرة اخرى في الميدان .. فرفعت تمثيلها السياسي في جدة من قنصلية عامة الى درجة مفوضية . وكان كريم خان خاكموف المعروف، اول سفير لها . فتبعتها الحكومة البريطانية بعد ذلك بمدة وجيزة ، بالرغم من التوتر الذي كان يسود الحدود العراقية . وكان السير اندرو ريان Andrew Ryan اول سفير لها. ووصل في الوقت المناسب الى جدة لاستلام منصبه في اوائل شهر ايار .

كان ابن سعود يزداد سروره للمركز الذي اخذ يحظى به في المجالات الدولية كلما ازداد عدد الممثلين السياسيين ، وكلما ازدادت اهميتهم في جدة ، المدينه التي حُددت لاقامة جميع ممثلي الدول الاجنبية . غير ان شعور الملك بمسؤولية تسيير دفة علاقاته مع الدول الاجنبية بالاضافة الى كره طبيعي في نفسه لقضاء اكثر من الوقت اللازم في جدة ، جعلت مركز الممثلين الاجانب صعباً بعض الشيء .

وقد كان هنالك شيء من الحق في قول السير اندرو ريان، على سبيل النكتة: إن جميع الدول الكبرى ممثلة في جدة الا العربية السعودية ! غير انه كان يتم اتخاذ الترتيبات الضرورية من حين لآخر ، للاتصال بالمبعوثين الاجانب عند وجود قضايا هامة تستوجب البحث . هذا على الرغم من انه لم يتم تأسيس ما يشبه وزارة الخارجية في جدة الا بعد مرور عدة سنوات. فعُيّن آنذاك موظف دائم للاشراف على القضايا السياسية الروتينية . وكان الامير فيصل يقوم بزيارة جدة بصفته وزيراً للخارجية مراراً عديدة ليقوم بتصريف الشؤون الهامة نيابةً عن والده . اما والده فقد كان يحضر في كل مناسبة يزور فيها الميناء . وهكذا نجد انه في السنوات الاولى وقع عبىء الاتصالات السياسية على عاتقي عبد الله الدملوجي وفؤاد حمزة .

وكان من سوء حظ ابن سعود ان الانتهاء من تغيير أسس حكومته تم في بداية سنوات الجفاف التي خلقت تدهوراً اقتصادياً شعرت به الجزيرة العربية، على شكل تناقص مريع في عدد الحجاج من وراء البحار. فمنذ احتلال الحجاز، كان حضور الحجاج مرضياً. وقد سجل في احدى المرات رقماً قياسياً. وكان في ذلك كسب للحكومة. كانت واردات الماضي الضئيلة قد تضخمت فاصبحت ملايين. ولم تكن هذه الملايين، مع ذلك، كبيرة بالنسبة لحاجات الدولة. اما الآن فقد توقف فيض الذهب.. هذا بالاضافة الى توقع سنوات طويلة من الجفاف دون وجود اي احتياطي من سنوات الخير يكفي لمواجهة مصاريف الدولة التي زادت كثيراً عن حاجات البلاد، ولم يكن من السهل انقاصها. لقد كانت العملية تدريجية ولكن بشكل متراكم. اما عبد الله سليمان وزير المالية، الذي شغل هذا المنصب زهاء ربع قرن، فقد استخدم جميع مواهبه ومهارته في الابقاء على مستوى المصروفات العالي الذي بلغه في السابق، مع ان موارد البلاد الآن نقصت كثيراً.

اما كيف استطاع ان يحصل على الكيل من نصف الكيل، فاعجوبة وسر نجده في عالم الخيال لا في التاريخ الجدّي.

لقد وقع جزء من هذا العبء على عاتق موظفي الحكومة ذوي الرواتب القليلة، إذ اسهموا في قرض اجباري يُضاف الى مبلغ شهري كبير. ومرت فترة من الزمن تأخرت فيها رواتب هؤلاء الموظفين فلم تدفع لهم مدة ثمانية اشهر، خصوصاً في الاقاليم البعيدة، حيث اضطر الموظفون الى ان يُشركوا التجار في مصيبتهم. اذ كانوا يبتاعون منهم ضروريات الحياة على الحساب، واعدين اياهم أن يدفعوا لهم عند تناول رواتبهم. وهكذا امتدت موجة الضيق الاقتصادي واتسعت دائرته حتى شملت البلاد كلها. وبالطبع لم يكن الضغط على الفقراء اعظم المزايا الادارية المالية سحراً!

واتجهت الانظار الى الاغنياء كمساهمين اقوياء في تأمين حاجات الدولة. إذ

كانت جميع ديون الحكومة الناتجة عن العقود والمشتريات تمثل ربحاً وفيراً لحسابهم. فتأجل دفع هذه الديون وتوقف حتى وصلت الى الحد الاقصى. ولم يكن بد من اعلان تأجيل الديون كي يتسنى للحكومة ابتياع الحاجات الضرورية بما لديها من مال، دون اللجوء الكريه الى انقاص ميزان المصروفات. ولا بد من القول بان الترتيبات التي وضعت بموجب تأجيل الديون وتصفيتها ودفع خمسة بالمائة لاكثر من بضع سنوات قد احترمتها الحكومة ودُفعت في حينها.

كل هذه التطورات التي أوضحناها بايجاز في الفقرة السابقة طالت وامتدت عدة سنوات، اي من سنة ١٩٣٠ وما بعدها.

وبعد ان انتهى ابن سعود من الحج في شهر ايار، نقل مركزه من مكة الى الطائف لقضاء فصل الصيف. وهناك تمكن لاول مرة منذ تسنمه عرش الحجاز من أن يكرس نفسه للتفكير في حل جميع المشاكل المحلية والاجنبية التي تراكمت اثناء غيابه. وكان يقضي بعض الوقت في الاستجمام في صحراء رغبة، حيث ينصب خيامه لعدة ايام، وينطلق من مخيّمه في السيارات السريعة لمطاردة الغزلان وصيدها في السهول. وكان معدل ما يصطاده منها يتراوح بين مائتي رأس وثلاثماية كل يوم. وهذه كارثة لثروة البلاد الحيوانية! والغريب أنه من ذلك العهد حتى الآن، لم تبدِ الحكومة السعودية اي شعور بالمسؤولية للمحافظة على حيوانات البلاد البرية. فلم تسنّ تشريعات تنظّم الصيد في مدى ربع القرن الماضي. وكذلك الامر فيما يتعلق بسنّ قوانين خاصة بالمحافظة على الاماكن الاثرية، مع ان هذه المواقع منتشرة في طول البلاد وعرضها، فيما عدا الامتياز الذي مُنح سنة ١٩٥١ (بإذن خاص من الملك) لبعثة لوفان الأثرية التي يرأسها البرفسور ج. ركمانز G.Riekmans، والتي تضم عدداً قليلاً من الخبراء البلجيكيين. ويبدو ان دراسة الماضي الذي أدى الى قيام العربية السعودية كانت تعتبر غير جديرة بالاهتمام في أعين شعب عملي يتطلع الى المستقبل. اما الفضل في معلوماتنا

عن ماضي الجزيرة العربيـــة السحيق فيعود الى البعثات الخاصة التي كانت تهدف الى هذه وغيرها من الغايات .

وقد تكررت اقامة الملك في الطائف اربع مرات . والحق ، أنها اسهمت في ارساء القواعد التي ستقوم عليها المملكـــة في المستقبل . اذ كان اهتمامه آنذاك منصرفاً الى تحسين المواصلات في بلاده .

وفي نهاية السنة وُقعت اتفاقية مع شركة ماركوني، لاقامة محطة لاسلكية في مكة والرياض ، قوتها خمسة كيلوواط ، هذا بالاضافة الى محطات تقام في عواصم الاقاليم قوتها نصف كيلوواط . واخيراً أربعة اجهزة متنقلة مع الملك وحاشيته في اثناء سفرهم بقوة نصف كيلوواط .ولم يأتِ عام ١٩٣٢ حتى كانت هذه الشبكة اللاسلكية العظيمة قد ظهرت الى الوجود .

ولا مجال للشك في الدور العظيم الهام الذي لعبته هذه الشبكة في سيطرة الملك على شؤون البلاد وادارتها وتوجيهها .. لقد امتدت كثيراً وتطورت منـــذ تلك الايام.حتى أن العربية السعودية اليوم يمكن مقارنتها من حيث التطور اللاسلكي مع اي من جاراتها في الشرق الاوسط،انلم أقلْ مع كثير من الدول الاوروبية نفسها . فلقد استمتع الملك منذ زمن طويل باستعمال تلفون لاسلكي عبر مسافات طويلة . وقد وقعت اتفاقية منذ عهد قريب مع شركة المانية تعهدت بإنشاء شبكة من هذه التلفونات اللاسلكية تربط المراكز المهمة في البلاد باقصى انحاء الارض . وقد كان هنالك محطة اذاعة تعمل منذ عدة سنوات في جدة.. وكانت تربط مكة واماكن الحج الرئيسية مع محطـــات الأرسال . وهناك تفكير في مشروع اضخم لتوسيع نطاق العمل الى أن يشمل جميع البلدان الاسلامية .

وفي العربية السعودية كذلك عـــدد من الامراء والاعضاء الآخرين يعملون كهُواةٍ في حقل اللاسلكي.أما مسألة تحسين الخطوط التلفونية والبرقية في المناطق التي يُناسب استعمالها فيهـــا،واقتراح ادخال الخدمات التلفونية الاتوماتيكيـــة

وتعميمها ، فيعود الفضل فيها الى الأهمية التي يعلقونها في الجزيرة العربية على وسائل المواصلات الحديثة وفوائدها. وهنالك فرق شاسع جداً نسبياً بين أيامنا الحاضرة وبين الزمن الماضي الذي كان يعتبر رفع الصوت البشري مكيدةً شيطانية يُقصد منها إلى افساد عقيدة البشر وازعاجهم واقلاق راحتهم .

اما في الحقل الطبي ، الذي ذكرنا أثرهُ عند الكلام على خدمات الحجاج ، فقد كان لاهتمام الملك الشخصي ولتشجيعه نتائج لا يكاد يُتَصوَّر تحقيقها بين الوهابيين : اؤلئك الذين ورثوا النظام الصحي الذي اوجده الاتراك، ثم حسّنوه خلال القرون الماضية في كفاحهم العديم الفائدة ضد المرض وسوء التنفيذ. ولقد كان ابن سعود يفاخر دائماً بميله الغريزي للطب وما شابهه من العلوم ، هذا الميل الذي ورثه عن ابيه الذي كانت معلوماته في امراض العرب وعلاجها واسعةً جداً ، والتي ورثها بدوره ، حسب قول الناس ،عن مقدرة جده تركي بن عبد الله الفائقة في هذا المجال . لكن التقاليد الشائعة في الطب المحلي ، لم تحمل ابن سعود على ان يقاوم الاساليب الطبية الاوروبية، وان كان بعضُ الوقت قد انقضى قبل ان يدرك الناس هناك ان الطب يلائم المرأة ايضاً .

ومع الزمن تحطمت الحواجز الاجتماعية التي عزلت المرأة وحجبتها ليتمكن الاطباء الذكور من معالجة الاسرة الملكية والعائلات الاخرى التي استفادت كثيراً من تشخيص الاخصائيين وطرق معالجتهم . ولم يكن هذا مقصوراً على الاطباء العرب فقط ، بل شمل الاخصائيين الاوروبيين وطبيبات البلاد الاخرى ايضاً . أما هيئة أطباء الدولة فقد نمت وكبرت منذ اوائل حكم ابن سعود. وكانت تضم عدداً من السعوديين والاوربيين ، غير ان الميل في الايام الاخيرة اخذ يتجه نحو استخدام الاطباء الألمان . وكانت النتائج مرضية .

اما المستشفيات القديمة القليلة العدد ، والتي كانت فيها معالجة المرض سيئة للغاية، فقد اصبحت الآن مستشفيات حديثة لقد زودتها الحكومة وبعض الافراد

باجهزة طبية حديثة ، وبالاكفاء من الاطباء والممرضين والممرضات. وكان بعضها يتميز بطابع الاختصاص ، وهي ممتازة لاتكاد تقل عن مثيلاتها في البلدان الغربية. وقبل بضع سنوات كانت الرياض تفخر بحيازتها افضل جهاز لأشعة اكس في الشرق الاوسط ، مع ان هذه التجهيزات الطبية اصبحت واسعة الانتشار الآن .

ولقد كانت البلاد السعودية منجماً حقيقياً من الذهب بالنسبة لمهنة الطب . ومع ذلك ، ورغما عن عزم الملك على تعميم الخدمات الصحية في كل انحاء الدولة حتى مضارب البدو ومخيماتهم ، فإنه من المؤسف حقاً ان نجد ان هذا المشروع جاء مخيباً للامل . ويعود السبب في ذلك الى إحجام الاطباء عن العمل في المناطق الريفية ، وتفضيلهم العمل في المدن الكبيرة ، حيث فرص العمل الذهبية للاطباء الخصوصيين ، وحيث يتوفر الوسط الاجتماعي الراقي لهم ولعائلاتهم . وكان من ذلك ان ازداد ضغط طالبي العلاج القادمين من الاقاليم على المراكز الطبية في المدن،وخاصة ان سيارات النقل متوفرة. كما كان لتوفر المعالجة الطبية في المدن أثره في اغراء البدو الرحل والعناصر الاخرى ، ودفعهم الى الاقامة في المناطق الحضرية او ضواحيها .

ان الزيادة الهائلة في سكان المدن خلال الثلاثين سنة الماضية ، والتي تعود في اكثرها الى الشعور بالامن والاستقرار ، كانت من ابرز مزايا حكم ابن سعود . فقد ازداد عدد سكان كل من الرياض وجدة ، اربعة اضعاف على الاقل ، فاصبح بين المائة الف والمائة وخمسين الف نسمة. اما سكان الطائف البالغ عددهم خمسة الآف في السابق ، فقد تضاعف عشر مرات . واما سكان المدينة المنورة الذين نقص عددهم من ثمانين الف ، زمن الاتراك ، الى عشرين الف نتيجة للدمار الناتج عن الحرب العالمية الاولى ، فقد عوّضوا النقص، حتى بدون اعادة وسائل النقل الحديدية. والهفوف ضاعفت عدد سكانها الثلاثين الفا مرتين . واصبحت موانىء خُبر Khubar والدمام مدناً كبيرة بعد ان كانت قرى صغيرة لصيد الاسماك . وذلك بسبب مجاورتها للظهران ، المدينة الصناعية التي لم يكن

يسكنها اي مخلوق . اما مكة التي كان عدد سكانها في الماضي يبلغ مائة الف فلا بد انهم ازدادوا بنسبة خمسين بالمائة على الأقل . ولا بد ان نذكر بان جزءاً كبيراً من الزيادة في عدد السكان قد جاء من بلاد اخرى خارج الحدود السعودية ، مثل مصر وشرق البحر الابيض المتوسط ، ومن حضرموت واليمن . ولم يُعرَف ان المملكة السعودية حاولت احصاء عدد سكانها ، الا ان التقدير المعقول لعدد السكان ، هو ستة ملايين تقريباً .

وكانت المشكلة الخطيرة الاخرى الناتجة عن ازدياد سكان المناطق الحضرية هي تزويدهم بالماء . لقد كانت جدة بسكانها البالغ عددهم الثلاثين الفاً تعتمد على جهاز لتقطير ماء البحر ، ذي طاقة غير كافية ، يشتغل بتكاليف باهظة . كما كانت تعتمد على عدد من الآبار التي تم حفرها لتخزين مياه السيول المنحدرة عبر السهل الساحلي من سفوح التلال . هذا بالاضافة الى بعض الآبار الآسنة المالحة المياه التي كانت الطبقات الفقيرة تستقي منها . اما مكة فقد كانت تستقي منذ زمن طويل من ساقية عين زبيدة ، كما تستقي المدينة المنورة من عين الزرقا . وكانتا كذلك تستقيان من آبار عدة لتزويد مواطنيها وزوارهما بما يحتاجون اليه من الماء .

وكانت موارد المياه تعجز في جميع هذه المناطق عند ازدياد عدد الحجاج . وكان هم الملك العظيم ان يزود السكان والحجاج بمزيد من المياه بقدر المستطاع . في مثل هذه الظروف عُقدت اتفاقية لتزويد مدينة جدة بآلة تقطير جديدة اكبر بكثير من الآلة القديمة . بينما بدأ المختصون يتتبعون مجرى عين زبيدة حتى وصلوا الى سفح الجبل . . فازيلت المواد التي كانت تسد المجرى ، وكانت النتيجة مرضية للمستقبل القريب . وقد اتخذت الخطوات المماثلة في المدينة المنورة حيث انتشر استعمال المضخات القديمة لري الاراضي الزراعيّة . وقد شجع الملك نفسه والامراء السعوديون استعمال هذه المضخات في الرياض والاراضي الزراعية الواسعة وبدأوا هم انفسهم باستعمالها .

هكذا أعد المسرح للتطورات الفعّالة بعد ان عولجت المشكلة جزئياً بشكل

اختباري، فربطت مكة بينبوع عين جديدة غزيرة المياه، بفضل خط من الانابيب من مدخل وادي فاطمة . بينما أقيمت مشاريع مماثلة ، ولا تزال تقام باستمرار ، لتفي بحاجات السكان والحجاج المتزايدة . وبعد الفيضان العظيم الذي حدث في تموز سنة ١٩٥٠ عام يوبيل الملك الذهبي، أتخذت الاجراءات لانقاذ المدينـــة من مثل هذه الكوارث في المستقبل (فقـــد وصلت مياه الفيضان الى الحرم واصبح ارتفاع المياه سبعة اقـــدام حول الكعبة)، فبني سد في وادي ابراهـــيم ، المصدر الرئيسي لمثل هذه الاخطار ، كما بني سد آخر في وادي الزاهر الذي كانت مياه فيضانه تهدد ضاحية الشهداء، والطريق الرئيسي لجدة . ولقد أنجزت هذه الاعمال قبل نهاية سنة ١٩٥٢ .

وعندما هبت العاصفة العظيمة في السنة التاليـــة ، في شهر تشرين الثاني ، لم تسبب أية اضرار على الاطلاق في منطقة العاصمـــة . وفي عام ١٩٤٧ جمعت مياه مجموعة من الينابيـــع ، بالقرب من أبي اروى ، في اواسط وادي فاطمـــة ، ومدّ خط انابيب ذات قطر كبير طوله اربعين ميلاً لنقل كمية وافرة من المياه الى جدة . غير ان اتساع المدينة المستمر واستعمال المياه في ري البساتين، اوضح بجلاء ان لابد من زيادة كمية المياه التي كانت تعتبر اكثر من كافية آنذاك . فتم، منذ عهد قريب ، مدّ خط آخر من الانابيب .

اما في الرياض ، التي لم تصل فيها مشكلة المياه الى درجة الخطورة الا عنـــد استمرار الجفاف سنوات عديـــدة ، فازداد استعمال المضخات الميكانيكيـــة ، والمضخات الكهربائية التي كانت تعمل طوال الاربع والعشرين ساعة في اليوم . وكانت النتيجة ان هبط مستوى المياه الجوفيّة التي جعلت من الواحة اغنى واحة في الجزيرة العربية في الايام السالفة . فعمد المسؤولون الى جلب كميات اخرى من المياه الى المدينة بواسطة انابيب تنقلها من منابع اخرى في وادي حنيفة شمال ، وجنوب العاصمة . بينما استخدموا عدداً من الصهاريج، سعتها خمسة الآف جالون

لنقل المياه من عدة آبار قريبة ، لتفي بحاجات السكان وحاجة بساتينهم . وهناك في الواقع مياه وافرة في الجزيرة العربية ، الا انه لا تزال هنالك مسألة تستوجب البحث على ضوء الاختبارات : وهي مسألة ما اذا كانت موارد المياه المائيه تستطيع ان تصمد في وجه الافراط في استعمال الماء في الوقت الحاضر .

كانت المواصلات والامور الصحية والمياه ، المشاكل الرئيسية المهمة التي واجهت ابن سعود خلال سنوات السلم الحقيقي في الطائف. ولكن ، كان واضحاً منذ البداية ان هذه جميعها تشكل عاملاً حيوياً بالنسبة لحكومة ترغب ، مخلصةً ، في تأمين رفاهية رعيّتها ، وراحة الوافدين اليها من الحجاج من فجاج الارض . وكانت جميع هذه المشاريع باهظة النفقات . وقد اتضح من سجلات مكاتب الحج ، ومن البلدان الزراعية الفقيرة على الخصوص ، مثل جاوه والملايو والهند، ان الأمل ضئيل في الحصول على المبالغ الضرورية الكافية . وكان هذا تحدياً لشخص خبر في حياته تقلب الزمن والاقدار. .فلم تكن هذه اول مرة يحتاج فيها الى المال. .لم يعد بامكانه الاستيلاء على خزائن اعدائه كما كان يفعل في السابق ،كلما اقتضت الحاجة . الآن لم يبق له اعداء ينهبهم ، فيما عدا جهة واحدة ، كان متردداً في الاتجاه اليها . . كانت اليمن هي البلد الوحيد المستقل في الجزيرة العربية بالرغم من اهتمام الايطاليين بمستقبلها الاقتصادي ، وبالرغم من قلق البريطانيين الغامض عليها خشية ان تدعي محمية عدن للاتحاد مع الدولة السعودية القوية. وكانت جميع البلدان الواقعة خارج الحدود الوهابية آمنة وراء حدود قوية لايمكن اختراقها، بسبب وقوعها تحت الحماية البريطانية . اما الحدود بين اليمن ومملكة ابن سعود فقد كانت غامضة وغير مخططة . وكان كلٌ من الجانبين يدعي ملكية واحة نجران ويطالب بها . ولكن ، دون ان يعمد اي منهما الى احتلالها ، أو الاستحواذ على امارة اشراف « ابو عريش » في جنوب عسير ، فعلياً . ولم يكن ابن سعود هو الذي طلب تحديد المنطقة الحيادية. فقد كان راضياً عن ان تظل تتمتع باستقلالها الفعلي الغير المشروع، كما كان الحال بالنسبة للقسم

الشمالي من واحة تياء التي كانت ضمن حدوده حقاً ، الا انها تركت في استقلالها الشاذ ، تحت حكم اسرة ابن رمان ، الى ان اضطر ابن سعود لاستلام زمام السلطة فيها عند استفحال الطغيان فيها، واغتيال آخر امرائها عام ١٩٥٠ .

وكان الامام يحيى هو الذي سعى الى تسوية المشاكل القائمة بينه وبين الملك الوهابي حين دفع بجيوشه الى المناطق التي كان يدعي ملكيتها بمساعدة عناصر في كلا المنطقتين ، كانت تفضل السلطة الزيدية الضعيفة على التقرب من الملك السعودي القوي . تماماً كما كانت الحال بالنسبة للنزاع حول ملكية واحة خُرمة ، عندما بدأ الملك حسين واخذ زمام المبادرة في اجراء عسكري وفقاً لسياسة الامر الواقع .

ووقع الصدام الذي كان لابد منه بين حرس الحدود عند قرية تسمى عرو Aru ١٩٣١ . ولم يكن من السهل معرفة الجانب المعتدي، بسبب عدم وجود خرائط يُعتمد عليها ، الا انه اتضح بعد فترة وجيزة ان اللوم يقع على القائد الوهابي الذي اعتدى سهواً على الاراضي اليمنية .

امـا في شتاء سنة ١٩٣١ ـ ١٩٣٢ فقد وقعت حادثة اكثر خطورة . وذلك عندما احتلت قوة يمنية نجران، ودمرت ممتلكات بعض العناصر المعادية للامام . واضطر ابن سعود للعمل تحت ضغط شكاوي اهلها . وفي خلال ربيع سنة ١٩٣٢ قاد خالد بن لؤي زعيم خرمة ، جيشاً قوياً من الاخوان الى نجران ، ولم يجد صعوبة في طرد الحامية اليمنية من الواحة واحتلالها باسم ابن سعود . وهكذا سُويت مشكلة نجران بصورة نهائية .

غير ان مشكلة عسير الجبلية التي كانت آنذاك مسرحاً لعمليات حربية متفرقة وغير منظمة ، لم يكن حلّها سهلاً . لهذا ارسل ابن سعود وفداً الى صنعاء ، للبحث في المشكلة برمتها ، على امل التوصّل الى حل ودي لجميع المشاكل القائمة بين الدولتين . غير ان الامام لم يكن مستعداً للاعتراف بمطالب ابن سعود .

وقد عُقدت عدة مؤتمرات في السعودية وفي اليمن بين الحين والآخر، الا انها

أدت الى مجرد إطالة المفاوضات حتى ربيع سنة ١٩٣٤ . وحينئذٍ نفــد صبر ابن سعود من عناد جاره ، فأرسل اليه انذاراً نهائياً . ونفذ تهديده بحشد قوانه لغزو اليمن . اما الوقت الذي حُدّد لقبول الامام ، فكان اليوم الخامس مــن نيسان سنة ١٩٣٤ .

وأصدرت التعليمات للطابورين الوهابيين بعبور الحدود في التاريخ المحدّد في حالة عدم صدور أوامر مخالفة. وثارت عاصفة رملية استمرت ثلاثة ايام متوالية، وكان من جرائها ان تعطلت المواصلات اللاسلكية بين القائدين ، ولذا بدأ غزو اليمن في التاريخ المقرر .

كان الأمير سعود يقود جيش الصحراء المتمركز في أبها ونجران . وكان عليه ان يشق طريقه في الجبال الواقعة في قلب مرتفعات اليمن . غير ان تقدّمــه كان بطيئاً بسبب طبيعة البلاد الوعرة ، وضرورة السير مع قوافل التموين ، التي كانت سيارات نقلها تُدَلّى بالحبال من فوق الصخور العالية في اكثر من مناسبة.

ولقد كانت مقاومة العدو طفيفة، حتى عند البوابة الحديدية التي كانت تحمي قرية بارِقم ?اول قريــة يمنية كبيرة على الطريق الرئيسية الى صنعاء .

اما جيش تهامة الذي كان بقيادة الامير فيصل ، فقد واجه مقاومة شديدةً في الاودية التي تربط مينـــاء ميدي Maidi بحصن حرض Haradh الجبــلي . واستطاعت شدة الهجوم الوهابي ان تقذف بالعدو من طريقهم الى البحر أو باتجاه الجبال . وكان الزحف التالي سهلاً .. فقد حُطمت الجهود الضعيفة التي بُذلت لصد هجمات الجيش الوهابي وايقاف تقدمه ، فاحتل لُحيه Luhaiya اولاً ، ثم سقطت الحديدة نفسها في يده بعد انتصار باهر .

ووصل الجيش حتى المشارف الواقعــة جنوب الحديدة ، واصبح فيصل آنئذٍ في مركز قوي لاستمرار زحفه باتجاه تهامة،على الحدود العدنية،او الزحف

من خلال الجبال على صنعاء نفسها ، او القيام بكلتا العمليتين معاً ، لعـدم قدرة الامام على ابداء اية مقاومة فعالة بسبب انهيار معنويات قواته . فيما عدا الوقفة الاخيرة امام العاصمة .

ولقد استغرق احتلال الحديدة ومنطقة تهامة الواقعة شمالها ثلاثة اسابيع فقط، وكانت ثلاثة اسابيع اخرى كافية لاضافة اليمن الى الممتلكات الوهابية . غير ان ابن سعود اعتاد التزام الحـذر في السير في بقية مشروعه. وصدرت الاوامر التي اسخطت فيصل ، بألا يتقدم في اية حالة الى ما وراء الحديدة . بينما أمر سعود بأن يبقى في المكان الذي اُتفق عليه سابقاً كي يكون حداً بين السعودية واليمن .

وفي اثناء ذلك سارعت السفن الحربية الانكليزية والايطاليـة والفرنسية الى الحديدة ، منتحلة اعذاراً مختلفة . الا انها لم تكن تهدف الى تهنئة القائد الوهابي المنتصر على فوزه ، او جعل مهام السلطة المحتلة اسهل من ذي قبل . وربما كان لهذا الاهتمام المفاجىء باليمن من جانب الدول الكبرى اثر كبـير في منع الملك من انتهاج سياسة صريحة . غير أنه اصر على ان يستمر احتلال قواته للمناطق التي استولت عليها الى ان تجري مفاوضات اخرى في الطائف، تحت حمايته واشرافه. فأعلنت الهدنة للتمكّن من البدء في هـذه المحادثات . وعيّن الامام يحيى احـد موظفيه البارزين السيد عبد الله بن الوزير ليمثله فيها .

بدأ المؤتمر بلا ابطاء . بينما شُكّلت لجنة للصلح ، تمثل الدول العربية المختلفة برئاسة هاشم باشا الأتاسي ممثل سوريا ، ومحمد علي علّوبه باشا ممثل مصر. فقامت بزيارة الطائف لمراقبة خطوات المفاوضة . وعُقدت معاهدة الطائف ، بالرغم من ممـانعة الامام وتردده في الموافقة على المسودّة التي توصل اليهـا الطرفان المتفاوضان ، حتى آخر لحظة . وصدرت الاشارة الى القوات المحتلة بالجلاء عن جميع المناطق التي احتلتها ، على ان يُدفع مبلغُ مائة الف جنيه ذهباً كتعويض لابن سعود عن تكاليف هذه الحملة الكبيرة .

ومن ثم وُضعت الترتيبات الفورية لاجتماع لجنة الحدود المشتركة ، التي كانت مهمتها تخطيط الحدود بين البلدين على التو . وقد انجزت اللجنة مهمتها هذه في السنة التالية ، بينما رُسم الخط المتفَق عليه على الخريطة سنة ١٩٣٦ . ومنذ ذلك الحين لم تقع اية حوادث على الحدود تعجز السلطات المحلية عن تسويتها على الفور. والواقع أن المشكلة الوحيدة المحتمل قيامها بين الطرفين هي امكانية انشاء تحصينات عسكرية ، مُنعت اقامتها ، في مساحة الخمس كيلو مترات على كلا الجانبين . وقد حال دون اي سوء تفاهم ، ما كان قائماً منذ البداية ،من علاقات ممتازة بين محمد بن مهدي حاكم جيزان والسيد عبد الله بن الوزير الذي وقع المعاهدة باسم اليمن ، والذي عُيّن في منصب حاكم تهامة فجعل مركزَ ادارته في الحديدة .

والآن وقد زالت جميع اسباب الاحتكاك بين البلدين، نُفذت بنود معاهدة الصداقة والاخوة خلال السنوات التي تلت . ولم تتوتر العلاقات ، حتى بعد وقوع حادثة مفجعة اثناء الحج في السنة التالية . وذلك عندما قام ثلاثة من اليمنيين بمحاولة اغتيال ابن سعود بالخناجر ، اثناء طوافه بالكعبة . وكانوا قد وضعوا خطتهم هذه باحكام ، مدفوعين اما بتعصبهم الديني او من قبل شخص غير معروف. أما الملك فلم يصب بأذى بالغ . وأما الامير سعود الذي حماه من المهاجمين ، فقد اصيب بعدة جراح في ظهره وكتفه سبّبت له الماً وازعاجاً لمدة طويلة . اما المعتدون الثلاثة فقد أطلق الحرس الملكي النار عليهم ، فقُتلوا في الحال . ومن ثم اتخذت اجراءات اعظم لحماية شخص الملك من تكرار مثل تلك المغامرات المدفوعة .

* * *

قبل ان نعود الى الوضع الذي واجهه الملك في الطائف سنة ١٩٣٠ يجب ان نذكر ان الامير سعوداً عُيّن ولياً للعرش في عام ١٩٣٣ .وقد تقبل ولاء الشعب

وخضوعه كولي عهدهم وملكهم في المستقبل . وهكذا وضع ابن سعود حداً لجميع التكهنات المختلفة بشأن ولاية العرش .

وفي السنة التالية اصدر الملك مرسوماً بتغيير اسم الدولة . واصبح اسمها المملكة العربية السعودية . ولم يكن هذا التطور اسمياً فقط ، بل انه كان يعكس عزم ابن سعود على وضع جميع ممتلكاته تحت نظام اداري موحّد متناسق، وعلى الاخص في الحقل المالي ومراقبة الواردات . فقد كانت هذه ، حتى ذلك الحين تحت رحمة حكام الاقاليم ، مثل عبد الله بن جلوي حاكم الاحساء .

وقد استنكر الحكام تقييد سلطانهم باقامة دوائر حكومية مستقلة ، كما استنكروا ايضاً مراقبة حساباتهم . ولكن ، سرعان ما اخذت النظم القديمة تخضع للنظم الجديدة .غير ان ابن سعودكان عاقلاً وذكياً،اذ عيّن مبالغ لزملائه القدامى المخلصين طوال مدة خدمتهم .وقد توفي عبد الله بن جلوي سنة ١٩٣٨ فخلفه ابنه سعودالذي اقتنع بالحجج التي برّرتاقامة نظام اداري موحد وصمم على ان يقبله. اما الذي كان يحمل المرء على ايثار النظم القديمة البدائية ، فهو انه لم يُسمع عنها اي فساد او سوء استعمال . فقد كان الحكام وموظفوهم يحيون حياة مكشوفة للعموم ، ولم يكن هنالك مجال للتلاعب في الخفاء .

وكان النظام بسيطاً للغاية ، فالحاكم مسؤولٌ عن جباية الضرائب في اقليمه . ومنها كان يخصّص نسبة محددة للخزانة المركزية . اما الباقي ، فيخصّصه لدفع راتبه والنفقات الاخرى . ومن هذه كانت تدفع جميع مصاريف ادارته .

ومن ناحية اخرى كان النظام الاداري التركي الذي قام عليه النظام السعودي الجديد فى اول الامر نظاماً فاسداً عقياً من اساسه ، فلا يمكن القول بان اخطاءه استؤصلت على أيدي العرب .

ومع ذلك ، وبالنسبة للدور الجديد الذي ستلعبه المملكة السعودية في المجالات

الدولية والاقتصادية ، كان من الواضح وجوب اصلاح نظمها الادارية كي تفي بحاجات العصر الحديث .

وكان من الواضح ايضاً انه : لتزويد البلاد بالموظفين الاكفاء لتنفيذ النظم الجديدة ، لابد من تعديل النظم التعليمية المعمول بها لسدّ حاجات البلاد. وهكذا كان لابد من نشوب النزاع بين النظم القديمة والحديثة ، وعلى اسس جدّ دقيقة بين الدين والمدنية. فحسب المفهوم القديم كان التعليم يهتم بالعلوم الشرعية والآداب العربية بالطبع .

وكان الدين هو المحور الذي تتفرع منه جميع فروع المعرفة الواردة في القرآن والحديث . ثم تطورت هذه حتى باتت تشمل الآثار الادبية الضخمة التي تركها المفسرون والمؤرخون وعلماء الجغرافيا والفلاسفة والعلماء وغيرهم ، والتي طرقها شعراء ما قبل الاسلام في عصر العرب الذهبي . ولا شك في ان الشخص المسلم يلم الماماً جيداً بكل هذه الآثار الأدبية العربية، وبجميع شروحها ومعانيها. ومثل هذا يُعتبر الرجلَ المثقف ثقافة عالية جداً ، وان كان لايعرف اية لغة ولم يدرس آية مؤلفات مترجمة عن مصادر اجنبية ، وليس له اطلاع فني على الاطلاق . كان هذا الرجل خبيراً في مجاله، ويطلق عليه البدو ، اسم العالم،او طالب العلم.وتاريخ نجد في القرون الخمسة الماضية مليء بمئات من هؤلاء الناس ،الذين كرسوا حياتهم كلها للعلم والتعليم والكتابة .. غير ان موظفي الخدمات المدنية لم يكونوا من مثل هؤلاء . وقد اصبحت كلمة التمدن تعني في الجزيرة العربية، ثقافة الغرب العلمانية التي كانت مهمتها اعداد الشباب للقيام بدورهم في معركة الحياة المضطربة .

والواقع انه لم يكن هناك شعور بالحاجة الى الثقافة العصرية في الدولة السعودية قبل احتلال الحجاز . فقد كانت معارضة الرغبة في ادخالها الى البلاد وشرعيّتها شديدةً للغاية . ذلك على اساس انها تحوّل افكار الانسان عن الغرض الاساسي من الحياة .. اي إعداده الحياة الاخرى . غير ان احتلال الحجاز قد وضع حداً

لمثل هذه الآراء الانطوائية المتشككة . ومن بعد ذلك اعتُرف بالحاجة الماسة الى ادخال الثقافة العلمانية كنتيجة حتمية تتطلّبها مهمة إنشاء الدولة . وكان من سوء الحظ ، ان اضطُر المتعلّمون ان يبحثوا عنها في الخارج بسبب قلة التسهيلات في الجزيرة العربيـــة . ولم يقيموا وزناً كبيراً الى التأثير المعنوي للبيئات المستنيرة على الاولاد الذين تخلصوا من الروابط التي تربطهم بمنازلهم . كما شجعت الحكومة هذه العملية بمنحها الطلاب منحاً دراسيةً حكوميةً (ومنحاً شخصية للمتفوقين)، تمكّنهم من تلقّي العلم في المدارس السورية والمصريـــة باديء الامر ، ثم يؤمون المعاهد العلمية في انجلترا وفرنسا والمانيا والبلدان الاخرى، مثل اميركا بعد الحرب العالمية الثانية .

كان الشيخ جافظ وهبة ، وهو اول مدير معارف عينه الملك ، قد بدأ بداية صحيحة في هذا النهج، وعمل جاهداً على ادخال النظم التعليمية المدنية الى المراكز الرئيسية في البلاد . وذلك بتزويدها بالادوات المدرسية والاساتذة الاكفاء الذين استقدمهم من بلدان الشرق الاوسط المختلفة .

وقد كان في قصر الملك في الرياض مدرسة خاصة بالامراء منذ سنوات عدة. كما ضرب الامـــير سعود ، الذي اصبح ملكاً الآن ، اروع الامثلة بالقيام ببناء مدرسة قرب قصره في الرياض ، جعلها على غرار المدارس الانجليزية العامـــة تقريباً ، فهي داخلية تضم ابناءه، وابناء الخدم والعبيد الذين هم في سنّهم. وفيها يتلقون تعليمهم على ايدي هيئة خاصة من المعلمين المصريين . ثم حـــذا حذوه ، الامير عبد الله ، شقيق الملك ، ببناء مدرسة العائلة في الرياض. وكذلك قام الامير فيصل ببناء مدرسة في الطائف لتعلم ابنائه وابناء المواطنين الآخرين .

ولا شك في ان الثقافة العلمانية في نمو مطرد في المملكة السعودية . فقد كان عدد المنح الدراسية في بدايه الامر، يتراوح بين المائتين والخمسين والثلاثمائة . وفي سنة ١٩٢٥ كان عددها (٧٠٥) في مصر و (٢٥٩) الى سوريا و (٤٦) الى اميركا والبلدان الاخرى، ومن ضمنها انكلترا .

ولما طُلب الى حافظ وهبة ان يقبل منصب سفير لبلاده في انكلترا سنة ١٩٣٠ خلفه الشيخ طاهر الدباغ مديراً للمعارف، وظل يشغل منصبه الى ان عُيِّن الشيخ محمد بن مانع ، المدير الحـــالي ، واحد علماء مكة ، وان كان نجدياً في الاصل .

ويمكن الحكم على ان السياسة التعلمية في البلاد اليوم تسير في الطريق المرسوم لها على نور الاحصاءات التي اجريت عام ١٩٥٢ ـ ١٩٥٣ .فقد كان عدد المدارس القروية ١٥٩ وعدد معلميها ٢٢١ ، وعدد طلابها ١٠٣٠١ طالباً، بمعدل ٦٥ طالباً لكل مدرسة و ٤٦ طالباً لكل صف . اما المدارس الحكومية الابتدائية فقد كان عددها ١٧٠ مدرسة وعدد معليمها ١٢٤٠ معلمـــاً ، وتلاميذها ٣٠٨٤٦ طالباً (١٨١ طالباً في كل مدرسة و ٢٥ طالباً كل صف) . وكان هنالك احدى عشر مدرسة خاصة تقوم بتعليم ٣٥٦٨ طالباً ، على ايدي ١٤٩ معلمـــاً (بمعدل ٣٢٤ طالباً لكل مدرسة و ٢٤ طالباً لكل صف) . اما المدارس الحكوميـــة الثانوية فكان عددها احدى عشر ، وعدد معلميها ١٥٠ معلماً ، وعدد طلابها ١١٠٥٠ ، (بمعـــدل ١٠٠٠ طالب لكل مدرسة و ٧٣ لكل صف) . وكان هنالك ثلاث مدارس ثانوية خاصة عدد طلابها ٤٣٨ طالباً واساتذتها ٢٦ استاذاً (بمعدل ١٤٦ طالباً لكل مدرسة و ١٧ طالباً لكل صف) . وهنالك هيئات مسؤولة عن ١٣ معهداً ، عدد اساتذتها ١٠٠ ، وطلابها ١١٠٠ طالب . كما ان هنالك ثمانية معاهد اخرى عدد معلميها ١٥ ، وتُعدُّ ٢٦٣ مرشحاً لمهنة التدريس، و ٦ معاهد اخرى عدد معلميها ٤٠ معلماً لاعطاء دروس مسائية في تعليم اللغة الانجليزية .

وبالاضافة الى هذا ، قامت المدارس المختلفة التي افتتحتها شركة أرامكو في الظهران بتدريب عدد من مستخدميها على المهن المختلفة ، واعطاء دروس عامة في المحاسبة ومسك الدفاتر والاعمال الكتابية بمعدل ١٣٧٤ طالباً في الشهر. وهكذا .. من الوجهة الثقافية ، يبدو الوضع اليوم مدهشاً للغاية ، اذا ما قورن بمثيله قبـــل عشرين عاماً فقط .

غير ان هـــذه كلها كانت باهظة التكاليف . فيجب ان نعود الآن الى حيث تركنا ابن سعود في الطائف ، يتساءل كيف يمكن ان يتدبر أمره بالموارد الضئيلة التي في متناول يده،فيسدّ بها الحاجات الماسّة على الاقل ــ دون الحاجة الى ذكر المشاريع التحسينية والانشائية التي اخذ على نفسه رعايتها ــ اذا ما اراد ان يبرّر احتلاله للديار المقدسة في عيون جيرانه،ويدفع الانتقاد الذي كانوا يوجهونه اليه.

وكما رأينا ، كان عليه ان ينتظر عدة سنوات، قبل ان تساهم الحرب اليمنية، الامر الذي حاول جهده ان يتجنبه ، مساهمة متواضعةً في زيادة موارده . ولكنه في ذلك الحين ، استطاع الحصول على خير بسيط غير منتظر ولم يكن يفكر فيــه مطلقاً عندما كان يبحث ميزانيته في الطائف. لقد كان الوضع المالي مؤسفاً بالرغم من غزواته واحتلاله السابق لعدة بلدان ، وكان واضحاً ان الملك أمسى مغموماً .

وفي نفس الوقت كانت هنالك شائعات بين السكان عامة ، حتى في الدوائر المسؤولة، عن موارد البلاد الهائلة التي تنتظر البحث والتنقيب والكشف عنها على الاقل . وكانت المعارضة الاساسية لها انه لا بد من استخدام الاجانب وتعاونهم، فانهم هم الذين يملكون الخبرة اللازمة والمال الكافي لهذا الغرض مع العلم بان جميع طبقات الشعب ستمانع في وجودهم في البلاد .

وقد اختبر ابن سعود نفسُه نتائج مغامرة من هذا النوع، فأدى فشلها الذريع الى تطليق فكرة القيام بمغامرة اخرى . ففي سنة ١٩٢٣ وبتشجيع من السير برسي كوكس ، منح امتيازاً للشركة العامة الشرقية للتنقيب عن البترول في جميع المناطق الشرقية ، بشروط سهلة للغايـــة . وكانت شروطه الوحيدة هي ان تدفع الشركة مقدماً مبلغ الفي جنيه اجرةً سنويةً ، وان تتابع التنقيب الى ان تعثر على الزيت، والا فان امتيازها يعتبر لاغياً . الا ان السير برسي كوكس كان يفضل ان يبيـــع الامتياز الى شركة الزيت الانكليزية الايرانية . وكان ابن سعود متهيباً من منح الامتياز الى شركة نصف حكومية في بلادها ، خوفاً من ردود فعل سياسية .

وقد حصلت نفس الشركة التي يمثلها في كلتا الحالتين، الميجر فرانك هولمز ، على امتياز مماثل في جزر البحرين ، فحولته الى شركة الخليج المكسيكية ، والتي بدورها تنازلت عنه لاسباب فنية لشركة ستاندرد اويل كومباني ا ف كالفورنيا Standard Oil Company of California بعد ان عرضته على شركة البترول الانجلو ايرانية ولكنها رفضته .

اما بالنسبة لابن سعود فان كل ماحصل عليه من هذا ، لايتعدى مبلغ أربعة الآف جنيه على حساب أجرة سنتين ، لأن الشركة توقفت عن التنقيب في المنطقة بعد فشل مجموعتين من علماء طبقات الارض البلجيكيين . فالغي الامتياز رسمياً سنة ١٩٢٨ بعد تبليغ الشركة الحائزة عليه وعدم ردها .

ومع ذلك ، وبعد تغيرّ الاحوال سنة ١٩٣٠ ، بدا ان في امكان احدى الشركات ان تدفع بعض الاموال مقابل الحق في اعادة التنقيب في شرق الجزيرة العربية . وخاصة ، بعد أن ظهر الزيت في البحرين. وكانت حاجة الملك الرئيسية ماسة الى مبلغ حاضر ، ليتمكن من مواجهة العاصفة الاقتصادية ، الى ان يجري تنظيم الحج على اسس مربحّة . ولم يكن ابن سعود يتطلع الى اكثر من ذلك . ولم تشعل اي شرارة تفاؤل حماسته لاحتمال تحقيق مثل هذا المشروع . اما وزير ماليته، فقد كان اكثر تفاؤلاً في مشاريعه. وبشيء من اليأس الشديد وافق الملك على اتخاذ الخطوة الاولى في الاتجاه المرسوم .

وصدف ان حضر للقاهرة المليونير والمحسن الامريكي المستر شارلز كرين ، الذي كان قد ابدى عطفه على القضايا العربية قبل عشر سنوات . وذلك عندما شرع الحلفاء في تنفيذ مشروعهم الرامي الى وضع سوريا تحت الانتداب الفرنسي ضد رغبة اهلها . وكان قد قام قبل ذلك بزيارة لليمن ، حيث قدم هبة سخية كمساعدة لحكومة الامام ، لتحسين الميناء وانشاء الطرق . كما أنه قام سابقاً بزيارة جدة(سنة ١٩٢٦) على امل التعرف على الملك ابن سعود الذي كان موجوداً

آنذاك في المدينة المنورة. ولكنه لم يستطع مقابلته. وكان المستر كرين على استعداد الآن لزيارة جـدة مرة اخرى اذا تأكد له وجود الملك فيها . فوافق الملك على الاجتماع به بعد انتهاء الحج ، الذي يصادف في آخر نيسان سنة ١٩٣١ اذ كان مقرراً ان يمضي فيها زهاء أسبوعين .

وتم الاجتماع في الوقت المحدد في جو ودي للغاية . وقـد بحثت الامكانيات الاقتصادية السعودية في عدة اجتماعات ، كان من نتيجتها ان عرض المستر كرين على الملك خدمات السيد كارل . س . تونشل Karl S. Twitchell لمـدة ستة اشهر ، بدون اجر . وكان هذا مهندس مناجم ذا كفاءة . وكان يعمل لحسابه في الحبشة واليمن .

وصل السيد توتشل الى جدة في صيف سنة ١٩٣١ .ولم يحلّ ربيع سنة ١٩٣٢ حتى قدم الى الملك تقريراً مفاده ان طبيعة تلال الظهران توحي بوجود الزيت ، فمن الخير التنقيب فيها . كما اعلن ان منجم مهد القديم للذهب، الواقع في منتصف الطريق بين جدة والمدينة المنورة ، لم يُستنفَد من قبل القدمـاء . وكان تقريره يشير الى مناطق اخرى تبشر بالنتائج الحسنة . ولقد رفع ذلك التقرير ثم عاد الى اميركا على امل ان يغري عدة شركات باستثمار المعادن العربيـة . وكان عليه ان يقضي عدة سنوات بعد ذلك في العربية السعودية حيث عمل بجد ونشاط في مشاريع حكومية عديدة . وهو لايزال يقوم بزيارات متكررة للبلاد .

واسترعى ذلك التقرير انظار شركة ستاندرد اويـل كومباني اف كالفورنيا فارسلت هذه ممثلها المستر لويد هملتن Lloyd Homulton مع السيد توتشل كمستشار فني لاجراء مفاوضات مع ابن سعود بالنيابة عنها. وذلك بعد أن اجرت اتصالات تمهيدية عرفت بها مدى استعداد الحكومة السعودية لمنحها امتيازاً للتنقيب . وقد ابدت الحكومـة عزمها على بحث منح امتياز التنقيب عن مصادرها المعدنيـة بصراحة ، ولكن بشيء من الحذر . وتبع المستر هملتن الى جدة كلٌ مـن المستر

س . ه . لو نجرج ممثــلاً لشركة بترول العراق ، والميجر فرانك هولمز ممثلاً لشركة ايسترن جنرال سنديكيت East. Gen. Syndicate التي كانت، كما ذكرنا، قد نالت امتياز التنقيب في السابق بثمن بخس .

اما شرط الحكومة الرئيسي فكان دفع مبلغ مائة الف جنيه ذهباً عنــد توقيع الاتفاقية . وقد نصّت هذه على التنقيب المستمر . وكان مــن جراء انسحاب الايسترن سنديكيت ورفض شركة بترول العراق دفع مبلغ يزيــد على العشرة الاف ، ان رضيت الحكومة بخمسين الف جنيه ذهباً . وبعد اخــذ ورد ومساومات، وُقّع على عقد الامتياز في الثالث من ايار سنة ١٩٣٣ : عبــد الله سليمان وزير المالية عن السعوديين ،ولويد هملتن عن الشركة . وبعد مــدة وجيزة قام المستر تونشل بالمفاوضات بشأن امتياز التنقيب عن الذهب نيابــة عن شركة انجلو امريكية .

اما بشأن التنقيب عن الذهب فقــد اقتصر هذا ، على منجم مهد الذهب . وذلك بعد القيام ببحث واسع . غير ان انتاجه نفذ سنة ١٩٥٣ بعــد ان ساهم مساهمة متواضعة في واردات الدولة،اذ عاد عليها بربح صاف بلغ العشرة ملايين من الدولارات . وقد امتدح الخبراء منجماً آخر يدعى الظلم قرب مويح ، فكلف الحكومة تكاليف باهظةً ، لكنه فشل فشلاً ذريعاً . إذ كان مجموع انتاج هــذا المشروع ما يساوي التسعمائة ليرة انجليزية (١٨٠ اونس من الذهب او ٣٦٠٠٠ ريال) مقابل نفقات بلغت ثلاثين مليون ريال .

والواقع ان سلسلة الجبال الواقعة على الحدود الحجازية والمناطق الواقعة على جانبيها مليئة بمناجم الذهب القديمة. ولكن يبدو ان الباحثين القدامى عن الذهب في عهد الملك سليمان والخلفاء العباسيين ، قد التقطوا كل عرق من المعدن الثمين ولم يتركوا شيئاً لمن أتى بعدهم . وحتى الربح الناتج عن منجم مهــد الذهب تم الحصولُ عليه بفضل الاساليب الحديثة في التعدين ، فقد أُخذت العروق من بين ركام وحفريات هائلة لم يستطع الأقدمون استخراج كل الذهب منها .

اما قصة البترول فكانت حكاية مختلفة : انها قصة خيالية واقعية تفوق اعظم القصص الخرافية في الف ليلة وليلة في تطورها المدهش، من الخطوات الامريكية الجيولوجيـــة الاولى المضنية في الصحراء الى اكتشاف واستخراج سائل مروج الذهب بعيداً في باطن الارض . ويمكن من هذه الناحية تلخيصها بايجاز، فنقول : « لقد طلب منها ماءً فأعطته حليباً وقدمت له زبداً في طبق ملكي » .

كان الملك راضياً عن الخير الذي لم يكن ينتظره . ولم يكن يبالـغ في مشاريعه المستقبلة . غير ان الشركة خرجت بعيد أعظم . انها أخرجت كلابها للبحث عن الكنز الدفين .. ففي سنة ١٩٣٥ ثبت وجود البـترول في الظهران للاغراض التجارية ، وتدفق البترول من احدى الآبار الاولى بكثرة . وكان من جراء ذلك شيء فوق خيال المتفائلين، فقد بدأ الانتاج سنة ١٩٣٨ ، وفي غضون السنة التالية وصل الى معدل مليون طن في السنة ! وكان معنى ذلك واردات سنوية تقـدّر بمائتي الف جنيه ذهباً (اي مليون جنيه استرليني حسب السوق الحرة) .

ولكن هذا الحظ السعيد لم يُكتب له ان يدوم . فقد قرر الحلفاء الغربيون ، بسبب نشوب الحرب ، تجميدَ الانتاج وايقافه عند الحد الذي وصل اليه سابقاً . هذا كما لحقت اضرار اخرى بمصالح المملكة السعوديـــة من جراء التوقف الذي حدث في قدوم الحجاج ، عندما دخلت ايطاليا الحرب بجانب الاعداء . صحيح ان الخسارة التي تكبدتها حكومة ابن سعود بسبب استراتيجية الحلفاء، قد عوّضتها بسخاء كلٌ من الحكومتين : البريطانية والامريكية (بقطع النظر عن المساعدات الفنية الامريكية في تطوير المشاريع المختلفة ذات النفع الدائم للبـلاد ، حتى كان مستوى المعيشة المرفهة اعلى منه في اي بلد في العالم فيما عدا امريكا نفسها) ولكن المملكة العربية السعودية ، بالطبع، كانت تمانع في قرار قطع مواردها ما دام قـد اتخذه طرف واحد .

غير ان انسحاب ايطاليـا من الحرب ، ثم محاصرة المانيا في الغرب جعلا استئناف الحج وازالة الحجْر على انتاج البترول عام ١٩٤٤ ممكناً .

وكانت النتيجة باهرة ومدهشة : فقد ازداد الانتاج بصورة مبهجة . وفي سنة ١٩٥٢ اصبح المليون الذي كان يُنتج زمـــن الحرب اربعـــين مليوناً . وحسب شروط الامتياز الاساسية ، كان هذا يعني دخلاً سنوياً مقداره اربعون مليون جنيه استرليني . ولكن قانون ضريبة الدخل ،والاتفاقية التي عقدت حديثاً ، والمعمول بها في جميع بلدان الشرق الاوسط ، (وهي تنص على اقتسام عائـــدات البترول مناصفة بين الحكومة والشركة على اساس خمسين بالمائة) قد ضاعفت هذه القيمة. وقد يظل الانتاج على هذه الصورة في السنوات القادمة ، وان كان لابد من الاخذ بعين الاعتبار اموراً اخرى ، منها مقدرةُ السوق العالمية على شراء هذه الكميات، ووضعُ العملة المعقد في العالم ، الامر الذي جرّد زيت العربية السعودية من ميزة كونه سلعةً تشترى بالدولار .

وبالاضافة الى هذا،فإن الانتاج في العراق والكويت (وقد اصبحت الاخيرة منتجة للبترول بصورة خيالية بالنسبة لحجمها) قد اخذ ينافس نفط السعودية . وكذلك ايران، وكانت خارجة عن سوق البترول بصورة مؤقته ، فإنها ستعمل على نطاق واسع عما قريب وستنافس السعودية في الاسواق . وقد اصبحت قطَر ايضاً بلداً منتجاً للزيت ، بينما اخـــذت البحرين هي الاخرى تحافظ على مركزها كمنتجة للزيت ومكررة له .

* * *

لقد عاش الوهابي العظيم حتى رأى مبلغ الخمسين الف جنيه الضئيل في اوائل عمره في الرياض (من سنة ١٩٠٢ ـ ١٩١٢) يتضاعف حتى يصبح مائـــة الف جنيه بعد احتلال الاحساء(١٩١٣ ـ ١٩٢٥) ويرتفع هذا المبلغ كثيراً حتى يصبح من ٤ ملايين الى ٥ ملايين، بعد احتلال الحجاز سنة (١٩٢٦ ـ ١٩٢٧) . وقد ازداد هذا المبلغ مليوناً آخر من عوائد الزيت (١٩٣٨ / ١٩٤٤) دون اعتبار الهبات المالية الاميركية والبريطانية زمن الحرب .

ومن ذلك الوقت فصاعداً اصبح التقدم واسع الخطى جداً.. حتى بات ابن سعود قرير العين في اخر سنة من حكمه ، وذلك لدى رؤيته الدخل الذي بدأ به حياته كملك مطلق ، يتضاعف الفي مرة فيصبح مائة مليون جنيه سنوياً.

ولم يكن دخله هذا يكفي في اول حياته ولا في اخرها،لمواجهة مسؤوليات الحكم واعبائه،حسب رأيه . ولكنه كان دائماً يذكر العقد الاول من حكمه كاحسن ايام حياته . اما في اخرها فقد تآزر الضعف الجسماني وهموم الثروة على احناء اكتافه العريضة .. تلك التي حملت عبء المسؤولية الثقيل خفيفاً في سنوات الضيق والجهد .

كان التحول الاقتصادي والسياسي في الجزيرة العربية في خلال نصف قرن عملاً فذاً،يفخر به اي انسان.اما هو..فقد كان يكره الابهة والرسميات التي جعلته بمعزل عن الايام الحلوة الماضية ، وعن رفاق الصبا . وكذلك كان يكره الأصول الحديثة والرسميات الكثيرة التي اضطر أن يخضع لها ، ثمناً لعظمته .

* * *

كان العالم انذاك يسير بخطى ثابتة نحو الحرب العالمية الثانية .. وشهدت ايام الطائف مفاوضات بين السعودية والمانيا من اجل عقد معاهدة صلح . فعُين سفير المانيا في بغداد سفيراً لها لدى البلاط السعودي ايضاً .وقُدم طلب لعقد معاهدات مع ايطاليا وفرنسا . وكان يُنتظر التوقيع عليها في روما وباريس خلال رحلة الامير فيصل الى اوربا سنة ١٩٣١ ، وكانت هذه رحلته الثالثة الى دول الغرب . وقد شملت سفراته هذه بولونيا والاتحاد السوفييتي وتركيا . وكانت قد جاءت قبل ذلك بعثة بولونية يرأسها الكونت راكزينسكي ، ومن ضمن أعضائها المفتي الاكبر لسكان البلاد المسلمين .

وفي شهر ايلول قام ابن سعود بنفسه من الطائف لاستقبال السفينة البولونية

التي احضرت معهـــا شحنة من الاسلحة كانت الحكومة السعودية قد اوصت عليها. وكانت هذه اجدى الصفقات التي تناولها قانون تأجيل الديون الحكومية. واستمر الامتناع عن دفع ثمن هذه الشحنة بسبب نشوب الحرب والتغير الذي طرأ على كيان بولونيا السياسي. وآخر الأمر لم يُدفع الثمن مطلقاً.

اما روسيا فقد نشطت في الثلاثين سنة الاولى ، في اقامة علاقات تجاريـــة مع البلاد العربية،ومع السعوديه العربية واليمن على الخصوص. وهبت لانقاذ حكومة ابن سعود عندما تأخرت بسداد ديونها فارسلت اليها شحنة من البترول وبضائع اخرى. وحين احتجت الهيئات التجارية في جدة على تخفيض اسعار البضائع في الاسواق من جراء ذلك ، اضطرت الحكومة الى العمل على وضع حد لمثل هـذه الاعمال في المستقبل.

وفي سنة ١٩٣٨ تحقق لدى السلطات السوفيتية أن آمالها في تاسيس قاعدة لها للدعاية السياسية وعن طريق العلاقات التجارية الخاسرة، عبء ثقيل. فاستدعت موسكو هيئتهـــا السياسية العاملة في الجزيرة العربية ، لتقديم حساب عن اسباب الفشل. وطرد جميع الموظفين من وظائفهم لدى وصولهم الى روسيا. وكان من جملتهم حكيموف، وخلفه في سفارة جـــدة تيموميثوف، مع نفرٍ من سيدات كثيرات كن مستخدمات في البعثتين التجارية والسياسية، فيما عدا طبيب السفارة الذي عصى الامر وأسلم ليبقى طبيباً في خدمة ابن سعود.

وكانت تركيا في هـــذا الوقت قد اسست علاقات سياسية لهـــا مع المملكة السعودية بالرغم من تحاملها الدفين الذي خلقته نظرتها الجديدة الى الدين. وكانت زيارة فيصل لتلك البلاد زيارة مجاملة. الا ان العلاقات بـــين البلدين عـــادت فاصبحت عادية بعد موت كمال اتاتورك سنة ١٩٣٨.

وكان من نتائج الحرب الايطالية الحبشية سنة ١٩٣٥ــ١٩٣٦ ان بدأ ابن سعود يعتقد بمبدأ سياسة القوة، وكان يرفض بعناد وشدة الاعتقاد السائد بين الكثيرين

بان بريطانيا ستقف جانباً وتسمح بانهاء فصول المأساة الداميـــة في الحبشة دون معارضة ، حتى بعد سقوط أديس ابابا وضم الحبشة الى ايطاليا .

اما من ناحية هيئة الامم التي لم تكن المملكة السعودية عضواً فيها ، فلم يكن ابن سعود ليعتقد بقدرتها على حماية حقوق الدول الصغرى ، او حتى الحيلولة دون الحرب ، التي كان يعتبرها جزءاً طبيعياً من وجود الانسان ، فلا بد من حدوثها بين الحين والآخر . هذا بالرغم من انه كان يصل الى المملكة السعودية كثير من نشرات هيئة الامم (تبحث مواضيع الرق وحقوق المرأة وغيرها) .

ولقد تعلم العرب من اختباراتهم اثناء الحرب أنّ خلافات الدول الكبيرة قد تعود بالفائدة على الدول الضعيفة .ولم تُضعف الحرب الثانية شيئاً من قوة هذا الاعتقاد، بل كان من نتيجتها اقتناع ابن سعود بانه لابد من وقوع الحرب الثالثة . وكان ينتقد الحلفاء لتأخرهم في اتخاذ الاجراءات ضد العدو،خشية أن يصبح قوياً لدرجة يتعذر عليهم معها ان يهاجموه بلا نتائج وخيمة .

اما ابن سعود نفسه فكان يؤمن بالسياسة المثلى التي يجب اتباعها بالنسبة لمصالحه ومصالح رعاياه في المجال الدولي ، مع ان الكثيرين من مستشاريه لم يوافقونه من كل قلوبهم على آرائه هذه ، لأنهم كانوا يرمقون باهتمام ، اضطرادَ النمو في قوة دول المحور. ولم تكن بريطانيا في نظره اعظم دول العالم فحسب،بل كانت الدولة الوحيدة التي تلتقي مصالحه ومصالحها في اكثر من نقطة واحـــدة . ولذا كانت مصادقة بريطانيا حجر الزاوية في سياسته . ولم يكن هنالك مجال لزعزعة اعتقاده هذا ، فلم يؤثر فيه ما كان يعتقده الاخرون . وعلى الاخص اولئك الذين خرجوا ولو مثقال ذرة عن خط السير الذي رُسم لهم في مختلف مجالات نشاطهم .

وبالطبع لم تكن اميركا قد بدأت علاقاتها واعمالها السياسية في السعودية العربية، فلم يؤسف لانسحاب البعثة السياسية السوفيتية من جده. اما رفض ابن سعود لان يسمح ، او يسهّل لاي دين ، غـــير الاسلام ، أن يمارس اي نشاط في ارض

الجزيرة ، فكان يقابله كرهه الشديد الظاهر للتعامل مع اية دولة تصرّح بعدائها لاي دين من الاديان السماوية. ويمكننا القول بهذه المناسبة بان معظم ممثلي السوفييت في جدة ، ان لم يكن كلهم ، كانوا من المسلمين .

وقد كان ابن سعود ينظر شزراً لتركيا تحت حكم اتاتورك من جراء السبب نفسه . أما تفضيله لبريطانيا فلم يكن ليؤثر باي شكل من الاشكال على استقلاله التام في اقامة علاقات ودية ومتينة مع الدول الغربية الاخرى: مثل فرنسا وايطاليا والمانيا وهولندا .ولم تكن الاخيرة (هولندا) اقلها شأناً .. وذلك لأنها كانت تسيطر على الهند الشرقية التي يجيء منها (او كان يجيء) معظم الحجاج قبل التدهور الاقتصادي .

اما من ناحية العالم العربي، فقد عادت العلاقات مع مصر على اسس ودية منذ سنة ١٩٣٦ ، بينما كان مبدأ عدم التدخل في شؤون البلدان المنتدبة، العامل الاساسي في تعامل الملك مع الدول صاحبة الانتداب . وينطبق هذا بشكل خاص على شؤون فلسطين ، وان كان ابن سعود قد اعلن بالاشتراك مع قادة العرب الآخرين ، انه يعطف على هذه القضية العربية .

والواقع انه كان يشعر بالأسى من ناحية قيادة الثورة واساليبها في سنة ١٩٣٥ . كما رفض الاشتراك مع العرب الاخرين في اعتبار مقترحات لجنة بيل Peel ، القاضية بتقسيم فلسطين . وكذلك رفض الكتاب الابيض البريطاني سنة ١٩٣٩ .

ويبدو انه لم يُرد ان يكون البادىء في الدعوة الى حل لمشكلة فلسطين ، الا اذا طلبت اليه ذلك الحكومةُ صاحبة الانتداب بشكل خاص . أما بريطانيا فلم توجّه مثل هذه الدعوة الى الرجل الذي، كان بحكم مركزه ، يستطيع ان يتوصل الى حل معقول لهذه المشكلة الشائكة العويصة : هذه المشكلة التي سُوّيت فيما بعد بوسائل اخرى ، بعد ان تخلت بريطانيا عن انتدابها لتفسح المجال الى تقسيمها .

كان ابن سعود في هذه المشكلة وغيرها كثيراً ما يحتار في مسلك بريطانيا نحوه ونحو حكومته. وكثيراً ما كان يصرح عن عدم اشتراكه مع الآخرين في الكراهية الاجماعية لبريطانيا، كما يصرح بتفضيله اياها على جميع الدول الكبرى الاجنبية. ولقد اثبت مشاعره هذه بمنحه اياها امتيازات مادية في نواحٍ عديدة. فوافق على احترام الحدود الفعلية القائمة بين بلاده وبين الاردن دون انّ يتخلى عن مطالبته بمعان والعقبة. ووافق كذلك على الحدود الفاصلة بين بلاده والعراق، هذه الحدود التي لم تكن مضرّة بمصلحة رعاياه. ولم يتقدم باية مطالب في منطقة الخليج الفارسي التي كانت تعتبرها بريطانيا داخلة في منطقة نفوذها وتحت سلطتها. كما عقد معاهدة مع بريطانيا واتفق معها على التعاون في منع تجارة العبيد ـ الامر الذي رفض ان تتضمنه المعاهدات التي عقدها مع ايطاليا وفرنسا. ولم يتوخّ ان يجنيَ ثمار انتصاره في اليمن. الا ان بريطانيا، فيما يبدو، كانت دائماً تظهر له عدم الاكتراث. ولم يعرف لذلك سبباً! ولم يدرِ كيف ان اصراره على تحقيق السيادة المطلقة في الحقلين: الداخلي والخارجي، يمكن ان يشكل حاجزاً لم تستطع عواطف بريطانيا التغلب عليه.

ومع هذا، فعندما نشبت الحرب العالمية الثانية، لم يتردد ابن سعود لحظة في عطفه على بريطانيا في هذا النزاع، بالرغم من اعلانه الحياد. وقد كان بامكانه ان يستفيد اكثر لو انه اظهر مسلكاً مبْهماً ذا وجهين. وكان حياده لا غبار عليه من الوجهة الرسمية. ولم يسمح للسفير الالماني الذي كان غائباً عن جدة حينما اعلنت الحرب، أن يعود اليها، خوفاً من حدوث مضاعفات مع عناصر السلك السياسي الاخرى الموجودة هناك.

وعندما دخلت ايطاليا الحرب، نُقل ممثليها واعضاء بعثتها الى اماكن مريحة في احدى الجزر المخصصة للحجر الصحي لنفس السبب. الا انهم عوملوا بالاحترام اللائق بهم. وعندما لجأت بعض المدمرات الى الشواطىء السعودية هرباً من هجوم الاسطول البريطاني عليها، اعتقل ابن سعود بحارتها في الطائف ولم يسلمهم الى اعدائهم

وكذلك فعل حين لجأ رشيد عالي الكيلاني بعد الحرب، الى الاراضي السعودية .. لقد استقبله بمظاهر الحفاوة ، كضيف مكرّم ، بالرغم من المساعي التي بذلتها بريطانيا لتسليمه اليها كمجرم حرب صدر بحقه حكم بالاعدام من محكمة عسكرية عراقية لقيادته ثورة سنة ١٩٤١ .

كان ابن سعود في جميع هذه الامور يتصرف وفقاً لشعور غريزي يدفعه للسير في افضل السبل . وكان يعمل بهذا الشعور دونما خوف او تحيز أو محاباة . ولا شك في انه كان يرجو طوال سني الحرب أن يكون النصر حليف الحلفاء . وكم ازعجته واقضّت مضجعه الكوارث التي ألمت بهم سنة ١٩٤٠ والسنة التي تلتها!

في هذا الوقت بالذات ، اخذت اميركا تهتم بالجزيرة العربية . وبعد ان اسست لها مفوضية في جدة، ارسل روزفلت ممثلين شخصيين عنه لزيارة ابن سعود في الرياض ، وبحث بعض الامور معه ودراسة ما تحتاجه بلاده . وقد سبق ان ذكرنا المساعدات المالية النقدية التي قدمتها الحكومتان: الاميريكية والبريطانية، لابن سعود. فكان توطيد العلاقات الاميركية مع الجزيرة العربية هو التطور البارز الذي حدث خلال سنوات الحرب . وكانت النتائج باهرة للغاية ، فقد غيّرت البناءَ الاقتصادي والاجتماعي في البلاد تغييراً كلياً في غضون سنوات عشر فقط .

لقد احترم الحلفاء حياد ابن سعود تماماً ، وكان واضحاً لهم أنهم لن يُفيدوا شيئاً من تغيير موقفه ، حتى لو كان ابن سعود على استعداد للقيام بذلك. وكان روزفلت يدرك تماماً ذلك الدور الهام الذي ستلعبه السعودية في عالم ما بعد الحرب. وبعد ان بدأ الحلفاء يحققون انتصاراتهم لم يكن هنالك من سبب يحمل ابن سعود على اخفاء مشاعره بالنسبة للصراع العالمي .

وكان الملك فاروق قد قام بزيارة له بالقرب من المدينة المنورة ، في نهاية الحرب تقريباً ، ودعاه لزيارة مصر عندما تصبح الامور ملائمة. الا ان القدر كان يخبىء مفاجئات اخرى للوهابي العظيم. فقد ذهب الى مصر سنة ١٩٤٥! ، لا ليزور

فرعون ! الشاب ، بل لمقابلة مهندسي النصر المؤزّر . لقد زار الرئيس روزفلت على ظهر طراد امريكي في البحيرات المرّة ، ومن هناك سافر بالسيارة الى الفيّوم ليزور ونستن تشرشل ، الذي حياه ، واستقبله كصديق في وقت الضيق . وذلك لوقوفه بجانب القضية البريطانية في احلك ايام الحرب .

كانت هذه لحظة هائلة من لحظات حياته . وكانت اول سفرة له الى خارج بلاده منذ ذهابه الى البصرة قبل ثلاثين سنة . . وكان اول لقاء له مع عظماء العالم الحقيقيين ، وكان هذا اول اختباراته للعالم الحديث واساليبه . كان عمره انذاك خمسة وستين عاماً ، وقد بدأ يشعر بوطأة الآلام العصبية في ركبته التي اصيبت بجرح في معركة جرت منذ زمن طويل . ولكنه عاد الى البلاد يحمل هدية من الرئيس روزفلت ، هي عبارة عن كرسي للمقعدين مثل الكرسي الذي يستعمله الرئيس نفسه . ومن ذلك اليوم فصاعداً تمسك ابن سعود بالكرسي . . فقد وجد راحة كبيرة في استعماله .

وفي خلال الاجتماعين اللذين عقدهما ابن سعود مع زعماء الحرب ، بحث معهما المسائل المتعلقة بمستقبل بلاده ، ونظرته الى مشاكل العالم بصورة عامة . ثم عاد الى الجزيرة العربية . . وطُلب اليه ان يبحث امراً بالغ الخطورة وان يتخذ قراراً بشأنه . فقد رغبت بريطانيا وامريكا اليه ان يلعب دوره في العالم الذي غيرته الحرب . وذلك بانضمامه الى منظمة تهدف الى المحافظة على السلم العالمي . كما دُعيت الدول العربية الاخرى للمساهمة فيها ايضاً . أما الشرط السابق الذي يجب توفره في العضو المؤسس لمنظمة الامم المتحدة فهو : ان يكون عضواً في التحالف الاكبر المشترك في المراحل الاخيرة من اخضاع العدو . وحتى تنضم الدولة لذلك التحالف ، ما عليها الا ان تعلن الحرب على المانيا واليابان ، العضوين الباقيين من المحور بصورة رسمية .

الا ان ابن سعود احجم عن اعلان الحرب بهذه الصورة الشائنة السخيفة على

دول اصبحت في حكم المنتهية ، وليس بينه وبينها اي خلاف او منازعة . لكنه خضع اخيراً للضغط السياسي من جانب اصدقائه ، وانضمت المملكة السعودية الى صفوف الدول المحاربـــة،بالاسم ان لم يكن بالفعل ، فحضرت مؤتمر سان فرنسسكو كعضو مؤسس لهيئة الامم المتحـــدة . وتفضل الامير فيصل فحضر جلساتها بصفته وزير الخارجية.وفي مناسبات اخرى كان يمثل ابن سعود في حضور هذه الجلسات وزيرُ السعودية العربية المفوّض (السفير فيما بعد) في واشنطن، الشيخ اسعد الفقيه ، الذي كان في السابق ممثلاً لحكومته في بغداد .

ولا سبيل الى ان يدّعي اي انسان أن الدولة السعودية وجاراتها من الدول العربية لعبت دوراً مؤثراً فعالاً في بحث ، او تسوية، المشاكل الرئيسية التي شغلت بال عالم ما بعد الحرب . ولكن تشكيل الجامعة العربية على صورة الهيئة الدولية العامة ، جعل اعضاءها ، ومنها المملكة السعودية بالطبع، في مركز قوي يمكّنهم من التاثير في الرأي العام العالمي، في جميع المسائل التي تمس مصالح الشرق الاوسط والعالم الاسلامي فيما بعد .

هذا دون الحاجة الى ذكر المجموعة الكبرى من الدول العربية والاسيوية التي كثيراً ما تعاونت في نيويورك على حماية مصالح بلدان عدة كانت سابقاً،ولا تزال في بعض الحالات ، تحت حكم الدول الغربية اونفوذها . وليس هناك ادنى شك في ان هيئة الامم التي ثبت عدمُ تمكّنها من انجاز الغايات الرئيسية التي أسست من اجلها،لسبب الشقاق الذي ذر قرنه بين الدول الكبرى ـ كانت مسرحاً استطاعت الدول الاسيوية والافريقية ان تبارز عليه ، على قدم المساواة ، عمالقةَ الغرب . الا مر الذي ربما أزعج بعض أعضائها .

لم تكن تلك المشكلة تهم السعودية العربية بصورة مباشرة ، وان كان صوتها سيظل دائماً في خدمـــة الجناح الاسيوي من هيئة الامم في اية قضية تمس مصالح الاسلام. اما الجامعة العربية نفسها فقد كانت في بدء تاسيسها منقسمة الى كتلتين،

بسبب التنافس المحلي. وكانت المملكة السعودية بجانب مصر وسورية ضد دول الأشراف. غير ان الزمن والاحداث ازالت الخلافات التي نشبت بين المجموعتين. فرضي ابن سعود وارتاح ضميره اخيراً، لأن يرى ان الدول العربية قد توصلت الى شيء من التناسق والتوافق، يبرّر مساهمتَه بهبة ملكية مناسبة للدفاع عن الاردن ضد اعتداء اسرائيل . ومع ذلك ، يمكننا القول بصورة عامة إن ابن سعود لم يتطلع قط الى مركز القيادة في الجامعة العربية ، ولا الى رئاسة ممثلي دولها في منظمة الامم المتحدة ، او الحصول على مقعد في مجلس الامن . وكان من طبعه ان يتردد في رفع الايدي الى جانب الغرب لهزْم اي مشروع يتناول احدى القضايا التي تمسّه. لقد ترك هذه المظاهر للأيدي الأخرى المتمرسة اكثر منه بالأساليب الغربية في العالم الجديد ! وكان في وسعه ان ينظر اليها من قمة طموحه العالية ومجده الرفيع : ذلك المجد الذي بلغه بجهوده الخاصة دون اية معونة من احد ، ودون اية رغبة في الفتح او النهب والسلب .

وكانت هنالك امور اخرى تشغل تفكيره، امورٌ حيوية تهم دولته التي اوجدها ثم اصبح يحكمها بمفرده وسط تطورات غريبة لم يألفها من قبل . وقد لمس في سنه المتقدمة حقيقة آلمته . فقد ادرك انه يعوزه الوقت الكافي لإنجاز كل ما تبقّى ، وإقامةِ الادارة في بلاده على اسس ثابته تمكّنها من مقاومة العواصف والشدائد في المستقبل : تلك العواصف التي كان سيواجهها عالمٌ ما كاد يتغلب على الطوفان (الحرب الثانية) الذي لم يعرف له مثيلاً ، حتى بدأ يواجه انشقاقاً اكثر خطورة . فلم يكن ابن سعود ذلك الرجل الذي ترعبه المصاعب، بل واجهها بكل هدوء .. الهدوء الذي تميز به في جميع المعارك التي خاضها في السابق . اما الآن فقد اصبح متقدماً في السن ومتعباً أنهكه الالم . الا ان الشعور بالواجب ، هذا الشعور الذي حذّقه ابن سعود لطول ما تم تلقينّه إياهُ ، كان يدفعه دائماً الى الى الامام : وكم كان يرفض ويزدري مساعدة ابنائه له ، اولئك الابناء الذين خبَرَ معظمُهم العالم، كما يرفض مساعدةَ العدد الكبير من الموظفين الذين خدموه طويلاً باخلاص .

صحيح أن الامير سعوداً، الذي كان ولياً للعهد لأكثر من عشر سنوات ، كان يدَه اليمنى في ادارة نجد ، وان الامير فيصل كان قد عُيّن في الحجاز بالاضافة الى مسؤوليات وزارة الخارجية ــ الا ان ابن سعود لم يترك اياً من ولديه حراً في انجاز المهام الموكولة اليه . وربما كان وزير المالية عبد الله السليمان، الموظفَ الوحيد بين موظفي الحكومة الذي كان يتمتع بسلطة مستقلة (خاضعة بالطبع لسلطة جلالته) في ادارة شؤون البلاد المالية . وكان عبد الله هو المشرف على نفقات معظم الدوائر الحكومية .

اما جميع موظفي الدولة الكبار، عدا هؤلاء الثلاثة، فكانوا يلتفّون حول الملك بصفة مستشارين له. بينما كان مجلس الشورى الذي استقر في مكة، هو الهيئة الوحيدة التي تعمل خارج دائرة البلاط السحرية. ويتألف هذا المجلس من اشخاص عيّنهم الملك ليمثلوا مناطق الحجاز ومدنها . وكانت هذه الهيئة كما يدل عليها اسمها ، استشارية فقط . غير انها ظلت تقوم باعمال جدّ نافعة ، طوال السنوات التي وُجدت فيها . فقد كانت تعبر عن رأيها في مختلف المشاريع والمقترحات المقدّمة من وزير المالية والمصادر الاخرى .

ولقد قام الموظفون بأعمال باهرة في الظروف التي سبقت الحرب ، والبسيطة نسبياً . اذ كان بامكان الملك نفسه ان يهتم باية مشكلة تعذّر حلّها في دوائر الحكومة الدنيا . ويعود الفضل في ذلك بالطبع لابن سعود ، اذ أنه لم يقطع الاتصال برعاياه مهما سبّب له ذلك من ازعاج ، لافرق بين الكبير والصغير والغني والفقير. كان يستمع الى شكاواهم ويساعدهم في التغلب على مصاعبهم . وكان هذا طبيعةً فيه تلازمه .

وانه لمن المدهش حقاً انه استطاع ، بالرغم من مشاغله العظيمة والمزعجة ، ان يجد متسعاً من الوقت يقوم فيه بتأدية هذه الآلاف المؤلفة من المساعدات البسيطة او يفكر فيها ــ هذه المساعدات التي حملت الكثيرين من الناس بعد وفاته

على ان يمجدّوا ذكراه ويترحموا عليه . فلقد كرس حياته لخدمة الاخرين . وربما كان هذا هو السبب الذي جعله لا يَكِلُ جزءاً من هذه الاعباء التي حملها على عاتقه طول حياته ، لأخلص مستخدميه وموظفيه .

لقد تغيرت الاحوال في بلاده بسرعة مخربة . ولقد ثبت عقم جميع الاجراءات التي اتخذت بموجب النظم القديمة لحماية الشعب من الطغيان والفساد وطوفان الثراء الذي غمر البلاد فجأةً ، وأخذ يضغط بصورة متزايدة على كل ناحية من نواحي الحياة في الجزيرة العربية . ومن البُطل ان يدّعي المرء بانه لم يكن هنالك ظلم او فساد في ظل النظم القديمة . فقد كان عدد المغامرين الاجانب من مثل السواقين والميكانيكيين وحتى الكتبة والتراجمة الذين تقاطروا على الحجاز بحثاً وراء الثروة والحظ بعد احتلالها من قبل الوهابيين ، كافياً لدحض مثل هذه الادعاءات . الا ان مفاسد الفترة السابقة كانت بسيطةً نسبياً . وكثيراً ما كان يتم اصلاحها بالشدة الملائمة عندما تبلغ مسامع الملك .

اما فترة ما بعد الحرب فكانت شيئاً آخر . وقد آن الآوان لأن ننتقد بشيء من التفصيل ، دون الاساءة الى الكثيرين من الذين وقع عليهم عبء اعادة الثقة العالمية الى العربية السعودية التي ظل اسمها سامياً في أعين الامم . فليس في المملكة السعودية وحدها من دول العالم العربي ، اوجد الثراءُ توأمي الشر : الفساد والتبذير . وهما الشران اللذان أثارا نقمة زعماء الثورة في بعض البلدان العربية لأن ثوراتهم قد رافقها التطهير العنيف واظهرت مفاسد الحكومات السابقة .

اما فيما يتعلق بالمملكة السعودية ، فنستطيع ان نتلمّس العذر في ذلك فنقول : كان السبب هو هبوط هذا الثراء الخيالي الفجائي على جهاز اداري بدائي جلُّ مهمته ايجاد التوازن بين موارد البلاد الضئيلة وحاجات الحكومة المتزايدة . خصوصاً وأنها حكومة برزت الى الوجود في هذا العالم عن طريق الفتح والتوسع . لقد كانت مستويات معيشتها وخدماتها العامة تختلف كثيراً عن اي مستوى آخر

خبّرته الجزيرة العربية قبل ذلك الزمن . وكان الفضل لحكم ابن سعود ونظامه في رفع مستوى ازدهار البلاد وفعاليتها حتى نهاية الحرب . وكان ذلك على حساب عجز بسيط في الميزانية ، وعلى صورة دَين عام يمكن دفعه ،متى شاء ابن سعود ، عن سبيل الاقتصاد في مصروفات سنة واحدة من الواردات العادية .

الا ان الثروة جاءت معها بالمغريات ، وسرعان ما أبدت ضعف النظام الذي يعتمد كليةً على ارادة سلطان مطلق يفتقر كثيراً الى انظمة المحاسبة ، والمراقبة الفنية ، والاحتفاظ باحتياطي ، وما شابه ذلك من الانظمة التي تمكّن الحكومات الوطنية المستقرة والشركات التجارية الكبرى ، وحتى الاغنياء من ابناء الشعب ـ ان يتحملوا اعباء الديون المادية، دون الحاق الضرر بسمعتهم في العالم . فسرعان ما تحولت الدائرة المالية التي يشرف عليها عبد الله السليمان ، الى وكالة مهمتها ايجاد الاموال اللازمة لهذا المشروع او ذاك ، دون اخذ حسنات المشاريع نفسها بعين الاعتبار او وجود المال اللازم لها .

كان رئيس كل دائرة آنذاك قانوناً بنفسه ، خاضعاً لمشيئة الملك وسلطته . فلم تكن هنالك حكومة تنسّق عمل الدوائر واحتياجاتها فيما عدا الملك نفسه الذي كان ، كما يبدو ، يحمل فوق طاقته اعباء شؤون اخرى. فلم يكن حقاً في وضع يمكنه من تقدير امكانيات الخزينة وقدرتها على دفع جميع المطالب من وارداتها . وهكذا اخذت دائرة المالية تبرز شيئاً فشيئاً، كصاحبة السلطة في مراقبة جميع دوائر الدولة التيلم تكن تحت اشراف الملك المباشر. فقد كانتلمطالبه الأولوية على جميع المطالب الاخرى .

اما بقية الموارد فكانت في متناول يد وزير المالية ، ينفق منها كما يشاء على المشاريع والحاجات الاخرى التي نادراً ما كانت المالية كافية لسدّها . ولا عجب في هذه الظروف ، وبعد عشر سنوات من الازدهار المدهش ، ان لا يكون لدى الحكومة السعودية مال احتياطي على الاطلاق ؛ وان نجدها تتحمل ديوناً تبلغ

عشرات الملايين من الجنيهات . ان اصل المعضلة يكمن ، لا ريب ، في موجة الاسراف والتبذير التي غمرت البلاد بعد ارتفاع مدّ عوائد الزيت: هذا الاسراف الذي تسرب ، بدون اية مقاومة ، الى كل طبقة من طبقات المجتمع ، هادماً جميع حصون اقتصادها . وقد رافقه رد فعل طبيعي له ، ظهر في ارتفاع أسعار جميع الحاجيات الحياتية الضرورية ومطالب الترف والبذخ . فالتربة المشبعة ليس بوسعها الا ان تنزّ ماء الفساد الاجاج الذي تطرق الى كل ناحية من نواحي الحياة العامة في البلاد ، محولاً جميع آمال الناس الدنيوية التي عمرت بها قلوبهم ، الى رماد .. وذلك عندما اهل على الحجاز فجر الحكم الوهابي قبل عشرين عاماً . فقد اخذت اعشاب الرذائل القديمة الضارة تنمو مرة اخرى وتزهر - بعد ان داسها المتعصبون من اهل الصحراء واستأصلوها - في نفس المكان الذي شهد انتصاراتهم فيما وراء بضعة الافدنة من الاراضي التي آلت اليهم من اجدادهم .

ومن المدهش، وربما من المهم ايضاً، أن نعرف أن انتشار هذه المفاسد والشرور في بلاد قاومت اي شكل من اشكال التغلغل الاجنبي بعناد ، وخلال الاربعة أو الخمسة الاف سنة في تاريخها - يوافق ظهور الثورة الاجتماعية الشاملة المستندة الى النماذج والمثُل الغربية ظاهراً والاميريكية فعلاً ، والتي اوحى بها التعاون الاميريكي الفني والاقتصادي في تطوير موارد البلاد الطبيعية. ومهما كانت الاراء في حسنات هذا التبدل الذي ادى الى هجر حضارة من اقدم الحضارات في العالم في سبيل تجسيد ناموس دنيوي آليّ فقط - وان كان العرب اليوم لايشكون في افضلية الحضارة الاخيرة على الحضارة السابقة - فلاسبيل الى الانكار بان روح الانقلاب قد ازدهرت بسرعة وامتصت معها اكثر من مجرد امتصاص سطحي معظم التقاليد الحضارية الثمينة القديمة ، حيث نُبذت هذه والقي بها في وادي النسيان.

واذا كان ازدياد سكان المدن ، وتطور الطبقة الصناعية الصغيرة ، وتحقيق المشاريع العامة مثل السكك الحديدية، والطرق، وتزويد السكان بالماء، والكهرباء للإنارة، وتكييف الهواء، والطبخ وما الى ذلك - دلائل الازدهار فلا شك اذن،

في ان السعودية كانت في نهاية حكم ابن سعود العظيم اعظم ازدهاراً منها في اي عصر آخر منذ بدء العالم . ولكن هذا التقدم ليس المقياسَ الوحيـد ، وليس المقياس الرئيسي ايضاً بالرغم من عظمته ، كما تعرف ذلك اميريكا جيداً . الا ان العرب لم ينسوا انهم لم يكونوا في يوم من الايام اعظم منهم في الزمن الماضي الذي ناضلوا فيه باخلاص في هذه المجالات، فاوجدوا للعالم ما يسمى الآن بالابجدية الرومانية الانسانية ، وعقيدةَ التوحيد التي انتشرت في معظم اقطار العالم .

والواقع انه ليس من الصعب تشخيص اسباب خيبة الآمال العريضة التي كانت معلقة على دولة ابن سعود خلال العشر السنوات الاخيرة. ويمكننا تلخيصها بقولنا : انها هنات مزايا رجل عظيم : رجل عظيم لا يضاهيه احد في منطقته ، مخلص في دينه وصادق ، وغيور على سمعته واسمه وخير شعبه . لهذا فانه لم يثق باي من موظفيه ورعيته في ان يخدمه بالغيرة والكفاءة اللتين اظهرهما هو في خدمتهم. وكثيراً ما كان يردد القول المعروف : (كبير القوم خادمهم) .

لقد كان هو نفسه ، خبيراً في كل ناحية من نواحي الحياة في الصحراء ، فلم يكن يضاهيه في هذه الناحية اي متفقهٍ من علماء الدين . وقد تنـاول مشاكل الساعة كهاوٍ لم تُرهبْه مسؤولياته الضخمة، ودون وجود أي اداري خبير واحد بين افراد الهيئة التي كانت تساعده في حمل اعباء الدولة في غضون الاعوام الماضية الاخيرة . وقد اضطر مع الايام الى الاعتماد على نفسه فقط . فلم يشعر بتسرب علل الشيخوخة الى جسمه، تلك العلل التي جعلت من المتعذر عليه تحمّل اعبـاء المسؤولية في بعض الاحيان . وقلما خطر له ان سيجيء اليوم الذي يصبح فيـه غير قادر على الاحتمال . وكانت غريزته تمنعـه عن المجازفة بتحويل هذه الاعباء عن كاهله الى عاتق غيره .

كان الشيء الوحيد الذي تحتاج اليه البلاد منـذ بدأ الثراء يزعزع اركانها ، حكومةٌ مستقرة تؤمّن الاخلاصَ في الادارة المالية، واستمرار السياسة الداخلية

والخارجية في الفترة الجديدة ريثما تتسلم الدفة ايد اخرى. الا أنه لم تُشكَّل مثل هذه الحكومة مطلقاً ، حتى اللحظة التي وقف فيها الموت على بابه يدعوه للمثول بين يدي ربه في تلك الساعة الرهيبة . وصحيح ان الامير سعود ولي العهد ، والامير فيصل نائب أبيه في الحجاز ووزير خارجيته، كانا في السنوات الاخيرة يتحملان قسطاً كبيراً من المسؤولية واعباء الادارة في مختلف المجالات ، الا ان المشاكل الرئيسية التي كانت تتطلب سياسة فعّالة ، ومسؤولية تعود بالخير على الدولة كانت من اختصاص الملك وحده . كان تشكيل الحكومة في اللحظة الاخيرة وتعيين ولي العهد رئيساً للوزراء ، والامير فيصل وزيراً للخارجية ونائباً للرئيس ، مثالاً يُحتذى في المستقبل . الا ان الوقت كان قد فات على معالجة الامور في حياة الملك ، وتخفيف العناء والاجهاد اللذين فرضهما الزمن على الجهاز الذي شكّله بمفرده في كفاحه الطويل طوال نصف قرن .

ولنعد من بحث الوضع الاداري العام في السنوات العشر الاخيرة من حياة ابن سعود ، الى فترة ما بعد الحرب :

لقد كانت اهم مشاغل الملك ، بعد ان اصبح العالم متحرراً مرة اخرى من كابوس الحرب ، زيارته الموعودة الى مصر ، رداً على دعوة الملك فاروق له بمناسبة الزيارة التي قام بها للمدينة المنورة وينبع . وتمّت تلك الزيارة في كانون الثاني من سنة ١٩٤٦ ، وسط مظاهرات الحماس والحب التي مسّت اوتار قلب اسد الصحراء وهو لا يزال ينبض بالحرارة . اما العلاقات الطيبة التي قامت بينه وبين فرعون الشاب ووزرائه، فقد عادت على مملكة ابن سعود بالخير والنفع. لقد اخذت بلاده تعتمد منذ ذلك الحين على المساعدات الفنية والمادية التي تقدمها جارتها مصر ، لتطوير خيرات الحجاز وتنمية اقتصاده في سبيل مصلحة الحجاج والحفاظ على الاماكن المقدسة . وكان اغتيال رئيس وزراء مصر النقراشي باشا، خسارة شخصية لابن سعود . الا ان ثورة تموز سنة ١٩٥٢ وسقوط فاروق الغير المتوقع ، بعثا الاسى والاسف في نفسه لاسباب شخصية اكثر منها

لاي رد فعل خاص بميزات هذا العهد . وفي خلال الحج سنة ١٩٥٣ ، استقبل الملك وولي عهده، رئيس جمهورية مصر اللواء محمد نجيب بكل مظاهر الحفاوة والاجلال اللائقة بحاكم اجنبي .

وبغض النظر عن المساعدات الفعلية القيّمه التي قدمتها السلطات المصرية ، فقد تركت الحدائق الخضراء والابنية الصخمة الشاهقة في القاهرة والتي لم يشاهد ابن سعود مثلها في حياته ، اثراً بالغاً في نفسه . هذا ، بالاضافة الى انه كان قد عـاد منذ عهد قريب ، كل من الامير فيصل واخوتـه الامراء الآخرون ، من حفلة افتتـاح هيئة الامم المتحدة في سـان فرنسيسكو ، يملأ نفوسهم الاعجاب والدهشة بما رأوه في العالم الجديد . وجـاء دور الامير سعود ليقوم بعد مدة وجيزة بزيارة طويلة الى امريكا . فعاد منهـا باحلام عريضة عما يمكن عمله في بلاده من ناحية الخبرة الزراعيـة والمشاريع الكهربائية ووسائل النقل وما الى ذلك .

ولم يكد يمضي وقت طويل حتى اخذت هذه الانطباعات تترك اثرها في الجزيرة العربية حالما بدأت عوائد البترول تجري بقوة واستمرار . فانشئت الحدائق الغناء، وشيدت القصور والدارات في الرياض، وزوّدت بكل مظاهر الترف والبذخ التي تميزت بهـا قصور الاثرياء من مواطني الولايات المتحدة . وقد جُلبت الغراس والبذور من العالم الجديد ، فغرست في رمال الصحراء القديمـة لتزين البيوت الريفية . كما استُخدمت مضخات الديزل والكهرباء على نطـاق واسع لتزويد البلاد بالمياه اللازمة للمشاريع الزراعية الناشطة . وكانت المزرعة النموذجية التي انشئت في اقليم الخرج ، والتي كان يشرف عليها ويديرها الخبراء الامريكيون مثالاً بارزاً على ذلك . كما انشىء في عسير تهامة مشروع للري والزراعة ، وان كان لا يزال في مراحل تطوره الاولى . واصبحت الطائف واقليم الخرج مراكز مهمـة للتدريب العسكري الذي يشرف عليه مدربون امريكيون حلّوا محل

بعثة بريطانيـة سابقة . واقيم مصنع جديد للذخيرة في اقليم الخرج تديره شركة فرنسية .

اما حلم الملك الاكبر في ربط ساحل الخليج الفارسي بالرياض فقـد تحقق في أواخر سنة ١٩٥١ . فأصدرت التعليمات للمهندسين الامريكيين بان يقوموا بمسح وتخطيط الاراضي لتمديد هذا الخط ، عن طريق اقليم القصيم والمدينة المنورة ، وجدة ومكة . اما المدينة المنورة ومكة فقـد كانتا مرتبطتين بطريق معبّدة . وأكملت كذلك شركة انجليزية ، المائـة كيلومتر الاولى مـن طريق يعتبر من الدرجة الاولى بين جدة والمدينة المنورة ، لمصلحة الحجاج ولتأمين النقليـات الثقيلة المعتادة بين المدينتين .

وبالاختصار ، يمكننا القول بان الاتصال الوثيق بالعـالم المتمدن واكتشاف الوسائل الضرورية للتقدم ، تعاونا في اثناء السنوات العشر الاخيرة من حكم ابن سعود على خلق ثورة اجتماعية واقتصادية تفوق بكثير احلام اولئك الذين شهدوا الجيوش الوهابية تزحف على جدة قبل اكثر من ربع قرن بقليل . وبعد ذلك بعدة سنوات لم يشهد الناس الناحية العسكرية للاحتلال ، واخذ الرأي العـام والموظفون يساندون انشاء جيش ثابت على النظـام الاوروبي ليحل محل جيش ابن عبد الوهاب الثائر الذي سار بعلَم آل سعود من نصر الى نصر حتى اقاصي انحاء البلاد .

وفي الواقع ، لم يُحل هذا الجيش بالكلية ، بل ترك جانباً مؤقتاً ليستجم، حتى أعيد الى الحياة على صورة فرقة صغيرة من الهجانة أطلق عليها اسم الجهـاد ، تضم المجندين من مدن نجد ومقاطعاتها كلما احتاجت الحكومة الى ذلك . وتشاهد مخيماتها هنا وهناك ،منتشرة في الاماكن الملائمة حيث الكلأ والماء لجمالهم. ثم أضيف الى هذه الفرقة قسم آلي لنقل المؤن والذخائر والعتاد . ويقود هذه الفرقة البدوية ماجد بن خثيله في الوقت الحاضر . والمشهور عنـه بانه من الغطغط . وكان

جسمه رخواً وسميناً بسبب العيش المترف الذي حظي به نتيجة لازدهار البلاد العام . غير انه كان رجلاً جباراً ذا شجاعة وخبرة بالصحراء ، فبالامكان الاستفادة منه ومن خدماته وخدمات امثاله في بعض المناسبات .

كان هذا ما سيقع في السنوات الاخيرة لو لم يُحجم الملك في شيخوخته عن العودة الى الاساليب القديمة التي أدت له أعظم الخدمات في شبابه . لهذا وكل الى قواته النظامية امر حراسة حدوده المتاخمة للعالم المتحضر ، بطوابيرها الآلية وسياراتها المصفحة ومدفعيتها . وفي الواقع لم يكن لهؤلاء من العمل ما يكفيهم ، فواجباتهم بوليسية صرفة ، ومهمتهم ضبط المهربين . اما حاميات المدن الكبيرة والمناطق المأهولة ، فقد اخذت تكرس معظم وقتها للتدريب والقيام بالواجبات الرسمية . بينما انتشرت الموسيقى العذبة التي تعزفها الفرق العسكرية لإزالة متاعب التمرينات وللاستعراضات العسكرية ولاجتذاب المجندين وتسلية السكان وإطرابهم .

اما المناسبة الوحيدة التي استخدمت فيها هذه القوة التي قيل بانها تتألف من اثنتي عشر فرقة ، فكانت خلال الحرب الفلسطينية سنة ١٩٤٨ . إذ انضم طابور واحد منها الى القطاع المصري من الجيش عربوناً على المساهمة في القوات العربية خلال العمليات الحربية ضد اليهود . وكان لهذا الطابور الشرف في المساهمة في مسيرة النصر في شوارع القاهرة ، احتفاءً بالمناسبة التي كلما ذُكرت ، ارتعد النـاس في مكاتبهم فرقاً وخوفاً ، واحمرت وجوههم خجلاً من الخزي والعار اللذين لحقا بهم .

اما اخفاق الجيوش العربية في استرجاع فلسطين من ايدي اليهود ، فيعزوه العرب ، وهم يريدون ان يبرئوا انفسهم ، الى مكائد بريطانيا التي تخلت في الواقع عن جميع مسؤوليات الدولة المنتدبة على البلاد قبل بدء الصراع فيها ، وغادرتها كي تخلي الميدان لتسوية القضية بالاحتكام الى الحرب . لكن السبب الحقيقي

لفشل العرب وانهيار معركتهم ، التي بدا فيها نصرهم النهائي نتيجة محتومة ، فانه مع الأسف ، يعود ، جزئياً ، الى انقسام آراء الدول المعنيّــة ، ويعود بصورة رئيسية الى الاطماع والرشوات وفساد السلطـات المسؤولة عن تزويد الجيوش بالاسلحة والذخائر اللازمة للقوات المشتبكة في القتال . اما الثورات التي وقعت حديثاً في كل من سوريا ومصر ، فتعود الى اعتراف العرب بعدالة حكم السيف في قضية فلسطين ، ذلك الحكم الكريه الى النفس .

واذا كان لا يزال هنالك شك في هذا الموضوع ، فالعبارات التالية المقتبسة من خطاب القاه احد قادة الثورة المصرية ، يكفي لازالة هذه الشكوك التي تساور بعض العقول الغير المتحيّزة . فقـــد ذكر رئيس الجمهورية المصرية في خطاب القاهفي الاسكندرية سنة ١٩٥٣ ونقلته صحافة البلاد العربية ومن جملتها الصحف السعودية ، ما معناه : انناوحدنا المسؤولون عن ضياع فلسطين . وكان قادتنا هم العامل الرئيسي في ضياعهـــا . إننا لم نقم باي عمل سوى القاء الخطب وعقـــد الاجتماعات والمؤتمرات . لقد كنا نقول بانا سنلقي باليهود الى البحر غير اننا لم نفعل ذلك » .

اما بالنسبة للمملكة السعودية فيمكننا القول بأنـــه : مهما كان السكان سليمي النية في عداوتهم لليهود ، وتقديسهم لفلسطين واستمساكهم بها كجزء من ارثهم العربي، فان نظرة الحكومة كانت افلاطونية فلسفية . وكثيراً ما انتقد الملك نفسُه، سياسة وقيادة الحركة العربية في فترة الانتـــداب ، وفي فترة اللهو التي ادت الى خلق دولة اسرائيل . وهو لم يطمئن الى اخلاص أحد للقضية الفلسطينية ، غير انه لم يتخلَّ عن سياسته التي كانت تحتم عليه الابتعاد عن كل ما من شأنه ان يوقعه في متاعب مع الدول المنتدبة التي برزت بعد الحرب العالمية الاولى .

وفي الطرف الآخر من شبه الجزيرة العربية ، كانت علاقات الملك مع اليمن وإمامها دائماً ودية ومفيدة ، منذ التوقيع على معاهدة الطائف سنة ١٩٣٤ . وهنا

ايضاً نجده ينفي اية امكانية لحدوث النزاع على الاراضي والحدود المختلف عليها، هذه الخلافات التي كثيراً ما عكرت صفو العلاقات الطيبة القائمة بين الامام يحيى والسلطات البريطانية في عدن.

ومن ناحيـــة اخرى لم يكن ابن سعود أي عطف على الحركات الديمقراطية الموجّهة ضد حكم الامام الاستبدادي ، بقيادة الامير ابرهيم ابن الامام . هـــذا الامير الذي ملأ قلب والده بالحقد والكراهيـــة والخوف بسبب مـــا يحيكه من مؤامرات ودسائس من ملجأه في عدن . ونتيجـــة لذلك اخذ يتباهى بكفـــاءة الاستخبارات الامامية ومقدرتها بشكل مسرحي . وذلك عندمـــا اكتشفت الاستخبارات في السادس عشر من كانون الثاني سنة ١٩٤٨ ، تقريراً مكذوباً صادراً من عدن ، عن طريق بغداد والقاهرة ، يتحدث عن اغتيـــال الامام يحيـــى وتأليف حكومة ديمقراطية برئاسة عبدالله بن الوزير والامير ابراهيم كرئيس للجمهورية .

اما بالنسبة للحوادث الاخيرة، فقد ثبت فشل مؤامرة كان مقدراً تنفيذها في هذا التاريخ ، وادعى المتآمرون في عدن بانها نجحت .

الا أن الامام يحيى ، ورئيس وزرائه عبدالله العمري اغتيلا في السابع عشر من شباط من نفس السنة وهما يقومان بنزهة في السيارة. وعلم ابن سعود بالحادث المفجع بعد ساعة واحدة من حدوثه ، وقبل اية وكالة اخبارية عالميـــة بيوم واحد . ولقد كان رد الفعل في نفسه فذاً : سكوت مطبق بالنسبة للبرقيـــة التي وصلته في اليوم التالي من عبدالله بن الوزير، يعلمه فيها بموت الامام وانتخابه اماماً وملكاً دستورياً على اليمن ، وانه سيحكم عن طريق مجلس وزراء ومجلس نواب يختـــاره الشعب اليمني . وقد طلب ابن الوزير في هـــذه الرسالة ، التي وُجّهت كذلك الى جميع الدول العربيـــة ، إرسال طائرات للمساعدة على حفظ النظام .

اما الجامعة العربية فسارعت الى ارسال لجنة للبحث في اسباب ونتائج الاضطرابات التي عمت البلاد . فطارت بعثتها عن طريق جدة ولكنها قطعت رحلتها لتقوم بزيارة الملك في الرياض في نفس الوقت الذي كان يقوم فيه بزيارته ، وفدٌ يمثل الغاصب اليمني ، ويتألف من ابن اخته عبد الله ابن علي ، والشيخ فاضل الورتلاني المراكشي الاصل ، وغيرهما .

ووصل في هذا الوقت بالذات وارث العرش الشرعي الى حجة من مركزه الاداري في تعز ، ونجح في اثارة القبائل وسكان المدن لمناصرته ، فاصبح مركز الغاصب حرجاً وبائساً ، كما دل على ذلك استنجاده اليائس بعدن والرياض والجامعة العربية وامريكا وبريطانيا وحتى روسيا .

وقد لاقت نداءات عبدالله بن الوزير والامير ابراهيم ومحمد الكبسي اذناً صماء عند ابن سعود . فقد ابدى ابن الصحراء رأيه الصريح الى الوفد الذي قوبل في الرياض بكل حفاوة . فكان يشير اليهم باصبعه ويقول (انتم قتلة . كيف تطلبون مني ان اوافق على جريمتكم او اصفح عنكم ؟) وانتهى كل شيء في الثاني عشر من اذار ، عندما دخل الامير عباس الى صنعاء على رأس قواته واجبر عبدالله بن الوزير واصدقاءه على الاستسلام .

وقد غادر وفد الغاصب الرياض مطأطىء الرأس ذليلا ، ولم يعد لليمن . اما ممثلو الجامعة العربية ، فلم يعد من حاجة لأن يذهبوا الى اليمن ، فرجعوا الى مصر .

وفي الحادي والعشرين من آذار نقل عبدالله بن الوزير والمتآمرون معه ، مقيّدين الى حجة مركز قيادة الملك الجديد وزج بهم في السجون ، في انتظار حكم المحكمة الشرعية وتنفيذ حكم الاعدام الذي لا بد منه . فانتهت بذلك ازمة اليمن المؤسية في الثامن من نيسان سنة ١٩٤٨ .

اما ابن سعود ، الذي كان بمقدوره انتهاز فرصة الاضطرابات واحتلال اليمن

لمصلحة السلام ، فقد اسرع الى مدّ يد العطف والصداقة للملك الجديد . ولهذا رأينا ابنه ووريثه محمد البدر ، يقوم بزيارة للسعودية في اواخر سنة ١٩٥٣ ، ليقدم تعازي والده وبلاده بوفاة الملك والصديق العظيم . وكان اسم محمد البدر هذا ، قد زُجَّ في المؤامرة التي قامت ضد جدّه .

كان ابن سعود في هذا الوقت ، مقتنعاً تماماً بان الدول الكبرى تسير بخطىً واسعة نحو حرب عالمية ثالثة ، فكان هو نفسه يرى ذلك واضحاً ويرحب به كنتيجة حتمية للعداوة التي تكنّها الدول الغربية للعالم الشيوعي . ومرة اخرى لم يخف التزامه جانبَ الغرب وعلى الاخص امريكا وبريطانيا ، وان كان لم يعرف سبباً لترددها في محاربة العدو في الوقت الذي تتفوقان فيه تفوقاً ساحقاً في الاسلحة الذرية . ولم يجد في استخدام هذه الاسلحة الفتاكة في قتل كافة السكان امراً يخالف الاخلاق . فقد قام الانسان بمثل هذه الاعمال والاجراءات الضرورية في كافة عصور المدنية . واعتبر ظهور الشيوعية وادوات التدمير الجماعية دليلاً على نهاية المدنية وتحذيراً إلهياً على اقتراب يوم الدينونة .

وقد عبر عن رغبته في ان تقوم الساعه في حياته في مناسبة اخرى جرت سنة ١٩٤٨ اذ كان يقول (من كان يظن باني سأعيش حتى ارى انتشار المشروبات والعلاجات في الرياض في الوقت الذي كنا نحرم فيه التدخين ؟) ثم قال بحرارة : (ليس الخطأ خطأ الآخرين بل خطأي . لو قدر لي أن اختار ، لاخترت قيام الساعة في هذه اللحظة) .

صحيح ان صرامة وخشونة طبع السلف وزمتهم في بعض النواهي اصبحت خفيفة ، الا ان عدداً كبيراً من المباذل الخطيرة في الاوساط العليا ، قد اضطرت الحكومةَ لأن تأخذ علماً بالوضع الذي لا تكاد تحمد الدولة الوهابية في بداية حكمها عليه .. كان المجتمع الأوروبي يتمتع بالامتيازات التي منحته اياها ديانته ،

فسمحت له الحكومة باستيراد المشروبات الروحيـــة بكميات معقولة لاستعمالها . الا ان استيراد المسلمين لها ، كان ممنوعاً منعاً باتاً .

والواقع ان اجراءات المنع هذه كانت حبراً على ورق منذ زمن طويل . اما الاجراءات التي اتخذتها الحكومة في سنة ١٩٥٢ لاعادة شرعية القانون الرسمية في هذا الموضوع فلا يمكن اعتبارها معقولة أو فعالة . ذلك ان منع استيراد جميع انواع المشروبات الروحية ، وبدون سابق انذار ، لم يكد يؤثر على اوساط المجتمع المحلي التي اعتادت ، منذ زمن طويل ، الحصولَ على المكيّفات بطرق منحرفة . ولم تجرد المجتمع الاوروبي او تمنعه من الانغماس المشروع فيما تعوده . ومن الصعب أن نعتقد أنّ الداعين الاولين الى التحريم، لم يُدفعوا الا بعوامل واعتبارات كره الاجانب ، بينما نجد أن المشروبات الروحية لا يزال يمكن الحصول عليها في مدن الدولة الرئيسية باسعار خيالية . وهذا دليل قاطع على ان المستوردين المحليين لهذه البضاعة الممنوعـــة لهم وسائلهم وطرقهم الخاصة للحصول على الكميـات التي تؤمن لهم المكاسب الطائلة .

ولا ريب في ان الحكومة لم تعمـــد الى التسامح مع المسلمين في السعودية في استهلاك المشروبات الروحية ، الا لأنـــه من غير المناسب ان تسمح لهم بذلك .

وبغض النظر عن بعض المشاكل المحلية ــ مثل انصراف (الآمرين بالمعروف) من حين لآخر الى تنفيـــذ الاوامر المتعلقة بانتظام حضور الناس الى الصلاة ــ وخصومات الدول الكبرى، كان ابن سعود مهتمّاً بصورة رئيسية بمتاعب جاراته . ففي اوائل سنة ١٩٤٨ نشأ وضع دقيق في العراق ، حيث قـــام الطلاب والعمال بمظاهرات صاخبة ضد المعاهدة الجديدة المقترحة مع بريطانيا العظمى ، ادت الى خسائر فادحة ، وسقوط رئيس الوزراء السيد صالـــح جبر وهروبه . واختفى كذلك نوري السعيد باشا عن انظار عامة الناس. الا انه عاد بعد بضعة اشهر الى العراق بعد ان هدأت العاصفة . وكان الامير عبد الاله، الوصي على عرش العراق

هو الذي اخذ يهدىء من روع الناس بان اعلن أنه لن يصادق على المعاهدة ــ التي وقعت على ظهر سفينة صاحب الجلالة فكتوري ، في السادس عشر من كانون الثاني في بورتسموث ــ مادام المواطنون لا يرغبون في ذلك ، أو أنه لن يصادق على الفقرات التي تنص على استمرار الترتيبات السابقة التي تمنح البريطانيين الحق في احتلال مختلف قواعد الطيران في العراق .

وما دمنا قد اشرنا في السابق الى الاضطرابات التي وقعت في فلسطين ، فانه يحسن بنا ان نذكر ان الملك امر بجمع التبرعات للقضيـــة الفلسطينية خلافاً لمبدأ « اتفاق كلمة العرب » في مثل هذه الامور . وقـــد عين ابنه محمد ليرأس اللجنة التي انيط بها هذا الواجب ، كما بدأ الحملة بالاكتتاب بمبلغ خمسة آلاف جنيـــه تبرعت بها سيدات القصر .

ومما يدل على الثروات الطائلة التي جمعها التجـــار المحليون في الايام الاولى من تدفق الزيت ، ثم في فترة الحرب العالمية الثانية ، أن تاجرين من تجار جدة ، دفع كل منهما مبلـغ خمســـة وعشرين الف جنيه . بينما دفع تاجر آخر مبلغ عشرة آلاف جنيه .

وبالاضافة الى المساعدات المالية للحرب الفلسطينية فقد اشار الملك كثيراً الى وجوب التجنيد للخدمة الفعلية في فلسطين . وذلك عندما اصدر في كانون الاول سنة ١٩٤٧ تعليماته الى جميع حكام الاقاليم النجدية ــ مستثنياً الديار الحجازية المقدسة من مفعول هـــذا المشروع ــ ان يفتحوا السجلات للمتطوعين بين سن العشرين والخمسين وان يدعـــوا زعيمين من كل قبيلة لزيارة الرياض لتنسيق الجهود اللازمة .

وقد كان متوقّعا ان تتألف بفضل هذا الاجراء قوة قوامها ثلاثمائة الف جندي ولكن ، كما ذكرنا آنفاً ، كانت القوات السعودية الوحيـــدة التي قامت

بالخدمة الفعلية في فلسطين ، هي ذلك الطابور من الجند النظامي الذي انضم الى القوات المصرية . امـا نظرة امريكا وبريطانيا للمشكلة بكاملهـا ، ومحاولات الحصول على اصوات الدول اثنـاء القضية في الامم المتحـدة ، واصرار الملك عبدالله ، الذي اصبح بعد حين ملكاً على الاردن ، على ان يتزعم القضيةالعربية ، وان يحتل من فلسطين ما يمكنه احتلاله ويضمه الى مملكته ، فقد بحثت بشيء من التذمر في البلاط الملكي في الرياض .

وكانت نظرة الملك تختلف باختلاف مزاجه آنذاك : بين اعتقاده الراسخ بان البريطانيين لن يغادروا فلسطين في نهاية الامر ، وذلك بسبب مصالحهم البترولية واستراتيجيتهم الحربيـة في الشرق الاوسط ، وخشيته من ان يعمدوا الى تسليم الجزء العربي من فلسطين الى الملك عبدالله ، أو أن يرسلوا حاميتهم في فلسطين الى الأردن ، للحيلولة دون هجوم عربي على اليهود . الا ان وضعـه لم يتغير قط ، وكان يقول بانه ما لم يدعَ على مستوى دولي عالٍ ، ويعني بذلك ان تدعـوه بريطانيا ، لأن يتدخل في النزاع الفلسطيني ، فلن يأخذ بزمام المبادرة ، وإن كان يبارك كل حركة عربية ضد اليهود ، على شرط الا تكون اعلان حرب على بريطانيا او امريكا .

وفي هذه الظروف الدولية المضطربة ، احتفل ابن سعود في الثامن عشر من تموز سنة ١٩٥٠ باليوبيل الذهبي القمري لحكمـه كملك مسيطر . ولقـد جرى الاحتفال بهذه المناسبة في جميع البلدان التي كان للمملكة السعودية علاقات سياسية معها ، وذلك باقامـة حفلات الاستقبال اللائقة والثنـاء والاطراء من محطات الاذاعة . وكانت هذه الاحتفالات تعكس الود والاعجـاب اللذين فرضهما جهاد رجل فذّ قاد شعبه من الصحراء الى المجتمع الدولي . وقامت في الجزيرة العربية استعدادات رائعة للاحتفال باليوبيل الذهبي للحكم الباهر ، ومظـاهر لائقـة تعبر عن الولاء والاخلاص وعرفان الجميل . امـا الملك نفسه فقد كان

حريصاً على الا يفسد على شعبه بهجته ، الا انه كان قلقاً من ناحية شرعية هـــذه الاحتفالات من الوجهة الدينية . ولذا عمد ابن سعود الى استشارة مفتي الرياض الاكبر ، الشيخ محمد بن ابراهيم وزملائه من الأئمة وعلماء الدين .

لقـــد كانت الفتوي واضحـــة ً وفاصلة : اي ان فكرة اليوبيل الذهبي غير مشروعةحسب تعاليم النبي وسنّته، وأنها من صنع اليهود والمسيحيين واختراعهم، ولذا فان الاحتفال بمثل هذه المناسبة مخالف للشرع . لقد صدرت هذه الفتوى في الثالث عشر من تموز وسمعها الملك وهو مجتمع الى وزرائه حسب عادته من كل يوم خميس . غير ان الاستعدادات كانت قد تمت منذ مدة طويلة ، ومنها اقامة حفلة كبرى في جـــدة ، دعي اليها اعضاء السلك السياسي وموظفو الحكومـــة البارزون والاعيان . لكن الاوامر صدرت بالغـــاء الاحتفالات المتفق عليها وتوزيع الطعام المخصص للحفلة على الفقراء والمعوزين في جدة وما جاورها .

ويجدر بنـــا ان نذكر أن اليوبيل الذهبي الذي صـــادف في الرابع عشر من كانون الثاني سنة ١٩٥٢ الشمسية قد أهمل ، لا في السعودية وحدها بل في جميع انحاء العالم .

كان قد مضى آنذاك ، على الحرب الكورية قرابة الثمانية عشر شهراً ، وكان الوضع في منطقـــة القنال في مصر آخذاً في التأزم ، مع ان الثورة العسكرية التي حدثت في ٢٣ تموز ، وسقوط الملك فاروق وقعا بعد ذلك بستة اشهر . امـــا المملكة السعودية فلم تتأثر قط باي من هذه الثورات ، مع ان علاقاتها الوديـــة الوطيدة معمصر ،والتي دامت زمناً طويلاً،احدثت في بادىء الامر رد فعل بسيط يتمثل في العطف على الاسرة المالكة المطرودة وعلى اعضائهـــا البارزين الذين كانوا على صلة وثيقة بالملك وحكومتـــه . غير ان استقرار الثورة العسكريـــة ورسوخ اقدامها وتعبيرها عنحسن نواياها نحو الجزيرة العربية، اكتسبت موافقة السعوديين واعترافهم بسياسة الامر الواقع .

وكانت المملكة السعودية على اتفاق مع الدول العربية الأخرى لمساندة مصر في طلبها اخلاء منطقة القنال . اما الاعتداءات التي حدثت في السادس والعشرين من كانون الثاني سنة ١٩٥٢ والنواحي الاخرى في سياسة حكومة الوفد ، فاثارت النقد والاستنكار اللطيف . واما من ناحية كوريا فقد اعتُبرت الحرب فيها مجرد مقدمة للصراع الاكبر الذي لن يحدث في حياة الملك . لذا لم يحظَ باهتمام لديه ، وخصوصاً بعد الوقوف عند خط عرض ٣٨ ، الذي حدث بعد الاندفاع الشيوعي ورد الامريكيين عليه . اما الدول العربيـــة الاخرى فلم تساهم في طلب الامم المتحدة التعاون مع القوات الامريكية المشتبكة في القتال الدائر في كوريا ، والذي كان بمثابة اختبار للثبات بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي .

وحدث تطور بالغ الخطورة بسبب اتفاقية التعويضـــات المعقودة بين المانيا الاتحاديـــة واسرائيل . فقبل هذا الحدث ، كان هنالك ميل ظـــاهر من جانب المملكة السعودية للتفاهم والتعاون في المجال الاقتصادي مع الحكومـــة الالمانية ، يكفل لها مصالحها فيما اذا وجد توازن فعلي مع الامتيـــازات الامريكية . وكان للاسعار والاعتبـــارات السياسية وبعض المشاريع الغير الناجحـــة التي انيطت بالشركات البريطانية ، اثرها الوقتي في اخراج التعاون البريطاني من الميدان .

وكانت الدائرة المالية التي يسيطر عليهـــا عبدالله السليمان وعائلته قد قطعت شوطاً بعيداً في طريق التفاهم مع عدة شركات المانية ، منها شركة فيليب هولتزمان المعروفة باسم شركة السكة الحديدية البرلينية البغدادية ، بخصوص عدد من المشاريع الهامة . ونشأت عند ذلك عقبة عقد المعاهدة . وكانت هذه الشركة المذكورة قد أعدت دراسات مستفيضـــة لتحسين مرفأ الدمام ، كما كانت آنذاك تقـــوم بدراسة مشاريع اخرى خاصة بالخطوط الحديدية والطرق . وعندما قررت الجامعة العربية مقاطعة المانيا تجارياً وصناعياً ، تجاوبت المملكة السعودية مع الجامعة في قرارها ، على الرغم من عدم اعتقادها بفائدته او فعاليته .

اما حكومة بون فقد صادقت على اتفاقية التعويضات مع اسرائيل ، واستطاعت

ان تخفف من نقمة العرب بالكلمات المعسولة والاستقبالات الباهرة التي كانت تحظى بها الوفود العربية الموفدة للاحتجاج لدى الحكومة الالمانية . وشيئاً فشيئاً بدا ان مقاطعة المانيا قد فقدت فعاليتها .

وفي نهاية سنة ١٩٥٢ ، كانت المملكة السعودية مرة اخرى تمد يدها للترحيب بالصناعيين والاطباء والطبيبات وغيرهم من اخصائيي الالمان . وكان بعض الوقت قد ضاع في اعداد المشاريع . الا انه كان امام الجزيرة العربية متسع من الوقت للوصول الى وضع ثابت من الاستقرار والتطور. لقد كان في بعض الامور كثير من العجلة وعدم الروية في معالجة مشاكل الحاضر والمستقبل. ولقد احدثت وفاة الملك توقفاً في نشاط الحكومة ، هذا النشاط الذي كان سيساعد الحكومة الجديدة على تقييم الوضع الذي ورثته عن الماضي ، وعلى أن تضع خططها للمستقبل ، واثقة من انها ستستقبل فترة طويلة من السلم والازدهار . فلم يكن هنالك اي ميل للصلح مع اسرائيل ولا يمكن ان يكون في المستقبل كذلك اي ميل للصلح او تسوية اية مشكلة ، سياسية كانت ام اقتصادية . فالقائمة السوداء التي تسجل فيها جميع الشركات اليهودية في جميع انحاء العالم والتي يمنع الاتجار معها منعاً باتاً في السعودية العربية قد وصلت الى نسبة مؤثرة . ومن غير المحتمل ان ينجح بن غوريون باخر اغنياته السلمية وبغصن الزيتون، في التخفيف من العداوة المريرة التي تفصل اسرائيل عن جيرانها العرب .

وبقطع النظر عن كون ابن سعود قد اختط لبلاده بشكل عام ، سياسة الود والتعاون مع الجامعة العربية منذ تأسيسها ، وفي جميع الامور ذات الاهمية الدولية العامة منها والخاصة بالنسبة للدول العربية مجتمعة ومنفردة ـ فانه يصعب علينا تقدير مدى اهتمامه ونشاطه في مثل هذه الامور خلال السنوات الاخيرة التي وجه اهتمامه فيها الى امور بلاده الداخلية . ففي كل الامور المتعلقة بالمحافظة على الامن والنظام والحقوق الشخصية والمخالفات والمشاريع التي تهمه بشكل خاص من مثل

بناء خط حديد الدمـــام ـ الرياض ، لم يتاخر ابن سعود عن ممارســة الاشراف الحاسم على ادارة شؤون البلاد ، بالرغم من جميع الاعتراضات التي قدمهــا الاقتصاديون الكثيرو الحذر . ويمكن الاعتراف الان دون الدخول في التفاصيل بانه كان مصيباً، وان له ما يبرره في الازدهار الاقتصادي المدهش الذي ترتع فيه المدن والمناطق المستفيدة من الخط الحديدي . اما في مجال مصالح البلاد المتعددة الانواع ، فقد اصبح قانعاً جداً بان يترك توجيه جميع الامور الخاصة بها ، لولي عهــده النشيط الذي ازداد قوة وطو"لاً في السنوات الاخيرة ، خصوصاً بعــد عودته من زيارته الطويلة للولايات المتحدة، واصبح عاملاً فعالاً في حكم البلاد. وقد كان ظل والده يلازمه فيرشده ويشجعه ويساعده في الازمات كما حد" الاشرار ومنعهم من القيام باي عمل شرير فكروا فيه . وكان واضحاً منذ سنوات عديدة قبل النهاية بان رمال السنين قد اوشكت على النهاية بالنسبة لرجل قضى حياتــه في الانتصار على الشدائد، و ليس بوسعــه الان ان يفعل شيئاً غير ان يرقب بقلق بالغ عميق، الغيوم السوداء التي اخذت تتجمع في افق العالم المضطرب والذي اصبح مستقبل بلاده المحبوبة منوطاً فيها بأيدٍ غير يديه : ايد تقل خبرة ومهارة الا انه دربها على المهنة التي ورثها عن اسلافه ومارسها بامتياز تام . وكان هنالك خطر وحيد لم يستطع خلال السنوات الخمسين من الجهد الكثير ان يطرد شبحــه وذلك باقناع اقدم اصدقائه انه مخلص في صداقته . ففي اقصى الجنوب الشرقي من بلاده تقع واحــة البريمي الصغيرة التي اجتذبت انظار البريطانيين الطامعين . فقد قضت حامية ابن سعود الصغيرة السيئة التسليح بقيــادة حاكمها المحلي تركي بن عطيشان قرابة الاثني عشر شهراً في حصار فرضته عليها بريطانيا مستخدمة في ذلك جميع فرسان الملكة ، تسندها الطائرات والمصفحات . وقد برز اسم البريمي في هذا الكتاب كوحدة من الدولة الوهابية، ولسنا نهدف في كتابنا هذا الى الدخول في تفاصيل النزاع الحالي الذي ما كان لينشأ لولا امكانية ظهور البترول في رمال تلك الصحراء . فالحكومة البريطانية تدعي ملكية المنطقة باسم سلطــان مسقط وشيخ ابو ظبي، فكلاهما يمتلك بساتين نخيل في الواحة، ولا خلاف بينهما وبين ابن

سعود في ملكيتها . اما الحقيقة التاريخية التي لا تقبل الشك فهي ان احداً منهما ما مارس السلطة والسيادة على الاراضي المتنازع عليها، كما يتضح ذلك من احدث مرجع موثوق في هذا الموضوع كنا اشرنا اليه في مقدمة هذا الكتاب. ومن المؤسف حقاً ان يكون السير ونستن تشرتشل ، بنفسه دون جميع الناس ، الداعي الى الاعتداء الذي لا مبرر له على رجل رحب به واستقبله في الايام الخوالي، كاعظم صديق في وقت الضيق خلال احلك ايام الحرب .

لقد اظلم هذا النزاع ايام الملك الشيخ . فقد عاش في عزلة وراحة في الرياض منذ اخر حج قام به ، تحت وطأة حر صيف مكة سنة ١٩٥١ . فلقد اخذت الشيخوخة وسوء الصحة تظهران عليه . فاضطر بسبب عاهة رُكبته أن يستعمل الكرسي ذا العجلات في انتقاله . واصر بقدر استطاعته على الاحتفاظ بالنظام الذي درسه ووضعه طوال حياته في امر الاتصال بمرؤوسيه في الوقت المعين . ولكنه قلما غادر دائرة قصر المربّع ، وان قضى جزءاً من صيف سنة ١٩٥٢ في قصر البديعه Al Badià ، قصر ولي العهد الريفي الواقع في وادي حنيفه . وكان آخر اعماله العامة العظيمة في الرياض ، ظهوره ليفتتح الخط الحديدي في تشرين الاول من سنة ١٩٥١، كما حضر بعض الحفلات الرسمية في الطائف ، في اواخر صيف سنة ١٩٥٣ . وكان قد سافر اليها في طائرة (سكاي ماستر) طائرته الخاصة لقضاء آخر شهور من حياته . وفي النصف من تشرين الاول اصيب بنوبة قلبية خطيرة احدثت قلقاً بالغاً بين صفوف شعبه. وتواردت عليه البرقيات الكثيرة التي يتمنى له مرسلوها فيها الشفاء . وكانت احداها مرسلة من ملكة انجلترا . وعندما شفي ، ألح على حضور الاجتماعات العامة المعتادة بنفسه ، وان كانت هذه قد حُددت واقتصرت على واحد بعد الظهر للاجتماع بابناء شعبه . غير ان عودة المرض اضطرته أن يلازم غرفته . وهناك في الساعة العاشرة والنصف صباحاً وفي التاسع من تشرين الثاني سنة ١٩٥٣ وفي حضور عدد من افراد عائلته الكبيرة اسلم الملك العظيم الروح . فقرئت الصلاة على روح الفقيد في عصر ذلك اليوم في مصلى الطائف الكبير بحضور جمهور عظيم من

الشعب المحزون . ونقل جثمانه الى الرياض على متن طائرة ، يرافقه الامير فيصل وبعض ابنائه . وفي تلك الأمسية بالذات وبعد قراءة الصلوات المعتـــادة على جثمانه ، دفن في الرياض ليخلد الى الراحة بجانب ابيه . لقد انتهى حكم عظيم .. وبانتهائه ينتهي تاريخ هذه الاعمال العظيمة والمنجزات الباهرة التي قامت بها هذه الاسرة المالكة العظيمة التي حكمت الجزيرة العربية خمسة قرون . ويبدو ان الحكم سيستتب لها اجيالاً عديدة اخرى . لقد قضى الملك العظيم نحبه ، ولكن اسمه سيظل خالداً على الدهر .



شكر وعرفان

اطلع أحد العلماء المؤرخين من أبناء نجد على هذه الترجمة والكتاب لا يزال تحت الطبع فآثر التفضل بتصويب بعض اسماء الامكنة والأعلام فيه .. اذ أنه لما كان المؤلف قد استعمل اللفظ باللهجة البدوية فقد صعُب ضبط ذلك بالحروف الافرنجيّة ، هذا علاوة على ان اسماء الامكنة هي دائماً عرضة للالتباس .. وإننا هنـا نعترف بأن الله وحده هو المنزّه عن التقصير ، كما نتقدم بمزيد الشكر لذلك الفاضل الجليل الذي لم يرد الاشارة الى اسمه تواضعاً ..

وهنالك اختلاف في «حرف التأنيث» في اسماء القرى ، في المصادر العربية ، وادخال ال التعريف على الاعلام . وسوف نذكر وجه الصواب .

قبائل البادية

بني ملحم : مَلْهَم
بني ظافر ، الظافر : الظفير
بـدو السمدة : الصُّمْدَة
آل ، عشيرة أسامة : العُصَمَة
بني ، قبائل كاثر . كثير
بني مرّة : مرّاة

المواقع

عشيقير : أشيْقِر
عثيثية : أثيثيّة
الحارق : الحريق
طنحة : تِنْهاة
بصل : بِسِلْ
الدخيلة : الداخلة
الفارعة : الفرْعة
كحفة : كهفة
صفوان : سفوان

الأعلام

أبي نعمى : أبي نُمَيّ ٦
مظهر بن ادريس : معضاد بن ريّس ٣١
البحوطي : البُهوتي ص ٣٢
الخالوطي : الخلْوتي ص ٣٢
رشيد الدربي : راشد الدريبي ص ٦٧
علي حزّان : أزّن ١٤٧
الحزّاني : المزّاني ١٥٥
العيضي : العايذي ١٧٣
هذلين : حثلين ١٨٦

فهرست الكتاب

دار الشمالي للطباعة

بيروت ـ شارع الصناعة الأول ـ الجميتاوي ـ تلفون : ٢٣٩٦٠٦

هذا الكتاب

ـ هـــذا الكتاب سجل حيّ لتاريخ أواسط الجزيرة العربية أربعة قرون ...

ـ يظهور دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب (السلفية) ومـــا لاقاه هذا الرجل الصالح من عَنت ٍ في سبيل دحض (بدع الجاهليّة) في أيامه ...

ـ وفي (الدرعيّة) أئتلفت السلطة الزمنية مع النقاء الروحي فصارت (هداية) وقامت (دولة) ،

ـ ثم تنازعتها عِبر الايّام ، فطمع بهـــا الطامعون ، وشقّت صفوفها الفرُقة .

ـ ولكنّ شخصية عظيمة من بيت رُبى « **نجـــد** » كانت تدور على مسرح التاريخ كل حين ، فتلهب رمـــال الصحراء بحماسها ... و تنهض الجزيرة ...

ـ كل هـــذا السفر الوافي دوّنه « **فيلبي** » ، المؤرخ المستقصي الذي قضى في « جزيرة العرب ٣٥ عامـــا » جاهدا فيه الوصول الى النزاهة والانصاف ...

منشورات المكتبة الأهلية - بيروت

الثمن: ٧٠٠ ق.ل.
٨٥٠ ق.س.

